

جيل كيبيل

الشفغف العربي

يوميات 2011-2013



Gilles Kepel

Passion arabe

Journal, 2011-2013

©Editions GALLIMARD, paris 2013

جيل كيبيل

الشفف العربي

يوميات 2011-2013

الكتاب: الشفخ العربى... يوميات 2011-2013

المؤلف: جيل كيل

ترجمة: رقية الكمالى

جداول

للنشر والترجمة والتوزيع

الحمرا - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول

هاتف: 00961 1 746638 - فاكس: 00961 1 746637

ص.ب: 5558 - شوران - بيروت - لبنان

e-mail: d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

مؤمنون بلا حدود

زنقة غابس - الرباط - المغرب

هاتف: 00212537730450

e-mail: info@mominoun.com

الطبعة الأولى

شباط / فبراير 2017

ISBN 978-614-418-286-4

جميع الحقوق محفوظة © جداول للنشر والترجمة والتوزيع

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L

caracas Str. - Al-Baraka Bldg.

P.O.Box: 5558-13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2017 Beirut

تصميم الغلاف، محمد ج. إبراهيم

المحتويات

7	مقدمة: دبي...مدينة الأحلام
11	الفصل الأول: إسرائيل. فلسطين
29	الفصل الثاني: مصر
77	الفصل الثالث: تونس
97	الفصل الرابع: ليبيا
125	الفصل الخامس: اليمن، سلطنة عمان
141	الفصل السادس: مصر 2
157	الفصل السابع: ليبيا 2
179	الفصل الثامن: تونس 2
211	الفصل التاسع: قطر
235	الفصل العاشر: البحرين
257	الفصل الحادي عشر: المملكة العربية السعودية
263	الفصل الثاني عشر: لبنان
291	الفصل الثالث عشر: اسطنبول
307	الفصل الرابع عشر: أنطاكيا، سورية

مقدمة

دبي...مدينة الأحلام

الاثنين 4 شباط / فبراير 2013

مدينة الحلم

لم يعد هناك مكان شاغر في عاصمة كل الأحلام العربية، ففي الوقت الذي أصبحت فيه الفنادق الفخمة في مصر وتونس خالية بسبب أحداث ثورة الربيع العربي وحيث اتخذ القناصة أماكنهم خلف نوافذ فنادق مدينة حلب السورية في الوقت عينه، نلاحظ في دبي انتشار المراكز التجارية المبرّدة والممتلئة بالمتسوقين من جميع أنحاء العالم بمناسبة مهرجان دبي للتسوق. الباعة في هذه المراكز هم من مختلف الجنسيات: سوريون، فلسطينيون، لبنانيون، مصريون، مغاربة، هنود، باكستانيون، بنغاليون، فلبينيون، صينيون، أفغان، ونيباليون. باستثناء الإيرانيين الذين بكتلتهم السكانية الكبيرة وبحضارة عمرها آلاف السنين يرخون بثقلهم على الخليج الفارسي الذي يتصارع العرب معهم على تسميته دون طائل.

كما في الإمبراطوريات الاستعمارية الغابرة، كل الإشارات هي ثنائية اللغة. ولكن الفارق من الآن وصاعداً أن العربية هي فوق الإنكليزية التي تُشكل (أي الإنكليزية) ترجمتها، فصمم مهندسو المدن الغربيون حاضرة من الزجاج والصُّلب تغرس مخالباها كل يوم بعيداً في الصحراء والبحر. ومن شرفة الفندق الذي أقيم فيه على شاطئ الجميرا، حيث يعانق المشهد جزيرة اصطناعية على شكل نخلة، تستطيع رؤية - كما يقال - شعار الهلال الكوني الذي يميز هذه المدينة العالمية على كوكب الأرض، (برج العرب)، البرج الأطول في العالم يقف عن يميني بقمّته المتجهة نحو السماء. نحو اليسار، وراء الأفق غير

المرئي، تقع دولة البحرين، حيث كبحت الحكومة جماح ثورة الشعب في 14 آذار/ مارس عام 2011م في غضون شهر من قيامها يومًا بعد يوم. خلفي تقع سورية التي لا يكثرث لأمرها أحد!

لقد رأيت للتو على مواقع «مشاركة الفيديو» على شبكة «الإنترنت» صور المجزرة في حلب التي قُتل فيها مئة شاب، رُبطت أيديهم خلف ظهورهم ثم أُطلق الرصاص في رؤوسهم وألقي بهم في نهر قويق^(*) المتصل بمياه المجاري.

رئيس اللجنة العسكرية لهذه المدينة العظيمة «حلب» الضاربة جذورها في فجر الخليفة إلى فجر الإنسانية، هو العقيد عبد الجبار العكيدي الفار من جيش بشار الأسد ليلتحق بالجيش السوري الحر. التقيته في مدينة أنطاكية بتاريخ 17 تشرين الأول/ أكتوبر عام 2012 في مقابلة طويلة وصف لي فيها ديمقراطية سورية المستقبل. كما شاهدته في مقطع فيديو نشر مؤخرًا مهمًا فيه النظام السوري بجريمة الحرب هذه وخلف ظهره آيتان من القرآن ﴿وَأَعْيَضُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّوا﴾^(**) و﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(***).

اجتذبت دبي، مستودع البضائع ومدينة التجارة لكل ما هو ممكن، بازدهارها اللامحدود والمفاجيء، لوقوعها بين ثلاث دول غنية ومنتجة للنفط، لكنها لا تتوافق مع مفهوم العولمة. بين المملكة العربية السعودية، والجمهورية الإسلامية الإيرانية حيث الصرامة والتشدد المماثل لكن بالنسخة الشيعية، والتي تعيش في صراع مع دول العالم قائم على التهديد النووي والحظر لتضمحل فيها الحياة يومًا بعد آخر، والدولة الثالثة هي العراق حيث الديكتاتور صدام حسين والاحتلال الأميركي والحرب الأهلية مزقا النسيج الاجتماعي. يأتي مواطنو هذه الدول – وأغلب الدول العربية – إلى دبي بحثًا عن العيش وغالبًا عن البقاء. ليتجروا وليستثمروا أو لبيدؤوا بتنفيذ مشاريع رائدة في تلك الأمستردام الاستوائية (دبي) هذه المدينة التي أنجبتها الرمال وأخصبتها دولارات النفط.

(*) نهر قويق أو نهر حلب هو الذي يخترق مدينة حلب شمال سورية، الذي سمي بعد مجزرة 29/ 7/ 2013 بنهر الشهداء.

(**) سورة آل عمران، الآية: 103.

(***) سورة الأنفال، الآية 60.

في صباح هذا اليوم، تلقيت دعوة من الجامعة الأميركية في مدينة الشارقة الإماراتية للحديث عن انقلابات العالم العربي، بدأت الرواية عن عامين مضياً تجولت خلالهما في كل الاتجاهات في هذا العالم الذي اجتاحتته الثورات، وأعيد النظر مرة أخيرة بعد أربعة عقود من الاغتراب والتنقل للذين ساهما في تشكيل شفغي كمستشرق عاشق، هذا الكتاب الذي أتممت كتابته في هذه المدينة النادرة التي حقق فيها العرب أحلامهم، إنها دمشق عشقهم.

قرأت رحلة فولتيريّ (*) إلى الشرق. يا للبشاعة.

كم هو شنيع الفكر في بلد الشمس!

صحيفة غونكورت 1864

(*) فولتيري: المقصود أحد المستشرقين المتأثرين بفولتير.

الفصل الأول

إسرائيل، فلسطين

الثلاثاء 15 آذار/مارس 2011

تلة «غولغوتا»- درب الصليب

أورشليم. أغانر الجامعة العبرية حيث أشارك في ندوة حول الربيع العربي ولأعود إلى كاتدرائية السيدة العذراء «نوتردام» التي يرفرف عليها علم الفاتيكان مقابل جدران المدينة القديمة. حيث ينبغي أن أقابل فيها صحافياً فلسطينياً للحديث معه عن سياسة إسرائيل في تقسيم الأراضي الفلسطينية التي تطوق البلدة العربية العتيقة وتعزلها تدريجياً لفصل الجزء السياحي من المدينة عن بيئتها الأصلية.

في الطريق، أسير بمحاذاة قطار الترامواي الآلي الذي سيدشن قريباً، حيث العربات الفارغة تأتي وتذهب، تقف وتغادر مرة أخرى. وهو لا يزال في مرحلة الاختبار، لاقى حملة انتقادات واسعة من الصحافة الدولية، نظرًا لأنه يربط البلدة القديمة ببقية الأحياء المنشأة حديثاً من جهة واحدة في الأراضي التي ضمتها الدولة العبرية بعد حرب الأيام الستة في حزيران/يونيو 1967.

بعد وصولي إلى المكان، تلقيت رسالة هاتفية من جهة الاتصال التي لن تستطيع موافاتي مفادها: «لا أستطيع ملاقاتك»، شبكة من قنوات التلفزة الأميركية الكبرى تعمل في حالة طارئة لتغطية أحداث اجتياح القوات المسلحة السعودية لدولة البحرين ذات الأغلبية الشيعية. الاعتداء حصل بالأمس، واضعاً بضرارة نهاية الربيع الثالث العربي الذي انطلق بعد الثورات في تونس ومصر وبإلهامهم.

تهيأت قبل ساعتين من مواعي القدام. اجتزت الجدار العازل عبر البوابة الجديدة

والتنقل للبحث عن دار الأرمن الكاثوليك الواقعة بالقرب من المحطة الثامنة على طريق الآلام درب الصليب الذي سار عليه المسيح قبل صلبه، هناك كانت إقامتي الأولى في أورشليم، قبل ما يقارب أربعين عامًا.

* * *

لقد مضى وقت طويل وأنا لم أتجول في البلدة القديمة، تائهاً بين أزقتها. حتى وجدت نفسي فجأة عند مدخل كنيسة القبر المقدس، بين محلات وأكشاك لبيع الهدايا التذكارية من قبل تجار الكنيسة، التي لا يمكن رؤيتها من الخارج حيث تحيط بها الأبنية العارضة والمتراصة بجوار بعضها البعض.

خلافًا للإسلام ومن ثم اليهودية المهيمنين اللذين مهدا آفاقًا واسعة لأماكنهم المقدسة سواء في المسجد الأقصى أو حائط المبكى، تحتفل المسيحية بعيد المسيح سرًا.

وهنا حيث صُلب السيد المسيح والذي ذبح منذ قرون، بسبب الشقاق الذي وقع بين الكهنة الكاثوليك والكهنة الأرثوذكس والرهبان الأقباط، أو الأرمن والقساوسة البروتستانت الذين تقاتلوا من أجل بضعة أمتار مربعة في الأرض المقدسة حيث كل طائفة دينية لها قدايسها وتاجر بشموع أعيادها وصور رجال الدين الأتقياء. ولوضع حدّ لهذه الخصومات المحلية، عهدت الإمبراطورية العثمانية بمفاتيح قبر المسيح إلى عائلة مسلمة معروفة وعريقة في مدينة القدس وهي عائلة آل نسيبة وهذه الثقة لا تزال قائمة منذ ذلك الحين.

لقد اكتشفت هذه الحقيقة التي أدهشتني من خلال قراءة كتاب عن أورشليم أثناء إقامتي الأولى فيها عندما كنت في العشرين من عمري، وشاءت الأقدار أن أتعرف على أبناء نسيبة الثلاثة الذين يملكون شخصيات رائعة «كاريزمية» غمرتني بلطفها ودماثة خلقها، أحدهم يترأس جامعة القدس العربية في أورشليم، أو القدس الشريف، الاسم العربي للمدينة، والآخر مستمع جيد ومحب لفرنسا وللفرنسيين، ويعمل مستشارًا ثقافيًا لأمير أبو ظبي، بينما يعمل الأخ الثالث مديرًا تنفيذيًا في شركة نفطية فرنسية متعددة الجنسيات.

توجّه المرشدة السياحية ذات اللكنة الأميركية مجموعتها السياحية إلى حائط الصخرة المشوب بالحمرة، وتقنعهم أن هذا اللون الأحمر تولّد من دم المسيح الذي سال على جمجمة آدم مطهرًا به سيد البشر (آدم) من خطاياها الأصلية - (calvas باللاتينية) من هنا

يأتي تعبير «calvaire» - درب الآلام، و(Golgotha) بالعبرية. ومن ثم قادت رعاياها المهتمدين ليحفوا مسابحهم وتوراتهم على شاهدة قبر السيد (المسيح). ذكريات مباركة حملها هؤلاء الحجاج السود والبيض - وأكثرهم يعانون من السممة المفرطة - الآتون من واشنطن كما تدل الشارة الضخمة في أعناقهم كي لا يضيعوا على شاهدة القبر. في قلب الساحة، نرى مثذنة مسجد صغير أنشأته السلطة الإسلامية العامة منذ الفتح العربي تؤذن لصلاة العصر بصوت عال عبر مكبر الصوت، اهتز الكرسي الذي أجلس عليه للتأمل براحتي في السيمونية^(*) العالمية.

* * *

التقيت ناحوم برنيع، كاتب المقال الافتتاحي للصحيفة العبرية يدعوت أحرونوت الإسرائيلية، في فرع مقهى رستوبار، الواقع تمامًا مقابل مقر إقامة رئيس الوزراء الإسرائيلي مباشرة، للحديث عن خيارات إسرائيل الاستراتيجية في ظل التحولات التي يمر بها الشرق الأوسط بعد أحداث الربيع العربي المفاجئة.

أمام البوابة، نصب والدا الجندي جلعاد شاليط، الذي اخطفته حماس في شهر حزيران/ يونيو عام 2006، خيمة حيث الحركة نشطة. في الساعة الحادية عشرة هذا الصباح، أوقف جميع الإسرائيليون أعمالهم وأنشطتهم لمدة خمس دقائق للتذكير بقضية المجند الرهينة والمطالبة بالإفراج عنه.

في الوقت نفسه، وبالصدفة، في غزة، والصفه الغربية، وبدرجة أقل في أورشلیم الشرقية، يتظاهر شباب فلسطينيون مطلقين صرخة تحولت إلى شعار سرعان ما انتشر في شبكات التواصل الاجتماعي على الشبكة العنكبوتية (الانترنت): «الشعب يريد إنهاء التقسيم»، المشابه لشعار الثورات العربية في تونس ومصر والبحرين «الشعب يريد إسقاط النظام» الذي يسعى إلى تحقيق هدفين: أولاً إنهاء الاحتلال الإسرائيلي الذي يتضمن إنهاء بناء الوحدات السكنية في المستوطنات التي عادت تتصدر عناوين الأخبار المحلية في فلسطين، وثانيًا رحيل أحزاب السلطة، حزب حماس في غزة وحزب فتح في رام الله،

(*) السيمونية: (الشرطونية) هي نيل أي درجة كهنوتية عن غير استحراق عن طريق الرشوة، وهي نسبة إلى سيمون الساحر الذي لما رأى أنه بوضع أيدي الرسل يعطي الروح القدس قدم لهما (لبطرس ويوحنا الرسولين) دراهم قانلا (أعطيانى أنا أيضًا هذا السلطان حتى إن من وضعت عليه يدي يقبل الروح القدس). فقال له بطرس: (لكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقنتي موهبة الله بدراهم ليس لك نصيب ولا قرعة في هذا الأمر لأن قلبك ليس مستقيمًا أمام الله).

المتهمين باستمرار التقسيم من حيث الموافقة على وجود فلسطينين لخدمة مصالحهما السياسية الخاصة بالإضافة إلى كونهما فاسدين وقمعيين.

في السابق، كان مقهى ريبستوبار يسمى بـ «مقهى اللحظة»، وفي تاريخ 9 آذار/ مارس عام 2002، في الساعة العاشرة والنصف مساءً، فجر أحد مجاهدي حماس حزامه الناسف في هذا المبنى الراقي والواقع في مكان استراتيجي في قلب السياسة الإسرائيلية، ولقد أسفر هذا التفجير، الذي اعتبر تحولاً كبيراً وحاسماً في الانتفاضة الفلسطينية الثانية، عن 11 قتيلًا و54 جريحًا.

الأربعاء 16 آذار/ مارس 2011

تأشيرة مرور إلى غزة

في الساعة التاسعة إلا خمس دقائق: تلقيت مكالمة هاتفية من دبلوماسي فرنسي شاب من القنصلية العامة في أورشلیم، الذي كان أحد طلابي فيما مضى، يخبرني فيها أن المخابرات الإسرائيلية «الشاباك» وافقت على اجتيازي محطة إيريز الحدودية للذهاب إلى قطاع غزة اليوم.

منذ خمسة عشر يومًا، ونحن نلعب «لعبة القط والفأر» للحصول على هذا الإذن الذي يسمى «تسقيًا» والذي يصل كالعادة في حال تمت الموافقة عليه في اللحظة الأخيرة تمامًا. في كل مرة أدعى لزيارة إسرائيل، أذهب أيضًا إلى الضفة الغربية وغزة، لكن ذلك يتطلب مني مفاوضات طويلة الأمد وحشد من الوسطاء للحصول على هذا الإذن.

خلال رحلتي السابقة، في العام 2009، بعد عملية «الرصاص المصبوب ضد حركة حماس، رُفض طلبٌ دخولي في آخر لحظة إلى الأراضي الفلسطينية التي تحولت بفعل قصف الطيران الإسرائيلي إلى خرائب وأنقاض. لا تريد سلطات الدولة العبرية أن يشاهد أكاديمي فرنسي مستعرب عينًا مناظر الدمار ومدى ضخامة الأضرار والخسائر. حذرني هذه المرة سفراء ونائب رئيس الوزراء ومسؤولون في الخدمات الخاصة سواء العاملين منهم أو المتقاعدين. باختصار لم يتبق لديّ إلا بضع ساعات لعبورها ومن ثم يجب علي أن أغادر فورًا.

زيارة الدولة العبرية منذ فترة طويلة، تثير الامتعاض من قبل جيلي من المستعربين المناهضين للصهيونية والمؤيدين للفلسطينيين، لأنها كانت طريقة لإثبات «الكيان الصهيوني» وخيانته القضية الفلسطينية. لقد تبنيت في مهنتي ممارسة مختلفة، بناء على ذلك يتوجب عليّ الذهاب إلى أي مكان والحديث مع الجميع، أذهب إلى إسرائيل، وعندما أكون هناك لا بد من السفر إلى الأراضي الفلسطينية، المسألة بالنسبة لي قضية مبدأً أو من بها.

منذ أكثر من ثلاثة عقود، ومنهجي في الحياة يرتكز على إثارة الإيديولوجيين على اختلاف مشاربهم، عمدًا، من المحيط إلى الخليج كما يقول العرب. أردّ على الذين يثيرون ضجة حول اعتناقني الإسلام، والذين يلصقون تهمة الكفر بشخصي ويتهموني باليهودية: تدبروا أمركم فيما بينكم!.

إن المستشرق المضطلع هو كالبهلوان الذي لا يقع في كل لحظة في فراغ الأحزاب ذات الطابع السياسي الحاد والمتشدد. والمستشرق أيضًا حيوان ذو دم بارد وجلد سميك، وهما شرطًا بقاء النوع في هذا الكون، هذا الهجين الغريب مهدد من قبل مفترس ماكر اسمه «المداح» فإذا كانت المدائح وعبارات الثناء قادمة من حزب خاص، فهذا يعني أنه يُقاد مثل أحمق ويعتريه الخلل، إنه باختصار: مُفخخ، مُرثس، هالك، مدانٌ أخلاقياً ومنهزٌ فكريًا.

* * *

بين رحلتي الأخيرة إلى أورشليم عام 2009 واليوم، تغيّر العالم العربي كثيرًا. بداية اشتعال ثورة «الربيع» أحدثت مجموعة من «النبوءات السلطوية» في لحظة حماس، عبارة استخدمها ماركس لوصف ثورات أوروبا عام 1848. بعد هذه الاستعارة المألوفة عن براغ عام 1968 التي يبدو فيها أن «ربيع شعوب أوروبا في عام 1848 هو الأكثر حضورًا مع الانتفاضات التي امتدت كبقعة زيت من بلد إلى آخر. في كلتا الحالتين، نسينا كالعادة، أن تحطيم الأفكار التقدمية أتى في السنة ذاتها، إمّا عن طريق غزو الدبابات الروسية، وإمّا سابقًا، عن طريق انتخاب لويس - نابليون بونابرت - نابليون الثالث المقبل - للرئاسة الفرنسية.

لكن ماذا يهم ففي تونس والقاهرة، يعبر الشباب عن أنفسهم من خلال شبكات

التواصل الاجتماعي الفاييسوك وتويتر، يتحدثون على ما يبدو الفرنسية أو الإنكليزية، يسقطون أنظمة الطغاة ليؤسسوا الديمقراطية هذه «ثورة 2.0» (أو ثورة الإنترنت) التي أعقبت أسامة بن لادن وانتشار الجهاد في كل مكان، إنه العالم الشامل حيث المستعربون في سلة المهملات والمستشرقون متقاعدون.

في خضم هذه النشوة العامة، لا أحد يبدو مستعدًا للفت الانتباه إلى الأحداث التي وقعت أول من أمس يوم الاثنين 14: في ثالث دولة تصل إليها شعلة الربيع العربي، إنها البحرين، حيث أخدمت الدبابات السعودية هذه الشعلة باكراً، بعد شهر واحد من انطلاقتها. تصرف الثورة المضادة بعجلة منذ أن بدأت تهدد النفط والعروبة والمذهب السني.

بالانتقال إلى غزة، وتصاعد الصراع العربي الإسرائيلي بفضل قوة النفوذ الإيراني لاسيما بعد وصول حركة حماس، المؤيد من طهران، إلى السلطة في شهر حزيران/ يونيو عام 2007، أريد حقاً رؤية تأثير أجواء الربيع العربي على التغييرات الفلسطينية.

* * *

هذه هي المرة الثالثة التي أعبّر فيها من إسرائيل إلى قطاع غزة، كنت قد ذهبت إلى هناك للمرة الأولى في عام 2004، لزيارة المكان الذي حوَصر فيه ياسر عرفات في مدينة رام الله حيث كان يمارس كيفما كان إمبراطوريته كرئيس على قطعتين من أرض فلسطين. بعد الانتفاضة الثانية عام 2000 وتسلل القنابل البشرية نحو الدولة العبرية، كانت الإجراءات الرقابية على الحدود تُتمُّ بطريقة حرفية فيما لو قارناها بالتحقيق الاستعلامي الصارم بعد تسلم حركة حماس مقاليد السلطة في شهر حزيران/ يونيو عام 2007.

يذكرني الانغلاق اللامحدود والهوة السحيقة بين الدولتين بالجدار الحديدي القديم الذي كنت أجتازه طفلاً مع والدي لزيارة أبناء عمومة أبي في مدينة براغ في الزمن الذي ترجمت فيه مسرحيات للكاتب المسرحي المنشق والمعروف قليلاً «فاتسلاف هافيل»: الجدران الخرسانية نفسها، أبراج المراقبة نفسها والأسلاك الشائكة والحقول المحروثة نفسها. لكن الفرق أن سكان براغ الأصليين حبستهم الشيوعية خلف هذه الحدود لمنعهم من الهرب باتجاه الغرب، في حين أن إسرائيل تسجن مليون ونصف المليون فلسطيني في هذا الغيتو الذي يعزلهم عن القرن الواحد والعشرين.

كل شيء متقن ومحكم في معبر إيريز الحدودي بين غزة وإسرائيل لمنع أي هجوم إرهابي، هجوم انتحاري أو أبطال متعطين للقيام بعمليات استشهادية من وجهة نظرهم. مقابل هذا السلاح الثابت لمقاتل مستعدٍ للتضحية بنفسه، ربحت الخرسانة وأجهزة المراقبة الإلكترونية حرب الاستنزاف. هذه الحرب بين غزة وإسرائيل حيث الخطر أعظم وأكبر من ضبط معبر إيريز الأكثر رعبًا والذي يترك تأثيرًا سيئًا في النفس.

بعد مفاوضات، تم الحصول على موافقة السلطات الإسرائيلية - التي بدونها يحق لحرس الحدود إطلاق النار على أي عابر يخاطر بنفسه على حين غفلة - سرتُ على الأقدام ما لا يقل عن كيلو متر واحد في ممر مسيح بالأسلاك الشائكة ومراقب بالكاميرات في كل خطوة. اجتزت هذه المسافة وحيدًا، لا أحد يحوم حولي في الأفق، في هذه الأرض التي ليست لأحد، حيث الثعابين والسحالي هي الكائنات الحية النادرة التي ستلتقيها، وحيث صوت الحشرات يخفف من ثقل الصمت من وقت إلى آخر. وبمجرد عبور الأبواب المعدنية الآلية الضيقة والثقيلة المجهزة بمزلاق في الجدار الخرساني، حيث يعهد بمهمة تفتيش الأمتعة لموظف فلسطيني قليل الكلام ومتحفظ، يعمل لوحده في المكان، ويعتبر ضحية أخيرة محتملة لأي قنبلة بشرية من شأنها إن وصلت إلى هنا أن تخرق جميع الحواجز.

بعد اجتياز جهاز الماسح الضوئي للجسم، الذراعان مرفوعتان والساقان متباعدتان للتعلم في التفتيش والتأكد من عدم وجود أية موانع، تلتقي بالموظف الإسرائيلي الأول بلحمه وشحمه! أمام شبك جوازات السفر في بناء على شكل مطار ضخم لعدد قليل من المسافرين المستفيدين من جوازات مرور صادرة بالقطارة.

«الشعب يريد إنهاء التقسيم»

فيما مضى، على الحدود النمساوية التشيكوسلوفاكية، كان التناقض مُدانًا من قبل الشرفات المزدانة بالزهور في العالم الحر والمواجهة للمباني الكثيرة الرمادية ودون تمهيد للاشتركية الحقيقية. في معبر إيريز، تغادر الطرق السريعة المستقيمة ذات النمط الكاليفورني، والمزروعة بنخيل الزينة من منطقة عسقلان، المدينة الإسرائيلية الأخيرة، نحو شريط متعرج ومحفور من قطران يؤدي إلى مشروع الأحياء السكنية المزري في بلدة بيت حانون. وفي أحد المنعطفات، انحرف السائق التابع للمركز الثقافي الفرنسي

في غزة قليلاً، حيث أشارك في مؤتمر يقام هذا المساء فيه والذي جاء إلى نقطة التفتيش من الجانب الفلسطيني لأخذي من هناك ومن ثم إيصالي إلى المركز، لتجنب جثة ضخمة لحصان أشقر، متروكة في وسط الطريق، حيث بدأ اثنان من الكلاب الهزيلة بأكلها.

تجول الجحاش بوبرها المتسخ التتن، في كل مكان، لأن العربات التي تجرها الحمير تعوّض النقص في الوقود. قال لي السائق: «لا يعمل البنزين المصري إلا مع المحركات القوية أو الرديئة النوع». الأمر متعلق براءة نوعية الوقود المصري الذي يمرّ من خلال أنفاق التهريب تحت الحدود المصرية، في رفح، لقد عطلت الاضطرابات الثورية في وادي النيل إمدادات الوقود، الأمر الذي استوجب الوقوف على خط الانتظار في محطات الوقود.

يسير السلفيون، ذوو اللحى الكثة مرتدين الجلابية التي تكشف الكاحلين، على جانب الطريق، برفقة نسائهم المبرعات^(*). ها نحن ندخل مدينة زايد، التي هي أنظف وبنائوها أفضل من أي مكان آخر، بُنيت بتمويل من الشيخ المتوفى الذي تحمل اسمه، زايد بن سلطان آل نهيان، أول رئيس لدولة الإمارات العربية المتحدة، إنها مدينة ألعاب أنيقة لأطفال كوادر حماس. لقد غادر معظم قادة الحركة الإسلامية، الذين كان من المفترض أن ألقبهم بالأمس، إلى تركيا لحضور اجتماع سري لمختلف المسؤولين في جماعة الإخوان المسلمين في الشرق الأوسط. هذه الجماعة التي أخذتها الثورات الديمقراطية على حين غرة بدأت بصقل استراتيجيتها لمحاولة استعادة الحركة، وذلك، كما أعتقد، بالتنسيق مع الجهات الإقليمية الراحبة لهم، لقد وقعت مواعيدي لمقابلتهم في المساء.

في عام 2007، قابلت رئيس وزراء حماس، إسماعيل هنية، وكبار القادة في المكتب السياسي ومن ضمنهم المستشار السري محمود الزهار. في الواقع، لقد حظيت بمعاملة خاصة لأنني تعرفت إليه - أي المستشار - سابقاً في واشنطن كمستشار لرئيس الوزراء عندما كان في منفاه في الولايات المتحدة الأميركية، حيث ضمن له ذلك التواصل مع مؤسسات الفكر المحلية. لقد كان الزهار أحد قراء الكتاب الذي ألفتته عن جماعة الإخوان المسلمين المصرية، في ثمانينيات القرن الماضي، الذي امتدح فيه - وذلك أثار قلقي - صفتهم الموضوعية. خففت حكومة القاهرة الجديدة فجأة من الضغط على حدودها مع

(*) البرقع: بربعت المرأة وجهها؛ غطته بالبرقع وهو النقاب.

غزة، ولم تضع القيود نفسها التي كانت في عهد مبارك على جماعة الملتحين، وهذا ما يفسر المغادرة المفاجئة لشركائي المحتملين في الحوار. جميع أولئك الذين استفادوا من التنفس قليلاً بعيداً عن غزة حيث أغلبيتهم لم يستطع الخروج منها منذ عام 2007.

قامت بحولة في المؤسسة الفكرية التابعة لحركة حماس «بيت الحكمة» التي استوحت اسمها من المؤسسة العلمية لمدينة بغداد العباسية في العصور الوسطى. أذهلني استعداد المشاركين في اجتماع الطاولة المستديرة للحديث عن الانتفاضات الحالية في الدول العربية - الذي يصّر الكثير منهم على استقلالية الحضور- لإظهار انفتاحهم الفكري الديمقراطي في ظل التحول السياسي بعد إسقاط الأنظمة الاستبدادية في تونس ومصر. منذ قليل من الوقت ولدى جماعة الإخوان كانت الديمقراطية مرادفة للكفر لأنها تعطي السيادة للشعب المعرض للخطأ بدلاً من الله المعصوم عن الضلال والخطأ.

في قاعة الاجتماع، علّقت لوحة رسم يابانية تعبر عن دعمها للتعبئة ضد تقسيم الأراضي الفلسطينية الذي يقام منذ يومين في الضفة الغربية وقطاع غزة بمبادرة من منظمات المجتمع المدني التي تريد اصطیاد عصفورين بحجر واحد: مقاومة الاحتلال الإسرائيلي وزعزعة الوصاية الرقابية الثقيلة لأجهزة فتح في الضفة الغربية، وحماس في قطاع غزة.

هنا حيث تدوي صرخة من تونس إلى القاهرة ومن اليمن إلى البحرين: «الشعب يريد إسقاط النظام»، يتردد صداها إلى الضفة الغربية وقطاع غزة اللتين لم يعد هناك شيء يربط بينهما منذ شهر حزيران/يونيو عام 2007، «الشعب يريد إنهاء التقسيم»، ولمواجهة هذه المبادرة الشعبية، وصل رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس هذا الصباح إلى غزة قادماً من رام الله، لمقابلة خصمه، إسماعيل هنية «رئيس وزراء حماس» مقترحاً عليه العودة إلى العصابة من الغد (هذا المصطلح العربي الذي قد يعني «المستقبل المجهول») لاستعادة الوحدة الوطنية الفلسطينية، الأمر الذي وافقت عليه حماس ورحبت به، على أرض الواقع، لم يحدث ذلك أبداً. أدمنت حركتنا فتح وحماس، اللتان يتنازع الشباب حول أحقية كل منهما بالسلطة، نوعاً من لعبة كرة الطاولة، يتبادلان فيها الكرة بينهما دون وقت محدد تنتهي فيه المباراة.

يُعدُّ المركز الثقافي الفرنسي في غزة المؤسسة الأجنبية الوحيدة من نوعها في الأراضي الفلسطينية، بل هو مكان للتسامح القِيم حيث يجتمع الشباب والمثقفون، إنه نافذة على العالم لأولئك الذين تحاصرهم أسوار يصعب عبورها، وبحر يناصبهم العداء، ورجال ملتحنون يسعون جاهدين للحدّ من حرية التعبير في جميع الفضاءات.

في هذا النقاش الناطق بالعربية، الذي يجب عليّ افتتاحه، للحديث عن ثورات المنطقة، بمشاركة أكاديميين وطلاب وناشطين في مجال حقوق الإنسان، يملؤهم الأمل بغد مشرق لكنهم لا يعرفون كيف يمكنهم ترجمة هذا الأمل، في غزة الممزقة بين إسرائيل وإيران وحماس وفتح ومصر، العاصفة الكبرى التي هبّت على القارة العربية. وأثناء ذلك، تخيلت تلك الأمسيات الشعرية في معهد غوته في طهران خلال الأشهر التي سبقت سقوط النشاه، في نهاية عام 1977، هذا الشعور غير المألوف والقدرة على التعبير عن النفس من دون أن تدوسك نعال وشرطة النظام، قبل أن تحكم ميليشيات الجمهورية الإسلامية قبضتها على إيران.

«راب العصابات» في غزة

ألغني موعدي مع وزير من حماس في الدقيقة الأخيرة، لأسباب أمنية قامت البحرية الإسرائيلية بتفتيش فيكتوريا، وهي سفينة شحن محملة بالأسلحة بعد أن أبحرت من تركيا إلى مصر: وقد وجد على متنها شحنات من الأسلحة الإيرانية المشتبه بإرسالها إلى الحزب الإسلامي «حركة حماس» عبر شبكات التهريب البدوية في شبه جزيرة سيناء المصرية. بعد سقوط نظام مبارك، قَلت الحركة في الأنفاق المنتشرة على طول الحدود بين غزة ومصر، ويُشاع أن الضباط المصريين - وهي الرتبة التي انتشر فيها الفساد بسهولة لأنه لم يعد يوجد قيادة سياسية قادرة على فرض السيطرة على الحدود- أصبحوا أثرى نتيجة سماحهم بمرور كميات كبيرة من البضائع إلى قطاع غزة علاوة على تكديسها في المخازن بخلاف الوضع عام 2007 حيث لم يكن يوجد شيء فيها.

استفاد الإيرانيون من فوضى الأنفاق لتهريب أسلحة بالستية على هيئة قطع غيار لأنهم يأملون أن تشكل تهديداً لأمن تل أبيب يوماً ما. على سبيل الانتقام، أطلقت إسرائيل صواريخ باتجاه غزة أسفرت عن مقتل شخصين مساءً، وأثناء هذا الاستنفار، لجأ القادة الإسلاميون إلى مخابى سرية وانقطع الاتصال بهم.

يعرف خالد وأيمن بنفسيهما كمغنيي راب، تناولت معهما العشاء في مطعم بين دخان الرجيلة ورائحة الشاي بالنعناع، حيث منعت حماس بيع الكحول كما هو الحال في إيران والكويت والمملكة العربية السعودية. وأمام جهاز الحاسوب المحمول، يجلس خالد وأيمن لتصفح موقع www.myspace.com/palrapperz، الذي يحتوي على معظم أغانيهما. يدل مظهرهما الذي يعبر عن راب العصابات «الغانغستا راب» على المظهر الإسلامي للبعض واللباس الأوروبي الحزين الرخيص للبعض الآخر، لكن هل اللباس الرياضي في الجزء العلوي للجسم مع غطاء للرأس، وينظون متدلٍ إلى الأسفل من الخلف، مختلف تمامًا عن البرنس والسروال التقليدي العربي؟

نستمع إلى قصيدة «slam» أي «الصفعة» باللهجة الفلسطينية بعنوان «لما كنت صغيراً» بصوت خالد، التي تتحدث عن أحلام الطفولة المحطمة والأجنحة الوهمية التي جعلتهم يهربون من السجن الإسرائيلي وضرب الملتحين لهم بالهراوة ليحلقوا فوق الأسلاك الشائكة.

خلف ألحانهم القاسية، يظهر خالد وأيمن بأخلاق متحضرة ونظرات ملائكية، كما لو أن الموسيقى وهبتها قوة داخلية تمكنهما من التغلب على أية محنة. يذكراني هذان الشبان بمؤلف ومغني الراب الفرنسي فابيان مارسو المعروف باسم «Grand Corps Malade» أي «الجسد الكبير المريض» والمولود في مقاطعة سان دنييس الفرنسية بتاريخ 3/9 حيث أقمت فيها مؤخرًا لمدة عام لأهداف بحثية، والأمر نفسه ينطبق على مغني الراب في تونس ومصر بل حتى في شبه الجزيرة العربية الذين ابتكروا قصيدة غنائية عالمية نابعة من ثورات الديمقراطية العربية المرتبطة بشبكة الإنترنت. في الخريف الماضي، أغلقت حماس مركز «شارك» الثقافي، المساحة الثقافية التي أنجبت خالد وأيمن لتصبح شبكة الويب المسرح الذي يطلان من خلاله على العالم بأسره.

وعبر شاشة هاتفهما المحمول، أطلعاني على صور تظاهرات الأمس، وضربيهما بالعصي في التجمع الطلابي في الجامعة صباح اليوم، حظر وقمع في منتهى القسوة، وهذه إحدى أغنياتها:

«جاءت ميليشيات حماس بعلمها الأخضر... بينما كلمة الأمر كانت أن لا يحملوا إلا العلم الفلسطيني. فجأة، جاء أنصار حركة فتح وأخرجوا أعلامهم المختبأة. لا ترون في

الشوارع، إلاً أعلام حماس وحزب الله - حلفاء إيران - وأعلام الجماعات الفلسطينية اليسارية المتحالفة مع حماس لأنها ضد أميركا التي تدعم حركة فتح ومحمود عباس. عندما رأى «الخصر» - ميليشيات حماس - ذلك، انهالوا عليهم -أي على أنصار فتح- ضربًا بالعصي: لقد كانت المرة الأولى منذ توليهم السلطة في عام 2007 التي تجرؤوا فيها على التظاهر ضد نظامهم! ولكن الأمر قد انتهى، لم يعودوا قادرين على التصرف كما من قبل - إلا إذا هاجمهم إسرائيل مرة أخرى... نحن بين سندان الإسلاموي ومطرقة الصهيوني. ولا تتوقعوا أن تتحدث قناة الجزيرة عن مشاكلنا: لأن مديرها العام، وضاح خنفر، عضو في حماس!

الخميس 17 آذار/مارس 2011

لقاء المدونين

رام الله: في المكاتب الجديدة لرئاسة الوزراء الفلسطينية الممولة من دافعي الضرائب في الاتحاد الأوروبي. رئيس وزراء السلطة، سلام فياض، يسخر مازحًا من لغتي العربية. في عالم كبار الموظفين الدوليين، حيث كان موظفًا سابقًا في منظمات النقد الدولية، لم يعتد فياض على معايشة أوروبي يتحدث بلغة أخرى غير لغة الأرقام. في الليلة الماضية، أراد مغنيا الراب في غزة معرفة فيما إذا كنت سألتقيه في رام الله، وكان جوابي: نعم، فطلبنا مني أن أقول له إنهما يؤيدان عمله: «إنه يختلف عن الآخرين، إنه يحمل آمالنا». إنه غير محبوب من قبل الموالين لفتح، ولم يعامله حلفاء حماس بأكثر من ذلك، إلا أنه يجب أن يتصالحوا معه، ما دام المجتمع الدولي يفرضه عليهم ويمنحه الثقة. رئيس الوزراء اللانموذجي، الذي لا تدعمه جماعات منظمة من الناخبين المؤيدين له، وجد نفسه متحدًا في تناغم تام مع الشباب في ميدان التحرير. شارك في برنامج مرتديًا ملابس غير رسمية، وعبر عن تأييده للمتظاهرين المطالبين بوضع حد لتقسيم فلسطين، موضحًا أنه سأل أطفاله ماذا يلبس، وهي الفكرة التي لا تخطر ببال الساسة القوميين والإسلاميين على حد سواء والمؤمنين بالنظام التسلسلي للأجيال وسلطتهم على الأصغر سنًا. من وجهة نظر مهندس الاعتراف بالدولة الفلسطينية عبر هيئة الأمم المتحدة: إن السلام لن يسود إلا إذا رجعت فلسطين الموحدة - لذا اقترح تشكيل وحدة وطنية تضم ممثلين عن حماس، لإجراء انتخابات جديدة - والمعترف بها من قبل منظمة الأمم المتحدة.

لكن حماس، التي لا تستطيع الرفض خوفاً من أن توضع في مكان وكأنها تلعب على القواسم المشتركة، لا تريد أن تواجه صناديق الاقتراع. عبّرت أكثريتها في انتخابات عام 2005 عن رفضها لفساد حركة فتح أكثر من الانضمام إلى الدولة الإسلامية وتطبيق الشريعة. بعد ست سنوات، تنكّر الحزب الإسلامي لهذا الدعم لتواجه الرفض نفسه الذي استفادت منه في الماضي للوصول إلى الحكم، خصوصاً رفض الناس الذين عانوا من استبدادهم في غزة. أما بالنسبة لحركة فتح، فلم يكن حكمها الأفضل على الإطلاق. وجد فياض نفسه ثانية وحيداً في مواجهة مع التماسيح المُستة في الأجهزة الفلسطينية وكذلك «الطفل» نتياهو، الذي يخشى من دولة فلسطينية معترف بها من شأنها إضعاف موقف إسرائيل. لم يبق له - أي فياض - سوى الشباب. ولكن الأمر هنا كما هو الحال في أماكن أخرى من العالم العربي، حيث انقسام جيل مستخدمي الإنترنت وانعدام خبرتهم وقلة اطلاعهم على الاستراتيجيات الواقعية السياسية.

* * *

لديّ موعد مع مدوّنة، أسميتها «كاميليا»، عند غروب الشمس في ميدان المنارة حيث تقام كل مساء منذ 15 آذار/ مارس تظاهرات، واعتصامات، وإضرابات عن الطعام، وكل مجموعة العصيان المدني، ومجموعة ما بعد الحداثة يتواصلون عبر وسائل اتصال شرهة. في أحد جوانب هذا الميدان الصغير، صرخ بضع مئات من الشباب دون اقتناع تام بمطالبهم، يحيط بهم طوق من الجنود المتسامحين يمسك كل منهم يد الآخر لعزلهم عن حركة المرور. ولكن ليس هناك أي صحافي ظاهر للعيان. هنا، على النقيض لما حدث في غزة، لم تحقق الحشود نجاحاً يذكر. اتخذت كاميليا وبقية مستخدمي الإنترنت الثوريين مقهى «ستارس أند باكس» مقراً لاجتماعاتهم، ملجأ «ستارس باكس» يحاول إعادة تشكيل المجموعة بأقل الوسائل الممكنة، في أجواء ودية على الكراسي الجلدية من تصميم العلامة التجارية الشهيرة «سياتل». إن ثمة زاوية أخرى لجيل السبعينيات، فتلك الفتيات الجميلات اللواتي يبعدن عني ثلاثة عقود تامة، تجعلني أعوص ثانية في أجواء مقاهي الحي اللاتيني في باريس.

فتاة من منظمة «PLO»، منظمة التحرير الفلسطينية، ولدت ونشأت في المنفى، عادت كاميليا إلى فلسطين بعد اتفاق أوسلو. هي طالبة في لندن، وموظفة في منظمة غير حكومية

وأنت من أورشليم في سيارتها الخاصة، (لا يسمح لسكان الضفة الغربية بعبور الفاصل الحدودي مع إسرائيل، خلافاً لسكان أورشليم العرب)، الفتاة الثائرة ذات العينين اللوزيتين تشرح لي كيف يسير العمل الجماعي عبر تعبئة الحشود. الحديث ينقطع بكثرة المكالمات المتواصلة على هاتفها المحمول الذي أخرجه من حقيبتها الصغيرة ذات اللون الوردي، لم يخطر ببالها التكلم معي بلغة سوى اللغة الإنكليزية التي تتحدث بها بطلاقة مثل أي شابة بريطانية أصيلة، تقول كاميليا:

«كل شيء يحدث في شبكة التواصل الاجتماعي «الفايسبوك» حيث يجتمع المشرفون من كل مجموعة من الأصدقاء كلجنة تنسيق تتولى اتخاذ القرارات اليومية التي يجب القيام بها. على شبكة الإنترنت يبدو أن كل الناس قد تحركوا. أما النزول إلى الشارع فمسألة أخرى».

تحمست عندما أخبرتها أن تظاهرات غزة أقوى بكثير من تظاهرات رام الله، وحين أحدثها عن مشروع الاعتراف بالدولة الفلسطينية، ترفضه وتراه وهمًا وتعبر عن اختلافها مع سلام فياض. من وجهة نظرها، لا يمكن أن يكون هناك إلا دولة واحدة فقط حيث يعيش اليهود والعرب معاً. للحظة وجدت أوهام وحلم شبابي يتجسد أمامي في روح كاميليا عندما كنا ننظر في ميدان سان ميشيل في باريس للمطالبة بـ«دولة علمانية وديمقراطية في فلسطين» ولكن المياه تدفقت تحت جسور نهر السين ونهر الأردن بما لا تشتهي السفن، تابع كاميليا: معظم اليهود لا تربطهم أية علاقة بإسرائيل ومستعدون لمغادرتها حالما تصبح دولة واحدة ذات أغلبية عربية وفقاً لتقديرات اختلال التوازن الديموغرافي.

* * *

في أورشليم، الأحد الماضي، حضر خمسة وعشرون ألف شخص مراسم عزاء شيفا أو «طقوس الحداد» لخمسة أفراد من عائلة فوغل - الأبوين وثلاثة من الأطفال الستة - طعنوا حتى الموت يوم الجمعة الماضي في مستوطنة إيتمار قرب نابلس، في الضفة الغربية، وليست ببعيدة أيضاً عن رام الله، أربعة من القتلى، الأم والأطفال يحملون الجنسية الفرنسية، لذا حضر قنصل فرنسا العام الجنازة ووقف السفير إلى جوار جد الأطفال لأمرهم، وهو حاخام محافظ.

صور المجزرة التي استعمل فيها السلاح الأبيض لا تحتل، خاصة صور الرضيفة

ذات الثلاثة أشهر. نشرت حكومة بنيامين نتنياهو هذه الصور في جميع أنحاء العالم لإثارة الشفقة والسماح للدولة العبرية، وفقاً لصحيفة جيزوزاليم بوست، بترجيح كفة الميزان لصالحها لكسب تعاطف الرأي العام الدولي. إن الأمر يتعلق بتحويل مشاعر الاستياء ضد إسرائيل وجيشها منذ بث صور قتل الطفل الفلسطيني محمد الدرة، بالرصاص في غزة في 30 أيلول/ سبتمبر لعام 2000، في بداية الانتفاضة الثانية.

وصادف انعقاد المؤتمر السنوي للجامعة العبرية في أورشليم حول أوضاع الشرق الأوسط، أن دعيت لإلقاء كلمة الافتتاح يوم الاثنين، اليوم التالي لعزاء شيفا، وكنت قد وعدت بفعل ذلك ضمن الجلسة المخصصة للعمليات الانتحارية والإرهاب، بدلاً من ذلك لاقت جلسة مصر النجاح الأكبر، وقد قيل فيها: «صباح الخير، مصر الجديدة»، وقد أعرب فيها الزملاء الإسرائيليون عن «تفاؤلهم الحذر».

شهد المقدسيون الأكاديميون العائدون من القاهرة، بأعينهم، الطابع المصري المحض للثورة الديمقراطية، حيث لم تتفوق شعارات القومية العربية أو شعارات الإسلاميين الذين توعدوا إسرائيل بالإبادة. كما أحضروا من القاهرة ملصقاً على شكل لوحة ترخيص رسمية عوضاً عن الرقم المعدني مكتوباً عليها باللغتين العربية والإنكليزية «مصر 25- كانون الثاني/ يناير» تكريماً للتظاهرة الكبيرة في ميدان التحرير التي منحت اسمها لهذا التحرك وغيرت قدر البلاد.

عقب انتهاء المؤتمر استقبلني دان مريدور، نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي، الذي يعتبر مفكر الائتلاف الحكومي. وخلافاً للصرق «افيغدور ليرمان» وزير الخارجية هو لا يملك مجموعة من نواب الكنيست ولو بنسبة بسيطة مثل فياض في رام الله من نواب البرلمان الإسرائيلي «الكنيست»، يرى مريدور أن شعارات الثوار من أجل الديمقراطية المنشودة في تونس والقاهرة لا تتأتى من لغة الخطاب الإسلامي، ويقول:

«معظمنا يستطيع التماهي معها - أي الشعارات-. لقد سقطت الأنظمة العربية بعنف أقل مما أوضح الدور الجديد للقوة الناعمة في المنطقة. غير أن إسرائيل، في هذا المجال، متأخرة ولم تتمكن من التقدم إلى الأمام، لأنها محمية عبر جدرانها وحواجزها الأمنية، وأيضاً تفوقها العسكري، لكن مجزرة أيتمار والنتائج غير الواضحة للحرب ضد حزب الله في عام 2006 وضد حركة حماس في عام 2009، تذكرنا بهشاشة الوضع الأمني الإسرائيلي».

الجمعة 18 آذار/مارس 2011

عيد تل أبيب «بوريم» - وبداية الثورة السورية

بما أن اليوم إجازة، تناولت وجبة الإفطار صبيحة هذا اليوم في رام الله بصحبة صديقة فلسطينية، والدها كان زعيم منظمة التحرير الفلسطينية «أبو جهاد» مؤسس حركة فتح ورفيق ياسر عرفات، اغتاله جهاز الاستخبارات الإسرائيلي «الموساد» في تونس عام 1988. كنت قد عرفته عندما كنت مقرراً في لجنة تحكيم أطروحته في جنيف قبل عقد من الزمان، وبعد ذلك بسنوات، أشرفت على قبول ابنته في قسم الدراسات الشرق أوسطية والمتوسطة في معهد الدراسات السياسية الذي أسسته في مدينة مانتون الفرنسية، وحالياً استبعدت منه بقرار إداري.

مساء هذا اليوم، سأذهب إلى تل أبيب للاحتفال بعيد البوريم مع زميلة من معهد العلوم السياسية التي تأمل أن تجد فيه هويتها اليهودية وتعززها. لا أعتقد أن هؤلاء الناس استطاعوا الامتزاج مع تراب الأرض المقدسة، لا أحد يتجاوز الحدود وأخيراً، المستشرق غير اليهودي والكافر «غير عبراني، كافر»، هو الوحيد القادر على التحدث إلى الجميع والتجول في كل مكان.

وقت الغداء، أشاهد القنوات التلفزيونية العربية في الفندق: يوجد حوالي 600 قناة، وهي تتراوح ما بين الدردشة التلفزيونية، والوعظ الديني، إلى تلاوات من القرآن الكريم ومجموعة أغانٍ من المنوعات المحلية أو الأميركية المدبلجة، ومن ممثلات عاريات يستخدمن إبر البوتوكس وصبغات البروكسيد، إلى مذيعات محجبات ومن ملتحنين بعمائم إلى مستهترين بشعر أملس.

لا تُظهر قناة الجزيرة إلا المناطق الليبية المتحررة من قبضة القذافي حيث يرفرف العلم الفرنسي في بنغازي بالقرب من العلم القديم للملك محمد إدريس الأول، الذي انقلب عليه القذافي وأطاح بحكمه في عام 1969. وعند مشاهدة القناة الوطنية الليبية من طرابلس، تعتقد أنك تشاهد العراق قبل سقوط صدام حسين: القذارة اللفظية نفسها، والوسطاء أنفسهم الذين يكيلون المدائح ويسبحون بحمد العقيد القائد القذافي صاحب الخطابات التهريجية.

تضمن القناة القطرية الحد الأدنى لنقل أخبار الثورة البحرينية التي أربكت مصالح الأسرة المالكة في الدوحة، كما تتجاهل تظاهرات شباب فلسطين التي تشوه الصورة المقدسة التي ترغب إعطاءها لحركة حماس. ولكي نفهم ثوار البحرين، يجب أولاً التنقل بشكل سريع بين القنوات العراقية التي يسيطر عليها معارضون شيعة ينتمون إلى إيران، وهي النتيجة المتناقضة للاجتياح الأميركي: سترى علماء بعثاء سوداء يتقدون بحدة العائلة الحاكمة السنية في المنامة.

فجأة، انطلقت مسيرات احتجاج تشير إلى حدث عاصف في مدينة درعا السورية التي تقع بالقرب من الحدود الأردنية. قامت القوات الخاصة لنظام بشار الأسد باعتقال وتعذيب مجموعة من الأطفال لأنهم كتبوا شعارات مناهضة للنظام السوري على الجدران «الشعب يريد إسقاط النظام»، وهو شعار الثورات نفسه في كل من تونس ومصر والبحرين واليمن وليبيا التي غطت قناة الجزيرة أحداثها وروّجتها في كل مكان. الثورة بدأت في سورية.

* * *

في مساء السبت، تل أبيب العلمانية حيث حلّ الربيع بمناسبة عيد بوريم الذي يخلد ذكرى هزيمة أعداء إسرائيل. تمتلئ جادة روتشيلد، بمبانيها المزخرفة وملاهيها الليلية، ويجتاحها الشباب بالبسة تنكزية وأذان أرناب مائلة لأن هذا ما تجده الأقل كلفة في السوق، قال لي أحدهم: هذا أرخص لباس وجدناه في السوق، والمتنكر هو الشاذ جنسيًا، إنها مملكة سدوم وعمورة^(*)! في زمن انتشار الطاعون في العصور الوسطى، يبدو أن الاحتفالات كانت تسير على هذا النحو، لنسيان الظروف المناوئة وطرد المصائب.

في مكان ليس بعيدًا عن المقهى العصري الذي تناولت فيه العشاء مع زميلتي من معهد العلوم السياسية، التقيت منذ بضعة أيام مسؤولاً من وزارة الدفاع في الدولة العبرية، يتحدث العربية بطلاقة، وهي اللغة التي تحدثنا بها طوال الوقت. كان لديه رؤية أكثر تشاؤمية فيما يخص بمستقبل مصر خلافاً لآراء أساتذة جامعيين. ونائب رئيس الوزراء دان ميريدور. من وجهة نظره، فإن البلاد سوف تغرق في «الفوضى» لكن الجيش أيضًا أثبت مصداقيته

(*) هذه القرى وفقاً للمصادر العبرية: سدوم وعمورة، أدمه وصوبيم وبيلا وتقع في منطقة البحر الميت وغور الأردن فأصبحت كلمتا سدوم وعمورة مرادفتين لارتكاب الخطيئة من غير ندم وتستخدم لغويًا للدلالة على الشذوذ الجنسي أيضًا.

لفرض حل سياسي، وحدهم الإخوان المسلمون يستطيعون في البداية إقامة النظام الذي يمتناه جمهور يائس بسبب الأزمة الاقتصادية، ويضيف المسؤول الإسرائيلي:

«لا بأس، سيكون هناك تعاون مشترك بين حماس والإخوان المصريين، وهذا أسهل بكثير من التعاون مباشرة مع طهران، التي تسيطر اليوم على غزة، والتي لا تربطنا بها أية علاقة. في القاهرة، على الأقل، سنعرف الرقم الذي يجب الاتصال به».

في المساء، تحت جناح الظلام، أمطرت سماءُ غزة صواريخَ مصنوعة في إيران باتجاه المدن الإسرائيلية التي تقع بالقرب من الحدود المسيجة بالأسلاك الشائكة، مدينة عسقلان ومستوطنة تيفوت، التي يسكنها يهود السفارديم، وكذلك روس وأثيوبيون، فكان لا بدّ من إغلاق معبر إيريز، ليطلق سلاح الجو الإسرائيلي صواريخه، وتسير الجهات الفاعلة في تأجيج الصراع بطريقة منهجية.

السبت 19 آذار / مارس 2011

فرنسا تهاجم القذافي

في مطار بن غوريون الدولي في إسرائيل، أستأنف رحلتي فجرًا إلى باريس. في جزيرة كورسيكا، جهزت فرنسا قاذفات قنابل الطائرات المقاتلة «رافال» من قاعدة «كابتن بريزيوسي» الجوية المسماة أيضًا قاعدة «سولينزارا» لاعتراض وعرقلة أرتال من مدرعات القذافي المتوجهة نحو مدينة بنغازي لسحق الانتفاضة. يسمي الليبيون هذه العملية «ضربة ساركو» نسبة إلى الرئيس الفرنسي ساركوزي، والتي تثبت تدخل فرنسا والغرب عمومًا في الربيع العربي، أسبوع الآلام للثورات.

الفصل الثاني

مصر

الثلاثاء 5 نيسان / إبريل 2011

«المصري اليوم»

في الطائرة التابعة لرحلات مصر للطيران، التي تقلني إلى القاهرة، أقرأ «المصري اليوم»، وهي صحيفة ليبرالية يمولها رجال أعمال مستقلون، انحازوا إلى الثورة منذ الأيام الأولى وأيدوا رحيل مبارك. وفي عهد هذا الأخير، انخفض معدل الرقابة على وسائل الإعلام مقارنة بسنوات الرصاص في عهد أنور السادات والحديد في عهد جمال عبد الناصر، كم هو مذهل هذا التحول لمن عرف مصر جيدًا منذ ثلاثين عامًا وتعلم حل رموز الصحافة العربية بمشقة من خلال صحيفة «الأهرام شبه الرسمية» والمملة، إنها صحيفة البرافدا أي «الحقيقة» المحلية! ودائمًا ما تتزين صفحتها الأولى بصورة كبيرة للرئيس لتنهتته والإعلان عن قيامه بمشاريع فرعونية، أو استقباله رؤساء أجنبية.

هذا الصباح، نشرت صحيفة «المصري اليوم» إحدى عشرة صورة فوتوغرافية، بالإضافة إلى إعلان يظهر فتاتين شرقيتين، جميلتين ذواتي شعر طويل، ترتديان بنطالًا و«تي شيرت»، منهنكيتين بالتسوق ببطاقة الفيزا وتبدو على وجهيهما ملامح السرور، وثلاثة بين أحد عشر إسلاميًا تظهر صورهم في أعلى العنوان: صورة لمحمد بديع، المرشد الأعلى لجماعة الإخوان المسلمين، الذي أماطت الصحيفة اللثام عن برنامجه السياسي، وفي الأسفل صورة للشيخ يوسف القرضاوي، الواعظ التلفزيوني الأكثر شهرة في العالم العربي وضيف البرنامج الديني الرائد الذي يعرض على قناة الجزيرة كل يوم أحد «الشريعة والحياة»، والشيخ من أصول مصرية وحاصل على الجنسية القطرية، يتحدث في برنامجه عن الدولة

الإسلامية «المطالبة السياسية للإخوان» التي ستكون «مدنية»، والمنطق يقتضي أن يكون رئيس مصر مسلمًا وذا إيمان واضح! كما يقتضي كذلك أن يكون حزب الإخوان مستقلًا عن الجماعة.

الصورة الثالثة لعبد المنعم أبو الفتوح، طبيب في الخمسين من عمره، كان زعيم جيل الإخوان في سنوات السبعينات والذي صنع أسلمته في الجامعات في عهد السادات، ولقد كتبت عنهم بحثًا منذ ثلاثين عامًا. وحسب المقال فقد استقال منتقدًا السلطة المطلقة للمرشد الأعلى. إن متقدي الثورة الذين دفنوا الإسلاميين إبان الثورات العربية قد استعجلوا في ذلك ولكن الاتجاهات الثلاثة تعبر عن نفسها باتجاه واحد، تظهر أن الحركة انقسمت وانهارت من الداخل تحت تأثير الديمقراطية التي تزعم معتقداتها. هؤلاء الثلاثة ذوو اللحى التي اكتست بالبياض التام حتى أصغرهم سنًا، خضعوا في فترات منتظمة لمحنة السجن. وبمقارنتهم نوعًا ما بصورتين للبرالين أمردين، الكاتب علاء الأسواني، مؤلف أكثر الكتب مبيعًا عربيًا وعالميًا، ورواية «عمارة يعقوبيان»، التي تحدث عنها في مقاله الافتتاحي في الصفحة الأخيرة. علاء، الذي صنفت روايته بأنها «رائعة الأدب العربي المعاصر»، سخر شهرته منذ مدة طويلة لمقاومة نظام مبارك والإسلاميين الأصوليين، ولقد عارض الكاتب بحدة رئيس الوزراء الانتقالي الذي عيّنه مبارك قبل رحيله، الفريق أحمد شفيق، وفي نهاية نقاش ماراتوني متلفز، لم ينهزم فيه هذا الضابط الكبير فقط بل إنه قدم استقالته أيضًا.

والصورة الأخرى هي لرجل الأعمال نجيب ساويرس، أحد أقباط مصر الأثرياء، ومالك أكبر شركة للهاتف المحمول فيها، وهي إحدى الشركات الرئيسية في منطقة الشرق الأوسط. الصورة التقطت لساويرس وهو على منبر الحزب الذي أسسه «المصريون الأحرار» وأوضح أن حركته ليست قبطية، كما تراجع عن تسميتها بـ«الإخوان المصريين» لتجنب الحرب الكلامية مع جماعة «الإخوان المسلمين».

تأخرت رحلة الخطوط الجوية لشركة مصر للطيران. وقد تمّ تمديد حظر التجوال حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي. على أي حال، لم يحترم أحد ذلك. التقيت في ساعة متأخرة من الليل، صديقًا في شقته الواقعة في حي الزمالك، هذه الجزيرة السكنية السابعة وسط نهر النيل، وهو رجل قانون ثاقب الفكر ولطيف المعشر، تلقى تعليمه في المدرسة الفرنسية، والتحق بالجامعة الأميركية كما هو الوضع لدى الكثير من خريجي النخبة،

وكتب مذكراته الخاصة عن الثورة التي نشرتها صحيفة نيويورك تايمز. تبادلنا تجاربنا بلغة مشتركة كانت مزيجاً من اللهجة المصرية واللغتين الفرنسية والأميركية كوسيلة تقارب وتواصل ثقافي تضيء ومضات عابرة سرعان ما تُنسى.

أحضرت معي زجاجة نبيذ من نوع «شاتونوف دو باب» لكن المشكلة تمثلت بمفتاح نزع سدادة القارورة المحلي الصنع حيث انكسر وأنا أمسك به بكلتا يدي وظلت ذراعه ملتوية وملتصقة بالسدادة. إن انعدام فائدة هذه الأداة كمن يلقي خطاباً سياسياً ورأسه يدور في الفراغ، إنها كطاغية انهزم أمام قوة الثورة.

«قال لي صديقي المغربي بالتحليل النفسي: يجب ألا تفعل ذلك يا جيل، بشرف والدك، عار وعيب!»

بالنسبة إليه، يعتقد أن الشعب المصري لا يعرف كيف يتصرف إزاء هذا الجسد المنهك جداً للفرعون المخلوع مبارك الذي أصبح أضحوكة النيل ومصدراً لإطلاق النكات، وآخر نكتة راجت بين الناس تقول:

«كان لدينا جمعة غضب، حيث كان اليوم الذي يتظاهر فيه الشعب ضد ديكتاتور مصر مستغلين الجموع الغفيرة الخارجة من المساجد بعد أداء صلاة الجمعة، واليوم لدينا جمعة «وَحَسْتْنَا، ارجع أيها الرئيس، ليس لدينا من نسخر منه بعدك!»

قبالة قارورة النبيذ المغلقة بإحكام، نبذو كدجاج أمام ماكينة الخياطة ونحن نحاول تدبر أمرنا على الطريقة المصرية، وقتئذ، أمسكت بالزجاجة من عنقها ليفتحها صديقي وينتهي الأمر بتطاير السائل القرمزي، ونضحت بضع قطرات بلون الدم على الصحيفة المطوية فوق المنضدة لتلتطخ الصور، لاحظت أنها العدد نفسه من صحيفة المصري اليوم التي قرأتها وأنا على متن الطائرة.

الأربعاء 6 نيسان / أبريل 2011

«برنامج حوارى» على الجزيرة

على ضفاف نهر النيل، يتجلى الدمار في مقر الحزب الحاكم السابق الذي تُسمى نسخته الحالية الحزب الوطني الديمقراطي «PND». كان التعساء بالقرب من ميدان التحرير الممتلئ بالمظاهرين الذين احتلوا هكتارين منه خلال ما يقرب من ثلاثة أسابيع

أبقت على هذه الضحية (التظاهرة) المكفّرة المنبوذة والتي يمكن أن تصل إليها السلطة الممقوتة بسهولة.

هذه الواجهة التي صقلتها المشاعل، بمكيفاتها المتكلسة كبثور سود على وجه مستخ، إنها فقط سوادًا من تلك المباني القذرة المنتشرة في العقود الأخيرة. المضاربات العقارية والهندسة المعمارية للأنظمة المستبدة في العالم الثالث، حوّلت العاصمة الساحرة منذ ثلاثينيات القرن العشرين إلى ما يشبه الزواحف الضخمة البشعة والملوثة، إنها شديدة الازدحام، هي مدينة الضوضاء والضجيج التي فرّ منها الأثرياء للعيش في تجمعات سكنية مغلقة تقع في ضواحي المدينة، محمية بأسوار وبحراس مسلحين.

شاركت في مؤتمر حول دور وسائل الإعلام في العلاقات بين الغرب والعالم العربي الذي نظّمته هيئة الأمم المتحدة «ONU» المسؤولة عن حوار الحضارات، دون أن أكون متأكدًا جدًّا ماذا يعني ذلك بشكل دقيق وواضح، «الغرب» و«العالم العربي». ويقام هذا الحدث في مبنى على الطراز السوفيياتي في جامعة الدول العربية «الرابطة الرسمية للدول العربية» رمز جميع هذه الحكومات المستبدة التي جعلتها شعوبها من الآن فصاعدًا موضع سخريتها. من علامات هذا العصر، الجدران الخارجية المغطاة بكتابات وملصقات تعبر عن ليبيا حرة عندما كان نظام القذافي لا يزال يشغل مقعده في الجامعة. يرفع الليبيون العلم القديم للملك إدريس، حاكم ليبيا السابق، هؤلاء هم ثوار بنغازي الذين تجمهروا أمام المدخل حين عرفت بنفسي كفرنسي، هتفوا لي بفرح ورايات الحرب ترفرف بأيديهم: سار- كو- زي... سار- كو- زي!

* * *

أنا مدعو في الساعة العاشرة مساءً إلى برنامج حوار يعرض على قناة الجزيرة مباشر، حيث تكاد مصر بأكملها تتسمّر كل مساء أمام شاشة التلفزيون لمتابعة البرامج الحوارية المشهورة التي حققت نجاحًا كبيرًا منذ انتشار القنوات الخاصة، كما لو أنها إحدى ساحات الإغريق الرحبة لاجتماع العامة إذ تنتشر الكلمة الحرة لتصل إلى جميع الاتجاهات وبمعانٍ مختلفة، في ثرثرة بهيجة تهدف إلى تحريك هذه اللغة المتجمدة منذ ستة عقود مضت.

تحاول قنوات مصر المتلفزة الموجهة إلى ثمانين مليون مصري وتحدث بلهجتهم، مزاحمة ومنافسة قناة الجزيرة التي تستخدم معايير لغوية تقليدية، وتفرض على صحافيها وضيوفها التعبير بقواعد العربية النحوية. لذلك فتحت منذ بضعة أسابيع قناة موجهة إلى الشعب المصري، وحاليًا، تسعى للحفاظ على شعارها المميز ألا وهو القومية العربية وميلها تجاه جماعة الإخوان المسلمين لمواجهة الهجمة الشرسة من الهوية النيلية التي تفاقمت بسبب الثورة.

جهزت القناة الإخبارية استوديوهاتها مؤقتًا وبعمل متتابع في حي العجوزة في مبنى مهالك وخرب، وهو الشارع نفسه الذي كنت أعيش فيه عندما كنت أعدّ أطروحتي قبل ثلاثين عامًا. وبعيد كثيرًا عن مقر قنوات الخليج المترفة. ولا أشك أن الطبقة الخارجية من طلاء المبنى يعود إلى عصر أطروحتي، والأثاث يتألف من مقاعد وأرائك ذات ألوان باهتة قديمة يبدو أنها اشترت من سوق البراغيث، مقلدة مع طراز «لويس فاروق» للأثاث، المشهور بتطرفه وإسرافه في طلائه وزخارفه المذهبة لطبقة الأغنياء الجدد، يظهر الطلاء الخارجي لمبنى الجزيرة مقشرًا وذابلًا.

لقد وجدت فيه كامل الهلباوي، وهو رجل مسن، سمين ومرح، المتحدث السابق لمنظمة الإخوان المسلمين العالمية ومقرها لندن، والذي أتى من بعدي في المقابلة تلك الأسمية. إقامته البريطانية جعلته ينأى بنفسه عن جماعة الإخوان الاستبدادية. دعاني إلى بيته في الريف، «لشرب حليب الجاموسة» في مسقط رأسه، وعرفني بابنه الذي درس في فرنسا، في معهد تدريب الأئمة في اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا «UOIF» الذي تمّ إنشاؤه في عام 1983 في مدينة شاتو شينون، لكنه لا ينطق بكلمة فرنسية واحدة!

تعيد مقدمة البرنامج الحوارية وضع البودرة على أنفها، ويبرز لون التوت في شفيتها الشهييتين أكثر مع سترتها ذات اللون القرمزي، حجابها، قميصها، وبطالها المائل إلى اللون الرمادي ليتلاءم مع ماكياج عينها ذاتي اللون الفاتح. وعلى أنغام الأسئلة التي يعزفها صوتها الرقيق جدًا، لم ألاحظ مرور ثلاثة أرباع الساعة من اللقاء الطويل إذ تناقشنا مرة أخرى في تاريخ العالم العربي وثوراته، إنها معجزة الإغواء الحلال على ضفاف نهر النيل.

الخميس 7 نيسان / إبريل 2011

الدلتا الزرقاء

عبد الرحمن هو طالب ماجستير في علوم الكمبيوتر في مدينة المنصورة، جامعة الدلتا، وعبد الله هو أستاذ شاب في كلية التجارة في جامعة الأزهر الإسلامية، لكن الاثنين لهما المظهر نفسه، مظهر هادئ لا مبالٍ «Cool» وأنيق، قصة شعر عصرية بحصل متفرعة، ولغة جسد مسترخية وتلقائية، يتشابهون بذلك مع أي أوروبي من أصول عربية، فكلاهما يتشاركان الرموز المعولمة نفسها لفتتهما العُمرية.

ينتمي عبد الرحمن إلى جماعة الإخوان المسلمين التي انفصل عنها عبد الله أخيراً لكنه لا زال تابعاً لها روحياً وعقائدياً. أحدهما يرى أن الجماعة بحاجة إلى إصلاحات داخلية، والآخر يعتقد أن المنظمة، انغلقت على نفسها بثقافة حصرية منذ عقد من الزمن، لا تزال متحجرة جداً وغير قادرة على مواجهة تحديات التحول الديمقراطي الذي يرخي بثقله على المجتمع المصري منذ ثورة 25 كانون الثاني/يناير.

وشارك عبد الرحمن في مؤتمرات «شبيبة الإخوان»، الذين «قدموا اقتراحاتهم، منذ أقل من خمسة عشر يوماً، تحديداً في 26 آذار/مارس، إلى «مكتب الإرشاد» المعادل للمكتب السياسي بقيادة المرشد الأعلى محمد بديع، الهادفة إلى إصلاح إدارة عمل الجماعة، تنظيم انتخابات داخلية شفافة وواضحة، وطرح مسألة قبول مبادئ الديمقراطية في المنظمة وفي المجتمع... لكنهم انتظروا بصبر الحصول على أجوبة، حتى نفذ صبرهم، لذا هددوا بالاستقالة في حال عدم ارتياحهم.

إلا أن الثقافة المضادة الساخرة من الإخوان، على غرار الأيديولوجية الشيوعية في فرنسا بعد الحرب، تمثل مجتمعاً حقيقياً داخل المجتمع، إذ تفرض نفسها بقوة عبر تشعباتها وفروعها في الجمعيات والتعليم وريادة الأعمال وإنشاء المشاريع، بل حتى في الشؤون العائلية، وبذلك تبقى حركة قيادة المنظمة الدائرية على قناعة بأن إغلاق الباب يُعدّ بمثابة انتحار اجتماعي للشباب.

في الآونة الأخيرة، انشق إبراهيم الزعفراني عن الجماعة رسمياً، وهو في الخمسينيات من العمر، وأحد قيادات الإخوان وعضو في مجلس شورى الجماعة السابق في «اللجنة المركزية»، وينظر إليه كعضو ليبرالي، لتأسيس حزبه الخاص «النهضة الإسلامية». تريد الإشاعة المتداولة في القاهرة أن تكون جميع الأبواب مغلقة حوله، لكن الشباب كوّنوا

صداقة بديلة مع فئتهم العمرية المتواجدة في ميدان التحرير حتى لو كانت هذه الصداقة سطحية وظرفية، إلا أنها سمحت لهم بتحرير أنفسهم واعتاقهم من هذه المنظمة الاجتماعية المتعددة الأجيال التي أنشأها «التنظيم».

في استفتاء آذار/ مارس، وبالرغم من ذلك صوت عبد الرحمن بـ«نعم» لانتخاب أعضاء الجمعية التأسيسية قبل الرئيس المقبل، في حين اختار عبد الله «لا». الانتخاب كان مدعوماً من الجيش، الإخوان، السلفيون، ومعظم أنصار النظام السابق الذين لا يزالون مؤثرين في عمق مصر ويريدون التقليل من التغييرات الجديدة للحفاظ على مناصبهم في السلطة. حصل التصويت على الأغلبية بأكثر من 77% (في بلد ابتعد فيه الناس عن الانتخاب منذ مدة طويلة، واعتادوا تزويراً منهجياً لنتائج الانتخابات). لقد جمعت الانتخابات كل أولئك الذين يخشون من أن يُترجم اضطراب ما بعد الثورة إلى فوضى اقتصادية واجتماعية.

عندما تتأمل سرعة نمو وازدياد أعداد الحركات والتكتلات السياسية الصغيرة التي ظهرت بعد 25 كانون الثاني/ يناير كنمو الفطر بعد تساقط قطرات الندى، نلاحظ أن أنصار «نعم» يريدون السيطرة على مجلس النواب المقبل. ويعتقد الكثيرون أن رئيس الدولة الذي يمثل المجلس الأعلى للقوات المسلحة، الهيئة التنفيذية للبلاد منذ سقوط مبارك، يتمنى تحقيق آمالهم ودعم آرائهم، بتمن التحالف المؤقت مع الإخوان. يعلم العسكر جيداً أن رئيس الدولة القادم لا يمكن أن يكون من صفوفهم، وهي المرة الأولى منذ سيطرة «الضباط الأحرار» على مفاصل الدولة، في شهر تموز/ يوليو عام 1952. وخلاف ذلك، يرغب أنصار الـ«لا» بانتخاب رئيس بسرعة لاستعادة الاقتصاد الذي لا يسير إلا بأوامر من القيادة العليا، مما يتيح لهم الوقت لتنظيم أنفسهم في أحزاب بهدف التجديد العميق لقواعد المشهد السياسي المؤسسي.

من وجهة نظر عبد الله:

«اكتسح أنصار «لا» معظم الدوائر الانتخابية «المتحضرة»، حيث تُعرّف الطبقة الوسطى الناشئة عن نفسها من خلال المفردات الديمقراطية الجديدة؛ في حين فاز أنصار «نعم»، بفضل توجيهات الإخوان والسلفيين والشخصيات النافذة في النظام الحاكم القديم، والجيش، بالتصويت المكثف والسلبى للمناطق الريفية.

استقبلي صديق قبطني، يُدعى منصور ويشغل مراكز مسؤولية عدة منذ بدء المرحلة الانتقالية، في أحد المكاتب الرسمية وقد طلب من مساعده المغادرة خلال حديثنا، وقد عبّر لي عن قلقه قائلاً:

«نحن في طريقنا إلى الإفلاس، لم يعد هناك استثمارات وانهارت السياحة. حتى الشرطة اختفت، أو على الأصح فقدت مصداقيتها وهيبته، ليتفشى بدلاً من ذلك ذهان «البلطجية»، هؤلاء المجرمون وقطاع الطرق الذين يهيمن عليهم النظام السابق ويتلاعب بهم إلى حدّ ما ليزرعوا الفوضى، لذا أقبل الناس على شراء أسلحة رجال الشرطة الذين سُرّحوا».

إن أسوأ ما يقلق منصور هو استغلال السلفيين لغياب سلطة الدولة لفرض ونشر تصورهم لنظام الحكم الإسلامي بالقوة. بالقرب من مدينة الإسكندرية، قاموا بهدم قبور بعض رجال الدين من المسلمين الذين يقدهم الشعب التقي، لكن السلفيين بسبب تشددهم الديني يرون ذلك بدعة وهرطقة دينية يجب محاربتها بصرامة. وفي مكان آخر أحرقوا منزل امرأة يشبه في سوء أخلاقها. في صعيد مصر، تحديداً في مدينة قنا، قطعوا أذن قبطني متهم بممارسة القوادة أي «الوساطة في شؤون البغاء»، وفي إحدى المدن الساحلية الواقعة على البحر الأحمر، يراقبون الشواطئ لمنع الوصول إليها.

يجب أن نأخذ بعين الاعتبار دائماً هاجس القلق لدى العديد من المسيحيين المصريين، لكن الإشاعات تتراكم يوماً بعد آخر، وتبني صوراً وأمثلة تتحول لاحقاً إلى حقائق اجتماعية. يسألني منصور عن أخبار فرنسا ثم يقول:

«سوف أضدّمك، لكنني أجد أن السياسيّة الفرنسية مارين لوبان ذكية جدّاً وتقول أشياء عاقلة وحكيمة!»

جمال الغيطاني، هو واحد من أكبر الروائيين المصريين. كُتبه تضرب بجذورها في عمق الثقافة المصرية وتُرجم معظمها إلى اللغة الفرنسية والعديد من اللغات الأخرى. يصطحبني معه إلى أحد الصالونات الثقافية التي تُعقد مرة بالشهر، وهو أيضاً صحافي نشط في برنامج حوار يَعرض على شاشة إحدى القنوات الفضائية وكاتب مقالات افتتاحية في صحيفة «المصري اليوم».

يوجد هناك حوالي خمسين شخصاً من جميع الأجيال، رجالاً ونساء، بعضهم محجبات، أتبن لمناقشة أحداث الثورة التي عشناها يوماً بعد آخر مع روائي يكتبها من منظور تاريخي، وخواجة مستعرب «أجنبي» يقارنها بما يحدث في أماكن أخرى في المنطقة.

في جميع أنحاء مصر، حتى قبل ثورة 25 كانون الثاني/يناير، كانت مبادرات المجتمع المدني قد ازدادت، بمشقة وارتياح من مراقبة أجهزة الأمن، المنتشرة في كل مكان، التي تكشف عن البناء الهرمي للسلطة ببطء وبصورة منظمة.

لقد أذهلني الاختفاء المفاجئ لكل ما هو محظور الحديث عنه. في الأوس القريب، كان الناس على قناعة تامة بأن هناك جاسوساً ما ينقل الأحاديث للسلطة، لذا حرصوا على عدم تجاوز الخطوط الحمراء غير المرئية للرقابة الذاتية الاستبدادية جداً. الأحاديث ذاهبة في كل الاتجاهات، والتحليلات الأكثر غرابة، أعطت لنفسها كامل الحرية في الذهاب بعيداً.

من دون شك، سوف تدفع هذه الأحاديث والتحليلات ضريبة التحرر الجديد، ولكنها سوف تشكل مصدرًا للقلق. هذا القلق الذي يتحضر خلف جدران الثكنات، مراكز الشرطة، المساجد أو السفارات الأجنبية وأيضاً لدى القوى المنظمة والمتعطشة للاستيلاء على السلطة بعد أن يذهب كل شيء، ولا يتبقى لها إلا النذر اليسير.

الجمعة 8 نيسان / إبريل 2011

رؤية ميدان التحرير من الأعلى

أصبح يوم الجمعة - يوم صلاة الجماعة في المسجد - يوماً للتجمهر والتظاهرات. هذه المناسبة الأسبوعية تحولت إلى فرصة لمواصلة الضغط على المؤسسات التي لا تزال قائمة بعد سقوط دولة مبارك، مثل: المجلس الأعلى للقوات المسلحة، الحكومة الانتقالية، والقضاء. والقرار اليوم هو أيضاً تحت حكم الرئيس السابق.

يتجمع الجمهور في ميدان التحرير ابتداء من وقت الضحى. أراقبه من شرفة شقة بيار سيوفي، في الطبقة التاسعة من مبنى شيد في ذروة مجد الملك فاروق في الفترة البناءة والمتفائلة لمستقبل مصر، في نهاية الحرب العالمية الثانية، والتي يملكها مفلس متحدر من عائلة مسيحية كلدانية جاءت إلى القاهرة في عهد النظام الملكي. وأثناء الحكم الناصري المطلق في خمسينيات القرن العشرين، تم تجميد نظام الإيجار بقيمته

الأصلية، بعد انقلاب «الضباط الأحرار»، الذي تغير اسمه لاحقاً إلى «ثورة»، ما أدى إلى استحالة الحفاظ على المباني وصيانتها وتدهور المناطق العامة بصورة مهولة جداً. أما معظم المباني التي استخدمت كمكاتب فقد تم الحفاظ عليها إلى حد ما ونجت نسبياً من الخراب، بينما المرافق الحكومية والشركات التي كانت تدير أعمالها فيها أخذت على عاتقها صيانة المصاعد وتنظيف السلالم.

من شرفة شقة بيار، صوّرت معظم قنوات التلفزيون المشهورة تظاهرات ميدان التحرير حتى إن صحيفة «نيويورك تايمز» خصصت مقالاً لهذه الشقة ومستأجرها غير العادي. لا تزدان غرفها الواسعة إلا بقطع أثاث نادرة من هنا وهناك، وبعض الصور التي تتسم بالرجعية والفن الهابط المعلقة على جدرانها. وفوق فراش مطروح على الأرض ينام متظاهراً، ملتفماً ببطانية، أنهكه السهر. البشرة الداكنة والنياب البالية لا ريب أنها من سمات المصري الصعيدى، لا يملك المال لدفع ثمن تذكرة عودته أو لا يرغب في العودة إلى الريف بعدما عايش بسعادة أحداث ميدان التحرير لمدة ثمانية عشر يوماً ما بين 25 كانون الثاني/يناير وسقوط مبارك.

يرتاد هذه الشقة ذهاباً وإياباً بعض شباب الثورة اليساريين بمظهرهم الجذاب وهم يرتدون «التي شيرت» المقلمة وقد كتب في وسطها شعارات مناهضة للفساد والظلم ومطبوعة بورق الاستنسل الملون، وإسلاميون ملتحمون وهم يلبسون معاطف «الباركا» بطاقيّة تغطي رؤوسهم الصلعاء وذات لون يميل إلى الأخضر بالإضافة إلى بعض الصحافيين المصريين والأجانب. لقد اجتمعت البوهيمية المتحررة من أعراف المجتمع وتقاليده والتدين المتحفظ في مكان واحد في المدخل الذي يؤدي إلى مكتبة ممتلئة بالكتب الفرنسية القديمة وقد تلفت أغلفتها، (مثل طبعة نادرة من أربعة مجلدات لقاموس ثنائي اللغة «عربي - فرنسي» للمستشرق الفرنسي بيبيرستين كازيمرسكي). يجلس بيار السيوفي أمام شاشة كمبيوتر كبيرة. يعرض الصور التي يصنع منها فيلمًا على موقعي يوتيوب وفيسبوك وليوصل كذلك مسرح ميدان التحرير إلى العالم أجمع.

بيار هو صانع الثورة الديمقراطية المصرية، وفي الوقت نفسه، الرئيس التنفيذي والمخرج والمشرف عليها. هذا العملاق الوديع الذي غزت لحيته الرمادية وجنتيه وتوارت نظارته السميكّة خلف شعره الكثيف، يشبه بكارل ماركس ويأخذ منه كأنه الأب الأزلي له. يتنقل بيار بكل هدوء ولطف من العربية إلى الفرنسية والإنكليزية لينتقي أجمل

عبارات الود لضيوفه المعروفين والغرباء على حدٍّ سواء، ويحسن ضيافتهم بحديثه المنمق المفهوم.

يزين قميصه مقاس XXL شعار مستوحى من «كتناكي فرايد تشيكن»، المعروفة اختصاراً بـ«KFC»، من أشهر مطاعم الدجاج المقلبي الأميركية، التي كانت الممون الرئيس بالطعام للمتظاهرين في ميدان التحرير، وبالتالي اتهمهم النظام السابق بأنهم يأكلون على الطريقة الأميركية، لذا فهم مسيرون من قبل وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية «CIA». على الشعار، مكتوب على الوجه الشهير باللحية البيضاء للعقيد ساندرز - مؤسس وصاحب صورة شعار KFC - حكمة عربية قديمة، نصها: «أكرم جدك».

* * *

يمتد ميدان التحرير على طول نهر النيل. الذي احتلته ثكنات الجنود البريطانيين فيما مضى ليكون مسرحاً لمناوراتهم، كما كان الميدان الحربي، الواقع في ضواحي المدينة الأوروبية إيَّان النظام الملكي، أقيم فيه المتحف المصري حيث تترام التحف المغبرة في فوضى مؤاتية لسرقات عدة أثناء الاضطرابات.

تركت الجامعة الأميركية مؤخرًا مقرها السابق البالي المزدان بسحر الاستعمار لتنتقل إلى حرم جامعي واسع الأرجاء وذي تقنية فائقة، يقع في ضاحية راقية على بعد ساعتين في الشوارع المزدحمة. عدة أبنية قبيحة تشير إلى النفوذ الناصري وتشوّه المكان الذي يحجب نهر النيل عن الأنظار برموزه الخرسانية للسلطة العسكرية الاشتراكية في سنوات 1950-1960.

يُعتبر «مجمع التحرير»، المبنى الضخم الذي يميل لونه إلى الرمادي، مركزاً لخدمات الشرطة والإدارة ويرمز لبيروقراطية الدولة الفرعونية والمستبدة. في عام 2000، لاقى فيلم «الإرهاب والكباب» للممثل والمبدع الهزلي عادل إمام، والذي تدور أحداثه في المجمع نجاحاً واسعاً. يسخر الفيلم الكوميدي من الأصولية الإسلامية إذ يتخذ البطل بعض الرهائن التي يتم إطلاق سراحهم بعد الاستجابة لمطالب الجهاديين التي هي عبارة عن: لحم الكباب الذي يحضر باستعمال أسياخ الشواء، إنه حلم المصريين الفقراء الذي يعتبرونه من مظاهر الترف والرفاهية.

بعجوار جامعة الدول العربية، التي أراد عبد الناصر من خلالها الاستمرار في سياسته

الخارجية المعادية للغرب والنضال ضد الصهيونية، هناك حيث يجتمع الزعماء المستبدون للدول الأعضاء، وخصوصاً أولئك الذين أهلك بعضهم بعضاً لمدة عقود، يقع مبنى ضخيم يطلّ على نهر النيل، شيّده «الريس» لاستقبال كبار الشخصيات من العالم الثالث، إنه فندق هيلتون، هذا المبنى المتهالك منذ سنوات بسبب سوء الصيانة وقلة الاهتمام، يبدو كهيكل عظيمي محاطٍ بصقالات، ومفكك بواسطة الأعمال العملاقة للوصول به إلى مستوى الوكيل التجاري الجديد، وهو فندق الريتز كارلتون.

والصرح الأخير شبه الميت من هذه السلسلة التعيسة هو مقر الحزب السابق والوحيد، أي الحزب الوطني الديمقراطي ويرمز له بـ«PND»، الذي يعبر ركابه عن مدى غضب المتظاهرين الذين أحرقوه لتأكل النيران أرشيف الصحافة المصرية الحديثة الذي تمّ توثيقه وحفظه في المبنى.

منذ مدة طويلة، تحول «الميدان»، الذي يعني بالعربية الفصحى وفقاً لقاموس المستشرق الفرنسي كازيمرسكي «مكان واسع مخصص للسباق والمصارعة وتطاعن الفرسان بالرمح على ظهر الخيل، ساحة»، إلى ورشة عمل لمشروع القطار الكهربائي «مترو» الذي ينفذه اتحاد مجموعة من الشركات الفرنسية. في الميدان مكان مهجور يحيط به سياج وتقف خلفه الحافلات السياحية التي تفرغ حمولتها من البشر باختلاف ألوانهم وكاميراتهم في متحف للآثار القديمة يطمع بعملاتهم الأجنبية، كما أصبح مأوى لاختباء المدرعات ووسائل نقل الجنود رملية اللون التي يصعب تمييزها أو رؤيتها من شرفة بيار.

* * *

الميدان المعروف في الأوقات العادية بازدهام لا يوصف وبالحفلة الموسيقية المستمرة بالضغط على منبهات السيارات، امتلاً طريقه الرئيس هذه الجمعة بجماهير غفيرة متحركة حيث سادت الألوان الفاتحة على قمصان الرجال وحجابات معظم النساء. لكن هذه التظاهرة لم تجتز شوارع القاهرة بل انحصرت في مكانها وظلت التدفقات البشرية تدور حول الطريق الرئيس، أي الحديقة الوسطى القديمة التي حولتها أيام الوطاء بالأقدام إلى مكان موحد. أقيمت فيها المراحيض، وكذلك الخيام لتقديم الإسعافات الأولية للثوار خلال الاشتباكات مع الشرطة وقطاع الطرق أو «بلطجية» الحكومة الخائرة القوى.

وعلى جوانب الميدان، ارتفعت المنابر وأمام أكبرها تجمع الإخوان المسلمون بانتظام

في صفوف، وعلى النقيض من ذلك، تجد الفوضى تعم بقية المتظاهرين، يؤدي الإخوان صلاة الجمعة بتناغم تام، امتلأت بهم الطرقات وأرصفت الشوارع المحيطة. وعلى هذا المنبر نفسه خطب الشيخ القرضاوي القادم من قطر في جمهوره يوم 18 شباط/فبراير، وهو يوم الجمعة التالية لسقوط مبارك، هذا اليوم الذي زادت فيه كمية الكلمات الثورية في خطاب الإخوان.

معظم الناس الذين تظاهروا في هذا اليوم لم يهتموا بأداء الصلوات، إما لأنهم قد أدوا واجبه الديني في مكان آخر أو لعدم اهتمامهم بها كثيراً وانشغالهم بالأحداث. فرفت الأعلام في كل الاتجاهات، ليس فقط الأعلام المصرية بل أيضاً التونسية والفلسطينية وراية الملك إدريس التي رفعها متمرّدو بنغازي بدلاً من راية القذافي الخضراء. في المقابل، لم يرفع أي علم للبحرين التي أزعجت ثورتها العالم العربي السني والتي وصفها القرضاوي بـ«الفتنة الطائفية» لتجريم مذهب أغلبية المتظاهرين الشيعة في ساحة «اللؤلؤة» وسط العاصمة البحرينية «المنامة»، إلا أن عينيه لم تريا إلا الثورة المصرية في ميدان التحرير.

يستطيع بيار من شرفته أن يرى ويصوّر عشرات الأشخاص الذين ربطوا عصابات على رؤوسهم وقد تزينت بشعارات الثورة. ومعظم هذه الشعارات كتبت باللهجة المحلية، حتى شعارات الإخوان المسلمين التي عادة ما تكون أكثر ارتباطاً بالعربية الفصحى التي تؤسس هويتهم الدينية. وأكثر أعلام مصر والمعقودة كعصابات رأس، تلك التي يتوسط شريطها الأبيض صورة المشير طنطاوي، رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة، وكانت هذه أول علامة على توتر العلاقة بين قائد الجيش وبعض المتظاهرين «يا طنطاوي خليك للثورة أمين وحاسب الخائنين». شعار آخر بألوان العلم السوري يحمل سمة الإخوان ورغبتهم في الاستحواذ على مفردات الحرية، وذلك بعد المجزرة التي ارتكبتها القوات الخاصة لشار الأسد في مدينة درعا الأسبوع الماضي «الله، سورية، حرية ويس». كذلك رفعت لافتة على مجمع التحرير تعبر عن الشعار المحوري الذي حمله جميع الثوار العرب لكن هذه المرة باللغة العربية الفصحى «الشعب يريد محاكمة الرئيس المخلوع».

عند الاختلاط بالجمهور، أثناء الخروج من العمارة التي يسكن فيها ببار، تلتقي بمجموعة من البائعين القادمين من الأحياء القديمة والذين من النادر رؤيتهم في أحياء الأثرياء المبنية على الطراز الأوروبي. يبيعون المشروبات المصرية التقليدية والكشري الذي يختلط فيه الأرز بالشعيرية الذهبية، وهو الطعام الاعتيادي للفقراء الذين شهدوا أحداث الثورة. كذلك تعرض أكشاك الكتب الممتدة على الأرصفة قصصًا مكتوبة ومطبوعة على عجل عن قضايا الفساد في عهد مبارك، وبين الطبعة العربية الأخيرة لبروتوكولات حكماء صهيون وكتيبات لتعلم اللغة الإنكليزية، والمحاسبة، وتقنية المعلومات، أو عن طرد الجن والعين الشريرة. المحيط يمتاز بالطفولة، كل واحد منهم جاء بلوحة مكتوبة أو مرسومة بمهارة أكثر أو أقل حسب جهد كل بائع واهتمامه، تسود أجواءهم البهجة والمرح الذي لا يمكن كبتة ومقاومته لحاجتهم إلى التعبير عن أنفسهم بعد ستين عامًا من تكميم أفواههم تحت سيطرة الآلهة المتجسدة في الضباط التالية أسماؤهم: عبد الناصر، السادات، مبارك. التقيت امرأة محجبة وسمينة جدًا، ترتدي فستانًا طويلًا وضيّقًا. تحمل لوحة تعترض فيها على منع مضيفات الطيران من ارتداء الحجاب قالت لي: نستطيع ارتداؤه على متن الطائرة وليس كما قالت السيدة سوزان مبارك نرتديه فقط على الأرض. في عهد السادات تم حظر المشروبات الروحية لإعطاء ضمانات لرجال الدين. سألتها ما إذا كانت تود أيضًا أن يتمكن من ارتداء النقاب، أجابتنى بالنفي باللغة الإنكليزية: «No, No»، ثم تابعت بلهجتها المحلية: «الحجاب فقط، النقاب لا».

كأسرة واحدة نجتمع في إجازة الجمعة التي تعادل إجازة الأحد في أوروبا، وهو مناسب جدًا للاحتفال بالمولد إحياءً لذكرى ميلاد النبي محمد أو نستطيع أن نسميه «عيد ميلاد المسلمين» ويوم مجدهم. في هذا اليوم، نغمس ثلاث فراش في ثلاثة دلاء بألوان العلم المصري لرسمه على جباه الأطفال وخدودهم كما هو الحال في مباريات كرة القدم مقابل جنيه مصري أي «12 سنت يورو».

الجامعون على الصناديق، والمتحدثون من مختلف الانتماءات يلقون خطبهم على المارة المتظاهرين على نمط زاوية المتحدثين في حديقة الهاید بارك في لندن. وعلى كرسي يمكن طيه يجلس رجل عجوز وقور، يضع ربطة عنق وفي يده عصا، ويحمل بصمت لافتة مكتوبًا عليها بخط جميل مبادئ الديمقراطية التي يجب أن يركز عليها دستور المستقبل. وفي المكان نفسه ترى مشهدًا لا يمكن تصوره، رغم أنه لا يزال هناك ثلاثة أشهر على

الانتخابات، لكنك ترى الماركسيين وهم يدعون إلى وحدة جميع العمال العرب أمام بعض المارة المدهوشين من دعوتهم، وعلى بضع عشرات من الأمتار، يصرخ مجموعة من الملتحين عند مجمع التحرير بشعاراتهم الخاصة بهم عبر مكبر الصوت، ويجمعون تواقيع الناس للمطالبة بالإفراج عن الشيخ المجاهد المصري عمر عبد الرحمن الذي حكم عليه بالسجن مدى الحياة في سجن «سوبرماكس» في الولايات المتحدة، لارتكابه جرائم عدة منها تورطه في أول هجوم على مركز التجارة العالمي في نيويورك عام 1993.

أثناء التظاهرات، الجميع يتجاورون بلا مشاحنات أو عدوان، ترى رجالاً بثياب حتى الكاحلين، مع علامة على جباههم تشبه الزبيبة السوداء وهي الندبة التي تظهر على جباه الساجدين لله بصدق وإخلاص في صلواتهم الخمس، يسرون بمحاذاة فتيات يرتدين بنطلونات الجينز الضيقة وتلاعب الرياح بخصل شعرهن رغم أنهم يهاجمون النساء في خطبهم الدينية ويحلمون برؤية وجوههن مغطاة بالنقاب.

إن لحظة التوتر الوحيدة التي شعرت بها هي عندما شاهدت مجموعة من الشابات الشيعيات من البحرين أمام مقر جامعة الدول العربية، محجبات ويضعن نظارات شمسية من تصميم أكبر دور الأزياء العالمية على وجوه مرسومة بأدوات التجميل بمهارة، ينظرون لإسقاط حكم أسرة آل خليفة السنية، لكن المصريين المتواجدين بدلاً من مشاركتهم الاحتجاج، تهجموا عليهم واتهموهن بالتحريض على الفتنة الطائفية وإفساد فرحتهم للاحتفال بعيد الثورة التي يريدون الحفاظ على وحدتها والانتقال إلى المرحلة الثانية، وهي محاكمة قادة النظام السابق. رغم استعداد الفصول الأولى من المسرحية الدموية للأجواء الاحتفالية، لكن ليس باستطاعة أحد تجاهلها، لا أنا ولا عشرات الآلاف من الأشخاص المجتمعين في ميدان التحرير حيث نرقص ونغني مردين شعارات تطالب بمحاكمة مبارك وأعوانه «المفسدين».

* * *

في نادي غاردن سيتي، كنت على موعد لتناول طعام العشاء في ساعة متأخرة من الليل مع الزميل الشاب ستيفان لأكروا الذي وصل للتو من باريس والأكاديمي نبيل عبد الفتاح، هذا الجامعي الذي يشرف على أحد مراكز الأبحاث في العلوم الاجتماعية في مركز أبحاث الأهرام التي تُعدّ إحدى المؤسسات الصحافية التي استطاعت رفع مستوى حرية الفكر والتعبير عن الرأي إلى حد تعرف فيه أين تتوقف عن ذلك.

أثناء تناول الويسكي، حاولنا تحليل الأحداث بدقة بغية طرحه في النقاش الذي اقترحه عليّ نبيل لإثارته في مركز الأهرام بعنوان «الثورات العربية».

بدأنا بطرح مجموعة من الأسئلة، منها على سبيل المثال: لماذا تبدو الثورة بطيئة الخطوات؟ ماذا يريد العسكريون؟ ما الذي تعد له جماعة الإخوان المسلمين؟ وأين هم السلفيون منهم؟ ثم كيف يستطيع الديمقراطيون العلمانيون تنظيم أنفسهم لجعل صوتهم مسموعاً؟ تشتت الأحزاب خلال التسجيل يعكس على الأقل مقدار الأنا لدى المؤسسين الراغبين في ترجمة رأسمالهم السياسي أو الاجتماعي إلى مشروع اجتماعي حقيقي أو التعبير عن القوى الاجتماعية.

أفترض أن ميدان التحرير هو التعبير المجازي للثورة، هو مسرح عرضها التي يشاهدها العالم بأسره وهي تُصوّر من شرفة بيار وتنقل على الهواء مباشرة، استحوذت هذه المشاهد الرمزية على اهتمام مصر والعالم، وسيطرت على الإحساس. يُعبّر (أي الميدان) من الآن فصاعداً بقوة لا تقهر عبر سحر شبكة الإنترنت والأقمار الصناعية، عن القيم الأساسية للمجتمع وحقيقته بعيداً عن الحملات الدعائية الخرقاء والمستهلكة في سجل مبارك المزيف.

ولكن الفجوة بين خطاب الثورة وتجسده الشعبي تشعر بها بقوة منذ سقوط مبارك، هذه الفجوة تخرج من حزب ثوري قادر على الاستفادة من تجمهر الشعب في كل البلاد وفي يوم واحد مناهضاً قيادة الجيش التي أرادت إطلاق سراح مبارك الذي كان منتظراً فيه أن يعلن عن رحيله بينما اكتفى بالحديث عن بعض إصلاحات بائسة. ومنذ الفجر، كانت مصر كلها في الشارع، وبعد الظهر، أعلن نائبه عمر سليمان، رئيس المخابرات العامة وصاحب السلطة تنحي الرئيس وتولي المجلس الأعلى للقوات المسلحة السلطة التنفيذية.

السبت 9 نيسان / أبريل 2011

الأزهر على خط المواجهة

في صباح هذا اليوم، قابلت الشيخ أحمد الطيب، كبير أئمة الأزهر والرئيس الأعلى للمسلمين السنة في مصر والعالم أجمع. وهذا يعني أن باستطاعة وزير الداخلية الفرنسي والأديان استشارة الطيب في المسائل القانونية-الدينية أو طلب فتوى لحل المشاكل المرتبطة بممارسة الإسلام في الجمهورية الفرنسية العلمانية. في الواقع، عانى الشيخ

من قرار تعيينه رئيسًا لجامعة الأزهر والذي صدر عن الحكومة مما أضعف من مكانته وهيبته في مصر نفسها. لذا واجهت المؤسسة الأزهرية معارضة شديدة من الإخوان المسلمين الذين يرونها جهازًا تابعًا للحكومة، ومن السلفيين الذين يعتقدون أنها تمثل الإسلام الضعيف الحريص على الدنيا وملذاتها. منحت الثروة النفطية الوهابية السعودية إمكانات لا محدودة مقابل الموارد الضئيلة للأزهر مما جعل السعودية تهيمن ثقافيًا على الامتداد المعاصر للإسلام السني بطريقة محافظة ومنتشدة كونها بلد النفط وعائده من الدولارات.

لا يزال الأزهر يتمحور حول تقوى الأخويات الصوفية والزهد، وهو تقليديًا أكثر مرونة مع أشكال التدين الأخرى، يجمع ويوحد بدلًا من أن يهدم ويفرق ويتصادم مع الآخر كما هو الحال لدى السلفيين. تتبوأ المؤسسة مركزًا متقدمًا في السيطرة على الإسلام السني وهي التي يوجد فيها أكبر نسبة من الفقراء في المنطقة، والغنية بتاريخها الذي يعود إلى آلاف السنين، وتضع هذه المؤسسة (أي الأزهر) مصر في مواجهة مع السعودية التي هي غنية بالموارد الهيدروكربونية، ولدعم رؤيتها للإسلام وترويجها ينقصها الجانب الثقافي.

* * *

تم تعيين أحمد الطيب إمامًا أكبر للأزهر في 10 شباط/فبراير عام 2010 بعد وفاة سلفه. وهو يتحدر من أسرة صوفية حيث كان والده يرأس جماعة الخلواتية الصوفية وهي إحدى الطرق الصوفية في مصر والتي تقيم في قرية القرنة على الضفة الغربية لنهر النيل في مدينة الأقصر، بين أنقاض المعابد الواسعة وفوق المقابر الفرعونية. أكمل الطيب جزءًا من دراساته في فرنسا.

قابلته للمرة الأولى عندما كان رئيسًا لجامعة الأزهر بصفته موظفًا مدينيًا أثناء مؤتمر في ربيع 2010، فوجدته باللباس الديني المعتاد والخدين الملتحيين وعمامة الرأس، كان المؤتمر مخصصًا للحديث عن الإمام الأشعري، القانوني والفقير من القرون الوسطى، الذي أراد الأزهر أن يكون مرجعه لمعارضة الإمام ابن حنبل، مرجع الوهابيين السعوديين - تلاميذه وأتباعه -.

أثناء الثورة، أظهر الإمام الأكبر، وكذلك البابا القبطي شنودة الثالث، الكثير من الحذر الذي رأى خصومه أنه مبالغ فيه. وفي الوقت الذي كان الشيخ القرضاوي، الأزهرى

والإخواني المصري الذي يحمل الجنسية القطرية، يعتلي أكبر المنابر في ميدان التحرير ويستولي على مكبرات صوتها لإلقاء خطبة الجمعة يوم 18 شباط/ فبراير، كان بالكاد ينظر إلى ممثلي الإمام ومؤيديه، بل كانوا مهمشين. أراد الإخوان أن يمثلهم القرضاوي، لذا طلبوا منه الحضور من قطر، ولا بأس ما دام ذلك سيعود عليهم بالنفع وسيرفع من مكانتهم الدينية في أعين الناس من خلال كرسي متواضع وواعظ إسلامي «معتدل». ونتيجة لذلك، وبتأثير من السلفيين، تظاهر طلاب الأزهر للمطالبة بانتخاب إمام أكبر جديد بدلاً من الطيب، وأن يتم تعيينه بواسطة نظرائه من أساتذة الأزهر وليس عن طريق الحكومة.

* * *

في هذه الأجواء القلقة التقيت الشيخ الطيب. تقع ساحة الإمامة الواسعة بالقرب من مبنى جديد على أطراف المدينة القديمة، تحتلها مدرعة وقوات الجيش واثان من رماة المصفحات الرشاشة. أردت مساءلته عن الدور الذي يستطيع الأزهر أن يضطلع به في هذه الفترة الثورية حيث تبدو مصر وكأنها فقدت بوصلتها، فسألته عن رؤيته للاستقطاب الحادث للقوى المتواجدة حالياً والمنقسمة إلى معسكر إسلامي أو على الأصح إسلاموي، وآخر ليبرالي، أو بالأحرى علماني؟

فقال: «في الإسلام، يحرم هدم قبور الصالحين، الموالين لله والمخلصين في عبادته. ويحظر أيضاً فعل ذلك بقبور المسيحيين، الذين هم أهل الكتاب، فهم الموحدون الذين أوحى إليهم الكتاب المقدس. وأولئك المتطرفون الذين يعتدون على إخواننا الأقباط، ينتمون إلى نسخة مشوهة من الدين الذي لا يأتي من مصر والإسلام يرفضهم».

وعندما سألته عن إمكان فصل الدين عن الدولة في دستور البلاد مستقبلاً، نفى ذلك تماماً، وقال:

- «لا، المصريون من مسلمين ومسيحيين متعمقون في إيمانهم، إن الفصل التام للدين عن الدولة، الذي تسمونه علمنة، لا تصوره عندنا».

* * *

عند وصولي إلى مقر جامعة الدول العربية للقاء أمينها العام، عمرو موسى، كان ميدان التحرير محاطًا بالأسلاك الشائكة. لذا دخلت المبنى من باب سري قريب من المدرعات الكامنة خلف سياج ويعادل ارتفاعه صقالات فندق هيلتون القديم.

وأنا في سيارة الأجرة التي توجب عليّ مغادرتها فيما بعد للوصول سيرًا على الأقدام إلى المكان المغلق بسبب إعاقة حركة المرور، أعلنت الإذاعة بشكل مبهم وغير مباشر أن تظاهرة البارحة قد تحولت إلى نكد ومرارة. وكان قد حدث صوت طلقات رصاص في أوقات حظر التجوال، وفي حوالي الساعة الثالثة فجرًا، كان هناك قتل أو أكثر، مع عشرات الجرحى ومئات المعتقلين. وفي المكان نفسه، لاحظت احتراق مركبتين للنقل وشاحنة منصة طويلة وسيارة.

سألت عمرو موسى عن أهدافه السياسية، قال:

- «دعوت إلى التصويت بـ«لا» في الاستفتاء. ولا أقبل بالانتخابات البرلمانية التي تسيطر عليها هيئة الأركان العامة العسكرية والإخوان المسلمون. وليس هناك شك بأن الرئيس الجديد سيكون رهينة لنائب الرئيس الذي بدوره سيكون تحت إشراف وسيطرة الجيش».

إن رئيس الدولة الذي أطمح إليه بحاجة إلى مواجهة تحديات مصر، وإلى دستور جديد، رئاسي وبرلماني في آن معًا على غرار دستور الجمهورية الفرنسية الخامسة. وحده الرئيس الذي يتمتع بشرعية انتخابات شفافة بإشراف دولي يستطيع التغلب على الاستقطاب الحاصل بين التيارات الإسلامية والليبرالية التي تعرقل حتى اللحظة سياق التغيير المنبثق من الثورة».

* * *

بعد مغادرة مبنى جامعة الدول العربية، مررت بميدان التحرير للعودة إلى شقة بيار سيوفي، وفيه، تآثرت النفايات وطلقات الرصاص والقذائف، الحواجز الشائكة والدعامات المعدنية. وأطفال الشوارع ذوو الأمزجة العصبية، وأغلبيتهم ذوو مظهر رث وقدر، بأيديهم قطع خشبية وقضبان من حديد، يرصدون المكان هنا وهناك حيث يسود صمت ثقيل.

وسط الميدان، تجمهر عدواني يحيط بامرأة عجوز سمينة، ملتحفة بالسواد ولا يظهر

من وجهها إلا عيناها، واعتدوا عليها لإجبارها على فتح حقيبتها. لا أشك بوجود عوامل استفزازية تختفي وراء زي المرأة المحجبة، مما يثير الريبة من حيث قامتها الأقرب إلى الذكر. وعلى نحو مفاجئ، تصاعد دخان من المتحف، اجتاحت جموع الشباب الذين تسارعوا إليه وهم يصرخون. بالطبع لم يكن الوقت المناسب لمصاحبة رجل أجنبي «الخواجة» يرتدي بذلة رسمية أنيقة وربطة عنق والتسكع معه في الشوارع.

وأنا أستقل المصعد الكهربائي للوصول إلى شقة بيار، رأيت ملصقاً دعائياً للإخوان المسلمين، فانتزعتُه بحذر واحتفظت به في مفكرتي. في بدايته كتب شعار مستوحى من التظاهرات «ارفع رأسك، أنت مصري» ويقابل الشعار وجه مرفوع الرأس من تصميم عام 1930م، وفي أعلاه العلم المصري بألوانه الوطنية، أما عنوان النص فكان الآتي: «بلدنا نبيه، ومن الفساد نحيمه»، وهذه هي ترجمتي لمحتواه:

«أنا فخور بانتمائي إلى مصر من أجل ذلك سأنبيه، سأكافح الفساد بأنواعه، ولن أعطي رشوة لأحد.

- إيجابي: أرفض الخطأ وسأتبع طريق الحق والصواب.
- نظيف: لا أرمي النفايات في الشارع.
- منظم: أحترم حركة المرور والنظام في أي مكان.
- أمين: أحمي ممتلكات الجميع.
- شجاع: لا أظلم ولا أقبل بالظلم والاستبداد.
- مجتهد: أهتم بعملتي وأنجزه بتفانٍ.
- متعاون: أضع يدي في يد كل من يفعل الخير.
- متفائل: أأمل أن يكون الغد أفضل من أمس، وأن يعتم الخير جميع الناس».

«توقيع: الإخوان المسلمون».

لا أعلم هل إن الجماعة هي التي طبعت هذا الملصق أم إن منظمة أخرى استخدمت الأحرف الأولى لشعارها وادعت أنها للإخوان. لكن هذه هي تعليمات حزب جديد يريد جمع الناس حولها. لا تحتوي على نصوص إسلامية مقدسة لكن تستقي منها تجريم الفساد الذي يدينه القرآن بالمعنى الأخلاقي، مثل استشرء الفساد في الإدارات عبر دفع

«البقيش»)، وهي لفظة محلية قديمة باللغة الفرنسية تسمى «رشوة» بالعربية الفصحى. هذه التعليمات عبارة عن مزيج غريب من الآداب السلوكية والتحضر والأخلاق سعيًا منها للربط بين نقد الماضي وبناء المستقبل.

* * *

استيقظ بيار للتو، لقد صوّر جميع أحداث أمس طيلة الليل ونشرها في موقع يوتيوب بعد معالجتها، وشرح لي ذلك بالفرنسية، ليتمّ تداولها بعد ذلك في جميع المواقع الإخبارية الكبرى في مختلف أنحاء العالم.

فتاة صغيرة جدًّا بلباس رياضي برتقالي اللون، مجمعة الشعر، وبتسريحة قصيرة أنيقة، وعينين متفتحتين من قلة النوم، اقترحت عليّ باللغة الإنكليزية تناول القهوة التركية، فأجبتها باللغة العربية. ولتحديد مستوى السكر قلت لها كما يقول المصريون: «عالريحة من فضلك» أي «قليلاً من السكر»، نظرت إليّ باستغراب لكن بيار قال لها: إنه مستشرق. ثم اصطحبني لرؤية أفلامه، وأثناء ذلك حدثني قائلاً:

«بالأمس، في وقت متأخر من بعد الظهر، انضم عشرة ضباط يرتدون الزي العسكري إلى المتظاهرين للمطالبة باستقالة المشير طنطاوي، إنهم يتهمونه بعدم اكتراثه بمحاكمة قادة النظام المخلوع، وهو أقدم عسكري بأعلى رتبة.

وفي المساء، جاء القائد العام «الجنرال» المشرف على المنطقة عسكرياً برفقة الحرس للبحث عن هؤلاء الضباط الذين لا يريدون الانصياع لأوامره. كانوا يعلمون جيداً أنهم سيساقون إلى المحكمة العسكرية. انتزع الناس شارة الجنرال من كتفيه ولم يستطع الخلاص منهم إلا بمساعدة الحرس المرافق له.

وبسبب هذا الهجوم المزدوج ضد المؤسسة العسكرية، قرر الجيش تكثيف نشاطه إبان حظر التجوال عند الساعة الثالثة صباحاً في حين لم يغادر المتظاهرون الميدان».

في الصور، نرى المدرعات المتقدمة، والجنود يتقلون سيراً على الأقدام، كما ويمكن سماع صوت إطلاق النار. ألقى القبض على المتمردين، وسرت إشاعات مفادها أنهم لقوا حتفهم. وعند الفجر، وصلت شاحنة تحتوي على أسلاك شائكة، بدأ الجنود بإفراغها وتركيبها. ثم شوهدوا وهم مجتمعون بقيادة أحد الضباط وغادروا المكان قبل الانتهاء من

علمهم، مخلفين وراءهم المركبات دون رقابة. هل صدرت أوامر تناقض أوامر تركيب هذه الأسلاك؟ من أصدر هذه الأوامر؟ ولماذا؟ توحى الصور بالتردد غير المفهوم في عملية صنع القرار. وفي المكان نفسه الذي فرّ منه العسكر، جاء بضعة أشخاص ورموا قنابل المولوتوف باتجاه المركبات المهجورة لتشتعل على الفور.

* * *

كان ممدوح إسماعيل أول سلفي التقيته في مصر التي لم يتواجد فيها أبداً عندما أنجزت بحثي في أوائل ثمانينيات القرن العشرين. لم يتوسع نفوذ السلفيين وتزداد أنشطتهم إلا في عهد مبارك الذي استغل بعضهم ضد الإخوان المسلمين. ولكن العديد منهم نجا من قبضة السلطة، وتفرغ لدعم التجمعات المعارضة في الأحياء الشعبية، خصوصاً في الإسكندرية حيث يطاردون النساء غير المحجبات، وبائعى أشرطة الفيديو، ومصففي الشعر للسيدات، والأقباط. في عيد رأس السنة العام 2001، استعانت الشرطة السرية بالسلفيين المتطرفين ذوي النفوذ للهجوم على كنيسة القديسين، لكن هذه الشكوك لم تسهم ولو قليلاً في تشويه سمعة نظام مبارك البائد.

لقد دهشت عندما وافق إسماعيل على طلبي لمقابلته من دون تردد، والوسيط الذي نقل إليّ خبير الموافقة بالأمس كانت صحافية محجبة، وأكثر من ذلك، حدد لي مكان اللقاء في نقابة المحامين، وهو مبنى على الطراز الفرعوني الحديث، بُني في مطلع القرن العشرين بالقرب من المقر السابق للمحاكم المختلطة، في قلب القاهرة. كنت أتوقع أن أرى رجلاً غريب الأطوار بثوب قصير، ذا لحية كثة وشارب حليق كما هو الحال لدى السلفيين القاطنين في ضواحي باريس الذين يجوبون المدن بزي «الجرس» وهو الجلالية المتصل بأعلاها غطاء الرأس، وبأحذية رياضية من صنع شركة «نايك»، ويقضون جلّ وقتهم في التبشير الهدام لهداية فرنسا الكافرة. لكن توقعاتي ذهبت أدراج الرياح، فإسماعيل يرتدي بذلة وربطة عنق، وبنظوناً يطوى عند حذائه لطوله الزائد، استقبلني في مكتبه الواسع حيث يعمل رئيساً لقسم حقوق الإنسان في نقابة المحامين...

«قال لي: «لا أخفي استغرابي، اعتقدت أنك أكبر سنّاً. قرأت منذ مدة طويلة الترجمة العربية لكتابك «النبي والفرعون» الذي نشر في الثمانينات، كما تعلم كان رواية عن جيلنا من الطلاب الإسلاميين...».

إسماعيل هو عضو سابق في الجماعات الإسلامية، والجمعيات الطلابية الإسلامية الأصولية التي كنت قد خصصت فصولاً طويلةً للحديث عنها في كتب سابقة، والتي اطلع عليها عندما درس الحقوق في جامعة القاهرة. لا يزال يعتبر نفسه معارضاً ويؤمن بنسبة ضعيفة جداً بمعتقدات السلفيين ذوي النفوذ السياسي لا تتجاوز الـ5% حسب قوله.

يقول «منذ عام 1999، تقدمت بطلب لإنشاء حزب سلفي. ولم يكن لدي أي أمل للموافقة عليه، لكنني أردت تسجيل الطلب رسمياً والتأكيد عليه وتحديد موعد. ولانتمائي إلى الهيئة الإدارية في نقابة المحامين سمح لي بالبقاء في منطقة شبه حرة سمح بها نظام مبارك. قدمت أخيراً طلباً جديداً للموافقة على تأسيس حزب النهضة المصري».

– هل تعتقد بأن الحزب سيكون نموذجاً مماثلاً للأحزاب السلفية الممثلة في البرلمان الكويتي؟

– في الواقع، هو سيراقب الحكومة فيما إذا كانت تطبق الشريعة الإسلامية أم لا تمامًا كما تفعل الأحزاب الكويتية. إن التحالف الذي نتمناه هو الائتلاف بين الإخوان المسلمين والسلفيين كي تتحد كل الحركات الإسلامية باختلاف أهدافها لمواجهة الليبرالية، إنها العدو الذي لو تركناه يفعل ما يريد لفتح طريق الفساد أمام مصر».

بعد المقابلة، اتصل إسماعيل مجبراً بالمتحدث الرسمي لجمعية الدعوة السلفية في الإسكندرية الذي وافق على مقابلتي صباح الغد. في عهد مبارك، أي قبل ثلاثة أشهر فقط، كان من المستحيل أن يقترب منه أجنبي وإلا تعرض للطرده من البلاد عن طريق البوليس السياسي. بعد ذلك غادرنا المكتب لنضع اللمسات الأخيرة على بيان قسم حقوق الإنسان في نقابة المحامين عن اشتباكات الليلة.

الأحد 10 نيسان / أبريل 2011

الإسكندرية : السلفيون والنادي اليوناني

كان شاطئ جليم، في حي سان ستيفانو، يحظى بشعبية كبيرة لدى الإسكندرانيين في القسم الأول من القرن العشرين. تخيلته واسعاً ونظيفاً، بمقاهٍ تمتد على طول الكورنيش حيث يتناول اليونانيون مشروب أوزو الكحولي والإيطاليون مشروب كامباري قبالة الفيلات المحاطة بالحدائق والسيارات النادرة.

ولعل هذا هو الذي وجده كونستانتين كفا في ليصف الشاطئ بعد ذلك في قصيدته التي تبعت على الحنين «أيام الـ 1908». وكما أشار إليها الروائي اليوناني ستراتيس تسيركاس الذي ولد وعاش في الشرق الأوسط في أربعينيات القرن العشرين، قائلاً: «في الفجر، ذهب شاب فقير للاستحمام في البحر، ف شعر بالانتعاش أثناء السباحة، ثم عاد مرة أخرى وغاص فيه حتى اختفى جسده الأسمر إلى الأبد في مدينة تتقاذفها الأمواج».

امتلاً الكورنيش بمبانٍ قبيحة المنظر وجدرانها متصدعة ومهترئة وملئة بالتشققات. كما أن حركة المرور في الإسكندرية سريعة والشوارع مكتظة جداً مما يجعل عبور الطريق تحت التهديد المتواصل لأبواق السيارات يعادل محاولة انتحار. على أي حال، لم يعد هناك سبب للمجازفة ولم يعد يوجد مقهى للحصول فيه على كأس من المشروبات الروحية، فالشريعة الإسلامية هي المسيطرة والحلال يفرض على السكان بالأمر.

* * *

مع زميلي الشاب ستيفان لاكروا، ننتظر حضور عبد المنعم شحاتة الذي ضرب لنا موعداً في نادي المهندسين، وهي إحدى المؤسسات التي استفادت في عهد مبارك من نظام شبه حر.

استعمرت هذه الأندية المخصصة للهيئات المهنية شاطئ جليم منذ عهد عبد الناصر، قد شكّلت إحدى زخارف مصر الاشتراكية، وأقصت بذلك الطبقات العالمية ذات الأعراق والأجناس المختلفة عن رمال إسكندرية الأوس. انتشرت على شاطئ البحر مبانٍ خرسانية متداعية وكراس بلاستيكية غير متجانسة، لتصبح اشتراكية الحمامات البحرية وفقاً على المحاسبين، والأساتذة، ورجال الأعمال والمحامين والصحافيين وغيرهم من المهنيين. ومهما يكن الأمر، لم يعد هؤلاء يستحمون بمياه جليم لأنها أصبحت ملوثة جداً كما أن نساءهم المحجبات لم يلبسن وفقاً للنظام الإسلامي مايوه السباحة منذ حوالي عشرين عاماً.

واجهتنا صعوبة عند دخول النادي المخصص للأعضاء فقط، حيث وصلنا قبل المهندس عبد المنعم، المتحدث الرسمي باسم أكبر حركة سلفية في الإسكندرية، العالق في زحمة السير. عندما خلعت العاصمة الصيفية للبلاد من تركيبها الشرقية والأوروبية المتنوعة عبر تأميم الأملاك والطرود الناصريين. استثمر سكان الأرياف ممتلكاتها المهجورة وأحياءها

الواقعة في الأطراف على طريقة الأحياء الأوروبية في دولة الجزائر المستقلة. لقد أبعدهم الانفجار السكاني وتأميم الأراضي تحت مظلة الاشتراكية العربية عن الريف، وفي حوض هؤلاء الريفيين النازحين، انتشرت السلفية كالنار في الهشيم منذ عشرين عامًا.

أخيرًا أقبل محدثنا هادئًا وودودًا، مرتديًا سترة وبنطلونًا وليس جلابية كالتي ارتداها عندما التقى المحامي القاهري بالأمس، كث اللحية وأفطس الأنف، أصلع الرأس وقصير. إن شحاتة بشكله المستهجن يشبه الإله الشهواني سيلن الذي يمثل في الأساطير اليونانية العجوز المرح والقبیح جدًّا ذا الأنف المسطح والكرش الكبير، الذي بقي حيًّا بعد موت الإله «بان» العظيم. أخبرني ستيفان، الذي اطلع تمامًا على الكتب التي ألَّفها سلفيو مصر وأدبهم عبر الإنترنت، أن معظمهم غيارى جدًّا على الهوية الوطنية وحرصون على عدم الظهور في أعين الأجانب كمجرد وكلاء مرتزقة للمملكة العربية السعودية، بالرغم من ذلك لقد بادرت الحركة إلى تنفيذ هذه الخطوة على الفور في وادي النيل عن طريق جماعة أنصار السنَّة المحمدية الذين يسميهم خصومهم «السفارة الدينية للسعودية».

فيما يختص بأسئلتي حول تاريخ الحركة، نسب المهندس عبد المنعم ولادة السلفية في العالم إلى الحركة الإسلامية المصرية المستوحاة من الإمام الجليل رشيد رضا، اللبناني المقيم في القاهرة منذ مطلع القرن العشرين، ومؤلف كتاب «تفسير المنار» الذي يفسر فيه بعض سور القرآن بمعانٍ متشدة.

منذ الـ1980، بدأ جسد الحركة بالتشكل بين بعض طلاب الجماعات الإسلامية الذين عدلوا بعد اغتيال السادات في عام 1981 عن الانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين أو الجهاديين المتطرفين، ليتفرغوا لإعادة أسلمة المجتمع ابتداءً من قاعدته.

«هل تفكر في إنشاء حزب كما فعل المحامي ممدوح إسماعيل؟»

لا، على الإطلاق. بالنسبة إليّ، فإن السلفيين يشكّلون قوة ضغط لا أكثر. هدفنا هو العمل بطريقة ما لجعل المرشحين من مختلف الأحزاب يطبقون برنامجنا، وهو: الامتثال لأحكام الشريعة الإسلامية، والالتزام بأن يكون رئيس الجمهورية مسلمًا مؤمنًا بالله، إلخ. وفي هذا الصدد، أجد عمرو موسى غير مناسب للترشح للانتخابات الرئاسية لأنه علماني أكثر مما ينبغي.

- وماذا عن الإخواني، أبو الفتوح؟

- لا فرق بينهما، لا أعتقد بأنه سيطبق الشريعة الإسلامية.
- كيف تنظرون إلى الحوادث المنسوبة إلى السلفيين في الأسابيع الأخيرة ضد الصوفيين، والنساء والأقباط؟
- معظم هذه الاتهامات هي من افتراءات وسائل الإعلام، وفي مصر، جميع الصحف وقنوات التلفزيون في أيدي «الليبراليين» والعلمانيين، هؤلاء هم أعداؤنا في العلن.
- انقطع حديثي مع عبد المنعم شحاتة حين ارتفع صوت المؤذن مدويًا عبر مكبرات الصوت يدعو إلى صلاة الظهر من مسجد نادي المهندسين.

* * *

لكي أستطيع الذهاب إلى النادي اليوناني لتناول وجبة الغداء مع صديقي منذ ثلاثين عامًا جورج، استقلت سيارة أجرة أوصلت أولاً ستيفان إلى مكتبة الإسكندرية. يسجل عداد سيارة الأجرة القديمة المتهاكة البيانات باللغة البولندية ويذكرنا بالأهمية البروليتارية في العهد الناصري، عندما كانت مصر شبه مستعمرة سوفياتية. وظيفتها من الآن وصاعدًا شكلية فقط لأن تحديد أجرة الطريق يتم بالاتفاق بين السائق والراكب.

جلس ستيفان بجوار السائق الذي كان حليق الرأس وكثيف اللحية، ويعد هذا المظهر تطبيقًا عمليًا فوريتًا لمحاضرات السلفيين المتسلطة التي خضعنا لها. وعلى مرآة الرؤية الخلفية يوجد مدلاة معلقة من بقايا أحداث 25 كانون الثاني/يناير، قال السائق:

«- هذه هي الثورة!

فسأله ستيفان:

- هل شاركت فيها؟

- بالطبع، ضد الفساد! نحن الآن أحرار.

- هل تنتمي إلى حزب الإخوان؟

- لا، أنا سلفي.

شاركتُ في النقاش، وسألت بدوري السائق:

- كنت أظن أن السلفيين لم يشاركوا في الثورة؟

- بلى، كل أهل الحي الذي أسكن فيه سلفيون وجميعهم شاركوا في الثورة وتظاهروا أمام مبنى المحافظة، والله الحمد».

علمنا بأنه يقيم في منطقة كرموز الفقيرة الواقعة بين المحطة الرئيسية لتوليد الكهرباء ومقابر كوم الشقافة، وتنحدر عائلته من أسيوط في صعيد مصر، لكن السائق ذا البشرة الداكنة جداً لم يعد يتحدث بلهجتها الخاصة. الناس في كرموز هم مجموعة من المهاجرين. والسائق الذي يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، أب لطفلين وهذا العدد قليل بالنسبة إلى أي سلفي، فهل سيبدأ بالأخذ بمبدأ الواقع الاجتماعي حتى في المنزل، فيما يختص بالتكاثر وعدد المواليد؟ تعلم السائق ميكانيك السيارات، التي بالكاد كان يتفق منها على معيشتة، ومن ثم قاد سيارة الأجرة، ولكن الحياة صعبة، وكما يقول انخفض عدد الركاب منذ بداية الثورة.

لم يغادر سائقنا الإسكندرية يوماً ما إلا عائداً إلى قريته النائية خلال الاحتفالات العائلية، وكان يعتقد أننا من اليمن. وعلى الرغم من أن ستيفان قد عاش في هذا البلد، ولا تزال لغته العربية تحتفظ بآثار من الأسلوب الخاص بكلام سكان شبه الجزيرة العربية، لكن لا هو ولا أنا نتحدث اللهجة اليمنية. لذا حاولت أن أجعله يتنبأ من أين نحن بإعطائه الأحرف الأولى من كلمة «France» باللغة العربية، لكنه لم يتوصل إلى ذلك ولم يفهم قط معنى كلمة «فرنسا» عندما نظقت الاسم.

أعطيته عنوان النادي اليوناني، بالقرب من القنصلية اليونانية، وهي المبنى الأثري في الإسكندرية الحديثة منذ أواخر القرن التاسع عشر، ويقع على بعد أقل من كيلومتر واحد من الحي الذي أعيش فيه. اكتشفت بأنه ليس لديه أدنى فكرة عن المكان الذي يوجد فيه على كوكب الأرض، ولا يعلم ما هو الفرق بين «اليوناني» و«الياباني». اتصلت بجورج، وقبل أن يتحدث إلى السائق لكي يصف له الطريق، أخبرته بالفرنسية بأنه سلفي «وعلى وجه الخصوص، لا يُسمح له بالدخول إلى النادي!» فاستجاب لطلبي وقد استولى عليه القلق...

* * *

وصلت إلى النادي اليوناني قبل جورج الذي تأخر بسبب عرقلة حركة المرور حول منزله في الحي اليوناني القديم الذي يقع على جانبي شارع الملك فؤاد الأول المعروف لدى الإسكندرانيين القدماء بطريق موتى الفراغنة العتيق. لم يغير أحد اسم هذا الشارع بعد

انقلاب الضباط الأحرار على الدولة في شهر تموز/ يوليو عام 1952م الذي أصبح اسمه رسمياً «شارع الثورة»، ربما يُسمى لاحقاً بذلك ولكن من ثورة 25 كانون الثاني/ يناير عام 2011! وبالعودة إلى تاريخ هذا الحي الذي كان غنياً في الماضي، نجد أن الفيلات الجميلة قد تحولت إلى مبان إدارية، أصبحت متهدمة الآن، بعد وضعها تحت الحراسة في عهد عبد الناصر. يضم الحي أيضاً مقر المحافظة الذي أُحرق وهُدم في شهر كانون الثاني/ يناير ولم يعد سوى كومة من الأنقاض في قلب المدينة.

امتد الغضب الشعبي في الإسكندرية إلى جميع مكاتب المفوضيات تقريباً وأحرقتها برمتها. ومن أسباب هذا الغضب أن شاباً جيداً من جميع النواحي، عاد مؤخراً من الولايات المتحدة، اسمه خالد سعيد تعرّض للتعذيب حتى الموت. وتُرك الشرطيان اللذان ارتكبا جريمة القتل بحق طفل بريء لم يقترف جرماً ينتمي إلى الطبقة الوسطى من المجتمع دون عقاب، وإن دلّ ذلك على شيء فهو يعبر عن حجم الأزمة الأخلاقية في نهاية عهد مبارك، وهو الأمر نفسه الذي يدل عليه الهجوم على كنيسة القديسين القبطية في الإسكندرية أيضاً في بداية العام الجديد. وبناء على ذلك، قام الشاب المصري وائل غنيم، الذي يشغل منصب المدير الإقليمي لشركة غوغل في الشرق الأوسط والمقيم في مدينة دبي، بإنشاء صفحة «كلنا خالد سعيد» في موقع التواصل الاجتماعي فايسبوك. وائل المتعاطف مع الإخوان المسلمين هو أحد الذين ساهموا بشكل أساسي وفعال في حشد الشعب قبل الثورة من خلال الاستفادة من سخط الطبقة الوسطى والشباب المتعلم ضد النظام القديم.

يقع منزل جورج بين القنصلية الليبية المحاصرة بدبابات الجيش التي تعيق حركة المرور والقنصلية السعودية التي هي عبارة عن فيلا فخمة مبنية على الطراز الفني الحديث وتعود ملكيتها فيما مضى إلى عائلة يهودية غنية من وجهاء المدينة. على مدى عقود، يجلس على رصيف المشاة المقابل لشقته فلاحون ليلاً ونهاراً بلباسهم الريفي المعروف، الجلالية والعمامة، ينتظرون دورهم للحصول على تأشيرة دخول إلى أرض النعيم الوهاية السلفية، بلاد البترودولار «السعودية». لكن منذ بدء الثورة، حلّ محلهم مدرعات الجيش لضمان أمن الحي بعد أن تلاشى وجود الشرطة. لفت ضباط الصف الشباب، الذين تحملوا مسؤولية أمن الحي، الأنظار إليهم بحسن مظهرهم وسلوكهم المهذب، وكانوا خير مثال لشعار «الجيش مع الشعب يداً بيد» إذ كانوا معهم يتغنون بالثورة ويحتفلون بها طيلة أيامها، وكان جورج وسكان الحي يحضرون لهم الحلويات.

لقد شهد مبنى النادي اليوناني المنخفض الارتفاع فترات أكثر بهاءً وتألُّقاً مما هو عليه اليوم. حتى نهار يوم الأحد، لم يعد يجتمع فيه إلا بعض الذين اعتادوا على التردد إليه من لاعبي النرد، وكبيرات السن وأخريات أصغر سنًا جئن برفقة أزواجهن المصريين ويتحدثن العربية معهم.

في المدخل، أُصقت لائحة الأعضاء، المصنفين حسب الأقدمية على جدول إكسل، وندرت الأسماء اليونانية لمصلحة أسماء أسر مصرية معروفة، من أقباط ومسلمين على حد سواء، كما أنها تكتب في الوقت الحالي باللغة الإنكليزية. وفي المكان الذي يجتمع فيه الأعضاء، يوجد ثلاث لوحات رخامية محفورة بالذهب وحدد عليها باللغة اليونانية أسماء «المترعين الكبار» من الزمن الغابر (بينهم أثرياء اليونان اليوم مثل البناكي الداعم والراعي لمتحف هيلين الخاص والأكثر أهمية، أو عائلات شيو الغنية)، ثم «المترعين»، وأخيرًا «المانحين الأفراد».

بالطبع تردد كلُّ من الشاعر اليوناني المصري كفاي والكاتب تسيركاس إلى هذه الأماكن، لكن لا أثر لهما يدلُّ على ذلك. في هذه القاعة التي لا يسكن ذاكرتها إلا الأثرياء، لا يوجد فيها إلا أثر مقتضب لأفضل كتاب الحضارة اليونانية المفلسين في العصر الحديث. لم يتبق من المجتمعات القديمة المزدهرة إلا بضعة مئات من الأرواح والكثير من الموتى، الذين يرقد البعض منهم في مقابر متجاورة تشغل مساحات شاسعة.

* * *

وأخيرًا وصل جورج، حاملاً معه طبقاً من ورق العنب المحشو الذي أعدته له خادمته، وبعضاً من شرائح المرتديلا الإيطالية وفي جيبه زجاجة نبيذ الأوزو للاحتفال كما ينبغي بجمع شملنا مجدداً. لم يعد بمقدورنا تقريباً تناول المشروبات الكحولية في مطاعم الإسكندرية إلا في تلك التابعة للفنادق الفخمة النادرة. كبير الخدم في النادي منذ زمن بعيد، رجل نوبي عجوز أترم ومصاب بمرض التراخوما، يقترب منا وهو يعرج حاملاً «الشامانيا»- وهي تسمى كذلك باللغة الفرنسية في مصر-، وإذا لم يكن هناك قارورة لنبيذ الشمبانيا، تقدم في وعاء زجاجي.

نشر جورج في أئتنا مجموعة روايات عن الإسكندرية في فترة شبابه على نفقته الخاصة، وهي عبارة عن خماسية «فرانكو- مشرقية». في هذا الفضاء المههد بالزوال، تشكّلت الثقافة

الحضارية الكوزموبوليتية للإسكندرية المكونة من أصول مختلفة ومن وادي النيل. لتجد أقلية من أصول جنوب-أوروبية، أرمنية، كلدانية، مالطية، لبنانية-سورية... بالإضافة إلى المصريين المثقفين الذين تواصلوا باللغة الفرنسية النيلية بالنغم الإيطالي. ويتخلل هذه المجموعة الروائية تعبيرات خاصة مقتبسة من اللغة العربية مثل «تصل بالسلامة»، وتقدر قيمتها ببضعة قروش لكن الطالب المفلس لا يملك حتى «القرش».

كل شيء يقترب من الحافة مع مرور الزمن إلا جورج المفعم حماسة وغضبًا، لم يتغير منذ عرفته من ثلاثين عامًا. كان يصطحبني لتناول طعام العشاء في القاعات التي تفوح منها رائحة «الفتالين»^(*) في شارع فؤاد حيث ينبغي عليك لبس ربطة عنق عند الذهاب إليها، من بينها تلك الفنادق التي تحمل أسماء بعض الشخصيات مثل الكاتب باتريك موديانو الذي ينحدر من أصول إسكندرية. أتذكر الفضيات المتناثرة بين الأثاث والديكور المصمم بطريقة فنية رائعة وحفلات منطقة ساحل العجمي حيث الأسلاك الشائكة والحراس الذين لا يملكون الآن غير العصي لحماية مرتادي الشاطئ من المسلمين الملتحين الذين تلتصص أعينهم وتتلذذ بالنظر إلى ذلك الجزء من الشاطئ حيث تستلقي السيدات بلباس السباحة (المايوه).

خاف جورج من الثورة وتكاثر السلفيين زاد من هذا الخوف، إذ وصل انحطاط الإسكندرية معهم إلى الحضيض. ومنذ اختفاء الشرطة لم يعد يتحدث الناس إلا عن السرقات والاعتداءات. تزوج جورج في سن متأخرة من سيدة فرنسية، ويقضي فصل الصيف على ساحل كوت دازور في جنوب فرنسا، والخريف في هيلاس اليونانية، وينوي الإقامة في مدينة نيس الفرنسية. قال لي: «اقرأ عليها السلام، هذه الإسكندرية التي تفقدها».

الاثنين 11 نيسان / إبريل 2011

الإخوان المسلمون القوة الأولى في مصر الجديدة

عصام العريان هو الآن المتحدث الرسمي لجماعة الإخوان المسلمين التي تعدّ في هذه الفترة، دون أدنى شك، القوة الأولى في مصر الجديدة بعد الثورة. رأيت عصام بشكل منظم خلال رحلاتي إلى القاهرة، قبل دخوله السجن. هذا الطبيب بشخصيته المرحة

(*) الفتالين: وهو ميد حشري ذو رائحة خاصة جدًا، استخدم في نهاية القرن التاسع عشر وأثناء القرن العشرين، وكان يوضع في خزان الملابس لحماية الفراء والصوف ضد العث، وهذا يعني أن الملابس التي تحمل هذه الرائحة لم تستخدم منذ فترة طويلة.

ولحيته الرمادية و«الزبيبة» الكبيرة التي تتوسط جبهته على شكل قرحة لونها ضارب إلى السمرة، كان في السابق طالب طب إسلامياً بارزاً في الجامعات الإسلامية في الجامعات في سبعينيات القرن العشرين. ونشر مقالات في مجلة الدعوة، وهي مجلة شهرية وقتئذ لجماعة الإخوان. اقتبست من هذه المقالات وترجمت منها ما يكفي منذ مدة طويلة. مما خلق بيننا علاقة رغم أنه لم يخف عني قط اختلافه معي فيما يختص بتحليلي للأوضاع، لأنه من الطبيعي أن يفضل تحاليل زملائه الأكاديميين المتخصصين بشؤون الحركات الإسلامية.

كان عصام عضواً في الكادر الشاب لحركة الإخوان الراض للتعنف الجهادي الذي يتبناه السلفيون المتشددون. ولقد مثل حلاً بديلاً للحرس القديم حتى انضم إلى «مكتب الإرشاد»، في أواخر عام 2009م، ليحل محل اثنين من زملاء الدراسة، وهما إبراهيم الزعفراني وعبد المنعم أبو الفتوح الذي غادر التنظيم، لكن هذين المرشدين الأكثر انفتاحاً لدى الإخوان تمّ تهميشهما من قبل المرشد الأعلى الجديد السبعيني «محمد بادي» والمتخرج في المدرسة الأصولية القريبة من منهج سيد قطب المدافع عن نظرية «سيادة الله» المعارضة لـ «سيادة الشعب» والذي أعدمه جمال عبد الناصر عام 1966م.

أصبح هو الوجه الخمسيني الذي منح المرشد الأعلى ولاءه التام، اختار عصام العريان الجماعة مقابل الإصلاح الديمقراطي للتنظيم الذي انضم إليه جيله عموماً مع الحفاظ على الخطاب المناسب لتطبيق الديمقراطية في المجتمع المصري. ومع بدء أحداث الثورة، لم يمر يوم تقريباً من دون أن يشارك في حوار متلفز حيث اتهمه معارضوه سواء كانوا ليبراليين أو علمانيين باستخدام لغة خشبية.

* * *

في منتصف النهار، عندما ذهبت وستيفان لرؤية عصام، كان الإخوان لا يزالون في شقة غير معدة للسكن على كورنيش جزيرة الروضة القريبة من ارتفاع النيل، وهو المكان نفسه الذي نفاهم إليه نظام مبارك. وفيه التقيت في الماضي الكثير من قياداتهم منهم عصام نفسه. اليوم، ينبغي عليهم مغادرتها خلال خمسة عشر يوماً للانتقال إلى مقرهم الجديد الذي سيكون شاهداً على سلطتهم الجديدة التي ستمنحهم مقاماً في الشارع.

استقبلنا عصام في مكتب مساحته حوالي عشرة أمتار مربعة، احتوى طاولة وثلاثة

كراس بمشقة. لم يعد هذا الأمر مؤثراً جدًّا بالنسبة إلى الحركة التي يتوقع أن تتسلم السلطة في هذا البلد قريبًا، وهذه هي المرة الأولى التي ألتقيه فيها وهو على كرسي المسؤولية وذو منصب بدون أن يتفاوض مع أمن الدولة حتى لا يتم اعتقاله. اليوم يستطيع أيضًا تأكيد أفكاره بدون أن يخشى الشرطة السياسية. ودخوله في الحديث كان أكثر أهمية بالرغم من أنه كان مفاجئًا:

«أردت القول أولاً إننا نحترم تمامًا هوية أوروبا المسيحية وليس لدينا نيّة بأسلمتها. وفي حال ساعدتنا أوروبا في تطوير هذا البلد والبلدان العربية الأخرى التي تكشف الديمقراطية، عندئذ نستطيع الإبقاء هنا على المسلمين الذين لن يحتاجوا إلى الهجرة للبحث عن عمل، وبالتالي لن يشكّلوا عبئًا سكانيًا وسياسيًا على الدول الأوروبية».

في قرارة نفسي، أعتقد أن عصام يفاجئني دائمًا، فبالإضافة إلى حديثه، تعامله الودود معي كأكاديمي أمثل السلطة الفرنسية بل حتى خدماتها الاستخباراتية، لقد أراد أن ينقل إليّ رسالة ما. لقد عرف القلق الذي يجتاح الرؤية الأوروبية من الثورات العربية الديمقراطية. إن الإخوان وحدهم الذين جعلوني أدرك أن على السلطة الحفاظ على النظام - الذي كان إسلاميًا - وتجنب الفوضى التي سوف تترجم إلى موجات هجرة كبيرة نحو الشمال. ومهما يكن تعاطف أوروبا وتأييدها للعلمانية أو الليبرالية في العالم العربي، فإنه لم يعد لديها خيار آخر وعليها الاعتراف بالإخوان والتعامل معهم كمرجعية، وهذه بالضبط الاستراتيجية نفسها التي اتبعتها اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا «UOIF»، الفرع الفرنسي غير الرسمي للإخوان، عندما طُرح كضمان للنظام الاجتماعي - القائم على أساس النظام الأخلاقي الإسلامي - في الضواحي.

«- سوف تنشئ حزبًا سياسيًا يُسمى «الحرية والعدالة»، ما علاقته بتنظيم الإخوان؟

- كلاهما مستقل عن الآخر. والجميع مدعو للانتماء إلى الحزب حتى المسيحيين، وفي المقابل، من غير المنطقي أن ينضم أحد أعضاء تنظيم الإخوان إلى حزب آخر.

- لكن هل فكرت في أبي الفتوح والإخوان الشباب الذي ننسب إليهم الاستقلالية السياسية في ظل انتمائهم إلى الإخوان؟

- لا تزال مطالب شباب الإخوان الذين يتمنون ديمقراطية التنظيم قيد الدراسة لكن لا يوجد سبب واحد للاستعجال من أجل القيام بانتخابات داخلية تحت ضغط أحداث الثورة.

تنتظرنا مهام أخرى على مستوى المجتمع والدولة، وعلى الإخوان أن يكونوا على أهبة الاستعداد لخوض المعركة. يملك الجهاز الإداري شرعية قوية عبر مقاومته الاضطهاد والتعذيب خلال العقود الماضية. بالنسبة إلى الشباب، ليس لديهم شرعية خاصة بهم إلا ما أنعمت عليهم به الثورة خلال الأيام القليلة الماضية في ميدان التحرير.

- من وجهة نظرك، كيف يجب أن تكون مواصفات الرئيس المقبل؟

- يجب أن يكون مسلمًا يؤدي واجباته الدينية على أكمل وجه، ليس لديه خيار في ذلك. أما الدولة فينبغي أن تكون مدنية، أي لا عسكرية ولا تيوقراطية، لكن مرجعيتها الإسلام.

* * *

استقبلني عبد المنعم أبو الفتوح في «دار الحكمة»، وهو مبنى على الطراز المملوكي الحديث في شارع قصر العيني، ليس بعيداً عن ميدان التحرير ومجلس البرلمان. أخذ المبنى اسمه من دار بغداد العباسية التي جمعت تحت سقفها فيما مضى، الكتاب والمفكرين، وهو اسم المؤسسة الفكرية نفسها التابعة لمنظمة حماس في غزة. يضم المبنى أنشطة متعددة لنقابة الأطباء التي كانت منذ عقود معقلاً للإخوان، وتغاضى عنه النظام السابق لتسهيل مراقبتهم من خلاله. في الماضي، كنت ألتقي فيه أحياناً عصام العريان.

يجلس أبو الفتوح، السكرتير العام لاتحاد الأطباء العرب، في مكتبه الكبير المؤثث جيداً. وفرّ له هذا المنصب حماية سياسية تجاوزت حدود الدولة، استطاع من خلاله مواجهة السلطة ومنحه شيئاً من الاستقلال الذاتي عن جهاز الإخوان. عندما التقيته كان مرتدياً قميصاً مخططاً مع ربطة عنق ملائمة بدون سترة، وهو رجل ودود وذو شخصية قيادية ملهمة، بالنسبة إلى شكله فهو ذو لحية بيضاء خفيفة، ولا يوجد زبيبة على جبهته، على عكس العريان الذي لا يهتم أبداً بمظهره إضافة إلى تنافر ألوان ملابسه.

هذه هي المرة الأولى التي ألتقي فيها أبو الفتوح. سألتني فيما إذا كنت أعرف آلان غراش، وهو رئيس تحرير صحيفة لوموند السياسية سابقاً وابن هنري كوريل، مؤسس الحزب الشيوعي المصري المنحدر من عائلة يهودية غنية عاشت في القاهرة وكانت تسكن في فيلا فخمة أصبحت اليوم مقرّاً للسفارة الجزائرية. كان غراش مسؤولاً ولمدة طويلة عن قسم الشرق الأوسط في الحزب الشيوعي الفرنسي. ومن ثم عمل كثيراً على

تقريب وجهات النظر بين الإسلاميين والمناهضين للإمبريالية، كما شارك في تأليف كتاب مع طارق رمضان. ووجه دعوة إلى «أبو الفتوح»، كما قال لي هذا الأخير، للذهاب إلى باريس وزيارة البرلمان لحضور جلسة نقاش أتصورها إحدى القاعات التي خصصها المجلس للحوار.

سألته عن رأيه في حديث الشيخ القرضاوي الذي يرى أن «المنطق يفرض أن يكون الرئيس المصري القادم مسلماً مؤدياً جميع واجباته الدينية»، في حين صرح كامل الهلباوي، الممثل الدولي السابق لجماعة الإخوان، في لقاء مباشر قبل بضعة أيام في قناة الجزيرة، وفقاً لصحيفة المصري اليوم هذا الصباح، بأن مصر الديمقراطية قد تحكمتها أيضاً امرأة أو قبطي وأن المنافسة يجب أن تسود. ويتفق معه أبو الفتوح تماماً، وبناء على ذلك، استنتجت أنه على خلاف مع عصام العريان الذي نفى ذلك الأمر باسم الجماعة (الإخوان):

«: ألا تعتقد بأنه يجب القيام بانتخابات شفافة بين الإخوان كما يطالب بذلك أعضاء الجماعة الشباب؟»

- تماماً. «مكتب الإرشاد» السابق (الذي يعادل المكتب السياسي) كان منتخباً في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام 1994م، وجميع أعضائه تقريباً سجنوا بعد ذلك ومن ثم أدينوا لأنهم شاركوا في انتخابات غير مسموح لهم بها. أما اليوم فقد تغيرت الظروف السياسية، ويجب البدء بانتخابات جديدة.

- على قاعدة أبة خلافت تم إبعادكم عن مكتب الإرشاد في شهر كانون الأول/ديسمبر عام 2009م؟

«أردت ترك المقعد لغيري بعد جلوسي عليه 23 سنة. وما زلت عضواً في المنظمة خلافاً لصديقي إبراهيم الزعفراني الذي غادر التنظيم مؤخراً وأسس حزب النهضة لكنني لأنوي الالتحاق بحزب «الحرية والعدالة».

- الكثير ممن تحدثت معهم قالوا لي إنهم يرون أنكم رئيس مصر القادم الذي سوف يجمع الأقطاب الإسلامية والعلمانية. فهل ترشح نفسك للرئاسة؟

- لم أتخذ أي قرار بهذا الشأن لكنني استشرت بعض الأصدقاء وفي جميع الأحوال صوت بـ«لا» في الاستفتاء «ضد تعليمات الإخوان ومع الأغلبية العلمانية والليبرالية».

يجب تغيير الدستور وتأسيس قواعد الديمقراطية وعدم ترميم النظام السلطوي. أنا مع مصر المنفتحة والديمقراطية التي تستطيع فيها المرأة والرجل القبطي الوصول إلى كرسي الرئاسة، إلا أنه من غير المرجح أن يحكم هذا البلد العلمانية المطلقة - بالمعنى الفرنسي أو التركي - بحيث ينفصل فيها الدين عن الدولة، لأن أغلبية الشعب المصري متدينون إلى حد كبير ولن يقبلوا بهذا الفصل. قد نستطيع تطبيق العلمانية الجزئية».

مفهوم «العلمانية الجزئية» الذي تحدث عنه أبو الفتوح، صاغه المفكر اليساري والإسلامي لاحقاً عبد الوهاب المسيري الذي توفي مؤخرًا. يستبعد هذا المفهوم النظام السياسي القائم على التفويض الإلهي الخارج عن إرادة البشر حيث يتولى السلطة رجال الدين، من وجهة النظر الإيرانية، مع احتفاظه بالمرجع الإسلامي للدولة المدنية التي تعتمد على المؤسسات الديمقراطية بناء على السيادة الشعبية والانتخابات الحرة.

تمّ نحت مصطلح «العلمانية» - بفتح العين - وهي الترجمة العربية لكلمة «laïcité» الفرنسية من كلمة «عالم» في القرن التاسع عشر، وتعني «فصل الدين عن الدولة»، أي معارضة القانون الإلهي. وينطق المصطلح دائمًا بطريقة خاطئة «العلمانية» - بكسر العين - المشتقة من كلمة «علم»، ويدل هذا التذبذب الصوتي والدلالي على التماثل الصعب في الثقافة السياسية المسلمة المعاصرة. في خضم النقاش السياسي المصري اليوم، ظهر المصطلح متباينًا، هناك مسلمون يصنفون كمعتدلين، مثل إمام الأزهر الكبير أو الدكتور أبو الفتوح، الذين يرفضونه لأنه غير ملائم وضد مصلحة الأمة، ويفضلون استخدام مصطلح أكثر قبولاً وملاءمة وهو «مدني» الذي يحمل تصورًا غامضًا بحيث لا يبدو أولئك الذين يستخدمونه، راغبين بالترفة.

الثلاثاء 12 نيسان / إبريل 2011

الأقصر، الإله أوزيريس والإسلاميون

بُنِيَ مسجد أبو الحجاج الأقصري، مقر الأخوية الصوفية، التي اعتمدت الاسم نفسه على أنقاض معبد الأقصر الفرعوني، حيث طردت منه كنيسة قبطية شغلت المكان منذ سقوط وثنية الإمبراطورية الرومانية، وحافظت (الأخوية) على شعيرة القارب الإلهي من طقوس المصريين القدماء الذي ينتقل من معبد إلى معبد، ويرمز إلى رحلة الشمس والإخصاب عبر معبد جميع الآلهة في مدينة طيبة «الأقصر حاليًا»

بأبوابها المثة. كل عام، يحتفل الأقصريون بمولد أبي الحجاج، فيطوف الأتباع بقوارب في مسيرة شعائرية عبر المدينة الحديثة للتذكير برحلة القارب في الماضي بين معابد الكرنك والأقصر.

قبل عامين، أصيب المسجد بأضرار جرّاء الحريق الذي اندلع فيه. واستفادت هيئة الآثار من هذا الحادث في ترميمه من خلال إزالة الجص الذي أخفى الآثار الهيروغليفية وصور الآلهة المنحوتة، مثل: إله البعث والحساب «أوزيريس»^(*)، إلهة الخصوبة والجمال إيزيس^(**)، الإلهة حاتور^(***) ويرمز إليها بالبقرة أو الإله أنوبيس^(****) ويرمز إليه بحيوان ابن آوى، الذي رُسم على الأعمدة القديمة بين الهياكل الضخمة التي أقيم عليها المسجد. وتمّ حفر المحراب الذي يشير إلى مكة واتجاه الصلاة في عمود بالطريقة نفسها التي لجأ إليها الأقباط في رسم وجوه الآلهة فيما مضى من أجل تكريس المعابد الوثنية التي أصبحت فيما بعد كنيسة لعبادة المسيح.

كل ذلك من شأنه أن يثير غضب السلفيين الذين يتضايقون من هذا الامتزاج المتنوع بين الوحدانية المطلقة لله المعبود في المسجد وانتشار تماثيل الشرك الممقوت والآلهة المتعددة على الجدران ذاتها. تأتي نساء بلباس قروي بسيط لتمرير أيديهن وفرك بطونهن على سياج قبر القديس في الحجرة المجاورة، سواء كن راغبات في الإنجاب أو مهمومات بإبعاد العين الشريرة للجاراة التي تشتهي أزواجهن. وعلى مسافة قريبة منها، نرى الشقوق في أحجار الأعمدة التي حفرتها أظافر الكثير من المصليات للغاية نفسها منذ خمسة آلاف عام بالقرب من تماثيل الآلهة التي ترمز إلى الخصوبة مثل إيزيس وحاتور، أو تماثيل الإله آمون - مين ذي العضو الذكري المنتصب رمز الخصوبة.

عند مدخل المعبد، تباع صور دينية تصف إبتهالات الصالحين والنسب المقدس، وإحدى هذه الصور للإمام الأكبر وشيخ الأزهر، أحمد الطيب، بابتسامة المفكر اللطيفة التي تبدو أكثر وضوحاً من صور أجداده وأبيه، المهيبة والمبهمة، وهو بجوار أخيه الشيخ محمد، الرئيس الحالي للجماعة الصوفية. أخبرني رئيس مسجد أبي الحجاج، الذي شربنا

(*) أوزيريس: إله فرعوني قديم، هو إله العالم السفلي. في البداية كان آله الخصب ولكن بعد مقتله وانبعاثه من جديد تحول إلى إله للعالم السفلي.

(**) إيزيس: والدة الإله حورس وهي زوجة أوزيريس وترمز إلى العفة.

(***) حاتور أو هازور وهي ابنة الإله رُع.

(****) أنوبيس: إله الموتى يحمي القبور. يوجه الأرواح نحو العالم السفلي.

الشيء معه في ساحة الاستقبال المتاخمة للمحراب، أن عائلته ترتبط بعلاقات مصاهرة مع عائلة الطيب.

* * *

يوم الجمعة الماضي، وأثناء الاستعداد لاشتباكات المساء في ميدان التحرير، عقد مؤتمر نشط في ساحة مسجد أبي الحجاج ومعبد الأقصر الفرعوني برئاسة اثنين من القادة التاريخيين في الإسلام الأصولي من صعيد مصر، الأخوين طارق وعبود الزمر، اللذين تم إطلاق سراحهما من السجن بعد ثورة 25 كانون الثاني/يناير، إذ ألقي القبض عليهما بعد اغتيال الرئيس المصري السابق أنور السادات في شهر تشرين الأول/أكتوبر عام 1981م. كان عبود ضابطاً بأعلى رتبة في تنظيم الجهاد، هو الذي قتل السادات. وكان إذاً قائداً في سلاح الطيران حيث كان مكلفاً بقضايا الأمن وكان عمره خمسة وثلاثين عاماً، اغتال السادات في 6 تشرين الأول/أكتوبر عام 1981م. اعترض على خطة الاغتيال أثناء الاجتماع التحضيري الأخير لذلك، لم يكن يرى أي صلة بين قتل السادات وتأثير ذلك في حشد الجماهير لإقامة الدولة الإسلامية.

في واقع الأمر، هذه هي المشكلة المتكررة للإسلاموية الأصولية منذ بدايتها وحتى اليوم، مروراً بتنظيم القاعدة و11 أيلول/سبتمبر 2001. أصبح عبود، الذي كان الأكبر سناً والأفضل فكرياً بين زملائه في السجن، مرشداً أعلى لجماعة الإسلامويين القاطنين وراء القضبان حتى لُقّب بينهم بـ«الشيخ عبود».

عقب الثورة، أفرج عن معظم الإسلامويين المعتقلين، منهم أولئك الذين أدينوا بأعمال إرهابية مثبتة والأخوان الزمر، أي بطريقة قانونية وذلك لأنهم قد أمضوا مدة عقوبتهم ومن استفادوا من تساهل النظام العام مع الفارين من السجن. بعدئذ، وفي الوقت الذي أطاحت الثورة بالفرعون المخلوع، مبارك، لا يزال قتلة الفرعون السادات (كما وصفه قائد المجموعة التي اغتالته، خالد الإسلامبولي)، الأقل شعبية، يجدون قبولاً في المجتمع وسلطة شرعية، بل حتى وضعاً ريادياً.

ووفقاً لما نشر في الصحافة، اختارت الجماعة لعقد اجتماعها مكاناً يحمل دلالة رمزية، يقع بالقرب من معبد حتشبسوت، حيث قتل إسلامويون أصوليون عشرات السياح في عام 1997م، كي يثبتوا نبذهم للعنف ويعلموا عن مشاركتهم في مسيرة الديمقراطية في

مصر الجديدة. أحضروا معهم أحد المشاركين في أعمال قنا التي قطعت فيها أذن قبطني منذ بضعة أيام، قال إنه ندم لأنه نأر لنفسه، بدلاً من اللجوء إلى السلطة القضائية لإدانة الجاني المفترض.

لكن شهود العيان من مسلمين وكذلك مسيحيين سردوا لي حكاية مختلفة عن الاجتماع. تجمهر أكثر من عشرة آلاف ملتج وصلوا بحافلات مستأجرة خصيصاً لهذا الأمر من معقلهم في مدينة أرمنت، التي تقع على بعد نحو عشرة كيلومترات إلى الجنوب، ومنفلوط، إلى الشمال، بالإضافة إلى الأخوين الزمر، المحاطين بهالة البطولة التي منحت لهما من الآن فصاعداً بعد مكوثهما سنوات طويلة في سجن «الطاغية» المخلوغ، وهؤلاء أرادوا إظهار قوة التيار الإسلامي الأصولي. في هذه المدينة، ربما يوازي عدد الأقباط عدد المسلمين، وهم يوجدون بكثرة في العديد من المجالات التجارية ولا سيما في تجارة المصوغات والبضائع التي يشتريها السياح. وقد أكد الخطباء بشدة على الطابع الإسلامي الذي يجب أن تأخذ به الدولة المنبثقة من الثورة. وقد فعلت تجمعات أخرى مماثلة في صعيد مصر الأمر نفسه، حيث ترفع الكنائس والأديرة صليبها المربع بأبعاده الثلاثة على القباب وأبراج الأجراس في جميع المدن والعديد من القرى.

الأربعاء 13 نيسان / إبريل 2011

العودة إلى القرنة

لم أرجع إلى القرنة منذ خريف عام 2001م، أي منذ ما يقرب من عشر سنوات. في مثل هذا اليوم، ارتقيت منحدر عمال مقابر العصور القديمة، الذي يؤدي، عبر ممر جبلي على شكل قرن، «قرنة باللهجة المحلية»، في وادي النيل الخصيب إلى وادي الملوك الذي يضم قبور ملوك مصر القديمة.

وهناك التقيت طفلاً ضايقني بالحاحه كي أشتري منه آثاراً مزيفة مصنوعة في الصين، زاعماً أنه عثر عليها في أحد القبور. ثم قال لي إنه ترك المدرسة لكسب لقمة العيش، له ولعائلته، لكن مردوده المالي انخفض منذ اختفاء السياح بعد أحداث 11 أيلول / سبتمبر. وعندما سألت عن هذا الذي حدث في الولايات المتحدة من وجهة نظره، أخبرني أن «اليهود والنصارى قتلوا الآلاف من المسلمين في أبراج نيويورك»، هذا ما تعلمه في الأيام الأخيرة التي قضاها في المدرسة.

على يمين الممر، توجد أضرحة أولياء المسلمين التي بناها لصوص القبور الأتقياء فوق مدينة الموتى العتيقة التي تمتلئ بمناجم جواهر لا تنضب، من الذهب والفضة والأحجار الثمينة مثل مومياءات «جثث محنطة» يوجد فيها شظايا تضيء عليها خصائص طبية. وفي قمة الجبل، نستطيع رؤية ضريح الشيخ عبد القرنة بوضوح، الشيخ الكريم صاحب العطاءات السخية، بالإضافة إلى القديس الثائر «أبو قمصان»، الولي الذي كان يسير وهو شبه عار، مرتدياً قميصاً بسيطاً فقط، وكانت النساء اللاتي يساعدهن على الإنجاب بأعجوبة، يحشن عنه وقت المخاض.

تعد سيرة «أبو قمصان» غنية بالنزاعات التي تتعارض مع سيرة العلماء الصالحين من نسل الشيخ الطيب، الذي لا يحظى باحترام كبير مثل هذا المشعوذ الداعر، والذي يتقمص دور الفلاح من إله الخصوبة آمون - مين ذي القضيب المنتصب. يعلو قبره زورق صغير للتذكير بالقارب الرباني الذي عبر نهر النيل لجلب الفراعنة إلى وطنهم الأخير «القبر»، على الضفة الغربية للنهر.

حتى عام 2006، ارتفعت القبور وسط البيوت الطينية في القرية، التي بُنيت بشكل غير قانوني فوق المناطق القديمة. عندما بدأ الناس بتحويل هذه البيوت إلى أماكن للمبيت وتناول وجبة الإفطار للمسافرين الغربيين والاستحمام، بدأت مياه الصرف الصحي بالتسلل إلى المقابر القديمة، مما سبب لها أضراراً وخيمة. وفي شهر كانون الأول/ديسمبر عام 2006، قامت إدارة الآثار بهدم المباني بالجرافات، ونقلت السكان إلى مدينة تحوي مجموعة من المنازل الريفية من نوع HLM، وتقع على بعد بضعة كيلومترات من مناطق التدفق السياحي ليحرم بذلك السكان من الموارد التقليدية التي تتمتع بها منطقتهم الثرية.

منذ قيام الثورة واختفاء الشرطة وأجهزة الأمن التي فقدت مصداقيتها، عاد الكثير من القرويين إلى مدينتهم التي طردوا منها للعيش فيها مرة أخرى ولتمييز منازلهم الجديدة المتوهجة. في منطقة الأقصر، يعتقد أنه تمّ تشييد ما يقرب من ألف مبنى بدون ترخيص منذ سقوط مبارك، وفي جميع أنحاء مصر، حطم فلاحون أسوار الأماكن الأثرية واستولوا على أراضيها إما للبناء عليها أو لزراعتها، كما أكد لي ذلك وزير الدولة لشؤون الآثار المصرية زاهي حواس عندما كنت في القاهرة. تُعدّ ثورة المناطق الريفية في مكان آخر من صراع الأفكار في ميدان التحرير.

«أنا مصري، أنا حر»، عبارة مكتوبة باللغة العربية على قميص نادل المقهى الذي يقع بالقرب من الأنقاض، صورة يَدِين ترفعان سلاسل محطمة حول نقش «25 يناير»، لتوضيح المغزى منها. مهما يكن الأمر، كان دائماً ينظر إلى الدولة على أنها قوة استبداد، وقوانينها تعسفية، حتى تلك التي وضعت لخدمة المصالح العليا للبلاد. الحرية المقيدة تعني أيضاً نمو منافعها الخاصة في سياق اقتصادي واجتماعي صعب، مع اتخاذ الاحتياطات والحذر من مستقبل غامض.

ازداد إفقار الشعب على الفور مع تباطؤ الأنشطة والأعمال، الذي تلا فترة ارتفع فيها التضخم المالي، والذي يعتقد كثيرون أنه مرتبط باندلاع الاضطرابات - ويظهر ذلك جلياً في الأقصر من خلال الفنادق المغلقة، وندرة زيارة المواقع الأثرية، والقوارب السياحية الكبيرة والراسية بلا حراك على ضفاف نهر النيل.

إن ارتفاع أسعار الحبوب على المستوى العالمي، الذي يعود سببه بصورة خاصة إلى الحرائق الضخمة المرتبطة بالجفاف في روسيا خلال صيف عام 2010م، هو غير ملحوظ في البلدان الغنية، حيث لا يمثل الغذاء إلا جزءاً بسيطاً من ميزانية الأسرة، في حين كانت له عواقب وخيمة في المناطق الريفية من العالم الثالث وصعيد مصر خير مثال على ذلك. ففي سنة واحدة فقط، ارتفع سعر كيلو الطماطم (البندورة) إلى أكثر من الضعف، من 3 إلى 7 جنيهات (1 يورو = 8.50 جنيه بعد الثورة، و7.50 جنيه قبلها)، كذلك تضاعفت أسعار الأرز والسكر والدقيق. والأمر نفسه حدث لأسطوانات غاز البوتان، الذي يستخدم للطبخ في الريف، حيث تضاعف سعره بل لم يعد بالإمكان السيطرة عليه، وأحياناً يتم ملء الإسطوانة إلى النصف. ألم ير المؤرخون أن أحد الأسباب الرئيسية لاندلاع الثورة الفرنسية هو ارتفاع أسعار الحبوب قبل عام 1789م؟

كل ما سبق ذكره، أدى إلى تفاقم الضغوط الاجتماعية، التي برزت من خلال احتكار الأراضي والتي أصبحت فجأة في متناول اليد بعد أن كانت ملكاً لشخصية نافذة في النظام السابق، وهذا الأخير غير قادر على الدفاع عنها بالقوة إذ سيجد نفسه مسجوناً أو حتى قلقاً من ملاحقة القضاء له بتهمة الاختلاس. إن الهروب الكبير من سجون أرمنت وقنا أثناء مناورات الدقيقة الأخيرة لفريق مبارك التي لم تُفتح أبوابها إلا للسجناء السياسيين من الإسلاميين. بالإضافة إلى فرار مرتكبي الجرائم الاعتيادية المستعدين للقيام بأعمال البلطجة والمسجونين بقضايا الثأر الذين تسعى أسر ضحاياهم لقتلهم أو جعلهم يدفعون

ثمن الدم - وأكثر من ذلك، غياب الشرطة، التي كانت قبل ذلك تتواجد في كل مكان، من مسرح الأحداث.

انفجرت السوق غير المشروعة للأسلحة، التي كتبت بشأنها مقالات صحفية وبثت برامج تلفزيونية، وتمّ إمدادها بواسطة أسلحة المجندين الفارين من الخدمة العسكرية، ولكن الأسعار ارتفعت بسبب القلق العام الذي اعترى الشعب مما اضطرهم لشراء أسلحة للدفاع عن أنفسهم بطريقتهم الخاصة. في القرنة، يتمّ التفاوض على تسعة ملايين قطعة سلاح ألمانية بسعر يتراوح بين أقل قليلاً من 1000 يورو وكلاشينكوف بنحو 3000 يورو، وهي زيادة كبيرة وذات دلالة فيما إذا قورنت بالأسابيع الأخيرة من حكم النظام السابق. لقد كثرت البضائع الليبية المهربة في هذه السوق كما في الشرق الأوسط والساحل بترسانة لا تنضب من أسلحة القذافي المسروقة.

في أحد مراكز المصنوعات الفخارية حيث يتعلم الأطفال الريفيون حرفة تنفعهم، والقواعد الأساسية للصحة العامة، وتنمو مهاراتهم وقدراتهم من خلال ممارسة أنشطة إبداعية، لا يخفي المسؤولون قلقهم من مراقبة بلطجية محليين للمباني والطلاب لجعلهم تحت سيطرتهم وابتزازهم. أدى تناقص أعداد السياح إلى انخفاض عدد وسعر القطع الفخارية المباعة، قال أحد الآباء للمسؤولين إن ابنه إذا لم يتسلم المبلغ المنتظر مقابل صناعته للفخار، لن يكون له بديل سوى الاستعانة بشركة للدعارة والمتاجرة بالشرف للحصول على المال. يُشاع أن سعر الواقي الذكري انخفض في غضون أشهر قليلة من 18 إلى 6 يورو. وفي القرى، يقال إن النساء الأرامل والمطلقات أو المطلقات الهائمات جوعاً ضلّلن طريقهن فمارسن الرذيلة وأقمن علاقات بأسعار محددة، تقريباً 2.50 يورو. أي إن قيمة الجسد تساوي سعرًا أقل من ثلاثة كيلو من الطماطم، لقد لامست الدعارة زبائن ريفيين وبذلك أصابت النسيج الاجتماعي بالعمق.

وتعد هذه أرضاً خصبة لأتباع الإسلاميين، على وجه الخصوص السلفيين، الذين يقدمون أنفسهم على أنهم أبطال النظام الأخلاقي وحراس الفضيلة: ارتبطت بهم الحالات التي أصبحت حديث الناس في الأسابيع الأخيرة أكثر من مرة. إن القبطي الذي قُطعت أذنه من قبل ملتحين في محافظة قنا الأسبوع الماضي اتهم بممارسة مهنة القوادة. وشهدت على ذلك إحدى العاهرات التي احترق منزلها الصغير وأثاثها المتواضع في ضواحي القاهرة.

الخميس 14 نيسان / إبريل 2011

مسيحيو ومسلمو النيل

أبحرت على متن زورق «النيل» الذي رسا في مدينة «إسنا» في الأقصر، بعد اجتياز محبس السد الذي بناه أتباع مذهب الفيلسوف الفرنسي «سان سيمون» في القرن التاسع عشر ثم أعادت جمهورية المجر الاشتراكية بناءه في النصف الثاني من القرن العشرين. غالبًا، يتم الانتظار ساعات عدة خلف القوارب الكبيرة المزدحمة بالسياح، بعد إيقافها بواسطة زوارق شرطة النهر القابلة للنفخ، التي بإمكانها تسريع عبور القوارب إذا دفعت لها رشوة. لكنني لا أرى شرطة أو سياحًا في الأفق، لذا سنعبّر فورًا ومن دون إعطاء رشوة «بخشيش»، في ظل رقابة خفية من بعض العسكريين.

تعد «إسنا»، حيث حرارة الصيف القاسية بشكل خاص، بالنسبة إلى مصر كمدينة ليموج بالنسبة إلى فرنسا، يرسل إليها المسؤولون أو الخدم – والمحظيات – إذا فقدوا منزلهم لدى الحاكم. أما الراقصة أو كما يسميها المصريون «العالمة» كوتشوك هانم – ويعني اسمها باللغة التركية «سيدة صغيرة»، فقد تمّ نفيها إلى «إسنا» بعد فقدان مكانتها ومنزلتها لدى الخديوي، وهي تختلف عن الرواية الفرنسية التي تقول إن غوستاف فلوير اكتشف نفسه ككاتب بين أحضان هذه المدينة عندما اقترب زورقه منها في شهر آذار/ مارس عام 1850م.

* * *

قادتني سيارة الأجرة إلى دير «مار متى» القبطي، بصحبة صديق من مدينة نيس الفرنسية الذي رافقني إلى ضفاف النيل وقام بالتقاط الصور هناك. يقع الدير بالقرب من سلسلة جبال ليبيا المتاخمة للوادي الخصيب حيث يقطع قصب السكر، وينقل على شاحنة تحمله بدورها إلى مصانع السكر في إسنا.

بالأمس، اشترت من دير القديس تيودور، الذي يقع خلف معبد مدينة أبو، في قرنة، دليلًا صغيرًا ألفه أحد الكهنة باللغة العربية ومزينًا بصورة البابا شنودة الثالث. يتحدث الكتيب عن الأديرة والكنائس والمعابد المسيحية في صعيد مصر. يتجلى التفاوت بين المعابد القديمة الواسعة، بأعمدتها التي يبلغ ارتفاعها ثمانية أمتار ويوجد في قمته ما يسمى «موطن الآلهة»، كما يلفت انتباهك جمال أماكن العبادة

القبطية المتوارية خلف أسوارها القرميدية. أما المساجد فهي صغيرة الحجم فيما إذا قورنت بالمعابد القبطية، إلا أنها ظاهرة للعيان من خلال رؤية مناراتها العالية أو يمكن الاستدلال بوجودها عبر الاستماع إلى صوت الأذان المجلجل من مكبرات الصوت حين يُنادى إلى الصلاة.

ووفقًا لما ذكر في الكتيب، يكتسي دير القديس متى برسوم جدارية تعود إلى القرن الثاني عشر وقد قام المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة، بدراستها، كما قام مدير المعهد السابق والمعروف سيرج سونورون بالتنقيب والنشر عن المعبد الفرعوني العظيم في إسنا، فهي بالكاد يمكن تمييزها على جدران صحن الكنيسة المسودة بفعل الدخان المتصاعد من الشموع طيلة ألفي سنة. يلتف سياج حول الدير والمقبرة المجاورة ليذكر بالكثير من الصراعات الدينية التي ابتلي بها تاريخ الوادي الحديث والتي ازدادت عنفاً وحدة بعد نمو الحركات الإسلامية في سبعينيات القرن العشرين. في مدخل الدير، يقف شرطي بسيط للحراسة، «أكرش» ووديع، في الحقيقة، لم تواجهنا أية حواجز أو تفتيش من قبل رجال الشرطة منذ نزولنا من المركب.

لم يبقَ الراهب الذي استقبلنا هنا إلا نصف الوقت، لأنه كان متدبًا مع زميل من دير آخر أكثر دينامية ونشاطا ويقع في مدينة الأقصر، تذكرت حينها حال الكهنة في قريتي «ميدي» عندما يقومون بجولة في الكنائس للتغلب على ندرة رجال الدين. لكن الكنيسة القبطية لا تعاني أية أزمة في الدعوة الربانية، بل على العكس تمامًا؛ فمنذ أن وجّه النظام الناصري ضربة قاسية إلى النخب البورجوازية والعلمانيين المسيحيين من خلال نظام التأميم في ستينيات القرن العشرين، استطاع هذا الكادر الأسقفي احتكار تمثيل المجتمع تقريبًا. وبما أن الأقباط يواجهون صعوبات فيما يختص ببناء كنائس جديدة بسبب الشرائع الإسلامية، من الملاحظ دائمًا اكتظاظ الكنائس القديمة بالمؤمنين أثناء إقامة القداس حتى تمتلئ الساحة بهم.

ومع ذلك، فإن دير القديس متى يبدو منعزلًا إلى حد ما عن القوى الفاعلة للسكان المسيحيين، فهو محاط بقري المسلمين ومعني بالمحافظة على مقبرة أثرية تُعدّ شاهدًا على حقبة تاريخية مزدهرة، يتوسطها قبر كاهن رفع مؤخرًا إلى مصاف القديسين وتمّ تصويره قبل موته وهو على سرير المرض في المستشفى، بوجهه النحيف المحاط بأجهزة التنفس والقطارة، عندما عاده أحد الأساقفة بتاجه الدائري وصليبه الأسقفي. في صندوق مصنوع

من زجاج البلوكسيغلاس (زجاج وقاية)، يعرض رداء الكهنوتي الأبيض وبطرسيله^(*) المطرز والمبجل لدى المؤمنين به، ويستطيع الراغبون في التوسل إليه التواصل معه للحصول على بركته وحمايته عبر إدخال رسائل مطوية أربع طيات في الفتحة الصغيرة الموجودة في هذا الصندوق وتتراكم هذه الرسائل حتى تغمر الأوراق الملابس المقدسة للكاهن، مدعي صنع المعجزات.

في طريق العودة إلى المركب، حمل إلينا هواء المساء رائحة دبس قصب السكر، ورائحة الاحتراق التي تخترق الظلام من مكان إلى آخر والقادمة من الحقول التي قُطع فيها القصب مؤخرًا.

* * *

في الدول الإسلامية، تُقام الاحتفالات عادة مساء الخميس: ويسمى المتصوفون بـ«الليلة الكبيرة» المفعمة بفضائل الاستغفار للمتشدين، حيث يرتلون اسم الله وترنمون فيها بذكره، وحيث يمجّد الأموات. كما تقام في هذه الليلة احتفالات الزفاف. وتشهد في جميعها، تنافسًا كبيرًا على استخدام مكبرات الصوت حيث يختلط الثناء على الموتى بموسيقى أوركسترا الأحياء، ويتخللها دعوات إلى الصلاة وتلاوات قرآنية.

يقع مرسى زورقنا بالقرب من قاعة زفاف يصدر منها ضوضاء بهجة وأصوات فرح. على المنصة، يرقص الرجال على أنغام موسيقى مسجلة في حين أن جميع النساء محجبات، لكنه حجاب «عصري»، بألوان زاهية، والبعض بألوان صارخة. أما الملابس فمتناسقة بالقدر الكافي. تذكّرني مراسم هذا الاحتفال الذي تختلط فيه النساء بالرجال حول الطاولات وفي صفوف المقاعد بزواج «شمال أفريقي» حضرته منذ بضعة أسابيع في إقليم سين سان دوني الواقع شمال باريس، لكن الحجاب هناك كان بنسبة بسيطة مقارنة مع ما شاهدناه هنا.

استمر الضجيج طوال الليل. يملأ المؤذنون، لا سيما المؤثرون منهم، الظلام بأناشيدهم الرثائية وبكائياتهم التي تصدح بها مكبرات الصوت. وقتئذ سألت نفسي: ما حال الأقباط وكل أولئك الذين يزعجهم هذا الوعظ الليلي ويحرمهم من النوم؟ غفوت

(*) قطعة من القماش منقوشة ومقنصة يضعها الكاهن على صدره ويعلقها في عنقه عند الخدمة الدينية.

أخيرًا بين روائح البانغو، وهو حشيش محلي رديء النوعية، يدخنه الشباب المستلقي على الرصيف، مستفيدًا من برودة الجو على ضفاف النيل.

الجمعة 15 نيسان / إبريل 2011

إسنا بعد غوستاف فلوبير (*)

بعد ليلة صاخبة، حَلَّت الشوارع من المارة تقريبًا هذا الصباح، ولا تزال معظم المحال التجارية مقفلة بانتظار انتهاء صلاة الجمعة للمسلمين. في إسنا، التربة سهلة الحرارة، وفيها أيضًا الكثير من المباني المائلة، التي تجعلها تبدو وكأنها مدينة أشباح، نصفها كأنه خارج من لوحة للرسام والنحات الفرنسي المشهور جان ليون جيروم، ونصفها الآخر قصف بالقنابل وأعيد بناؤه جزئيًا. هجر الناس الكثير من المباني المهتدة بالخراب أو تلك التي سكنها المحتل. منعت قوانين العقارات في العهد الناصري، التي ألغيت نهائيًا خوفًا من الانفجار الاجتماعي، الإيجارات ونتج عن ذلك انعدام الصيانة للمنازل المتفسخة.

تنخفض أرضية الرواق الكبير للمعبد البطلمي عن مستوى الأرض الحديثة لمدينة إسنا حتى يصل عمقها إلى عشرة أمتار، تحيط بها المنازل الحديثة المبنية على طبقات من الطمي والرواسب التي نقلتها فيضانات نهر النيل منذ عشرات القرون، حتى تلك التي يستقر عليها «السد العالي». تحتوي تيجان أعمدة المعبد الضخمة، والتي رسمها النحات والرسام الفرنسي «فيفان دونون» في لوحة رائعة أثناء رحلته إلى أقاليم مصر السفلى والعليا، وهذا هو التقسيم الجغرافي لمصر القديمة، وتحتوي على الكثير من العناصر النباتية والزهرية مثل أزهار البردي واللوتس، وارتفاعها على مستوى البشر الذين يتجولون في الأرض الحديثة اليوم كما لو أن الآلهة القديمة أرادت أن تتلاشى ببطء كي نصعد إلى قمتها.

تذهب القبطيات، بكامل أناقتهن، حاسرات الرأس، إلى قداس يوم الأحد - المتطابق مع يوم إجازة المسلمين. تضع معظم كبيرات السن وشاحًا على الرأس عند مدخل كنيسة القديسة العذراء، حيث يفصل الجنسان: النساء في الجهة اليمنى، والرجال في الجهة اليسرى. في المدينة، وحتى في الريف، لا تزال الجلابية - اللباس التقليدي في صعيد مصر، التي يرتديها الرجال مع العمامة - متفوقة على اللباس الأوروبي، الذي يتكون من قميص وبنطلون. يختلف الوضع تمامًا أثناء القداس، عما هو عليه

(*) أديب فرنسي كبير

الحال في المسجد، وكان أغلبية الأقباط قد اتفقوا على عادات اللباس التي تبنتها طبقة بورجوازية صغيرة.

يستمر قداس الأحد لمدة أربع ساعات. في هذه الجمعة التي تسبق «أحد الشعانين»، وهو الأحد السابع من الصوم الكبير قبل عيد الفصح، ويحتفل به بحمل السعف تذكيرًا بدخول السيد المسيح إلى مدينة القدس، تصبح الحماسة الدينية في الكنيسة المزدهمة في هذا اليوم مفرطة، فتزداد ترانيم الفرض الكنسي التي يرددها المصلون على التعاقب، وإشارات الصليب، والأيدي المرفوعة بطريقة تماثل مع إيماءات المصلين المرسومة في اللوحات الجدارية القديمة للمسيحية الشرقية. يشترك الكهنة الملتحون في إقامة القداس خلف حاجز مزدان بالأيقونات، يفصل المذبح عن الجزء الأساسي من الكنيسة، وتسمح أبوابه المفتوحة برؤية بيت القربان الذي كان يحفظ فيه تابوت العهد والأشياء المقدسة قبل بناء الهيكل. يرتم الكهنة باللغة العربية، وكذلك باللغة القبطية الطقسية، واللاتينية المشتركة، التي تبدو أصوات الغنة فيها غير مفهومة للجمهور مما يكسب مراسم الاحتفال بعدًا ساحرًا.

أيقونات العائلة المقدسة: المسيح، العذراء، ميلاد السيد المسيح، أقوال القديسين والرسل على المنبر الكنسي ضمن النمط المعروف باسم «سان سوليس» المشابه للتقليد البيزنطي، بالإضافة إلى رماحهم، ودروعهم، وزهور الزنبق، التي تذكرني بالجدران الداخلية للمعابد الفرعونية، المزخرفة بصور الإلهة إيزيس وزوجها الإله أوزيريس وفي الوسط ابنتهما الطفل حورس، وغيرها من آلهة المعابد المصرية بعلاماتها المميزة وخصائصها المنفردة.

من المنزل المهجور للمراقصة أو كما تسمى باللهجة المحلية المصرية «العالمة كوتشوك هانم» حيث أمضى الروائي الفرنسي غوستاف فلوير - أستاذنا في الكتابة - هذه الليلة من آذار/ مارس عام 1850م، لم يتبق من هذا المنزل سوى الباب المغلق، الذي يسد قناة دون مستوى الشارع الحديث. تزدان شرفة المنزل القرميدية ببعض النقوش المحفورة بخط نموذجي من العهد الخديوي في القرن التاسع عشر، والتي اندثرت تقريبًا بمرور الزمن والغباب وانعدام الصيانة حتى طغت عليها القاذورات والأوساخ. على جدار المنزل، يوجد لوحة زرقاء كتب عليها اسم الشارع باللغة العربية، وهو: شارع الجبيرات.

«استيقظت في الساعة الثالثة فجراً للذهاب إلى الشارع والتبول فيه، كانت النجوم تتلألأ وسط سماء صافية وبعيدة جداً.

غوستاف فلوير، إلى الصديق لويس بويه،

13 آذار/ مارس عام 1850،

على متن زورقنا، وعلى بعد 12 فرسخاً من أسوان».

* * *

في المقهى القريب من أنقاض المعبد، ارتشفت قهوتي التركية (أي مع القليل من السكر)، وللوقاية من حرارة الشمس، لفّ البائع على جبيني عمامة كما هو مألوف في إسنا. أذاع التلفزيون القديم الذي رُفع صوته إلى أقصى حد لائحة بأسماء المسؤولين الذين عيّنتهم الثورة ليحلوا محل رجال مبارك. الكثير منهم عسكريون، كما هو حال سابقهم. لاحظت أيضاً أن محافظ قنا، - لواء الشرطة عماد ميخائيل -، قبطني.

في حين يواصل الزورق إبحاره نحو أسوان القديمة، بين أجراف النهر المستترّة خلف منبت القصب، والأشعة الممثلة برياح الصحراء المحملة بالرمال، رياح الخماسين الحارة المقبلة من الصحراء الكبرى، علمت أن الإسلاميين قد ثاروا في قنا. قطعوا الطرق والسكك الحديدية عازلين صعيد مصر عن بقية البلاد، وحاصروا المحافظة. قالوا إنهم سيظلون على حالهم حتى يتمّ إلغاء قرار تعيين المحافظ القبطي ويستبدل بأخر مسلم (تمّت تلبية رغباتهم بعد بضعة أيام فرفعوا الحصار). منذ لجوئه إلى جبال أفغانستان، وبعد أشهر من غيابه عن الشاشات، نشرت شركة السحاب للإنتاج السمعي والبصري التابعة لتنظيم القاعدة على الإنترنت، شريط فيديو لمفكرها أيمن الظواهري استغرق ساعة. تحدث فيه عن بلده الأم، مصر. وذكر دعمه للشيخ عبود الزمر المتهم بقضية اغتيال الرئيس السابق أنور السادات، لكي «يهيمن الإسلام على مصر، لا أن يكون مهيمناً عليه».

الفصل الثالث

تونس

الأربعاء 26 تشرين الأول / أكتوبر 2011
الأيام التالية للانتخابات في تونس

بمجرد إدارة مفتاح تشغيل سيارة الأجرة في مطار تونس - قرطاج الدولي، علمت بالتغيرات الأخيرة في البلاد حيث اعتاد أصحاب المركبات على رفع صوت المذياع عاليًا وإهمال إقفاله قبل إيقاف المحرك. بناء عليه، استمعت إلى مذياع على ترددات إذاعة موازيك إف إم يصرخ باللهجة التونسية العربية الممتزجة باللغة الفرنسية، قائلاً: «فاز حزب النهضة، وأنا لست خائفًا من هذه النتيجة!» ليرد عليه صوت آخر معبرًا عن قلقه إزاء نيات الحكومة الإسلامية المرّجّح فوزها في أول انتخابات حرة وديمقراطية منذ استقلال تونس: «لم يتمّ الانتهاء بعد من فرز الأصوات، ما زال أمامنا ثلاثة أيام».

هذه الإذاعة العصرية وواسعة الانتشار، بدأ بثها في عهد بن علي للوصول إلى جيل الشباب، وهي اليوم الصوت الإذاعي الأول في البلاد رغم بعض المشاكل التي واجهتها مثل بعض الاستقالات في إدارتها. تبث الكثير من البرامج الحوارية والأغاني ونشرات الأخبار الموجزة باللهجة المحلية، يتخللها فواصل إعلانية، معظمها باللغة الفرنسية، لشركات الهاتف النقال التي تتنافس على تقديم الحسومات والعروض، بالإضافة إلى إعلان إلزامي عن ثورة الياسمين التي تفرض شعارها الخاص بين كل إعلانين: «إذاعة موازيك إف إم توصل صوتك» وهو الصوت الذي صادره بن علي.

الخميس 27 تشرين الأول / أكتوبر 2011

حزب النهضة، المؤيدون والمعارضون

دُعيتُ لتناول وجبة الغداء في منطقة شعبية تقع في ضواحي تونس العاصمة، وفي ضيافة عائلة تقيم ابتهاجاً في فرنسا بطريقة غير شرعية، أي بدون أوراق رسمية، لتساهم الأموال التي ترسلها في إعالة أسرته المحدودة الدخل. تعمل الأم في معمل لتعليب الأطعمة، والأب، الذي يعمل سائق سيارة لنقل بضائع، مريض ويتحرك بصعوبة. ينتعل حذاءً رياضياً جميلاً من متجر «باربي»، هدية من ابنته. يدرس طفلاه، ابن وبنت، بفضل المعونات المالية التي ترسلها أختهما المهاجرة. كانت بنت عم الفتاة هي المحجبة الوحيدة في المجموعة الحاضرة لتناول الغداء. لم يتبق من عهد بورقيبة، إلا تحرير المرأة وتنظيم النسل، في حين لم يتمّ الالتزام بأنظمة الاقتصاد وتوزيع الثروة الوطنية والتعليم العام.

كان عمها هو الوحيد الذي يشرح ويتدبر أمره باللغة الفرنسية في الوقت الذي كنا نتحدث فيه بالعربية، أما أنا فكنت أسليهم بلهجتي المصرية التي ذكرتهم بالمسلسلات الشعبية التي تابعوها عبر شاشة التلفزيون. تناولنا الكسكس بالسميد الناعم وسمك الشبوط المشوي المتبل بالكزبرة وتمر دقلة نور والعنب المسكي من منطقة رأس بون المقطوف في مدينة قلبية، ومن ثمّ الإبحار ليلاً إلى جزيرة لامبيدوزا الإيطالية، التي يومض نورها في الأفق، إنها باب الفردوس الأوروبي لأولئك الذين لم يغرقوا في عواصف البحر الأبيض المتوسط. هناك مثل مغربي ركيك، كثيراً ما يستشهد به المهاجرون المتخفون ليمنحهم الشجاعة قبل أن يلقوا بأنفسهم في البحر، يقول:

«أفضل أن يأكلني الحوت بدلاً من أن تأكلني الديدان».

فأسماك الشبوط الصغيرة، مثل تلك التي تلذذنا بأكلها، نعمة تقتات على أي شيء، وتصح من أكالات اللحوم في مرحلة البلوغ.

تناقشنا في انتخابات يوم الأحد. شارك الجميع في التصويت ما عدا العم الفرانكوفوني الذي أخرج لي رغم ذلك من حقيقته نشرات وآراء لعشرات المرشحين في دائرته معلقاً عليها، ومشيراً إلى علاقة بعضهم بالنظام السابق، واختلاسهم العام أو السري للأموال. منح جيل الآباء صوته لـ«تكتل» - «التكتل الديمقراطي من أجل العمل والحريات»، وهو حزب إصلاحى لا ديني، أقرب إلى القومية العربية القديمة، احتل المركز الرابع.

« لماذا لم تصوتوا لحزب النهضة؟ »

- لأنه من الممكن أن يسمح لزوجي بأن يتزوج ثلاث نساء أخريات!« ردت الأم.
رَدّها هذا تسبب بموجة ضحك عارمة رافقها ابتسامة متعبة من الأب - فما لديه من
الذكورية الإسلامية المتعالية لا يكفي للتعالي على حريمه. بينما صوّت جيل الشباب،
الفتيان والفتيات، المحجبات وغير المحجبات، لحزب النهضة، قائلين:
« نريد أن تتغير الأوضاع. لا يمكننا الاحتمال أكثر من ذلك. فلا أحد يملك هنا مستقبلاً.
الشيء نفسه في أوروبا، لم يعد هناك المزيد من الوظائف الشاغرة».

كما هو الحال في جميع الأحياء الشعبية في دول البحر الأبيض المتوسط المسلمة،
نحن الآن في منزل غير مكتمل البناء، حيث يوجد فوق الطبقة الأرضية، طبقة قيد الإنشاء،
والركائز مجمعة من قضبان الحديد إلى الخرسانة الصدئة مثل باقة بشعة من الزهور، مقطعة
أوراقها. كما أن القرميد المحفور، وضع بطريقة مائلة بحواجز تهمل المظمار، وهو الخيط
الذي يستعمله البناء لقياس المسافات، ومن ثم قد تسقط مع حدوث أدنى هزة أرضية.
فبدلاً من قضاء آلاف الساعات في اجتياز الحدود، لرعاية الأطفال أو مرافقة كبار السن في
أوروبا المصابين بمرض ألزهايمر، يستطيع الشباب العمل في بناء هذا القرميد البرتقالي،
المتكدس والمطبوخ على عجل.

* * *

بعد ظهر هذا اليوم، تغير المشهد السابق، بعد ذهابي لشرب الشاي في فيلا تقع في
منطقة بلفيدير، وسط المدينة القديمة في أيام الاستعمار، عند أكاديمي ودود ومرح، كانت
ابنته إحدى طالباتي. هذا الرجل يساري، وشغل منصب وزير مرات، عدة في السنوات
الأولى من وصول بن علي إلى السلطة في عام 1987.

في تلك الحقبة التي تلت عهد بورقيبة، حيث كان هناك انفتاح ديمقراطي ودعوة إلى
إجراء انتخابات، سرعان ما تمّ إلغاؤها بسبب وجود حزب النهضة الإسلامي الذي حصل
على مرتبة متقدمة.

علني غرار الكثير من الديمقراطيين والعلمانيين، سجن الأستاذ في الوقت نفسه مع
الإسلاميين، عندما اتبعت الحكومة النظام الديكتاتوري المستبد وسيطر عليها الأمم

السياسي، دافعًا هذا البلد الليبرالي بقوة إلى ثقافة الرعب والهلع التي قادته إلى دوامة الفساد والانحدار. بعد خروجه من السجن، فتح مكتبًا للدراسات والبحوث. وهو اليوم ناشط سياسي في الحزب اليساري الذي لم يحتل مركزًا متقدمًا في الانتخابات التي أجريت يوم الأحد.

سألته:

« - ماذا ستفعلون؟ هل ستضمون إلى حزب النهضة أم ستكونون مع المعارضة؟

- لقد فوجئنا بهذه الخسارة، ولم نستوعبها. لكنني اعتبر الدخول في ائتلاف مع الإسلاميين، مثل قبة الموت! سنشكل معارضة ثابتة: لن يقدر الملتحون على إدارة البلاد وسننجز في الانتخابات المقبلة»!

لقد أبادت السلطة جزءًا كبيرًا من النخبة المثقفة. وحظرت نمو الفكر والمفكرين، ما عدا أولئك الذين يتغنون بقصائد المديح وبالثناء عليها في كل مناسبة. أما المقاومون فقد كانت حياتهم صعبة، لم يكن لديهم أي أمل على المدى القصير. لم يجد بعضهم، الذين انزلوا لاحقًا بسبب القمع، أي نتيجة أو خلاص لبطولتهم الأولية الفذة في حين تكرست الديكتاتورية بمباركة من الحكومات الأوروبية وأكلت جميع سنوات حياتهم شيئًا فشيئًا. انتهى بهم الأمر بالدخول في ظروف متشابهة، والقبول برؤية أعمالهم مكمللة بـ«جائزة بن علي» لأي سبب كان.

لم يكن هذا النوع من التعامل ممكنًا بالنسبة إلى معظم الإسلاميين، الذين تمّ قمعهم بقوة أكثر من سواهم. في مقابل هذا الاتفاق مع الشيطان، استثمر البورجوازيون في الأحياء الراقية المستعمرة، الفلل التي هجرها الأوروبيون، وتفرغوا لأعمالهم في ظل وصاية ضابط الشرطة السابق الذي أصبح رئيسًا للبلاد. بعد هجمات 11 أيلول/سبتمبر عام 2001، اقتنعت هذه الطبقة - من دون الحاجة إلى الدول المبالغة في رأيها مثل باريس وروما وواشنطن - أن بن علي أفضل من ابن لادن، وأن هذا الديكتاتور الذي يواجه الإرهاب الإسلامي، دافع عن حرية المرأة التونسية والعلمانية الموروثة من عهد بورقيبة.

ومع ذلك فإن النظام يواجه أسلمة زاحفة في المجتمع، حيث زاد ظهور علامات التقوى على سبيل التباهي والتفاخر، وتمّ بناء مسجد ضخم على قمة الربوة الساحرة في قرطاج، بالقرب من القصر الرئاسي - أول مبنى يراه القادم إلى تونس من نافذة الطائرة. توجه بن

علي إلى مكة المكرمة ظاهرياً لأداء مناسك الحج، لكنه أراد التحدث إلى وزير الداخلية في المملكة العربية السعودية، الأمير نايف - مربي الطيور الكبير ومروضاها، وصائد الحبارى في منطقة كروميري التونسية الواسعة - عن العلاقات الممتازة بين البلدين التي استفاد منها لاحقاً في قضية لجوئه إلى السعودية في 14 كانون الثاني/يناير عام 2011. أما بالنسبة إلى نايف فقد كان يوزع هباته على المواطنين في بلده التي تعتبر اليوم دار حضانة السلفيين.

استفاد الرئيس المصري حسني مبارك أيضاً من أحداث 11 أيلول/سبتمبر، فامتد حكمه بفضلها عشر سنوات أخرى، أفناها بيولوجياً في عمله، على الرغم من الشعر الأسود للامع الناجم عن الصبغة المفضلة لدى الحكام العرب المستبدين. فهتمت الحاشية الجشعة والمستعجلة في أمرها سياسة هؤلاء الطغاة الطاعنين في السن. ففي وادي النيل، كان ابنا الفرعون، علاء وجمال، يسيطران على عالم الأعمال والتجارة، وفي قرطاج، كانت ليلي الطرابلسي، الزوجة الثانية للرئيس التونسي ومصففة شعر دولته، وأقرباؤها يسددون ضرباتهم الحاسمة في جميع المعاملات المالية.

كما قال لي صديقي من مدينة المرسى التونسية، وهو زميل دراسة سابقاً في معهد الدراسات السياسية في باريس، ورجل أعمال، ونحن على شرفة بيضاء تطل على البحر اللازوردي، وتزينها زهرة الياسمين والبوغينفيليا bougainvilleés، نحتسي كأساً من العنب المسكي القادم من قلبية:

«كان الشرطي هو من يقوم بسلب الأموال... لكن عبر مصففة الشعر! هل تدرك ذلك؟».

* * *

في فندق المشتل، كنت على موعد هذا المساء مع المنتخب الإسلامي الأول، ورأس لائحة حركة النهضة في المدينة الإقليمية، وقد قام بترتيب هذا اللقاء، «نهضايي» يقيم في المنطقة الباريسية ورجل أعمال ناجح في المجال العقاري. مكثت في هذا الفندق الذي يعني اسمه «حضانة» فيما مضى، وهو فندق كبير ونذير شؤم، بني في عام 1970 على أنقاض حضانة متنزه حي بلفيدير الاستعماري.

دعاني إليه الجيش التونسي في منتصف عام 2000، هذه المؤسسة التي كان يكرهها

زين العابدين لأنها الوحيدة التي حافظت على شيء من حرية الفكر بينما كانت الجامعات والصحف تحت سيطرة الشرطة مباشرة. في القاعة التي اجتمعت فيها بكار الضباط الذين تركوا قبعاتهم العسكرية في حجرة الانتظار، كان نقاشي معهم الأكثر إثارة طيلة إقامتي في تونس. حتى مع الأصدقاء، وزملاء الدراسة القدامى التونسيين في معهد الدراسات السياسية، كانوا يتجنبون الحديث في بعض المواضيع منذ أن كنا ثلاثة، كل واحد منهم يخشى أن يجد الآخر نفسه مجبراً لسبب ما على الوشاية برفيقه.

أصبح المشتل أكثر شؤماً منذ خمس سنوات. نحن في مكان لا كحول فيه، ولا نوافذ في المقهى. عاش محدثي أكثر من خمسة عشر عاماً في المنفى، في فرنسا، وقد عاد لتوه من هناك. لم ينطق كلمة واحدة باللغة الفرنسية، وكسب رزقه بالعمل مدرّساً لعلم أصول الدين الإسلامي باللغة العربية في المعهد الأوروبي للدراسات الإنسانية، مدرسة التدريب التابعة لاتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا (UOIF) في سان دوني الواقعة في الضاحية الشمالية للعاصمة الفرنسية، وهو دكتور من جامعة الأزهر المصرية، وكان مرشد أحمد جاب الله، الرئيس الحالي لاتحاد UOIF، الذي خلف في شهر حزيران/يونيو المغربي فؤاد العلوي، بعد انقلاب تونسي النهضة، وتعتمد قوة نفوذهم في البلاد على المنظمة الرئيسية الإسلامية الفرنسية.

نادراً ما قطع هذا اللاهوتي صلته بالاستخدام السياسي. وهذا يفسر لي الكيفية التي سيسمح بها فوز الإسلاميين في الانتخابات بخنق الحياة العامة والحد من احترام الحريات - على مقام صوتي رتيب وممل للغاية. أتذكر شاباً مغربياً يعمل في الإغاثة الإسلامية، رافقته في سيارة الإغاثة الاجتماعية في سان دوني، والذي كان قد غادر معهد الـUOIF لأنه كان يشعر بالملل الشديد خلال محاضرات محدثي، التي لم يفهم منها شيئاً.

بينما كان يستشهد أثناء حديثه بآيات من القرآن، لاحظت وجود شابة تونسية تجلس على بعد بضعة كراس بيننا، وهي تتعل حذاء ذا كعب عال وترتدي بنطلون جينز بحزام رقيق يقوس ردفها المرتفعين، وشعرها الأشقر الكثيف باهت اللون. كانت تتحدث بفرح ووجه بشوش لكن يتعذر سماعها، وبصحبة رجل تداعب ذراعه. فجأة، أخرجت من حقيبتها حجاباً أسود ومررت على شعرها الغزير، وهي تقهقه، ثم وضعته وذهبت بعيداً. سألت نفسي: هل تسكن هذه الفتاة في حي شعبي حيث تشدد الملتحين يجعل الحياة

صعبة بالنسبة إلى امرأة تبدو بمظهر عصري جداً ويجبرها على اتباع مثل هذا السلوك؟ في الوقت نفسه، لم يلاحظها محدثي طيلة موعظته.

الجمعة 28 تشرين الأول / أكتوبر 2011

في المرسى، ضاحية قرطاج

في صباح هذا اليوم، كنت أسبح في المكان الذي استحمت فيه سلامبو وجواربها⁽¹⁾، كنت وحدي في البحر البارد: بالنسبة إلى التونسيين شديدي التأثير بالبرد، يرون ذلك علامة على بداية الفصل السيء. وميغارا في رواية فلويبر هي مدينة المرسى اليوم - التي تعني باللغة العربية الميناء أو الملجأ، والخليج الصغير المحمي نسبياً.

سكنت في فيلا على الشاطئ، منزل صغير على الماء كان ملكاً لفرنسا، من إرث عهد الحماية، والذي كان على بلدنا الذي يفتقر إلى مصادر النفط والإمبراطورية الصناعية، أن يبيعه على حساب أصدقاء المرسى. لكنهم يخشون تدمير هذا التراث وتحويله إلى مجمع سكني لاستكمال تشويه الخليج، الذي تغطيه مشاريع الخرسانة المملوكة لحلفاء ليلي الطرابلسي والمستثمرين من قطر كل عام.

في هذه الضاحية الممتلئة بالمنازل البيضاء الجميلة والحدائق المزهرة، يعيش البعض في تونس والبعض الآخر في باريس، يتحدثون الفرنسية بكل سرور وتلقائية، ويسمى مجتمع سكانها البورجوازيين بـ«جمهورية المرسى» أو «مرسى نهر السين». يوجد عالم بين إسلامي حزب النهضة وهذه النخبة التي تحتقرهم. لكن براغماتية البورجوازية التونسية، التي تكيفت مع زين العابدين بن علي أو كما يسمى «زابا» وزوجته ليلي، الشرطي ومصطفة الشعر، دفع البعض إلى البحث عن «التصالح المنطقي» مع السلطة الجديدة للملتحين ونسائهم المحجبات.

في طريق العودة من السباحة، فتحت الباب الصديء قليلاً للحديقة المطلة على الشاطئ: عكر صوت صريره صفو زوجين شابيين مختبئين في زاوية الرواق. كانت قشعريرة الرغبة تسري في ظهر الشاب، ووجهه ملاصق لوجه الفتاة التي عندما سمعته، انتفضت، محدقة بالوضوء التي أغضبت نشوة عينيها. لمحني الشاب بنظرة سريعة ثم عاد للاستمناة وتقبيل

(1) بطلنة رواية غوستاف فلويبر التاريخية «سلامبو».

محبوبته بحماسة. فأنا من وجهة نظره لست سوى رجل أجنبي، أوروبي بملابس سباحة مبللة، لا بيالي ماثو وحيبته سلامبو به. تضع سلامبو حجاباً ضارباً إلى الحمرة، وترتدي فستاناً أسود طويلاً من نسيج اصطناعي يتلألأ تحت ضوء الشمس ويخفت تحت يد فارسها العاشق، عند سماعه، تبادر إلى ذهني المصطلح العربي المقابل لكلمة froufrou الفرنسية أي: «خشخشة»، بصوت أكثر خشونة.

* * *

أصبح فندق المشتل المقر العام لعقد اجتماعات مع الإسلاميين، بالتوازي مع مقر الحزب. كان محدثي هذا الصباح الرئيس المنتخب في لائحة النهضة في دائرة تونس الأولى حيث تهيمن الأحياء الشعبية.

كنت قد التقيته العام الماضي في القاهرة، أثناء المؤتمر الذي نظمته إمام الأزهر الأكبر، الشيخ أحمد الطيب، لمواجهة التوسع العالمي للسلفية على الطريقة السعودية. تنظر الرياض - التي استضافت زين العابدين بن علي المخلوع والمنفي - إلى حزب النهضة بارتياح، كونه وُلد في بيت جماعة الإخوان المسلمين ويستوحي مبادئه منها. مقابل ذلك، تدعّمه منافستها قطر، وقناتها «الجزيرة»، التي خصصت له تغطية إعلامية إطرائية، كبيرة ومتوهجة. ينتمي الحزب إلى الإسلامية المبهمّة «الوسطية» التي تبشر بها «الإمارة الغازية» ونجماها «الواعظان التلفزيونيان»: المصري القطري يوسف القرضاوي ومرشد النهضة، راشد الغنوشي.

يتقن الأكاديمي المنتخب في دائرة تونس الأولى عدة لغات، ويُعدّ أحد «زملاء المهنة» الذي استطاع حزب النهضة استقطابه. بوجوده استطاع هذا القومي العربي أن يضيف الشرعية على الرابط الشرعي السابق، وهو القومية العربية بين الاسم الذي اعتمده الحزب الإسلامي، الذي يعني «الانبعاث والتجدد» باللغة العربية، وحرّكة «النهضة العربية» في القرن التاسع عشر، الذي أعاد للخطابات العربية المعاصرة رونقها، بعد قرون من الانحطاط تحت الحكم العثماني.

تأثر حزب النهضة في ذلك الوقت بعلمانية أوروبا بشكل كبير وعمق. بينما تأثر في عهد الغنوشي بالإسلاميين مع دعمه للحداثة. يحمل النائب الجديد كنية نادرة وقديمة «أبو يعرب»، وهو اسم مستعار من شاعر عربي جاهلي. يرافقه ابنه الأنيق الذي يبدو وكأنه

تمثال لشاب ملتح في متحف باردو التونسي، والذي يتابع دراسته في فرنسا، استغل إجازة عيد جميع القديسين الذي يصادف أول شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من كل عام للحضور على حين غرة كسائق وسكرتير لوالده. في محاضراته، يتذكر أبو يعرب دروس الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت التي حضرها لدى ميشيل فوكو، الذي عمل أستاذًا في كلية الآداب في تونس خلال الفترة الممتدة من 1966 إلى 1968.

لقد كان محبوبًا ومحط أنظار الجميع في قاعات المحاضرات المكتظة في الوقت الذي تأثر فيه الطلاب التونسيون بإغراءات اليساريين والبنويين⁽¹⁾ الجدد، اليوم كل هذا انتهى، لأن الفرنسيين لا يمتلكون ناصية هذا الفن، وإلى جانب ذلك لا يوجد في العصر الحالي أكاديمي فرنسي عظيم. لذا بدأ الطلاب يترجمون إلى اللغة العربية، ويعيدون اكتشاف ثقافتهم الحقيقية، ثراء الإسلام والحلول التي يقدمها لمشاكل عالم اليوم.

مضى حتى الآن حوالي نصف قرن على قضاء مؤلف «تاريخ الجنون»، ميشيل فوكو، أيامًا سعيدة في «مقصد مثلي الجنس» أي ضاحية سيدي بو سعيد التي تقع شمال شرق تونس العاصمة حتى أحيط الحي اللاتيني بالمطارس والحواجز.

كان الابن يقاطع حديثنا بأدب بسبب الرنين المستمر للهواتف المحمولة، لإيصال المكالمات العاجلة إلى والده. علمت وقتئذ أن الشيخ الغنوشي وقادة حزب النهضة يعتقدون في هذه اللحظة مؤتمراً صحفياً. فهتمت المحادثة الهاتفية باللهاجة المحلية، كان المؤتمر يستوجب حضور أبي يعرب، فاقترحت عليه الذهاب معاً إلى هناك حتى لا يتأخر أكثر من ذلك.

قاد ابن أبو يعرب سيارة ألمانية كبيرة الحجم، وأنا استقلت سيارة الأجرة، المتصلة دائماً بموجات إذاعة موزايك FM. لدى السائق التونسي لمحة من فانجيو، التي ربما انتقلت إليه من عادات جاره السائق الإيطالي. كنت أتبع المركبة البرلينية بمشقة والتي كانت تسير في خط متعرج بأقصى سرعة، غير عابئة بأضواء المرور الحمراء، متجاهلة الاتجاهات الممنوعة، ومتجاوزة السيارات المتقدمة من الجهة اليمنى. في ظل أضواء الخطر، والمصابيح الأمامية للسيارات، التي تفتقر إلى عكس

(1) البنيويون: نسبة إلى التيار البنوي الذي نشأ في فرنسا على يد «altussaire» وُسِمى «Structuralisme».

نظرية المحجبات في منتصف الطريق، قلت لنفسي: بسبب السير بهذه الطريقة، فاز الإسلاميون حقاً في هذا البلد الذي كان يضرب بيد من حديد بواسطة الشرطة، حتى في رصد حركة المرور.

* * *

عقد المؤتمر الصحافي في قاعة زفاف على طريق المرسى، تحمل الاسم الإنكليزي المترجم إلى العربية «Top Happiness» أي «قمة السعادة»، قد يكون المعنى اللغوي بالنسبة إلى الغنوشي الذي كان منفيًا هو الاحتفال بزفاف النهضة وتونس والاستبشار بالسعادة القصوى.

على المنصة، يبدو الشيخ فرحًا وبشوشًا، ويحيط به الأمين العام للحزب، حمادي الجبالي، رئيس الوزراء مستقبلاً. ويطرح الصحافيون الكثير من الأسئلة بشأن الحريات المدنية، ووضع المرأة، والحجاب، والسياحة، واستهلاك الكحول. أكد الغنوشي أن مهمة الحزب ليست تعليم التونسيين كيف يلبسون أو ماذا يشربون لطمأنة الطبقة الوسطى العلمانية.

زار جبالي لتوّه البورصة التونسية التي انخفضت غداة الانتخابات. وأكد لموجهيها دعمه للشركة الحرة، مستشهداً بنموذج الـAKP التركي (حزب العدالة والتنمية) الحزب المماثل له الذي حفز اقتصاد بلاده (أي تركيا). وعليه فإن البورصة التي أعيدت الثقة إليها قفزت ثانية.

انتهى المؤتمر لأداء صلاة الجمعة، فذهبت للسلام على الغنوشي الذي رأيته في شهر نيسان/إبريل خلال اجتماع UOIF في لو بورجيه، في سين سان دوني، اتفقنا إثر ذلك على موعد لاحق وقریب. كذلك انتهزت الفرصة وسألته في أي مسجد سيلقي خطاب الانتصار الانتخابي، فقال لي غير عابئ بالمكان بأنه سيصلي في أقرب مسجد.

لباس المرأة

لقد علمت من مصادر مختلفة بأن النهضة ستحتفل بالمناسبة في أكبر مسجد في المدينة ذات الطابع الاستعماري في حي لافاييت في مسجد الفتح - كلمة الفتح بالعربية دخلت اللغة الفرنسية عن طريق حركة التحرير الفلسطينية وهذه ضد كلمة «غزوة» وهي

تعني في معناها الأصلي الانفتاح على موطن جديد أو الحروب المباغته التي كان يقودها الفرسان المسلمون في القرن السابع لسط نفوذ الدين الإسلامي في المساحات الشاسعة التي كانت تفصل الأندلس عن «سمرقند».

لقد بدا بوضوح في هذه الجمعة الأولى انتصار المسلمين في تونس التي كانت علمانية.

على المستوى السياحي كانت مدينة تونس، في العصر العلماني تستقبلك بالمسجد، مكان الصلاة الحديث، منظره ينتسب إلى الفن المعماري فقط.

تركتُ سيارة الأجرة في حي لافاييت وغادرت الجامع الشهير وقد وجهني موزعو البنزين وبائعون متجولون آخر في الاتجاهات المتعددة.

لاحظت بعض التردد من أولئك الذين يتساءلون إن كنت «سوريًا» أو «لبنانيًا» كما يوحي مظهري أو مصريًا بناءً على لهجتي أيضًا. في معظم المدن العربية الجمهور الدنيء والجشع هو من الضواحي البعيدة، من المهاجرين الريفيين الحديثين الذين يستعمرون، أثناء النهار، كي يكسبوا بعض النقود، مدينة لا يعرفونها حيث مفهوم الموقع يبقى ثقافيًا غريبًا عليهم.

بينما كنت أتجول بلا مبالاة، اعترضني متسول يطلب المعونة متميزًا بمظهر لائق. وباعتبار وضعيته وحال لحيته، اقترحت عليه أن يريني مسجد الفتح مقابل مبلغ ضئيل القيمة، قبله بكل سرور. كان كلامه راقياً واستخدم اللغة الفرنسية أيضًا عندما طلب أن يتعرّف إلى جنسيتي إذ إنه كان مقتنعًا بأنني لم أكن سوريًا ولا مصريًا ولربما تصوري أوروبيًا مسلمًا في بحثي عن مسجد أمارس فيه طقوس العبادة.

كنا نسير بمحاذاة «الترامواي» التابع لشركة النقل التونسية الذي يطلق عليه باللهاجة التونسية «مترو»، فسألته لماذا يتسول في الشوارع، لقد أثار وضعه تساؤلاتي. كان يغطي يديه جزئيًا بضمادات، فقال لي إن ذلك مرده إلي وضعيته السابقة عندما كان يعمل في مدينة طرابلس اللبية كنجار وأصيب خلال الحرب الدائرة رحاها هناك. كان معيلاً لزوجته ولأبنائه الأربعة. تعج تونس بأمثال العائدين من ليبيا فاقدين كل شيء.

«هل مارست حق الاقتراع في الانتخابات؟»

-نعم

- لمن أعطيت صوتك؟

- بالطبع لحزب النهضة

- ماذا تنتظر منه؟

- أولاً تغيير لباس المرأة لأننا بلد مسلم!..!

لتوضيح وجهة نظره، كان يشير بيديه المضممتين إلى النساء المارات بجانب السكة الحديدية «المترو» ويصفهن إلى فئتين: محترمات وغير محترمات.

الفئة الأولى هن المحجبات والمنقبات، حوالي ثلث المارات، والفئة الثانية بمظهر مميز، غير محجبات ويظهرن صدورهن. كان يحرك يديه المضممتين بنفور كبير ويلح بنطق كلمة «صدر». قلت في نفسي إنه صار عاجزاً عن مداعبة صدورهن في وضعيته هذه.

أعدت على سمعه ما قاله الغنوشي في الندوة الصحافية لحزب النهضة بأنه لن يتدخل في لباس المرأة، فكان رده حينها وبصوت مسموع:

«هذا لأنه لا يريد أن يخيف الأجانب في البداية لكننا سنتقدم تدريجياً».

استعمل تعبيراً تقنياً باللغة العربية الفصحى - الحركة التدريجية - الذي تستعمله الأيديولوجيا الإسلامية كي تعبر عن الفتح المتدرج للمجتمع عبر إعادة الأسلمة بدءاً من القاعدة.

* * *

وصلنا أخيراً إلى المسجد المشهور وهناك نقدته صدقة، اختفى إثرها في المجمع بحثاً عن مار آخر يتودد إليه.

المصلون غادروا المكان. الصلاة انتهت ولم يبق كثير من الناس في الفناء. انتظرت زميلي الشاب نبيل مولين وهو اختصاصي في الفقه السعودي. وصل لتوه إلى تونس، وكنت قد اقترحت عليه أن يأتي فوراً إلى مسجد الفتح كي يحضر الاحتفال بالنصر الذي كان بالنسبة لي حالة خاصة.

يوجد أمام المسجد كشك تُعرض فيه بعض كتب الشيوخ السلفيين من السعودية الذين

لم أر أي كتاب أو مؤلف آخر للغنوشي ولا أحد من أولئك المنظرين للسلفية مثل «الفئة الضالة من الإخوان المسلمين».

أكثر العناوين تتعلق بلباس المرأة المسلمة العزيز على ذلك المتسوّل. على حائط المسجد علقت بعض الجلابيب الطويلة، نُقِب، وقفازات ذات ألوان داكنة. يرتدي البائعون لباساً سلفياً عبارة عن جلباب يصل إلى ما فوق الكعبين كإشارة إلي تواضعهم أمام الخالق، مع لحية كثيفة وشارب حليق ويغطون رؤوسهم بكوفيات .

قابلت نبيل خارج قاعة الصلاة، في الواقع، مثلما يوحي به مظهر المسجد الذي أصبح تحت السيطرة السلفية وليس النهضة، أعلمني بذلك المخبرون العلمانيون الذين اتهموا بالنجاسة من قبل الأتقياء المتفاخرين الذين لا يعرفون أبداً التمييز بين الرموز المختلفة.

* * *

كان لديّ موعد مع البروفيسور غازي الغريبي في مقر الهيئة العليا لحماية مكاسب الثورة تحت غطاء هذه التسمية المثيرة للجدل لهذه المؤسسة التي انتهت مهمتها بإجراء انتخابات المجلس التأسيسي حين اختفى مفتاح الانتقال الديمقراطي إثر خلع بن علي، هذا الانتقال الذي تميّز بقلة مظاهر العنف وعدم الانزلاق إلى حرب أهلية. بعكس الثورات العربية الأخرى الجارية أو التي أجهضت.

وفقاً لصورة السيرورات الثورية المقبولة عامة المنبثقة عن الماركسية بمجرد بتر النظام السابق يؤدي ذلك إلى بروز قوتين متنافستين: من جهة، حكومة مؤقتة تجمع شخصيات معقدة من النظام السابق تلاشت سلطته، ومن جهة أخرى «لجنة السلام العام» التي عرفت بأشكال عدّة في القرن العشرين، أكثرها شهرة السوفيات في روسيا عام 1917 والكوميته الإيرانية عام 1979، أما الثانية فتأخذ على عاتقها «العنف الثوري» التي تخرج الأولى تدريجياً وتساعد على الوصول إلى السلطة الطبقات الاجتماعية الجديدة أو أولئك الذين يستحوذون على تمثيل البروليتاريا والحزب الشيوعي في موسكو، «المحرومين» والحزب الخميني في طهران.

في تونس الهيئة العليا كانت بمثابة الحاجز بين الاثنيين. هذا ما فسره الأستاذ غازي الغريبي:

«نجحت هذه الهيئة في تجميع كل التناقضات والاصطدامات السياسية لتكون محل ثقة الجميع بغض النظر عن النزاعات. لم تستطع أي هيئة أن تؤدي الدور نفسه في بلدان عربية أخرى تعيش الديناميكية الثورية نفسها التي تبدو حتى الآن تائهة، ساهمت الهيئة العليا في إخماد لهيب حرب أهلية خاصة إثر التظاهرات العنيفة للمهمشين أمام قصر الحكومة في القصة في شهر شباط/ فبراير عام 2011».

كيف نفسر ذلك؟ ربما بسبب المكانة التي تحتلها الطبقة المتوسطة المدنية المتعلمة وهي من مكتسبات عهد بورقيبة.

«كما تمكنت الهيئة من إيجاد بعض الناطقين الرسميين الذين كانوا قادرين على الابتعاد جذرياً عن نظام بن علي، ناشطين في جمعيات حقوق الإنسان، ممثلي النقابات والمجتمع المدني.

بالإضافة إلى ذلك، تمكن الأكاديميون من تأديتهم دوراً، انطلاقاً من صراحتهم لتفادي المساومات مع الديكتاتور، واستمروا بنقل المعرفة وروح الحرية ضد كل المفسدات للأجيال الجديدة».

إنهم من بقايا الحقوقيين الذين تعلموا في فرنسا والمتأثرين بالقانون الإسلامي.

* * *

غازي الغريبي هو متخصص بالقانون الدستوري وناطق رسمي سابق للهيئة ومتعاون مع الأستاذ عياض بن عاشور رئيس الهيئة الذي التقيته وتناولنا معاً فطور الصباح مبكراً في منزل عائلة بن عاشور في المرسى، على مقربة من منزلي المظل على البحر.

نعرف بعضنا منذ وقت طويل، وأخبرني أن مطابع الجامعات الفرنسية نشرت اثنين من أعماله الخاصة في «مجموعة الشرق الأوسط» في المطبعة الجامعية في فرنسا. في حديقة المنزل بعض التماثيل لأسود، وتنحدر عائلة بن عاشور من سلالة رائدة من العلماء والأدباء في الأندلس.

وكان جد عياض، طاهر، أحد الوجوه الرسمية لجامعة الزيتونة الإسلامية قبل أن يصبح مفتي الجمهورية التونسية المستقلة. أما بالنسبة لوالده، فاضل، فقد لعب دوراً رئيسياً في إضفاء الشرعية باسم الإسلام على قانون الأحوال الشخصية لبورقيبة، أساس المساواة بين

الرجل والمرأة وقبول أحكام التقدمية في بلد مسلم إزاء عقلية المتدينين الرجعية الذين يجدون لهم أذناً صاغية بين الجماهير.

كان عياض على موعد مع التاريخ عندما استقال من وظائفه الرسمية كلها مع بداية انهيار عهد الديكتاتور بن علي، احتراماً لقبه ولاسمة.

وجد والده في قراءته للتراث الديني للإسلام فكراً يؤيد تحرير المرأة ويناقض الإسلام الحرفي الذي يكرس الهيمنة الذكورية والدفاع عن المواقع التي استولت عليها السلطة في 1950. وهو نفسه حفر الطريق كي يُدرج في القانون استحالة الديكتاتورية والابتعاد عن الضلوع في المخططات الاعتبارية للشعبوية الإسلامية، وهو التحدي الأول للثورات العربية الحاضرة:

«لقد عرّفت الطبقة الوسطى الليبرالية كيف تسير المرحلة الانتقالية تقريباً من دون إراقة الدماء، لكن لم تكن هي التي فازت بالانتخابات إذ النهضة هي التي فازت بها بنسبة 40% من الأصوات و89 عضواً منتخبين في المجلس التأسيسي من بين 217 وهي مجبرة أن تحالف مع العلمانيين، حسب قانون لعبة الديمقراطية المنبثقة من صناديق الاقتراع.

كان الإسلاميون مجبرين على قبول هذه اللعبة لأنهم كانوا يعتقدون أن مصير تونس كان مرتبطاً باندماجهم في الحركة الديمقراطية. لا يمكنهم تسيير البلاد وحدهم مثلما حصل للإيرانيين أو ما حدث في الجزائر عندما حاولت الجبهة الإسلامية للإنقاذ الانفراد بالحكم مدة عشرين عاماً خلت».

لأن هؤلاء الأعضاء من القياديين الإسلاميين ينتمون إلى الطبقات الوسطى حتى لو كانوا متدينين ورعين لكن فكرة التغيير الاجتماعي الراديكالي ترعبهم بالتأكيد مما جعلهم يبحثون عن أرضية مشتركة مع الطبقات الوسطى الليبرالية.

السبت 29 تشرين الأول / أكتوبر 2011

صيدلانية مونبليزير

تواعدت في مونبليزير مع الصيدلانية سعاد عبد الرحيم، على رأس لائحة النهضة المنتخبة في دائرة تونس الثانية، حيث تجمعت الضواحي السكنية. يرمز مونبليزير إلى جزء من تونس الاستعمارية في حقبة الحماية.

في تونس نجد شارع «ألان سافاري» القائد الاشتراكي الذي توفي في عام 1988 إذ كان كاتب الدولة للشؤون المغربية والتونسية إبان الاستقلال عام 1956، استقال إثرها احتجاجاً على إقالة بن بيللا. وكنت أتساءل فيما إذا كانت حكومة النهضة سوف تسمح ببقاء اسم شارع وزير ميثران على قيد الحياة لفترة طويلة، هو الذي اضطر إلى ترك منصبه في عام 1984 بسبب المد والجزر مع أنصار «المدرسة الحرة» التي عارضت مشروعه لتوحيد التعليم العام والخاص. كان ذلك قبل خمس سنوات قبل أن تحل قضية الحجاب، محلّ القضية الكاثوليكية، والتي هي المسألة الأساسية التي كانت توتر العلمانية في الوسط التعليمي.

أصبح مونبليزير أيضاً الشعار الخاص للمنتصرين في الانتخابات والصحافيين التونسيين، الصورة التي تدل على «مركز النهضة» مبنى للمكاتب حديثاً يقع في الحي. وطبقاً لإشاعة متداولة في تونس، فإن قطر هي المالكة بإيجار بحدود 10.000 يورو شهرياً. وطبقاً لإشاعة أخرى فإن النهضة من الآن وصاعداً، وبشكل كافٍ أصبحت مُمولة من طبقة البورجوازية كي تستغني عن التمويل الخارجي.

* * *

كانت سعاد عبد الرحيم ناشطة في إطار حقوق الإنسان في سياق الاتحاد العام لطلبة تونس المنافس الإسلامي للاتحاد العام لطلبة تونس اليساري.

لم تعد ترتدي الحجاب منذ أن ترأست مجموعة الصيدلة، مع شعرها البني المتموج والمصفف جيداً وصوتها السوبرانو، حركة يديها المتناغمة وهندامها المكون من بنطلون عالي الجودة، عينيها الفاتحتين وضحكتها، كل ذلك جعلها شبيهة ببعض ممثلات السينما العربية المعاصرة

لا يحتاج منافسوها كثيراً ليجعلوا منها هجينة بين «مغفلة ساحرة» و«غبية نافعة» والتي وضعتها النهضة في المقدمة كي تغري الطبقة المتوسطة الليبرالية في مقاطعة «تونس 2» كي تضمن أصواتهم. وأصبحت بعد وقت قليل نجمة في شبكات التواصل الاجتماعي.

تعبّر منتخبة النهضة عن نفسها بسرعة وهي تحاول إقناعي بأن حزب النهضة تحكمه قواعد الحياة الديمقراطية.

«قضية النساء هي الأساس، ولكن فضيلتهن يجب المحافظة عليها. إن العائلة هي العمود الأساس في المجتمع الإسلامي»

طريقة كلامها تذكرني بإذاعة موزايك إف إم. بل أعتقد أنها تذكرني بسارة بالين الحائزة على جائزة في الجمال والمرشحة الجمهورية السابقة لمنصب نائب الرئيس الأميركي وبطلة القيم الأخلاقية المحافظة. بعد بضعة أيام من لقائي بها وفي اليوم التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر وضّحت سعاد عبد الرحيم أفكارها خلال حوار لراديو مونت كارلو بالعربية معتبرة أن الأمهات العازبات «عار على المجتمع» مما أثار سيلاً من التعليقات وأكسبها لقب «سعاد بالين».

* * *

عدت إلى فندق مشتل لإجراء حوار مع حمادي الجبالي الذي سمّاه الحزب كمرشح لمنصب رئيس وزراء. هذا المهندس يبلغ من العمر 61 عاماً، حائز على جائزة الفنون من باريس وشهادة في اختصاص الحرارة الديناميكية التطبيقية.

درس في جامعة مدينة أنتوني، وهو ابن القومي العربي الذي نُفي وأدين في عهد بورقيبة. عاش حمادي الجبالي في فرنسا وأصبح إسلامياً متشدداً في السبعينات، وكان على تواصل مع راشد الغنوشي. والناشطون الأوائل في الحركة ذات الاتجاه الاسلامي احتكوا بالماركسيين - اللينينيين التونسيين الذين عانوا في المنفى أيضاً. بعضهم كانوا على أرض الكفر والبعض الآخر اتجه نحو الامبريالية والاستعمار الجديد. البعض من هؤلاء الماركسيين انجرفوا نحو الإسلاموية وحملوا لها رؤيتهم بالصراع الطبقي ومفاهيم المادية التاريخية للجماهير الصمّ الذين لا يسمعون إلا لغة الإسلام.

كنت في تلك السنوات من دراستي للعربية في جامعة «باريس 3 سانسيه» الذكر الفرنسي الوحيد في مجموعة صغيرة من الطالبات الملزمات بتعلم هذه اللغة. كن منقسمات بين مبتدئات وبين شابات فرنسيات الأصل. وهؤلاء الأخيرات كن يعشن كلهنّ مع الماركسيين - اللينينيين التونسيين الناطقين باللغة العربية من أجل إذن الإقامة للطالب (لقد تزوجوا منهن ليحصلوا على الجنسية الفرنسية) وحصل ذوبان لغوي وثقافي!

إحداهن عندما كنا نجتمع في غرفتي توقفت عن شرب الخمر. وأبدت لنا رغبتها في أن تصبح مسلمة متأثراً برجلها الذي انتقل من «رأس المال» لماركس إلى القرآن. هذا الانتقال بين الإسلامية واليسارية كان يظهر أيضاً بين الطلاب الإيرانيين في فرنسا تحت التأثير الفكري لـ «علي شريعتي» مترجم كتاب «ملعونو الأرض» لفرانس فانون إلى الفارسية، حيث استعمل تعابير قرآنية (مستكبر) و(مستضعف).

بعد تبادل بضع كلمات باللغة العربية، أعرب حمادي الجبالي خريج كلية الهندسة - طالب في المدرسة الوطنية العليا للفنون والمهن - والذي سكن في المدينة الجامعية في أنطوني، عن نفسه بلغة فرنسية رقيقة لكي يكون مفهومًا ولنقل رسالة الحزب.

وعلى الفور حدّد معركته بتميزه عن الإسلام الراديكالي وهو يعرف مسبقاً بأنه سيكون رئيس الوزراء قريباً. بقينا ساعة ونصف سويّاً حتى وصل مؤد حزب الإصلاح الاجتماعي الفرع الكويتي والكثير الغني للإخوان المسلمين الذي أصرّ على مقابلة الجبالي. أمضى الجبالي أكثر من ربع حياته في السجن، وعشر سنوات في السجن الانفرادي، ورغم ذلك تجد أنه إنسان اجتماعي ويملك حس الدعابة.

- «هل تعتقد أن الثورة التونسية نتيجة لفشل ابن لادن في استراتيجيته للاستيلاء على السلطة بواسطة الجهاد المسلح؟

- مقابل الآلام التي سببتها الديكتاتورية والظلم، نهج النهضة ليس العنف، على عكس الإسلاميين الجزائريين الذين اختاروا المواجهة المسلحة وفشلوا في التسعينيات. في تونس تحمل حزب النهضة الظلم صابراً دون أن يقع في فخ الرد على العنف بالعنف بل يجب الرد على ذلك بمزيد من الحرية».

ثم ذكر الجبالي ما يسميه «النقد الذاتي» داخل الحزب الإسلامي التونسي:

«قادنا فشل الجزائريين والمصريين ونجاح الأتراك إلى نبذ العنف (والتحرك نحو مزيد من الديمقراطية والحرية، أمل أن تدعم أوروبا والولايات المتحدة حكومة النهضة المستقبلية، قولاً وفعلاً، لأن هذا سيدعم خيارنا».

هذا «النقد الذاتي»، الذي مرّ عليه الجبالي بسرعة، وهو في الواقع صنع بعمق التنظيم خلال العقدين 1990 و2000 وأدى إلى التعايش الصعب تحت رعايته للاتجاهات المختلفة. امتد شبح هذه الاتجاهات المختلفة من أوليات الديمقراطية، على شاكلة

الأحزاب الديمقراطية - المسيحية الأوروبية، لخدمة مشروع التطبيق الأصولي للشريعة بمعناها الحرفي. إن خيار التعددية تطور بشكل خاص من قبل المنفيين أثناء عقود الترافق مع الحياة السياسية خاصة الفرنسية، ولكن أيضاً الإنكليزية.

* * *

رغم ذلك لا تزال الانقسامات داخل الحزب عميقة جداً. وقد أُرجئت من أجل حشد كل الطاقات للفوز في تشرين الأول/أكتوبر 2011. ويتوقع المراقبون أنها سوف تعود مع خيارات الحكومة الائتلافية الصعبة خلال الدورة الحالية للجمعية التأسيسية. وقد جعل الجبالي موقفه قوياً في الحزب داخلياً، أما خارجياً فقد تبني طرحاً منفتحاً. مقارنة بالتحول الإسلامي في تونس، طالب بتطبيق تجربة الحزب الاشتراكي الفرنسي، مع تعدد الاتجاهات والنهج والأفكار، فضلاً عن تطور الجماعات الإسلامية في تركيا وإندونيسيا وماليزيا.

ويتابع: مشكلة جماعة الإخوان المسلمين، التي تسعى إلى الإلهام الأصلي، هي الخلط ما بين السياسة والدين في المؤسسة نفسها (التنظيم)، ويقارنهم مع الشيوعيين، الذين خلطوا بين الأيديولوجية واستجماع القوة داخل الحزب اللينيني:

«فصلت النهضة بين الوظيفتين: بين الحركة الأضيقة والدعوة؛ وبين الحزب الأوسع، السياسة، اللعبة السياسية ووسائلها (السياسية) البحتة تستطيع أن تنضم إلى الحزب دون أن تكون في الحركة، أن نكون مؤمنين أولاً، مسلمين أو مسيحيين، محجبات أو لا. الحزب هو مدني».

هذا التعبير الأخير يشمل، كل شيء، مليء بالتناقضات، هو «الموضة» في الثورات العربية قاطبة. كما هي ترجمته بالفرنسية، فإن لكلمة مدني بالعربية دلالات مرتبطة له بالمُدنية، أي بالتناقض مع العادات المتوحشة للبدو والريفين كما الإسلاميين الأصوليين، فإنهم جميعاً لهم ميول نحو العنف.

إن إسلامي تيار «الوسطية» مثل الشيخ القرضاوي أو الغنوشي استعملوا كلمة مدني تساهلاً مع العلمانيين والليبراليين كي يبينوا أن الدولة لن تكون ثيولوجية دون أن يذكروا كلمة علمانية التي تمثل بالنسبة لهم الدناسة الكبرى.

في المعركة ضد العلمانية التي يخوضونها بضراوة، والتي يعرفها الإسلاميون بالأنظمة الديكتاتورية التي قُضي عليها أو يجب القضاء عليها - كحزب البعث العراقي أو السوري اللذين ادعيا العلمانية - قبل أن يُستعمل الإسلام كوسيلة ألصقوا بها تهمة «الإسلاموفوبيا» الأوروبية التي اتسمت برفضها للحجاب في المدرسة أو النقاب في الأمكنة العامة.

أضحت القوى العلمانية في العالم العربي غير مستقرة، فلجأت إلى موقع دفاعي. تحت مظلة «الدولة المدنية»، كي تميّط اللثام عن ازدواجية الخطاب لـ «الإسلاميين المعتدلين» الذي يستعملون مفهوم البؤس المخفي للمدنية كي يضلّلوا خصومهم ويحضّروا لإقامة الدولة الإسلامية الصافية والقاسية.

الفصل الرابع

ليبيا

الأربعاء 2 تشرين الثاني/نوفمبر 2011

العبور عن طريق جربة

لقد أُغلق مطار معيتيقة الدولي في طرابلس الذي كان مُعدًّا في الماضي للرحلات الداخلية وطائرات الزعماء التابعين للسلطة المخلوقة فقط. كما تمّ تشغيل مبنى الرحلات الدولية رغم أن مدارج الإقلاع والهبوط، التي تضررت من الألغام التي ألقتها الطائرات الحربية لحلف شمال الأطلسي (الناتو) خلال الهجوم على القذافي، لم يتم إصلاحها بعد، هذا المطار هو إحدى ساحات القتال بين الميليشيات التي تتنازع على العاصمة منذ سقوط النظام القديم. في الأسبوع الماضي، كان طاقم الخطوط الجوية التونسية عالقًا على مدرج المطار بسبب أشخاص مسلّحين، ومنذ ذلك الحين، علقت الرحلات الجوية.

للذهاب إلى ليبيا من تونس، اخترت رحلة داخلية إلى جربة، بحيث توصلني سيارة إلى حدود رأس جدير، ومن هناك، استعنت بسائق ليبي للوصول إلى سفارتنا في طرابلس. لقد استغرق الأمر مني يومًا كاملًا لتخطّي كل هذا السيناريو. وفي بادئ الأمر، كان يجب عليّ تأمين مقعد في طائرة الفجر الذاهبة إلى جربة. لكن جهودي تبعثت في المطار، فقد ألغيت تذكرة السفر، ولم يكن أمامي سوى مجادلة المسؤول عن رحلات الترانزيت وإخباره عن مقابلي التي أجريتها مؤخرًا مع حمادي الجبالي، رئيس الوزراء التونسي المستقبلي، حتى تسنى لي بأن يعرض عليّ أخيرًا مكانًا في الطائرة.

بما أن الإدارة تؤيد السلطة الجديدة للنهضة، فهي تباشر في خدمتها بالهمة والسرعة نفسيهما اللتين كانت تخدم بهما سلطة بن علي، ووفقًا للأساليب المماثلة. يجد الكثيرون

منا أنفسهم من دون تذكرة بالرغم من حجوزاتهم، ويضج مكتب الصعود إلى الطائرة باشتباكات عنيفة بين الركاب الغاضبين والموظفين. إنّ كل النزاعات تتبع النمط نفسه: بعد عدد من صحبات التخاطب باللهجة المحلية، يتحدث العميل أو الزبون المحبط باللغة الفرنسية للمطالبة بحقوقه المنتهكة - كما لو أنّ السجل الدلالي لهذه اللغة يضمن وصولاً أفضل للعدالة والإنصاف بدلاً من التحدّث باللغة التونسية، مشيراً هنا (أي الزبون) إلى العقبات والرشاوى وانتهاك الحقوق القانونية. كما يحدث أنّ الموظفين يوتخون الركاب باللغة الفرنسية أيضاً، بتأنيبهم على صرخاتهم وتصرفاتهم التي لا تليق ببلد متحضّر.

* * *

في هذه القبلية للسياحة الجماعية، تعد جربة محطة طيران وهي عادة تعدّ معبراً للجحافل تأتي من أوروبا، يرتدون السراويل القصيرة على نحو جميل بألوان زاهية وكنزات بخطوط عريضة، وخوذ البوب الملونة، مدججين بكاميرات الفيديو، حطّوا بواسطة طائرات مؤجّرة من مطار ميدلاندز وراينلاند ولومباردي أو بيكاردي، وهي رحلات جوية من شأنها أن تعاد إلى الأرض في عهد التقسيم الدولي للعمل والإجازات المدفوعة الأجر. جربة اليوم صحراء مقفرة. إنّ شركات منظّمي الرحلات السياحية قد شهدت ارتفاعاً عالياً جدّاً في أقساط التأمين.

يرتدي بعض نساء جربة اللباس «البربري» التقليدي مع قبعة من القش التي تُعتمر على الجزيرة، يجلسن بهدوء منتظرات وصول أحد أقاربائهن على متن طائرة قادمة من باريس. ربما قد يحملون معهم اليورو الضروري لإنهاء تشييد البيت الإسمنتي أو لشراء بعض الفدادين من أشجار النخيل أو الزيتون، هذا هو ترياق الفقراء عند انهيار السياحة منذ الثورة. إنّ نعمهم قد تمّ تعويضها مرة على الهامش بواسطة إيواء اللاجئين الليبيين في مجمّعات فندقيّة فارغة خلال أصعب المعارك، في الأسابيع الأخيرة، قبل سقوط القذافي.

لقد قمت بسحب الكثير من المال النقدي من جهاز الصراف الآلي من أجل تجميع الحد الأقصى المسموح به. في ليبيا، البلد المتهدّم والمتهاك، والثري من عائداته النفطية، لا تقبل بطاقات الائتمان. إنّ المصارف لا تعمل أبداً، والأسعار باهظة. نصحني السائق بصرف اليورو إلى دينار ليبي في آخر مدينة تونسيّة، بنقردان، حيث إن الأسعار مجحفة. هناك «ابن عم» ضمن لي بأنّه لن يسرقني.

تعتبر السيارة بساتين النخيل بأشجارها المتناثرة، مرورًا بمفرق طرق المعبد اليهودي في غربية، الذي يعدّ من الأقدم في العالم، حتى ولو تجاهلنا التاريخ الحقيقي لبنائه. كان مكانًا للحج اليهودي الشهير حتى الهجوم الانتحاري الذي سنّه تنظيم القاعدة على تونسي فرنسي مولود في بنقردان في نيسان/إبريل 2002، ملحقًا به الدمار والخراب. منذ ذلك الحين، تردد اليهود الشرقيون المطاردون من تونس إلى «بيلفيل أو سارسيل» أو المطاردون من قبل القومية العربية، أو الذين تمّ جذبهم إلى الأرض المقدّسة بواسطة العقيدة الصهيونية، في العودة.

* * *

في جربة، وفي الطريق المعبّدة نفسها التي نسير عليها منذ ألفي سنة لمغادرة «جزيرة الرمال الذهبية»، حيث كتب الروائي فلوبيير «ماثيو»، وانضم إلى القارة بمساهماته الأدبية. في اليابسة، لا ترتدي النساء اللباس البربري وقبعات القش، لكن أثوابًا طويلةً من النسيج الصناعي مصنّعة في الصين للسوق المسلمة المحافظة، أو بنظون أسود. وعلى عكس تونس، فإن كل النساء تقريبًا محجبات في هذه المنطقة الفقيرة من ليبيا والآثار الناجمة عن نفلها قُصفت بشدّة في الحرب خلال الأشهر الأخيرة وتوقّفت الأنشطة الاقتصادية.

في حين يرتدي الرجال سترة جلديّة سوداء، في هذا الخريف الماطر، الذي ساهم في إشاعة جو الكآبة المحيطة، ومحطات الخدمة خالية في كل مكان، إلا من مراهقين هزليي البنية يبيعون زجاجات البنزين المستورد بالتهريب من ليبيا، «بنصف السعر القانوني»، بحسب ما فسّر لي السائق، الذي قال لي من أجل توفير جو آخر من الألفة والقرابة والثقة:

«إن البنزين في الزجاجات على قارعة الطريق هو في الأغلب مخفّف بالماء أو بالبول مما يؤدي إلى تعطيل المحركات».

يشير الازدحام الضخم إلى الاقتراب من بنقردان، آخر تجمّع تونسي قبل الحدود الليبية. من جهة اليمين، طريق معبّدة تمّ إنشاؤها من قبل مهندسي الجسور والطرق للمحمية التي تتبّع آثار الطرق الرومانية، النوميديّة الزائلة والبيزنطية، التي شهدت مرور الغزو الهلالي الآتي من الجزيرة العربية، الذي أسلم على أثره البربر المحليون، باستثناء الذين كانوا قد اعتنقوا اليهودية، وتعريب الأغلبية طوعًا أو كرهًا.

في غياب الشرطة، التي فقدت مصداقيتها من خلال تماثلها بنظام بن علي، فإن أصحاب المحال التجارية في السوق السوداء في ليبيا قد دفعوا بأكشاكهم إلى الطريق المعبّدة، مما ألزم السيارات بالتعرّج بين بعضها بعضاً وأيضاً الالتفاف من أجل العبور. نمّر بين جبال من الإطارات وصلت لتوّها من آسيا، بشرائط من النسيج مرصوفة بألوان مبهرجة، ومجموعات من الحفاضات والمواد الغذائية للأطفال الرضع وزجاجات البنزين التي لا مفرّ منها. أي انفجار في هذا المزيج قد يؤدي إلى حريق ضخم ومئات القتلى.

في كل مكان، هناك شباب يلبسون ثياباً رثة يحرّكون رزماً سميكة من المال الليبي كما لو أنّهم يستعملونها كمروحة، بشكل تعب ونظرة فارغة. حذرنى السائق وأذرنى من حيلهم: «إنهم يدسون عملات مزوّرة في وسط العملات الحقيقية، هذه عملية سرقة واحتيال».

تأتي تحذيرات السائق في الوقت المناسب مما يعزّز الألفة والثقة بيننا لتجعلني أعتبر مشاهدتي من النافذة الثانية للسيارة وأنا أشعر برغبة في التحذير عبر الهاتف لكل ما أراه. بقدر ما شعرت بطمأنينة، والشكر على نسبة التسعيرة التي منحها لي، ها أنا أترك السائق، الذي يطالب بالتسعيرة في هذا الوقت المحدد، مع بقشيش كبير، من شأنه أن يتوافق مع الربح الذي من المفترض أني حصلت عليه.

وها أنا أمتلك جزءاً من الأوراق النقدية الليبية من المصرف، مزينة بملامح صورة القذافي، التي عفا عليها الزمن حالياً. على واحدة من تلك الأوراق النقدية، لطح وجه «القائد» بثلاثة خطوط من الطلاء الكثيف بألوان العلم الجديد الأخضر، الأسود، والأحمر، وكان الطاغية الذي استبدل رايته، بالخضراء كالإسلام، مهووساً بهذا اللون. كانت الساحة المركزية لطرابلس تُسمّى بـ «الساحة الخضراء» ويسود اللون الأخضر الأثاث المدني، الإدارات وردهات الفنادق للأجانب وكل ما يخصّ الدولة.

على الجانب الخلفي للعملة النقدية، دكتاتور قديم، مقبوض عليه ومقتول من دون محاكمة قانونية. وباختصار لقد تمّ إطلاق النار عليه منذ 13 يوماً، قبل أن يتم عرض جثته نصف العارية على موقع اليوتيوب وكل مواقع مشاركة الفيديوها، كنتيجة لأعماله. كان محاطاً برؤساء الدول الأفريقية، التي كان ينظر إليها على أنها أول منطقة نفوذ له، بعد الانفصال والنقد اللاذع الذي تلا حفلات زفافه التي لا تحصى مع تونس ومصر ودول

عربية أخرى. إنَّ العملة النقدية من فئة 10 دنانير تعرض صورته في وسط زعماء سود يرتدون عباءة أو بذلة ويضعون ربطة عنق، محاطًا بـ«بن علي ومبارك»، اللذين بالكاد سبقاه في السقوط، لكنهما أنقذا جسديهما.

* * *

من بنقردان، توجَّهت نحو نقطة حدود رأس جدير، أصبح الطريق الآن مستقيمًا. على اليسار، يوجد البحر، شاطئ مدينة سرت الصغيرة، وعلى اليمين، مخيمات اللاجئين البيض الممتدة على طول النظر، ومسيجة بالأسلاك الشائكة. لقد لاحظت على مدخل إحدى هذه الخيم إشارة باللغة العربية عن الإغاثة الإسلامية. ويقطن في هذه الخيام الآلاف من السود الماليين والنيجريين وعدد من الدول الأفريقية الأخرى جنوب الصحراء الكبرى الذين أتى بهم القذافي لممارسة الوظائف الثانوية المحترقة للبيين المدللين بإيرادات النفط، وأيضًا للخدمة في جيشه وميليشياته.

في الأيام الأولى للانتفاضة، كان الثوار يسمون السود بكل بساطة «مرتزقة» وكان جميع الأفراد ذوي البشرة السوداء يوصمون بهذه الصفة، رجالًا ونساءً، مما عرضهم للمطاردة، وتشويه أعضائهم وتعنيفهم وقتلهم من دون محاكمة، لأنَّه يشبّه بهم بأن يكونوا من عملاء النظام القديم.

كان بعض هؤلاء السود من المواطنين الليبيين، المنحدرين من العبيد. أنعم عليهم القذافي وأصبحوا يراقبون أسيادهم المنتمين لقبائل قوية جدًّا ويشكلون مصدر خطر على سلطته المطلقة، يقترض ديكتاتور النفط كلاً ما إنشائيًا اشتراكياً يسمى باللغة العربية «الجماهيرية» المصطلح الذي اخترعه المرشد. إنَّ سقوط الطاغية فتح المسار، تحت مظهر ديموقراطي، لانتقام الليبيين ذوي البشرة الفاتحة من الأدنى في النظام القبلي ذوي بشرة الأنوس، إذ إن الطاغية قد وعد البعض بقلب وضع التسلسل الهرمي التقليدي للأعراق لمصلحته.

أما هؤلاء الأجانب فقد هربوا من الاضطهاد نحو بلدهم الأصل عندما تمكنوا من اجتياز الصحراء الجنوبية الشاسعة، والكثير من بينهم قد ثروا وأجسادهم الجافة في الرمال، بينما انضم الكثيرون إلى تدفقات اللاجئين الذين تجاوزوا الحدود التونسية. ولكن عندما خرج الهاربون، من الرعايا الأوروبيين، ومن الدول العربية وحتى من الصين، عائدين

إلى وطنهم في الطائرات أو على متن البواخر المستأجرة لهذا الغرض من قبل دولهم، فإنّ الأفريقيين قد تركوا لمصيرهم. هم وحدهم الذين بقوا، في هذه الخيام الشاسعة من القماش، غير قادرين على العودة إلى ديارهم، حيث لا ينتظرهم إلا البؤس، وغير متأكدين من عودتهم إلى ليبيا، حيث سيكونون تحت رحمة الانتقامات. كانوا يرتقبون باخرة رديئة مزدحمة للذهاب بشكل سري إلى إيطاليا أو مالطا، مع خطر الهلاك في أن يصبحوا طعاماً للأسماك، لكن الكثيرين منهم كانوا مفلسين وغير قادرين على السداد للمهربين وكانت هناك منافسة من قبل التونسيين الذين استثمروا آخر مدخرات الأسرة لشراء مكان بسعر باهظ إلى لامبيدوزا.

في بنقردان، كانت البضائع، في خيمة من القماش في شوشة، - العبيد أو ذريتهم- وتحرر أكبر التدفقات التجارية المعولمة ما بعد الحداثة، أمام قانون الحرب، لقد أعادت الثورات وحركات الجهاد تجارة الرقيق الإسلامية وقوافلها بصورة وحشية في مسارات الأسلاف. عبرت الجمال مرة واحدة الصحراء كما تفعل اليوم شاحنات صغيرة لتنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي، ترافقها شاحنات من الكوكابين من جنوب أميركا إلى وجهاتها في أوروبا عن طريق مسارات الساحل.

عودة ظهور البربرية

عند تجاوز محطة المراقبة التونسية، حيث المراقبة نسبياً معدومة، وصلنا إلى المباني الليبية. نلاحظها دائماً، مشوّهة بسبب المباني العرضية الحديثة، من بينها مباني بنيتو موسولوني الذي كان يحبها مزينة بالإمباريو، يقابلها المنظر الرائع لفرنسا ومستعمراتها، وحدثة الهندسة المعمارية المستقبلية للعصر الفاشي. كنا نشعر وكأننا في مونتون، في العام 1940، على حدود جسر سان- لويس. أكثر ما يلفت الأنظار أن أعمال العنف والمظالم الأخرى برزت في الاضطراب الحالي حيث لطّخت الجدران، وتم توقيع شارات «الجماهيرية العربية الليبية الشعبية والاشتراكية» هنا وهناك بينما في الراية الخضراء التي أراد العقيد أن تكون الراية الإسلامية، لا يوجد أي أثر.

لقد قدس هذا البلد اللغة العربية إلى درجة أنه تمّ منع كتابة أية لغة أخرى في الأماكن العامة، على لافتات الطرق وأيضاً على واجهات المحال. في قمة هذيانه، طالب القذافي أيضاً بأن تكون جوازات السفر الخاصة بالأجانب مترجمة بشكل كامل إلى اللغة العربية

لوضع تأشيرة دخولهم إلى ليبيا. اليوم، أصبحت الكلمات الأولى المدونة التي رأيتها (من دون معرفة فك رموزها) مكتوبة بالتيفيناغ، وهي الحروف الأبجدية التي أعيد ابتكارها من قبل ناشطين بربر في وقت وجدت فيه النزعة القومية، في الأعوام 1960، أعيدت كتابة الأبجدية الفينيقية، باستخدام كتابات الطوارق القديمة والمحافظ عليها بواسطة المناخ الجاف للصحراء وإبعاد السلب والنهب العربي، وإيوائها في الرمال. قليل جدًا من الأمازيغ - «الرجال الأحرار» كما يطلق عليهم في لغتهم البربرية - هم قادرون على قراءة الحروف الرسومية. لكن نشرها له قيمة المطالبة الثقافية، خصوصًا في ليبيا عند خروج العروبية الحصرية من الطاغية المخلوع. إن كل مجتمع يبحث عن مكانه في البلد الجديد الذي ينمو في ظل الميليشيات المسلحة لـ «الثوار».

في مكان آخر، فرضت راية الملك إدريس بخطوطها الثلاثة الأحمر والأسود والأخضر، وفي وسطها نجمة وهلال للدلالة على الإسلام. على جدران منطقة الحدود، يبدو كترهيب بواسطة أعلام الأمازيغ: ثلاثة خطوط أفقية أيضًا، يدل الأزرق على البحر، والأخضر يعني الجبال والأصفر للصحراء، مزركش عليها بالأحمر الحرف الرسومي الذي يلفظ «ز» بالتيفيناغ، في وسط الجذر ثلاثي الحروف «م - ز - غ» عليها شكّل كلمة أمازيغ.

أنا متفاجئ بسبب قوة ظهور البربرية منذ لحظة إعلان العلامات الأولى لنفوذ الدولة الليبية ما بعد القذافي على أرضهم. لم يكن لدي عن وجودها في ليبيا إلا فكرة غامضة. كنت أتوقع أنها في واحات الصحراء الشرقية القريبة من مصر - حيث سيواهي آخر مسكن للبربر باتجاه الشرق - وفي أعالي جبل نفوسة، سلسلة الجبال التي تمتد بمحاذاة الساحل، مئات الكيلومترات في الجنوب، بين الحدود التونسية وطرابلس. كان هناك تجاهل لدور المقاتلين الأمازيغ في قرار طرابلس، ولا سيما هؤلاء الموجودين في المدينة الساحلية زوارة.

* * *

في زوارة، حيث الميليشيات تسيطر على المنطقة، الحدود وحركات المرور فيها، فإن آثار القتال محصورة في المباني العامة والمباني التي شُيّدت على تقاطع طرق استراتيجية. في كل مكان على الجدران تجد «ز» التيفيناغ، وألوان العلم البربري الثلاثة، وكتابات على الجدران باللغة العربية تعلن عن نصر «ثوار زوارة» الموسومة على طريقة أسماء الفرق في الأماكن الشعبية للضواحي الفرنسية.

ألاحظ بأنّ المصطلح العربي «الثوار»، حيث إن الحرف الأوّل، الحرف الاحتكاكي الصمّ بين الأسنان «ث» (كما هو الحال عندما نقول «thing» باللغة الإنكليزية أي شيء) التي تنطق باللهجة المحلية «توار». في عصر القذافي، كان هذا الخرق بالقواعد النحوية الكلاسيكية قد يؤدي إلى عقوبة الإعدام، على أيّ حال قد أطلقت النيران عليهم من قبل أتباع النظام قبل أن يتمكنوا من رسم أي حرف على الحائط. يرافق الثورات العربية في كل مكان ارتقاء اللهجات على وسائل الإعلام المقروءة حيث إن سلطة الدولة لا تراقب - الجدران، المدونات، الدردشات والتغريدات وكتابات الفايسبوك - وبالطبع، تعبيرهم الشفهي على الراديو والتلفاز.

إنّ السائق الليبي الذي أقلني من الحدود هو عضو في القبيلة العربية البوسيفي، التي هي تقليدياً متحالفة مع العشائر البربرية في الجبل ضد التوجهات المهيمنة للقبيلة الجبلية العربية في مدينة الزنتان، لقد أخذني لتناول الغداء.

في المطعم، يسود جو مريح: الجنسان يختلطان، بعض الشابات غير محجبات، والثوار يتناولون الغداء، دجاج مشوي أو بيتزا. يرتدون زيّاً متعدد الألوان نصف عسكري ونصف مدني، بنظلون من النسيج القطني وتي شيرت عليه اسم أحد المشروبات الغازية أو اسم جامعة أميركية. لقد علّقوا على تعليقة المعاطف قبعة الأدغال، قبعة البيسبول أو كلاشينكوف معلق بواسطة الحزام المربوط به، وفي حركة عادية أيضاً مظلة أو عكازاً كما في حانة باريسية. لا أسمع إلا اللهجة البربرية على الطاولات المجاورة، بينما المحافظون على اللغة العربية: أنا والسائق.

تقدم النادل ليأخذ الطلب، تحدّث معي بلغة فرنسية ممتازة، وعندما عبرت عن دهشتي، ردّ بأنّه مغربي من أغادير. سألته إذا كان يفهم اللهجة المحلية، بعيداً عن الكلمات التي يستخدمها في قاموسه المحلي:

- «إنني هنا منذ 20 سنة، وقد تعلّمتها، ليست صعبة!

- لماذا لم تفرّ من المعارك، كأغلبية التونسيين والمغاربة الذين يعملون في ليبيا؟

- نحن هنا بين الأمازيغ، ليس لديّ ما يخيفني!». *

وصلنا إلى طرابلس عند منتصف بعد الظهر، كانت مقاومة قوات القذافي ضعيفة مقابل الهجوم الصاعق للثوار. تم إعداد هؤلاء الثوار في بادئ الأمر عن طريق الشحن فيتم التسليم في الجبل على مدارج الهبوط حيث تظهر طائرات فرنسية صغيرة. بعد ذلك، تم نهب الترسانات الضخمة حيث راكم النظام القديم الأسلحة والذخائر التي اشتراها من جميع أنحاء العالم، مع الميل للاتحاد السوفياتي. تشهد بعض المباني الكلسية عند تقاطع الطرق على عنف الضربات وبالأخص، من هنا وهناك، مبانٍ قد دمّرت وحوّلت إلى كومة من الأنقاض التي تظهر قطع الخرسانات، في حين لم تصب البيوت المجاورة بأذى.

ضربة ناتوا! (ضربة من الحلف الأطلسي)، يقول لي السائق بإعجاب عند كل مناسبة، لافتًا نظري إلى مبنى الشرطة المحلية هنا، مبنى الاستخبارات هناك، ومنزل مسؤول في النظام القديم... إنه معجب بكفاءة الضربات: لا يصيبون إلا أهدافهم دون إلحاق الضرر بالمدينين، هذه «الحرب الجراحية» تعطي طرابلس، التي تخرج من المقر الرئيس منذ شهر من القصف، وتيرة شبه طبيعية، هي ليست كالأحياء المدمّرة في بيروت في الأعوام 1970-1980، حيث كانت المواجهات بين الميليشيات من مختلف الطوائف والأيدولوجيات، التي لم تترك أي حجر قائم في مكانه في مناطق المعارك، حول ما سمي بـ «ساحة المدافع» في وسط المدينة.

في لبنان، بعد «حرب الـ33 يومًا، في صيف 2006، أتذكر كيف أن ضربات الطائرات الإسرائيلية أصابت حتى المباني المظلمة من نافذة واحدة. أتذكر أيضًا سيارة أصيبت بالحرب حيث كان معدنها مهشمًا وكان هناك جسد مفتوح في الجانب السفلي. كانوا يستهدفون ما يريدون بدقة مع تحديد إطلاق نيرانهم، في جنوب البلد حيث كان حزب الله محصنًا. على النقيض، في الشمال، في المخيم الفلسطيني لنهر البارد، بالقرب من طرابلس الأخرى، لقد قصفت المدينة اللبنانية بمدافع قديمة للجيش في محاولة للقبض على الجهاديين في حركة فتح الإسلام في صيف 2007، وقد لاحظت بأنه قد دمّر كل شيء في جولة واحدة من المعارك، كل شيء كان قد سوّى بالأرض بواسطة رشقات نارية خرقاء من المدفعية.

عند تقاطع الطرقات، أطفال، دلو من الطلاء الأسود وريشة باليد، يأتون لتلطخ كلمة جماهيرية على لوحة تسجيل السيارات عندوقوفها، من دون السؤال عن رأي السائق. هذا الأخير يعطي القليل من القطع النقدية، ماحيًا بمروره أية تسوية محتملة مع النظام القديم،

بالأخص في طرابلس، حيث إن جزءاً من الشعب لم يكتشف نفسه معارضاً إلا غداة تحرير المدينة من قبل الثوار المتحدرين من الجبل. عشرات الآلاف من الداعمين «للقائد» الذين احتشدوا في الساحة الخضراء للثناء عليه حتى آخر لحظة لم يختفوا بسرعة بين ليلة وضحاها. بشطب هذه الصيغة النادرة من رقم التسجيل باللون الأسود، يلغي الأولد اللغة العربية وحسابات التعاون مع الجماهيرية، لإعادة صياغة المعنى وإعلان نصر الثورة بحركة واحدة كعبيّة ومربحة.

* * *

لقد وصلت إلى استاد طرابلس المنصّة الرسميّة حيث يجتمع الدبلوماسيون وقياديو الثورة. وهذه الثورة الأخيرة قد افرست الكثير من أطفالهم، فإنّ ميزان القوى بين الميليشيات المتنافسة يتحرك باستمرار. كما لو أن الذي يظهر فجأة بارزاً في المشهد السياسي يختفي من دون سابق إنذار بعد بضعة أسابيع، نتيجة اضطراب هذه التوازنات غير المستقرّة بين المجموعات المسلّحة التي تراقب هذه البلدة، ومحور الطريق هذا، وبالأخص حقل النفط.

في موكب على الرمال، يحتفلون بوفاة القذافي ويكرّم الثوار الذين خلّصوا البلد منه، يستعرض الثوار بالسلاح وبملايس غير متجانسة، يجلس بعضهم عاليًا على سيارات التويوتا يحملون مدفع الرشاش، آخرون، يمتطون الخيل، يتقدمون بفانتازيا ويفرغون في السماء بنادق الكلاشينكوف التي يحملونها. وآخرون أيضًا - مشاة - يحاولون - مخفقين - السير بسرعة، عارضين الأسلحة.

لاحظت في صفوف جنود المشاة كثيرًا من الجهاديين بلحية أطول من قبضة اليد، بلا شارب وحليقي الرأس، وفقًا لتوصيات النبي محمد. وهؤلاء هم العناصر القدامى في الجماعة الإسلامية الليبية المقاتلة، والحركة الإسلامية المسلّحة، التي بدأت في منتصف سنة 1990 في جبال برقة (الجبل الأخضر)، والذين طاردهم القذافي من دون رحمة. أعدم الكثير منهم في سجن أبو سالم، في ضواحي طرابلس، أثناء مجزرة راح ضحيتها أكثر من 1200 محتجز، في نهاية حزيران/ يونيو 1996، واصل الناجون منهم الجهاد في أفغانستان، والعديد منهم انضموا إلى تنظيم القاعدة، حيث كان الليبيون مُمثّلين بكثرة. وبعد هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، وجدنا عددًا كبيرًا منهم في معتقل غوانتانامو الأميركي.

احتجز قائدهم، عبد الحكيم بلحاج، في كوالالمبور في عام 2004، ثم تمّ استرداده بواسطة الخدمات الخاصة (السرية) البريطانية وسلّم إلى القذافي - ومن ثم تكرر احتجازه بعد اعتداءات نيويورك وواشنطن. كان كل شيء يسير على ما يرام في ذلك الوقت لمواجهة خطر تنظيم القاعدة، بما في ذلك رئيس دولة قبض عليه سابقاً مُتُهما الإرهاب، كان على أتم الاستعداد لمنح شركات البترول الغربية عقوداً لإعادة الاندماج في مجتمع الدول المتحضرة. وافق بلحاج على التفاوض مع النظام واسترداد حرّيته، مخففاً من تطرفه لمصلحة الإسلام الأكثر «اعتدالاً» الذي كان لمصلحة قطر.

وجد الجهادي الأسبق نفسه حرّاً مع رجاله الذين شكّلوا مليشياً مرتبطة بالأيديولوجية الإسلامية، لخدمة أي سياسي قريب من طاعته الراغبة في الاستيلاء على السلطة وتعزيز مصالح قطر.

وهكذا فإنّ مصطفى عبد الجليل، الذي لاحظت أنّه أصلح وعلى جبينه علامة «زبيبة»، بإمكانه الحصول على القيادة فهو موجود في المنصة الرسمية، وقد ربط خدماته بهم.

كان وزير العدل هذا التابع للقذافي، الذي وقّع أمر تنفيذ حكم الإعدام بحق الممرضات البلغاريات والطبيب الفلسطيني المتهمين بنقل فيروس الإيدز للأطفال الليبيين قبل أن يتمّ الافراج عنهم في عام 2007 بفضل وساطة فرنسية-قطرية، وهو (أي عبد الجليل) انشق عن النظام القديم ليصبح واحداً من الشخصيات القيادية في المعارضة للديكتاتور علماً بأن هذا الأخير هو من وظفه.

أتى عبد الجليل إلى برقة، الجزء الشرقي من البلاد الذي عاصمته بنغازي. كان عليه الاعتماد على مليشياً مسلّحة في حين أنّ المجلس الوطني الانتقالي قد أنشئ في طرابلس بعد الاستيلاء على المدينة في نهاية آب/أغسطس من قبل الثوار التابعين لقبائل الغرب. عند الوصول للتو إلى العاصمة، أعطى ضمانات لخطاب الإسلاميين، واعدّاً بالتطبيق المباشر للشريعة وإعادة تشريع تعدّد الزوجات الذي منعه القذافي، وسط الاستياء الغربي الذي كان قد أكد الهزيمة العسكرية للنظام القديم وأملّاً بتشجيع ظهور الديمقراطية الليبرالية.

لكن عبد الجليل، الذي جعل من بلحاج حاكماً عسكرياً لطرابلس، قد تصدّى لقوة

ميليشيا الزنتان، الذي أكد سيطرته تدريجيًا على العاصمة. على رمل الاستاد، كانت سيارته المصفحة المملوكة سابقًا للجيش المخلوع، مغطاة بالرسومات التخطيطية لمجد «ثوار الجبل»، تسير وراء الجنود المشاة الجهاديين المستعدين للقتال.

* * *

في الطريق لوضع أمتعتي في فندق كورنثيا، لاحظت أكشاكًا جميلة للأسماك. «إنها مستوردة»، كما قال لي السائق. «نحن لا نستهلك الصيد المحلي في طرابلس». وعندما لاحظ دهشتي أضاف:

«إنّ النظام القديم قد ألقى في البحر سجناء الرأي مكبلي الأيدي من طائرات الهليكوبتر. ليس هناك أي شخص يريد أن يأكل أسماكًا تتغذى على لحوم البشر».

هل هذه أسطورة أم حقيقة، لقد دخلت مخيلة الاستبداد هذه حتى في السلسلة الغذائية وانتهت على طبق الطعام، حيث أرغم رعاياه على أسماك من أكلة لحوم البشر عن طريق الإرهاب والحقارة بأعلى المستويات.

لقد أشبع القذافي المجتمع: كان الأفضل على الإطلاق، أفضل جندي، شاعر، مهندس، طاه، عالم، صياد وبالتأكيد زعيم. الليبي الذي برع في مجاله ويُمدّد لذلك قد أصبح عرضة للخطف والإعدام، خصم محتمل لهذا المصاب بجنون العظمة. وحتى صدام حسين، المجرم الذي ارتكب جريمة إبادة جماعية، كان يتفاخر برعايته للخطابات والفنون العربية، الأدباء والرسومات في العراق.

في ليبيا، لا شيء من هذا القبيل، خلال زيارة واحدة إلى البلد في عهد الديكتاتور في عام 2003، أتذكر المحاورين الخائفين أو ضعيفي الشخصية. الذين كانوا لوحدًا ممسوحًا من الفكر. ولم أضع رجلي قط في البلد الذي بدا لي أنه الأسوأ من بين الأنظمة العربية.

إنّ «الجماهيرية» كانت آلة لتذويب أي بروز لشعب ذي سيادة. وتفكّكه إلى «جماهير» متحمّسة وطائشة، حيث «القائد فقط» يعبر عن إرادة هذا الشعب. في الواقع، كان يتعامل مع بعضهم ضد البعض الآخر من القبائل ضامنًا الترابط الاجتماعي الأدنى. يبقى فقط الديكتاتور في الصورة وفي الأقوال المأثورة المأخوذة من الكتاب الأخضر موجودة في كل مكان على الجدران، واللافتات والرايات.

كان يسيطر حتى على العقول - وككل التوتاليريات الجائعة الممزوجة بالأيدولوجيات الهشة - لوث هذا الطاغية ليس فقط اللغة محملاً إياها تعابير توافق سيطرتها على الأفكار بحجة معاداة الإمبريالية والقومية الوطنية العربية المتفاقمة، ولكن أيضاً التقويم الزمني. إنَّ حساب القذافي يبدأ بتاريخ وفاة النبي محمد، في عام 632، وليس مع هجرة الرسول من مكة إلى المدينة، قبل 10 أعوام. وأثر ذلك على سنوات التدريس، بينما الأشهر الهجرية هي قمرية.

وبالقوة يدعي القذافي أنه الأفضل، بل الفريد ومترجم الإسلام - ضد كل التقاليد التفسيرية، حيث كان أئمة الدين يسجنون، يعدمون أو ينفون عندما يخطئون بحقه. كانت هناك أيضاً الفرصة لتشويه سمعة النظام الملكي الذي أسقطه حيث التآخي الديني وحيث إن الشرعية الإسلامية في الوقت نفسه قد جرى التخلي عنها.

لكن كان من الصعب استئصال الدين من قلب الشعب، وبخاصة أنه يشكّل ملجأً حميماً منقولاً من العائلات، حتى قبل أن تستثمره وتموله الحركات الإسلامية هنا كما هناك، إنَّ الاستياء والسخط الاجتماعي والإحباطات السياسية في العقود الأخيرة من القرن العشرين، وتشريب الورع قد ترك آثاراً أعمق بكثير حتى مما كانت عليه في الجزيرة العربية، حيث إن أجهزة الدولة تشجع من دون توقّف إتمام العبادات اليومية.

في ليبيا، يصلي أغلبية المحاورين بلا قيد كلما سنحت لهم الفرصة، قبل تناول الوجبة، بعد المقابلة أو خلالها. ويسري هذا في اللغة العربية كذلك! إنَّ الدكتاتورية النحوية «للقائد»، ومطاردته الهذيانة للتعابير الأجنبية، من الأمازيغ أو اللهجات، كان بمثابة ملجأً أمام الشعارات الموجهة لتحريك الجماهير المخبولة في هذا البلد، حيث النظام التربوي قد تمّ تدميره، يقتبس الناس الشعر الكلاسيكي ويدلّون على معرفة التراث الأدبي لإغاظة مواطني الدول العربية الأخرى الأفضل بكثير من المعيّنين في المؤسسات الثقافية.

«ضربة ساركوزي»

يعدّ كورنيا أحد الفنادق النادرة الآمنة في العاصمة، وهو قصر حديث، بناه سيف الإسلام، ابن «القائد» المكلف بتحديث صورة النظام بعد هجمات 11 أيلول/سبتمبر وتعزيز توقيع العقود الكبيرة بإعادة تثبيت النفط الليبي في السوق العالمية.

أشار توكفيل في عهده إلى أنّ الأنظمة السيئة قد وقّعت قرارها بالموت عندما كانت

تحاول الإصلاح. وهذا من دون شك، يسري مفعولاً أيضاً في ليبيا، حيث إن إصلاحات سيف الإسلام، التي تحاول التخفيف من بشاعة القمع والسماح للمعارضة بالظهور، قد زادت الشعور بالفوارق الاجتماعية. لم يستفد من هذه المباني الجميلة والفنادق الراقية، التي يمكن أن تعرضها هذه الدولة النفطية، إلا النخب القريبة المرتبطة بالسلطة، مع زيادة إحباط كل من يتعدّر عليه الوصول إليها.

في هذا البلد، غير المأهول، وخلافاً لممالك النفط في الجزيرة العربية والبنى التحتية اللامعة، فإن الطرق والنسيج الحضري يرثى له حقاً، والبلد بأكمله بدا وكأن الله قد تخلّى عنه - دون أن نتكلم عن الأضرار التي سببتها الحرب الثورية نفسها.

من المفارقات، أن المجتمع الليبي في العقود الأربعة لحكم القذافي، شهد تحديناً متسارعاً: تحضر الشعب بنسبة ثلاثة أرباعه، ومعدل الإنجاب للمرأة يتراوح بين أكثر من سبعة أطفال إلى أكثر من طفلين، مما يؤدي إلى مطالبات اجتماعية جديدة لم يعرفها الطاغية، الذي كان يحكم بطريقة عفى عليها الزمن كيف يرد عليها: كان يخصص ثروته النفطية لتمويل الإرهاب الدولي ومغامرات عسكرية أفريقية مكلفة، في محاولة للحصول بواسطة عائداته النفطية على السيادة على القارة السوداء، تاركاً بلده ينزف.

بالنسبة إلى الطموحات الاستهلاكية للشباب في المدن الحضرية، كان سيف الإسلام قد كُلف بإرسال رسالته، على صورة جمال مبارك أو بشار الأسد. وتبقى هناك مشاريع عقارية لهذا «الإصلاحي»، حول كورنثيا، على الواجهة البحرية وعلى سواحل المدينة القديمة البائسة والمغلقة داخل جدرانها والمأهولة بالأفارقة الذين ينتظرون باخرة صغيرة رديئة تقلهم إلى أوروبا، وهذه المشاريع كانت غابة من ناطحات السحاب غير المنجزة.

أوقف سقوط القذافي الرافعات وورش البناء، حيث إن الأسوار تستخدم لدعم علامات الثوار الذين حرروا طرابلس، والذين لطمخوا في كل مكان بطلاء «الفلورسنت» اسم مدينتهم أو قريتهم: زنتان، مصراتة، بنغازي، تاجوراء، يفرن، جادو، زوارة. وهذه الثلاث الأخيرة كانت توقع أيضاً بحرف «ز» التيفيناغي للإعلان عن هوية الموقعين البربرية في العاصمة التي نفتهم، حيث الهجرة نزولاً من جبل أمازيغ إلى المدن والضواحي.

لقد اكتشفت كورثيا منذ بضعة أسابيع، عندما سقطت طرابلس، وبقي القذافي مختفياً. كان ذلك بمناسبة السفر ذهاباً وإياباً ليوم منظم في أيلول/ سبتمبر لرجال الأعمال والمقاولين الفرنسيين، وكان قد دعاني إليه بشكل ودي الوزير الفرنسي للتجارة الخارجية في ذلك الوقت.

بينما كنا مجتمعين في الصالون، حكى لنا أحد الوزراء الليبيين التابعين للحكومة المؤقتة قصة يوم 19 آذار/ مارس 2011، المعروفة في ليبيا تحت اسم ضربة ساركو (ضربة ساركوزي).

أحد الإخوان المسلمين في بنغازي، المنفي لعدة عقود في سياتل، حيث درّس في الجامعة، انضم إلى مدينته الأصلية في أول أيام انتفاضة برقة، كما هو حال الكثير من المغتربين الذين تخلّوا عن الحياة المرفّهة لاستعادة بلدهم، خاطروا بأنفسهم لمواجهة قوات الديكتاتور. كانوا يذهبون إلى المعركة مرتدين زي صيد اشتروه من محل رياضة عبر المحيط الأطلسي، استخدموا السلاح للمرة الأولى في حياتهم، بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من التدريب على إطلاق النار التي كانت بمثابة تدريب عسكري.

كانت جبهة الثوار قد توغلت في أجدابية بواسطة مصفحات النظام، التي انقضت على بنغازي، بينما تفهقر المتمردون وأصيبوا بحالة من الذعر. خاطبنا الوزير الإخواني باللغة الإنكليزية وبلهجة الساحل الغربي للولايات المتحدة، قائلاً:

«صعدت إلى سطح بيتي في بنغازي ورأيت من بعيد غيمة من الغبار عند تحريك طابور من الدبابات. كنت مقتنعاً بأننا سوف ندبح في غضون الساعات المقبلة، وكل النساء سوف تغتصب. وفجأة، في السماء، رأيت وميضاً. بعد بضع ثوانٍ، كانت غيمة الغبار قد تحركت وتحولت إلى درب من النار. كان وابلًا من القصف الفرنسي، لقد أُنقذوا حياتنا، لقد أُنقذوا بنغازي والثورة. من دونهم، لما كنت هنا، أتحدّث معكم، وربما كان القذافي لا يزال في السلطة!»

* * *

في الوقت الذي كان فيه رجال الأعمال يتحدثون عن العقود، كان موفدون ألمان قد جلسوا في بهو الفندق بانتظار استلام أجنحتهم. لا يبدوون محرجين بسبب رفض المستشار الألمانية ميركل للالتزام عسكرياً ضد القذافي.

ذهبت لزيارة مجمّع باب العزيزيّة. حيث جميع المخابئ والمساكن والثكنات والسجون التي حكمها الطاغية. كانت ترافقتي سيدة ليبيّة تتحدث اللغة الفرنسية بشكل رائع، هي تلميذة قديمة في مدرسة «الإرسالية أو البعثة العلمانية»، أنيقة ومميّزة، كانت من أصل عثماني، مثل جزء كبير من الطبقة الأرستقراطية الساحلية للجنود الانكشارية، قبض هؤلاء-أي الجنود- على أطفال في القرى المسيحيّة للبلقان الخاضعين للباب العالي، وأخذوهم من عائلاتهم، وتمّ تحويلهم إلى الإسلام بالقوة ليصبحوا جنودًا في الإمبراطورية. تزوجوا نساء من المدن المحصنة. إنّ مقاييس التصنيف البربري من برقة إلى وهران، وذريتهم تعتمد عادة على لون البشرة والعيون الفاتحة.

في هذه العائلات، كان يتم دائمًا اختيار النساء بعناية بحسب لون البشرة «أبيض ناصع» لاستنساخ العرق، مع ميل في السابق لشكل ذرية أسرى السفن الأوروبية. تمّ استبدالهن بالمواطنات الشقراوات من الاتحاد السوفياتي خلال عقود الفلسفة الاشتراكية حيث كان القذافي يرسل كواده إلى الأكاديمية العسكرية في فرونز (بيشكك حاليًا)، أو إلى جامعة للعالم الثالث باتريس - لومومبا في موسكو.

هذه العائلات تتآلف وتتفاهم أحيانًا مع تركيا الحاضرة بقوة في ليبيا عبر شركاتها وأعمالها وتأثيرها الثقافي والروابط الزوجيّة بين النخبة القديمة.

قبل الدخول إلى باب العزيزيّة، توقّفنا في السوق لنلقي نظرة على المدينة التي تجاوز الساحة الخضراء سابقًا، والتي تسمى من الآن فصاعدًا «ساحة الشهداء». لم تكن مرافقتي محبّبة، وهو أمر نادر بين الحشد المزدحم أمام الأكشاك من مواطني طرابلس، كانت تفسّر بشكل طبيعي باللهجة المحليّة. وبالرغم من ذلك، كان أصحاب المحلات التجارية يسألونني بثبات من أين هي، وتخبرني عن تعبها من أنهم دائمًا يظنونها أجنبية في بلدها لأنها لا تضع الحجاب. بدأت هذه الظاهرة مع الثورة، التي ترجمت بارتداء النساء الحجاب. بنى الإسلام صرحًا من الإسمنت الأيديولوجي للمقاومة بوجه الطاغية المتهم بالكفر بينما التعبير عن الإيمان الإسلامي «الله أكبر» كانت كلمة أمر للمتمردين.

دمر باب العزيزيّة بسبب ضربات حلف الأطلسي، لم يبق إلا مبنّى واحدًا غير مصاب بأذى، بينما المباني المدنية المجاورة كانت خالية، وكان عاصفة خارقة للطبيعة أطاحت بها، إن الحرب الحديثة تختزل إلى الحد الأدنى «الأضرار الجانبية»، بالإضافة إلى اختراق

ملاجئ الاختباء الطائرات المروحية. وما لم تدمره القذائف كان وبشكل منهجي، قد سُلب من قبل الشعب. لم تبق أية فسحة من جدار لم تغطَّ بالرسوم التخطيطية، مهينة القذافي وعائلته ومثيرة حماس ثوار مختلف المدن والقبائل. بعض الشعارات تشكر فرنسا والحلف الأطلسي.

لاحظتُ عبارة «يسقط القذافي ولد اليهودية» في مكان بارز على بوابات ضخمة مخلووعة، وأخرى «خالة القذافي يهودية»، بحسب ما أكد لي المحاور الذي سألته عن هذا الموضوع، وعلى أي حال فقد أكد ذلك نتيهاهو! «إنَّ هذه الإشاعة قد سمحت بتحميل الطاغية كل خطايا إسرائيل، وتبرئة الإسلام».

لم يزل مسكن القذافي وعائلته قائماً مكانه، رغم تضرره بالضربات الحربية، اجتمع الناس لرؤية هذه المدينة المحرومة والمخلووعة، كأننا نسير في قطار أشباح في الأعياد والكرنفالات، كي نحس بالقشعريرة. تجولنا في الغرف، سرير مع مظلة أو قبة مذهبة، وقلم من ريش الإوز، قذر وملقى على الأرض. كنا نتكلم بصوت منخفض عن سرير عائشة، ابنة القذافي، بجمالها المثير، وعن خزانة ملابسها المعدة من قبل كبار المصممين، وكنا نتخيل المغامرات الجنسية على هذا السرير الذي أصبح عرضة للتلصص الانتقامي.

يبدو أن قصر فرساي قد عانى من إهانات مماثلة خلال الثورة الفرنسية. لكن عائشة لم تكن ماري أنطوانيت، ولا باب العزيرية هو معرض المرايا. لقد سقط قصر الطاغية مثل تاريخ الإسكان الاجتماعي المتدهور في سنة 1970 في كليشيه - مونفيرماي والموعود بالهدم بواسطة البرنامج الوطني للتجديد والإصلاح الحضري. يبدو أن بدوي الصحراء له ذوق مربع.

تسلق الأطفال مجموعة الرشاشات بالتناوب، يتأرجحون معلقين بمدفع الدبابات المنفجرة ويجرون هذه الترسانة الخبرة. بينما كان البالغون ينزلون إلى باطن الأرض، لصيد الكنز أو البحث عن الجثث.

في القبو المحفور، كان القذافي يخزن في غرفة باردة، أجساد 18 متأمراً حاولوا اغتياله في العام 1984، وحرّمهم من الدفن. كان يتأمل بانتظام ضحايا التعذيب المجدّدين، للتهكّم بهم وخداع الموت، الذي لم يكن بعد قد لحق به حتى الآن عندما كنت أזור أطلال باب العزيرية.

الخميس 3 تشرين الثاني / نوفمبر 2011

غنيمة مصراة

خلال رحلتي الثانية، في 3 نوفمبر / تشرين الثاني 2011، كان القذافي قد مات، كان مسودًا مثل ثعلب الصحراء في مسقط رأسه سرت، حيث كان لاجئًا ومختبئًا عند أقربائه، أُجبر على الخروج من أنبوب الصرف الصحي، سُحل بعد أن خلع سرواله وتم اغتصابه عنوة بحربة بندقية، ثم بعيدًا عن الهواتف الذكية التي كانت تعيد إرسال رثائه النهائي بشكل مباشر على مواقع مشاركة الفيديوها، أعدم برصاصة أو بعدة رصاصات. حمل جسده كجائزة إلى مصراة، حيث كان الثوار قد شنوا هجومًا كبيرًا ضد سرت، خاسرين عددًا كبيرًا من الشباب بمواجهة طلقات النار الاحترافية للقناصين في آخر مرتع من المخلصين له والمرترقة الموجودين معه في نهاية المطاف.

اقترح علي سفير فرنسا، وهو مستعرب من جيلي، كنت قد عرفته خلال مناصبه السابقة، بشكل ودّي أن أرافقه إلى مصراة في أول زيارة رسمية له للمدينة المحرّرة. انضم إلى جون-باتيست لوزي، المصوّر الذي عملت معه مسبقًا، والذي أمضى ثلاثة أشهر جنبًا إلى جنب مع ثوار المدينة، في البداية تحت نيران قوات القذافي، ثم خلال حملات تحرير طرابلس والاستيلاء على بني وليد وسرت، وهما آخر معقلين للطاغية، مأهولان بالأغلبية من أفراد قبيلته. أرسل إليّ جون - باتيست صور جثة الطاغية وهو يتعرض للشتائم والإهانات. على الطريق، مرّ موكبنا بغابات زليتن، حيث مئات الدبابات التابعة للنظام المخلوع كانت قد تمركزت على خط الجبهة حول المدينة المحاصرة، ومدافع موجهة إلى مصراة، التي كانت تقصف بلا هوادة حتى أجبرتها ضربات حلف الأطلسي على الصمت.

نحن نمّر في منتصف هذه المقبرة الواسعة من الدبابات، مثقوبة بصاروخ من اليورانيوم اخترق الدرع الواقى لها، ومفتّنة بسبب التحلل الحراري للصهاريج والآلات، قبل أن يطيح ضغط القصف بّريح الإطلاق التي تنهار وتطير من مكانها فتراها ملقاة إلى جانب مدفعاها. إن هذا المشهد هو أشبه بفتاحة زجاجات عملاقة نازلة من السماء.

أصبحت مصراة الآن تحت الحكم الذاتي. يحدّها نقاط تفتيش هائلة مصنوعة من حاويات مرصوفة، تشبه ما يعرف بالـ «بوابة» في المصطلح العربي. تشتهر هذه المدينة بتفوقها في مجال التجارة، وبمبناها المهم استراتيجيًا، الذي يتمركز في قلب البحر الأبيض

المتوسط في نقطة حيث الضفة المتوسطة تميل باتجاه الجنوب لتلامس منحى سرت الكبرى. لقد شهدت المدينة هبوط المسلمين الأواخر من الأندلس، الذين نزحوا من فالنسيا بسبب إعادة احتلالها في القرن السادس عشر، كانت خطوط الشحن قائمة بانتظام على هذا الطريق حتى عهد القذافي، لتزويد ليبيا بمنتجات طازجة و مواد استهلاكية أوروبية وذلك كله بفضل «القائد»، الذي كان دفع نقدًا بالبرودولار، ليشتري السلام الاجتماعي.

نستطيع القول إن مصراتة نسبيًا، هي نوعًا ما كمدينة البندقية، مدينة تجارية، حيث تجد المنطقة الحرة العملية، خلافًا لموانئ طرابلس وبنغازي، المشلولة بسبب البيروقراطية والفساد، التي سمحت ببروز البورجوازية الفخمة البعيدة عن السياسة. تحلم مصراتة اليوم، بعد نهاية الحرب في ليبيا، أن تكون البوابة الشمالية إلى أفريقيا، وإلى دبي عبر شاطئ سرت، هذا ما قاله لنا أعضاء المجلس البلدي. مارس أعضاء المجلس المحلي الذين كانوا يرحّبون بنا بصورة رسمية في غرفة تحت الأرض بمنأى عن القصف، السلطة المدنية والعسكرية على هذه الأرض المستقلة.

لقد عبروا عن امتنانهم للطيران الفرنسي الذي خفف الخناق عن مصراتة وأنقذ المدينة. كما أنهم أشاروا أيضًا إلى رغبتهم الجادة بتوأمة فورية وبأعمال صداقة مع مرسيليا، ستراسبورغ، وأيضًا باريس، من أجل تعاون «فرانكو - ليبي» طويل الأمد، الأمر الذي لا يبدو واقعيًا إلى حد ما كما لو أنه سراب في الصحراء الشاسعة التي بدأت على أبوابهم.

* * *

اخترقت دبابات القذافي مصراتة على طول المحور الرئيسي لشارع طرابلس. لكن بمجرد أن غامرت ناقلات الجنود في الشوارع الجانبية، بلا تبصّر، لأن الجنود لم يكن لديهم خريطة هذه المدينة في مشروع التطوير العمراني السريع الذي لحق بها، فقد وجدوا أنفسهم عالقين وسط حاويات فارغة تم إحضارها من الميناء، تحيط بهم. عند ذلك، ترجل فارس من القرون الوسطى عن صهوة جواده متشابكًا بدرعه مع جندي من مشاة العدو يبحث عن نقطة ضعف لغرز خنجره، إنّ الدبابة العالقة تكشف فقط وجود فجوة مكنت الشاب الثوري من إطلاق قنبلة يدوية قاتلة.

في أكثر المباني ارتفاعًا في الشارع، المطوّقة بقناصي المرتزقة التابعين للقذافي، ترى الجدران والشبابيك يلفها السواد وتعتريها الآثار التي تشهد هجمات طائرات الهليكوبتر

التابعة لحلف شمال الأطلسي المرسله إلى هذا المكان الحضري المزدهم، حيث ضربات الطائرات تشكّل خطراً على الشعب. في مواجهة المباني المدمّرة أغلبها، أنشئ متحف الشهداء حيث وقّعنا في سجله الذهبي. وهذا يذكّرني بالمتاحف المماثلة في إيران أو في أراضى حزب الله في لبنان، حيث الجدران مغطاة بصور لشباب متوشحين بلباس الحداد. لكن الصور النمطية تعكس أكثر مما تعكس في الوسط الشيعي تعدد اهتمامات جنود السنة الثانية في مصراة. البعض منهم كان يعتمر خوذة البيسبول، والبعض يرتدي «تي شيرت» متعددة الألوان وكأنها إعلان عن مشروب غازي أميركي، وبعضهم الآخر يرتدي جلباباً أبيض بأزرار.

لكل مدينة لبيّة متحفها، وأحياناً مقبرة للشهداء، لتستخدم في تبرير ادعاءاتها ولتؤدي دوراً بارزاً في اقتسام غنائم السلطة بعد سقوط القذافي - بحجة أنّ ثوارها قد دفعوا ثمناً باهظاً ألا وهو الدم. في هذه المزايدة المروّعة، احتلت مصراة وزنتان وبنغازي المنصّة، لكن المدن الأخرى أو الاتحادات القبليّة أهملت.

في مكان بارز أمام متحف مصراة، في وسط مجموعة من الدبابات المتفحمة، الأسلحة المختلفة، الخراطيش الصدئة في الهواء الطلق، نصابان تذكاريان سلبا عن طريق النهب من باب العزيزيّة يوضّحان الظموحات السياسيّة لشعارات المدينة، وهذان التمثالان كانا أمام قصر القذافي، وهما مزخرفان بشعارات ثوريّة، التمثال الأول، وكأنه مشروع قانون أخرج، يمثّل قبضة مدرّب قد حطّم براحه كفه طائرة، وهو شعار مقاومة النظام للقصف الأميركي في العام 1996، انتقاماً للهجوم الذي يدعى لوكربي، هذه القرية الاسكتلندية التي أغرق فيها طائرة بوينغ من بان أم في هجوم محضّر له من قبل الاستخبارات الليبية، وكان القذافي يُظهر هذا بكل فخر لضيوفه الأجانب.

التمثال الثاني، عبارة عن نسريهدد بجناحيه المنبسطين، ويعني النصر الأبدي للنظام. لقد تمّ تلطيخه بالألوان الثلاثة لعلم ليبيا الجديد، وعليه تبرز عبارة «الله أكبر»! ودمية للقذافي، المعروف بشعره المستعار المجعد، معلقة مع ذراعين وساقين مترهلّتين، وكأنه حمل فريسة لطائر الثورة الذي انتزعه ليقنّاه في منطقته. فوق هذا المشهد الذي قلب كافة القيم، علمان يرفرفان في الهواء: واحد لليبيا الجديدة، وعلم قطر بلونيه الأبيض والبنفسجي.

اصطحبني جون- باتيست إلى الكراج حيث كان قد صوّر رفات القذافي، وأودعت الجثة هناك خلال الساعات الأولى التي تلت عودته من سرت، قبل أن يوضع في مخازن التبريد المخصصة للحوم المستوردة. هناك تدفّق مستمر للفضوليين الذين أتوا لرؤية الجثة المحفوظة في درجة حرارة عالية، لتسريع تحلّل الجسد التالف حتى أتت الجهات البلدية ودفنته في مكان سرّي في الصحراء، «وفقاً للشريعة الإسلامية». كان القذافي فريسة للهوام والحشرات الطفيلية وليس للأسماك، خلافاً للسجناء الذين رماهم في البحر الأبيض المتوسط، وللمهاجرين السريين وابن لادن، «المدفون» في بحر عمان بواسطة الجيش الأمريكي منذ بضعة أشهر.

هذا الكراج ملك لسليلى إحدى أكبر العائلات التجارية في مصراتة، الذي تميّز خلال حصار المدينة بضمان التموين الغذائي بشكل منتظم لسكان المدينة عبر الميناء وذلك بفضل مهارته في التعاملات المالية. قابلناه بالقرب من منزله مرتدياً جلبابه وقبعة ضيقة على رأسه ولحية تمّ إرخاؤها حديثاً للدلالة على التقوى والتواضع، سترأس بعد فترة وجيزة حزباً سياسياً للإخوان المسلمين، «العدالة والبناء».

قادنا إلى كراج فيلته، منزل فاخر يطغى عليه ذوق مذهب بأسلوب «لويس فاروق». كان المكان بمثابة مستودع للبضائع، وفي الوسط، مساحة فارغة يتمّ تجهيزها. هذا هو المكان الذي يضع فيه سيارته الرباعية الدفع. لاحظنا على الأرض بضع بقع من زيوت التفريغ التي تعطي هذه الرائحة المتميّزة في كراجات البلدان الحارة.

في هذا الفراغ نفسه تمّ تثبيت فرشاة زرق وستارة دمشقيّة صفراء حيث وضعت جثة القذافي على ظهرها عند وصولها إلى مصراتة، والتي صوّرها جون - باتيست، عرض غير محتمل لهوية قانونية كارافاجية^(*) في هذه المشرفة الارتجالية. في ألبوم الصور التي التقطها، هناك صورتان لافتتان للنظر، في الأولى، تظهر الجثة بتصوير صغودي تشكّل من أسفل الإطار، الحوض إلى الرأس، نلاحظ فيها نسيجاً أصفر مطاطياً الذي بالكاد يخفي الأعضاء التناسلية.

تمّ حلق شعر الجسم بالكامل، يُسلط على البطن والوركين بصيص من الضوء، في مظهر أنثوي فاحش يثير الفضول، مما جعلني أفكّر في الغموض الجنسي للفرعون أختاتون. كان

(*) أسلوب رسم لرسام إيطالي مشهور بالأسود والأبيض اسمه «كراج».

القذافي يحتفظ بحريمه في باب العزيزية حيث كان يحبس الشباب من الجنسين، وفق تقليد الحكام المسلمين. شابة لبيبة تمّ خطفها من حارساته النساء واحتجزت لتلبية رغباته وإشباع ملذاته لكنها تمكّنت من الهرب إلى فرنسا وهناك تحدثت عن قصتها التي نشرها الصحافي أنيك كوجان في ليه بروا (غراسيه، 2012).

تُظهر الصورة التي التقطت بعد بضع ساعات من الوفاة جسمًا مغطى ببقع من الدم الجاف، كثير الاحمرار، الوجه مائل، العينان مغمضتان، ودمويان أيضًا، كذلك شعر اللحية والشارب، الشعر الأبعد الفوضوي وقع في ظل الموت الأحمر الذي يتناقض مع الجسد العاري. من غير المعقول أنّ بدويًا من ليبيا في العام 1940، استطاع الهروب من طقس لا مفر منه يمثله، لكن الأحاديث التي تدور حول قصيبه جعلت منه نموذجًا لأمير منحرف بامتياز وغير مسلم، هناك أسطورة أخرى، وهي الإشاعة حول خالته اليهودية - وبالتالي فإنّ أمه يهودية - مما جعل الطاغية طفلًا من إسرائيل وفقًا لقانون الموزايك، ومن ثم تبرّته من الإسلام.

شغلت المساحة العلوية من إطار الصورة الفضوليين الذين أتوا للتأمل وإذلال الجثة، خلف القذافي شخص يعتمر قبعة بيسبول حمراء زاهية اللون كدم القذافي موضوعة على الرأس، رأسه الكبير النابض بالحياة يتناقض بشكل حاد مع صورة الوجه الميت للطاغية، ويرسم بأصبعيه علامة النصر.

على جانبي الصورة، أيادٍ: إحداها تحمل الهاتف الذكي لتخليد المشهد ونشره على الإنترنت، والبعض الآخر مستعد لصفعه، قرصه، أو خدشه، وأحدهم يستعد للبصق عليه. صورة أخرى عن قرب لوجه القذافي تُظهر اثنين يضغطان على أنفه بالإبهام والسبابة لكسره، مترجم هذه الصورة التعبير البدوي «كسّرنا خشمك!» حرقًا، مما يشير إلى تديسهم للجثة ومدى الهزيمة التي لحقت بالعدو.

أساطير كورسيكية ويهودية للقذافي

كورسيكا، صيف 2012، رُوي لي في السهرة، في قرية مونتماغيوري الكورسيكية، عن أسطورة أصول القذافي التي تعود للجزيرة، والتي جعلتني حبكتها ونهايتها أتذكر قصة كتبها بورغيس. أسردها كما سمعتها، والنتائج الغامضة لهذه الفضولية جعلها تظهر بوضوح في أسطورة الملازم أول القذافي، الذي عين نفسه عقيدًا تقليدًا لجمال عبد الناصر، قدوته، غداة الانقلاب الذي قام به، في العام 1969، تقول القصة :

في العام 1942، كان هناك طيار في السابعة والعشرين من عمره، الملازم أول ألبرت بريزيوسي، أصله من قرية في كورسيكا العليا من فيزاني، بلدة يبلغ عدد سكانها 300 نسمة حيث تصنع أنابيب من خشب الخلنج^(*)، وتقع في الغابة عند سفح ممر فيزافونا، هذا الملازم اختفى في الصحراء الليبية. كان ذلك في أيلول/سبتمبر 1941.

شارك في القوات الفرنسية الحرة، وكان قد وصل إلى لندن بتاريخ 17 حزيران/يونيو 1940، عشية دعوة الجنرال. تم تعيينه في لاندينغ غراوند 16، القاعدة الجوية البريطانية في فوكا، في شمال غربي مصر، حيث تم وضعه في مجموعة المطاردة رقم 1 «فري فرانث»، «ألزاس». فيما بعد، كان بريزيوسي واحداً من رواد المجموعة «نورمندي» التي كانت تعرف المجد تحت اسم «نورمندي - نيمان»، كما أطلق عليها ستالين. وأثناء مهمة جوية في ليبيا للمراقبة، أصيبت طائرته، هوكر هوريكان، بإطلاق نار، وبعد علاجه، ذهب بريزيوسي في ذلك الحين إلى فوكا عن طريق قبيلة بدوية معادية للاستعمار الإيطالي. والتحق بمصر عن طريق البر من أفريقيا الغربية الفرنسية، مع العقيد ليكلارك الذي أخذ قوات المحور إلى الاتجاه المعاكس. التقى هناك مع إنكليز مصر، عن طريق فزان، هذا الجزء الجنوبي من ليبيا الذي انتزعه الفرنسيون الأحرار من سيطرة موسوليني.

تظهر الصور بالأسود والأبيض شاباً أسمر اللون بشعر قصير، وسيم وجذاب كممثل أميركي، غاو للنساء، كما قال عنه رفاقه. وبحسب إفادة معظم الرواة، فإن أميرة بدوية سنوسية تنتمي إلى القبيلة التي أنقذته أغوته وبعد تسعة أشهر من معاشرته لها ولد القذافي، رسمياً في سرت بتاريخ 19 حزيران/يونيو 1942. في الوقت نفسه، وبعد أن ذهب الطيار الوسيم الكورسيكي مع رفاقه الذين وجدوه، تزوجت الخاطئة أحد أبناء قبيلة القذاذفة الذي تولّى تربية الديكتاتور المستقبلي.

وفي رواية أخرى، يقال إنه تعرّف على ممرضة فلسطينية يهودية، أنجب منها طفلاً، أوكلت تربيته إلى قبيلة القذاذفة. أو ربما خلال عبوره من فزان، تعرف إلى فتاة تنتمي إلى قبيلة أرسقراطية. هذه الصلة كان يتم الاحتفاظ بها بهدوء، وهو أن أوروبياً قد رزق طفلاً من ليبية، هذا النوع من الأمور قد يسبب مشاكل... ولم ينظر إليه جيداً من قبل الإنكليز،

(*) خشب الخلنج من شجر بنبت في أراض رملية. زهره بنفسجي.

بحسب ذكريات طيار المجموعة، الذي قابلته الباحثة آن جيوديسيلي في حوار منشور على موقع bakchich.info.

«أنت تعلم بأن لديّ طفلاً في ليبيا. في حال إصابتي أثناء المناورات، أرسل له هذه الرسالة».

هذه الملاحظات التي قدّمها بريزيوسي إلى رئيسه، القائد بوليكان، مؤسس نورماندي-نيمان، منقولة من قبل عميل قديم في المخبرات الفرنسية، لكن لا يوجد أي وثيقة تدعم هذه الادعاءات. الجنرال هوغو سيلفستر ديه ساسي، رئيس القسم التاريخي للقوات الجوية، سليل أب الاستشراق الفرنسي، وبارون الإمبراطورية أنطوان إيزاك سيلفستر ديه ساسي، مصنف ومترجم في العام 1806 للمنتقيات الأدبية العربية قد فسر (أي الجنرال هوغو) في مراسلة مشكوك بها الصمت الكبير بشأن هذه المسألة. ويستند إلى أسرار الرقيق الذي كان يشارك بريزيوسي الخيمة الذي غادر الشرق الأوسط في نهاية عام 1942، بعد بضعة أيام من التاريخ الرسمي لولادة القذافي. لكن هذا التاريخ نفسه غير مؤكد: «القائد»- هذا اللقب استعير من كلمة «دوق»- كان قد غير التقويم، واخترع تقويمًا خاصًا به، مزاجًا الأشهر القمرية والشمسية لتاريخ ميلاده الخاص وانسحب هذا التأريخ على قيود الليبيين الشخصية كافة.

في تموز/ يوليو 1943، تمّ إطلاق النار على النقيب بريزيوسي خلال عمله فوق الاتحاد السوفياتي من قبل طائرة ألمانية، وحصل على ميدالية المقاومة، المزيّنة من قبل الاتحاد السوفياتي، وعينته الحكومة الفرنسية ليكون «النقيب- بريزيوسي» على القاعدة الجوية 126 التابعة لـ«سولنزارا»، في كورسيكا، التي تقع على بعد 60 كيلومترًا من قرية فزاني، حيث أقيم نصب تذكاري لطفل من أبطال المقاومة.

تمّ نسيان هذه القصة حتى العام 1977، عندما تطرق لها صحفي في مجلة مینوت الأسبوعية التابعة للحزب اليميني المتطرف. أراد أن يجد تفسيرًا لدعم الديكتاتور الليبي للنشطاء في جبهة التحرير الوطني لكورسيكا، الذين تدرّبوا على التعامل مع الأسلحة والمتفجرات في المخيمات التي تقوم على تشكيل المتدربين الإرهابيين.

ثم تمّ نسيان الإشاعة مجددًا حتى تاريخ زيارة القذافي إلى فرنسا، في شتاء 2007، الذي زرع خيمته في حديقة فندق ماريني، بناءً على دعوة من نيكولا ساركوزي. بعد تحرير

الممرضات البلغاريات والطبيب الفلسطيني المحكوم عليهم بالإعدام بتهمة ملفقة بتعمّد إصابة أطفال بنغازي بالإيدز، عاد الديكتاتور ووعده الشركات الفرنسية بألف عقد غير متوقّع.

كتبت الباحثة الكورسيكيّة التابعة لموقع بقشيش تحقيقها عن النقيب، لنتشر من جديد على نطاق واسع في الصحافة الشعبية. أرفق هذا التحقيق بصور توضح وجود تشابه مثير للقلق بين الملازم الأول بريزيوسي في عمر 27 عامًا والملازم أول القذافي بالعمر نفسه - عندما كان يستولي على السلطة، وهو أيضًا مخادع كبير، شاب أسمر بشعر قصير، مثير وجذاب ويشبه أيضًا ممثلًا أميركيًا... قبل أن تتغير ملامحه على يد جراح تجميلي برازيلي. كان يلقّب بـ«أبو شفوفة» بسبب شعره الخفيف المجعد غير المرتب، هذا الرجل العجوز الفاسق، الذي تحتجز عصابته مجموعة فتيان وسيمين وعذارى في قسم الحريم في قصر باب العزيزيّة.

ومن ثمّ اختفت الشائعات من الذاكرات حتى سنة 2011. شائعة أخرى أتت لتغطيها وتمتزج فيها: القذافي يهودي، هذه الشائعة نجدها على أطلال قصوره المهذّمة وسمعتها بشكل متكرر في ليبيا حيث لم يسرد لي أي شخص قرابته الكورسيكية، واتهامه باليهودية هي مواجهة عربية لإسرائيل وللصهيونية حتى ولو كانت راية جزيرة الجمال قطعت رأس الملك الأسمر البشرة.

ولقد دخلت هذه الرواية في أسطورة بريزيوسي حول أنه أنجب من ممرضة فلسطينية يهودية ولكن في سنة 2010 إسرائيلتان من أصل ليبي أجرتا مقابلة في برنامج تلفزيوني في بلدهما، فذكرتا أنهما متحدّرتان من جماعة قديمة، اختفت حاليًا، بسبب هجرتها إلى إسرائيل وإيطاليا وتونس.

في روايته «جماعة الطرابلسيين»، ذكر الكاتب الليبي الفرانكفوني كامل بن حميدة، أن طفولته كانت في طرابلس وسط النساء المسلمات واليهوديات والإيطاليات اللواتي كنّ يتعاشن بسلام، واليهود في طرابلس كان لديهم حي خاص بهم. في هذه المدينة الأوروبية نزور أيضًا بقايا كنيس يهودي في الريف، في يفرن، على الجبهة الجنوبية من جبل نفوسة، في أرض الأمازيغ، التي تشبه بقايا كنيس يهودي - بربري في تافيلالت، في جنوب المغرب. من دون شك، كان لدى الكنيس الوظيفة نفسها: خدمة المجتمع بتلقّي

وإرسال سندات الصرف إلى بعض اليهود في جنوب الساحل لصالح القوافل الإسلامية التي كانت تقطع الصحراء، مع تحميلهم للعبيد والعاج والخشب الثمين، وحيث كانت ورقة النقد في مأمّن من غزوات البدو الرّحل المتعطّشين للذهب.

إنّ أولى الإسرائيليتين اللتين أعطيتا جوهرًا للشائعات هي بلا شك غيتا بوارون، حيث إن الصحافة قد «أمرت» الاسم إلى براون، وهي سيّدة عجوز تغطي شعرها بوشاح، مقيمة في نيتانيا (هكذا يمكن أن تكون قد ولدت بالفطرة تحت رحمة التكرارات على الإنترنت والترجمات الملتبسة لبنيامين نتياهو، «الذي قد اعترف بالوقائع»). أما الثانية فهي ابنتها الصغيرة راشيل سعادة، امرأة سمراء ذات ضحكة ساحرة. قالت جدتها بأنّ شقيقتها -شقيقة الجدة-، قد عوملت بسوء من قبل زوجها اليهودي، فتزوّجت للمرة الثانية شيخًا مسلمًا، وحتى لو كانت ابنة الزوجين مسلمة وفقًا للإسلام - حيث إن الأولاد يتبعون دين والدهم إلا أنها كانت يهوديّة وفقًا للقانون الموسوي، وهي نفسها تنقل الهوية اليهودية إلى ابنها الصغير معمر القذافي، ابن العم من الدرجة الثانية لغيتا. كانت تلعب معه عندما كانا طفلين، وجاء ليقبّلها عندما تركت ليبيا للذهاب إلى إسرائيل، كان عمرها وقتئذ ثلاثة عشر عامًا بينما كان عمره سبع سنوات. وأضافت راشيل الجميلة بضحكة تكشف أسنانها الجميلة البيضاء عبر التلفزيون أنّ قريبها القذافي كان يهوديًا بشكل مثالي، واستطاع بذلك أن يكمل الـ «مينيان» أي النصاب القانوني من عشرة يهود ذكور وبالغين، العدد الضروري لإجراء الاحتفال الديني. هذا الأمر، الذي أعطى بطلتي رواية الربع ساعة الخاصة بهم مجد الشهرة، كان يعامل في الدولة العبرية بطريقة النكته. إنّ المظهر الهزلي للقذافي يطلق العنان «لقانون العودة كي يستفيد من وظيفة الحاجب المخصّصة للمهاجرين في بلدية صحراء النقب» كما يثيرها مذيع التلفزيون بمرح صاخب. لكن مع بداية الانتفاضة ضد الديكتاتور، أخذت قصته وجذوره اليهودية على محمل الجد في ليبيا واستخدمت ضده لإلحاق العار به وإيجاد سبب لتبرئة الإسلام منه.

إن زعيم قبيلة القذاذفة، الذي كان في الماضي كبير المستفيدين من هبات العضو الأكثر تميزًا بينهم، نشر بيانًا قاطعًا فيه أيّ علاقة معه (باللغة العربية يقول حرفيًا «مصرحًا بأنّه بريء منه»)، في وقت القبض على القذافي، بسبب قصة «والدته الإسرائيلية».

كان للأسطورة الكورسيكية والأسطورة اليهودية نتيجة مشتركة: إنّ الطاغية الذي يحاربه الثوار المرردون «الله أكبر!» وهم يمارسون الجهاد محترمين خلاله صيام رمضان، لم يكن

مسلمًا بل لم يكن محتونًا. عندما اختفى القذافي، هاربًا من طرابلس التي وقعت بأيدي الثوار، عمّت الضجة في المدونات العربية بأنّه قد فرّ إلى إسرائيل - البلد الوحيد في العالم المجبور على قبوله ومنحه الجنسية-، بينما اعتبر الآخرون، المخلصون للإيديولوجية الصهيونية أو الممتنون للتمويل المستمر لـ«القائد» الليبي، هجوم حلف شمال الأطلسي مؤامرة يهودية دبرّت على يد بيرنارد- هنري ليفي.

لم يكن متجهًا إلى إسرائيل، لكن إلى الجنوب الغربي، إلى الأرض القبليّة البدائيّة، كما أنّ قافلة القذافي كانت قد انطلقت ومؤيدوه الآخرون إلى سرت، عندما تعرّضوا لصاروخ أطلق من قبل طائرة لحلف شمال الأطلسي. سوف يخبرنا أرشيف سلاح الجو في يوم ما إذا كانت هذه الطائرة لحلف شمال الأطلسي. سوف يخبرنا أرشيف سلاح الجو في يوم ما إذا كانت هذه الطائرة من طراز رافال وميراج في مهمة إلى ليبيا في عام 2011، أفلعت من قاعدة «النقيب - بريزيوسي إلى سولينزارا»، كخاتمة لأسطورة كورسيكا انتقامًا لدماء الابن المزعوم ومن أجل شرف وكرامة النقيب.

الفصل الخامس

اليمن، سلطنة عمان

الأحد 1 كانون الثاني/يناير 2012 ساعة الثورة (كانت قد دقت)

لسلطنة عمان واليمن حدود مشتركة تفصل بين المنطقة الغربية للسلطنة «ظفار» والمنطقة الجنوبية من العربية السعيدة في الماضي «حضر موت». عندما كان اليمن الجنوبي دولة مستقلة حليفة للاتحاد السوفياتي، اجتاز أهلها - الثوريون الماركسيون - الحدود المغلقة خلسة لمساندة الثائرين الظفاريين، المتمين لجبهة التحرير العماني والخليج العربي «فلوجا»، بتمويل من موسكو لزعزعة استقرار الأنظمة الملكية في شبه الجزيرة، ومروجين لدعاية تزويد الولايات المتحدة وبريطانيا و«العالم الحر»، بالنفط والغاز.

كنت طالبًا، عندما تناغمت مع فيلم وثائقي لمخرجة لبنانية مسيحية تقدمية يحكي عن إنجازات الجبهة «دقت ساعة الثورة» رأيته في سينما «شامبليون» حيث كانت تعرض بعض الأفلام المناضلة لجمهور 1968. بعد أكثر من ثلاثة عقود، لم أعد أتذكر السرد لكّتي أستحضر أنه قد نشرته امرأة شابة ذات بشرة نحاسية، كانت ترتدي سروالًا قصيرًا كاكبي اللون، شعرها قصير مجعد، ذات ساقين ووردفين برونزيين، وكانت تجلس أرضًا وهي تمسك سلاحًا نارياً يرتكز على القاع مبدية ابتسامة النصر.

بالرجوع إلى الذاكرة، لست مقتنعًا فيما إذا كانت هذه الثورة الغربية التي حفزني لدفع أبواب «الطل» كما اعتقدت في ذلك العصر، لكن نشوة الشاب الثائر في الحي اللاتيني لهذا النشاط السامي ذكرتني بأستاذتي الأولى للغة العربية في كلية سانسبه في جامعة السوربون،

فايزة. من أجل العينين الجميلتين لهذه الموناليزا اليمينية، أرهقت نفسي لتحقيق الكمال في نطق الحروف في قسم اللغات.

في مدينة ظفار العمانية، نرى النساء اليوم مغطيات من الرأس إلى الساق، ومتنقيات بنقاب أسود. سألت نفسي: أين ذهبت تلك المرأة المناضلة صاحبة الصورة المنشورة؟ هل ما تزال على قيد الحياة؟ أم أصابها قذيفة إنكليزية أو إيرانية في مقتل عمرها؟ كانت أكبر مني ببضع سنين في الستين. هل هي مغطاة بالنقاب اليوم؟ وتشعر بالخجل لأنها كانت تظهر فخذيها في الحي اللاتيني؟ أم إنها تكفر عن خطاياها الآن بتعليم حفيداتها المختونات القرآن في انتظار يوم القيامة، مثلما كانت تقرأ في السابق مؤلفات «لينين» بحماس مبتهجة بالليلية العظيمة؟ هل ذهبت إلى موسكو لتعيش مع ذلك الضابط الذي وقع في حب هذه الغزاة الاشتراكية، أم إنها تعيش اليوم حياة البذخ تحت عباءة الثراء النفطية؟

* * *

الحدود البرية بين اليمن والسلطنة حيث أمضيت أعياد الميلاد وسهرة سان - سيلفستر هي دائماً مغلقة، كانت ظفار يسودها الهدوء، عُزل السلطان العجوز المخادع سعيد بن تيمور عن الحكم عام 1970 ليحل محله ابنه الوحيد قابوس بن سعيد ذو الثلاثين عاماً والمتخرج من أكاديمية ساندهيرست العسكرية الملكية وضابط البنادق الاسكتلندية لمصلحة انقلاب خطط له الإنكليز، والطيران حطم الدفاعات الثورية تحت وطأة قنابله.

ظفار هي جنة من الهضاب وسط المحيط الهندي حيث تهب الرياح الموسمية، وبفضل الحرارة الشديدة والرطوبة تتكاثر شجرة البخور ذات الرائحة الزكية «لبان»، اشتق من هذا المصطلح العربي كلمة «أوليبيان» الفرنسية التي تعني «لباناً أو بخوراً»، وإفرازات هذه الشجرة لبنية القوام مثل ماء السائل المنوي اللزج الذي يصبح مثل الذهب عندما يجف.

قدس القدماء أوليبيان التي وهبت ظفار البذخ الأسطوري منذ قيام الديانات القديمة والمسيحية في الشرق حيث استخدمت في المعابد والكنائس. بينما نهى الإسلام عن استعمالها في المساجد للمحافظة على صحة المصلين واضعاً بذلك مكانة ظفار خارج طرق التجارة العالمية. قبل أن تأتي مساعدتها من الهند النهمة للبخور المحروق أمام آلهتها ذوات الألف ذراع. وفي العاصمة الظفارية، مدينة صلالة، تغطي أشجار الموز مساحتها الواسعة وغابات المانغو، بالإضافة إلى المراعي الخضراء لقطعان من

الإبل والبقر والماعز، لقد خيل إلي أنهم ينتظرون ركوب سفينة نوح إذ نفى السلطان السوداوي سعيد ابنه قابوس عند عودته من «ألبون» عند النظر إلى حقائق السفر المليئة بأسطوانات دار الأوبرا الإيطالية، متشككاً إزاء تصرفات الضابط الشاب الذي كان يقوم بمهمة رفيق التدريب، نفى لمدة خمس سنوات بجوار أم يعشقها ولدها بعد ان طلقها زوجها ونفاها.

من قصر الأميرة الجميلة في الغابة النائمة، كان قابوس يستمع إلى طلقات الرصاص لمحاربي الماركسية بالتوازي مع الموسيقى التي كانت تشف أذنيه. وفي أحد الأيام، أرجعه رجال المخبرات إلى مسقط ليستقر على العرش الذي أبعدته عنه والده الرجعي والشرس بينما كان الجيش البريطاني والفارسي يقوم بتصفية المتمردين، رسم قابوس طرقاتاً وجدد كل البلد حسب ذوقه، لم يترك صرحاً مبنياً قبل حكمه دون أن يلامسه، وقد حول دولته المباركة إلى دولة عصرية بيد من حديد في قفاز مخملي من عائدات النفط.

أصبح القادة الشيوعيون السابقون من التابعين لبلاطه، استورد لويس الثاني هذا أوركسترا فيلهارمونيكا بأسعار مرتفعة لتعزف موسيقى اسكتلندية خلال حفلاته في القصر والتي تُقل بواسطة مكبرات الصوت للمشاة في الشوارع مما أضفى على المدينة سحر مدينة أوبرا.

للحفاظ على مكانتها مقابل متحف اللوفر في أبوظبي، ومولات دبي، وسباق الفورمولا في البحرين، أو مونديال قطر لكرة القدم، بنى قابوس الذي كان يعشق هذا دائماً دار أوبرا فخمة افتتحت في مسقط في ربيع عام 2011، مما أثار حفيظة الأئمة المحافظين. فتواصلوا على الانترنت والفيسبوك ليدينوا كفر هذا الأمير الإباضي. (مذهب متنور في الإسلام حاربه الوهابيون السعوديون).

إن الثورات العربية في هذه الأيام متسارعة في استعمال المرجعية الدينية وأخلاقياتها المحدودة للحد من السيادة المطلقة، ولكي تثير الناس أيضاً، لذا وقعت أعمال شغب في صحار، شمال العاصمة، في شباط/فبراير وآذار/مارس، مما أدى إلى سقوط عدد من القتلى في صفوف المتظاهرين. أقلت الحدود مرة مع اليمن لأن حضرموت، مهد عائلة ابن لادن، أصبحت مورداً للسلاح وموطناً لتنظيم القاعدة.

السلطان السبعيني كان يجب أن يرسل جنوده القبليين -الذين يأتون إلى عيد العرش- لينافسوا الجنود العالميين، والسلفيين الجهاديين والقادرين على جعل الماركسيين الجدليين القدماء تحمر وجوههم خجلاً.

مخفر الحرس في صنعاء

الذهاب إلى صنعاء انطلاقاً من مسقط يجبرك على المرور بمطار «المنامة» في البحرين، من بلد «الإباضية» إلى جارتها «الزيدية» حيث يقطن هذان المذهبان اللبيراليان في الإسلام في الجبال ويختبئان فيها، لذا يجب أن أذهب إلى الجزيرة ذات الأغلبية الشيعية الذين سحقتهم العائلة السنوية الحاكمة خلال انتفاضة آذار/ مارس 2011.

كانت الصحافة المحلية الناطقة باللغة العربية والإنكليزية التي كنت أتصفحها في قاعة الانتظار تتحدث عن أولئك المستأجرين من طرف إيران. في أروقة هذه المتاجر الضخمة، قد يكون الأب نويل من الفليبين أو من سريلانكا يمسك بعملائه لإظهار فوائد اليانصيب الذي يوفر لهم المال والسيارات الرياضية التي كانت تدور في مدار عملاق إذ كانوا يشترون من السوق الحرة.

* * *

لم تطأ قدمي اليمن منذ ثورة 2011، تابعت في هذه الأثناء المعارك الضارية بين القبائل الموالية للرئيس اليمني علي عبد الله صالح والمعادية له وأنا أتذكر الصور والذكريات لإقاماتي السابقة فيما يخص خرائط معارك الشوارع في صنعاء، حيث شاركت في مظاهرات الذين يطوقون أجسادهم العارية بالعلم اليمني.

كنت أبحث من نافذة الطائرة عن آثار المواجهات عندما كانت الطائرة تحلق في سماء المدينة بمستوى منخفض، كان هناك أسلحة ثقيلة وسط مبانٍ بلون الرمال، وهي تتوهج على الجبال في شمس الأصيل، تبدو صنعاء هادئة الآن، فاليمن لا تشبه ليبيا التي زرتها منذ شهرين والمليئة ببقايا الدبابات المحترقة.

أصيب الرئيس صالح في قصره بشظايا قنبلة، لذا سافر للعلاج إلى أجل غير محدد عند الجارة السعودية، التي تتابع بكل قلق الأحداث الجارفة في هذا البلد الفقير الذي يحتوي على عدد سكان مرتفع بالنسبة إليها، إضافة إلى خشيتها من امتداد هذه الأحداث

خارج حدود اليمن، لذلك تقوم بتمويل المتصارعين الذين يمزقون بعضهم. لم تُمدّن الثرية - النفطية - باستثناء منطقة الحجاز، حيث الحج في مكة كان قد حُصّر (من الحُصْر بعكس البداوة) منذ قرون مجتمعاً إسلامياً كوزموبولييتياً (كوتياً) فريداً من نوعه، وهو عبارة عن مجموعة من الأقلية المؤمنة بالله في الصحراء.

في الرياض، يتنقل أطفال البدو الأثرياء في سيارات ضخمة مكيفة للتسوق من المراكز التجارية ويتلذذون بأكل الهليون المستورد من ألمانيا على طاولة الفنادق الكبرى. وترددون بين «هرميس» «لانفين» و«ديور»، ويصطافون في مدينة كورشوفيل الفرنسية أو كولورادو الأميركية، ويتناوبون خلال العام بين شقة في المنطقة الثامنة في باريس وفلا في مايفير، في لندن، بينما يظهر الغالبية منهم التقوى الوهابية شاكرين الله القهار على الثروة التي وضعها في أرضهم. وفي الوقت نفسه هم حذرون من رغبات مئات ملايين المسلمين المعدمين. أئمة المساجد يفسرون فقر هؤلاء بغضب الله لأن إيمانهم باهت والثروة المتأتية من البترول لفائدة الأثرياء إنما تعود لإيمانهم القوي بالله.

في مدينة صنعاء القديمة التي تعود إلى 5000 سنة من الحضارة البشرية، يوجد 25 مليون فقير. وفي السوق، تجد العاملين في المعادن، والنساجين يخطون السترات الواقية، وعمالاً يحمصون البن القادم من مدينة مخا، وعمال البناء والرسامين الذين يزنون بيوت الطين المدرجة ضمن التراث العالمي، وتجار الأسلحة يسنون الجنبية (la jambiyya) التي يرتديها اليمني كسمة تقليدية للرجولة والشجاعة. لقد شلت حركة إحدى أجمل الحضارات القديمة على كوكبنا وأكثرها أصالة وعراقة بسبب البؤس.

* * *

أرسل سفير فرنسا حراسه لإحضاري من المطار، وعلى الرغم من هدوء الأوضاع منذ بضعة أسابيع، لا تزال عمليات خطف الأجانب تقليداً وطنياً في هذا البلد الذي يفوق فيه عدد الأسلحة عدد السكان بكثير.

في العادة، يختطف السياح الأجانب لتسريع تقديم ملف لم يوجد له حلّ من طرف الإدارة أو من أجل تمهيد الطرق وإضاءة قرية. ويحسن المختطفون التعامل مع الرهائن بتطبيق قانون الضيافة التقليدية، إلا إذا حاول الجيش تحريرهم بناء على إلحاح من حكوماتهم الغربية، الجهات المانحة، فإن ذلك يمهد لحدوث مجزرة..

كنت أذكر أنني قرأت في جريدة يومية مناطقية وجدتها ملقاة على أريكة في القطار بعد عودتي من مؤتمر أقيم في «بريطانيا»، قصصًا تدور حول الأسر في اليمن، منها خطف حلاق وموظف عقاري من الريف خلال رحلة منظمة، الخبر كان مرفقًا بصورة لأحد المختطفين فرحًا في لباس بحري وسط مجموعة من محاربين ذوي شوارب ويرتدون الخناجر كأحزمة ويحملون مسدسات ورشاشات.

لكن هذا الفلكلور عفى عليه الزمن منذ أن أقدمت القاعدة على مقايضة المحتجزين بأسعار باهظة من العشائر لتستخدمهم كأداة تبادل ثمين دون التردد في قتل هؤلاء الكفرة إذ إن دمهم من وجهة نظرها مباح. وتسبب انهيار السياحة بالمساهمة في انخفاض موارد البلاد. ومما زاد من خطورة هذه العمليات، استهداف الخبراء والموظفين الدبلوماسيين، والعاملين في منظمات غير حكومية.

* * *

جلست في سيارة جيب مصفحة وليست ثيابًا واقية من الرصاص، في الأمام دركي يحمل مسدسًا ورشاشًا ينقل الأوامر للسائق ويتصل بالسيارة التي تتبعنا يتكلم بلغة مشفرة كما لو أنه فيلم حربي:

«لا تانغو... هنا شارلي... نحن نترك فيكاس.. باتجاه الفاتيكان....».

فتحت هاتفني المحمول الذي وضعته خارج الخدمة عندما كنت بالطائرة، وجدت عشرات الرسائل، عددًا غير مألوف للاحتفال وتبادل التهاني بمناسبة بداية العام الميلادي من بعض الزملاء الذين لم أكن أراسلهم إلا في بعض المناسبات فاستغربت من ذلك. اكتشفت أنني حصلت على وسام جوقفة الشرف لمرور واحد وثلاثين عامًا على عملي في الجامعة في الوضع الذي فاجأني فيه هذا الخبر أستطيع أن أدعي أنني كنت فعلاً في حقل المعارك.

«جاك بيرك» بدأ مهنته كضابط للعلاقات الداخلية، وهو اليوم مستشرق، أنهى مهنته محميًا من العسكريين كما علماء حملة مصر، الذين سبقوه. كان عريف فرقة يقول لرفاقه: «الحمير والعلماء في الوسط» أثناء معارك الفرنسيين مع المماليك في أثناء الغزوة.

إن العنف قد سيطر علينا في العالم العربي الذي يقوده الجهاد، محرقًا مفهوم الثورات عن مسارها. هو في قلب عالنا العسكري في بداية القرن!؟

اليوم، أشرب نخب هذا العام الجديد وبمناسبة منحي وسامًا مع أصدقائي في صنعاء، ولتنشيط السهرة كنا نرتجل البرنامج فكانت سهرة عرض. وأثناء ذلك، كنت أشاهد الصور الواردة من ليبيا التي تظهر مقرّ مصراته، والاستيلاء على طرابلس وسرت، وتدنيس جثة القذافي، ومقارنتها مع صور اليمن.

الاثنين 2 كانون الثاني/يناير 2012

حرب القبائل

استقبلني الشيخ صادق الأحمر، رئيس اتحاد القبائل اليمنية في قصره في صنعاء، قبيلة الرئيس صالح هي جزء من هذا الاتحاد، وكان سلف الشيخ صادق، المرحوم الشيخ عبد الله الأحمر، كان ترأس أيضًا حزب «الإصلاح» المنبثق من الإخوان المسلمين، ومن شبكة القبائل التي تساند الحكم وينتمي إليها صالح. لكن عندما أراد الرئيس إبدال حكمه وراثيًا والتقليص من تأثيرهم، اتحد الإخوان وأبناء الأحمر ضد الرئيس المتقدم في السن وقد سلحوا الشبيبة الثورية وعجنوا المطالبات الديمقراطية والليبرالية للطلاب بعجين سميك قبلي مخبوز من قبل صبيان الخبازين المسلمين.

تقاتل جيش الرئيس مع أنصار الشيخ الأحمر في صنعاء، في مواجهة قبيلة تقليدية وكان كل منهم يسدد ضربات إلى الآخر دون أن يلغيه حفاظًا على القدرة على المفاوضة. حتى أسقط أنصار الأحمر قذيفة على قصر صالح فأصيب الرئيس وأجبر على طلب العلاج في الرياض، ساهم ابتعاده في تسهيل محادثات انتقال السلطة. دمر قصر الشيخ جزئيًا.

* * *

دخلت القصر شبه المدمر حيث توقف القصف بعد ذهاب علي صالح للعلاج. استعاد الشيخ الأحمر مقابلاته من أجل ضيوفه أو مؤيديه طلبًا للحماية أو لمساعدة مادية، أو طلبًا لبركته.

لقد حطمت القذيفة غرفة الاستقبال التقليدية «المفرج»، وعلى أريكة واسعة دائرية الشكل في الهواء الطلق، ساجري الحوار، الحديقة مريحة لكنها غير مهيأة لأن أشجارها كانت مكسورة بين مبانٍ متفحمة. في انتظار عودة ملك المكان الذي طال مجيئه، كنت أتلهى بوجود بعض طيور الطاووس التي كانت تتباهى بين الأطلال بخيالها الزاهي.

وأخيراً وصل الشيخ مرتدياً لباسه الأبيض التقليدي، متألقاً، مع جنبية مزخرقة بالفضة والأحجار الكريمة، يسبقه الحرس الشخصي ثم المترجم والمصور، وسيتم بثّ المقابلة الليلية من قناته الخاصة، لكي يثبت لمؤيديه ومشاهديه أن شخصية فرنسية ذات تأثير أتت لتمدحه وتشهد على أهميته السياسية. كان محبباً، رحب بي ببضع كلمات إنكليزية بمساعدة مترجمه، ثم دعاني لمضغ بضع أوراق من شجرة القات. بعد تناول القات تحتاج إلى كميات كبيرة من الماء لإرواء عطشك وربما تستيقظ ليلاً بسبب امتلاء مثانتك بالبول. القات لا يجفف الحناجر فقط بل أيضاً الأرض، وبدلاً من ري المحاصيل الغذائية، يتم ري هذه الشجرة السامة، إن اليمينيون مخدرون بهذه النبتة التي لا تعني ولا تسمن من جوع، فضلاً عن سلبياتها الصحية والاجتماعية والشيخ الأحمر يتناول «القات» على طريقة مشايخ القبائل الذي هو ممثلهم الأعلى: بمغلاة وبحركات كبيرة يشير إلى مخططه ليبعد بكرامة الرئيس صالح عن السلطة، ذاكراً الدور المركزي لقبائل اليمن في الغد، طالباً لهذا الهدف مساعدة فرنسا.

تعيش البلاد تحت نوع من الوصاية الحكومية، وسفراء الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن ودول مجلس التعاون الخليجي والاتحاد الأوروبي، وهم يرون كل أسبوع السلطات الانتقالية ونائب الرئيس يبذلون قصارى جهدهم لتنفيذ توصياتهم، وكل يفعل ما يشاء ويساهم وفقاً لقدراته، على سبيل المثال: ترسل الولايات المتحدة طائرات بدون طيار لقتل الجهاديين في الجنوب؛ ويوفر السعوديون والكويتيون المال؛ القطريون موقفهم بارد ومتساهلون بحذر أمام المتمردين الحوثيين المتهمين بإيران. بينما يساعد الفرنسيون في صياغة دستور ديمقراطي... أتخيل انعقاد اجتماع سري بين المشرعين الفرنسيين البارزين والشيخ الأحمر.

الثلاثاء 3 كانون الثاني /يناير 2012

وودستوك في أرض الإسلام

جاء شباب الثورة للتناقش مع المستشرق القادم من باريس في مقر إقامة السفير الفرنسي في صنعاء تحت شجرة كبيرة تقيهم من شمس كانون الثاني/يناير التي قد ترتفع درجة حرارتها إلى 2300 متر من ارتفاع صنعاء. في مصر والجزائر، قد يؤدي مثل هذا التجمع إلى دعوى قضائية تتعلق بالإمبريالية الفرنسية لكن هنا في اليمن، تبادل الأفكار بكل حرية بعيداً عن الصعوبات القبليّة، إذ يطلب من الحاضرين ترك الأسلحة في الخارج. كان من المقرر أن أقدم عرضاً موجزاً باللغة العربية عن الثورات في مصر وتونس وليبيا من

حيث أتيت، معظم هؤلاء الشبان لم يسافروا خارج اليمن بسبب الفقر المنتشر بنسبة عالية كذلك في الدول العربية، كما أن معظمهم لا يجيد التحدث بلغة أجنبية مثل اللبيني لكنهم يتحدثون لغة عربية أنيقة.

ساعدتهم التيسير المفرط على متابعة العلوم الاجتماعية المترجمة والاهتمام بالوجودية و«ريجيس دوبري» و«يورغن هابرماس» و«ميشيل فوكو». يقرأ الجميع كل شيء على الشبكة العنكبوتية «الإنترنت» التي تمكنت من إلغاء الحدود الثقافية وعوضتهم عن عجز دور النشر وشراء الكتب، يقرون بالإجماع على حبهم للديمقراطية ويرفضون ديكتاتورية الحزب الواحد وتخلف نظام القبيلة، كما أنهم يعترفون أن مضع القات بمثابة كارثة للشعب اليمني لكنهم منقسمون بشأن طرق القضاء عليه.

يحرصون على متابعة الأوضاع في مصر لتبادل الأخبار عمّا يجري فيها، والتي لا تزال بالنسبة للشباب الثوار مرجعاً رئيسياً ولكن أيضاً مضاداً لسم الدعاية الوهابية في كل مكان والحاضرة بشكل مكثف بواسطة «البرودولار». في ستينيات القرن العشرين، اجتاحت قوات ناصر اليمن بحجة تحرير الشعب من الإمامة المتخلفة، لكنها في الحقيقة كانت موجهة لتهديد الملكية البترولية السعودية، المتحالفة مع الغرب.

وبفضل الدعم الروسي، تركت مصر وراءها آثاراً ثقافية عميقة، إذ درس اليمنيون القدماء في القاهرة قبل افتتاح جامعة صنعاء، اليوم بعض معارضي صالح يسكنون على ضفاف النيل. إنها مصر المتحررة وجدوها بغموض في ميدان التحرير، مع شعارات الحرية والديمقراطية وهي أكثر من تونس البعيدة جداً عنهم أو ليبيا المجهولة التي تحكمها القبائل أكثر من هنا، مصر هي التي حمستهم وألهمتهم.

بين الحضور، كان هناك الكثير من شباب جماعة الإخوان المسلمين الذين يتحدثون كإخوانهم المصريين، يتطلعون للتوفيق بين القوى الديمقراطية المنبثقة عن العولمة والهوية الإسلامية، التي تعني كل شيء أو لا شيء لأنهم لا يشعرون أنهم بحاجة إلى تعريفها إلا إذا كانوا ضد الخارج. هذه الهوية فرضت نفسها على المجتمع كضرورة أولية بعد انتكاسات الاشتراكية والأنظمة الصارمة الخائفة للحرية والمتحالفة مع الغرب، إذن هي تمثل قلعة فكرية يصبح فيها كل نقد تجديفاً يؤدي إلى انتحار ثقافي واجتماعي لكل من يظهر أمام الجمهور.

في خضم هذا الحوار، كان هناك هجوم سريع وعنيف كأنه غزوة من طالبة محجبة

لباس أسود كامل، لم تترك سوى فتحتين للعينين لوضع النظارات، كانت تتحدث بلغة عربية مهجنة بكلمات إنكليزية. طلبت مني أن أفتر لها خوف فرنسا من الإسلام التي تعرف بالديمقراطية وهي ديكتاتورية عندما حظرت النقاب:

- «فرنسا هي الدولة الأكثر عنصرية في العالم اضطهاد المسلمين الذي بدأ بمنع ارتداء الحجاب حتى وإن كان منديلاً بسيطاً في المدرسة، كيف يمكنكم أن تتباهوا بأنكم ساهمتم في كتابة دستور اليمن حيث ارتداء الحجاب هو الغالب عند النساء ويمثل إحدى حريات الثورة؟»

شرعت في تحليل الظاهرة السلفية في فرنسا وآثارها المدمرة على التماسك الاجتماعي والاندماج الجمهوري. لكن محدثتي لم تقتنع رغم ذكر الأدلة:

- «نقدك للسلفيين هو دليل على العنصرية المعادية للمسلمين. إن السلفية هي الإسلام في منابعه. فالاندماج يهدف إلى إخراج المسلمين من إسلامهم. ولكن ذلك مآله الفشل. وكما ذكرت وسائل الإعلام العربية أن مئات الآلاف من الفرنسيين يعتقدون الإسلام (الحمد لله) و(إن شاء الله) في القريب العاجل تصبح فرنسا بأغلبية مسلمة».

انتقل الحوار إلى موضوع آخر أكثر توافقاً، كثير من الشباب الحاضرين كانوا قلقين من خروج المرأة المنقبة دون أن يجرؤ أي كان على الاعتراض علناً. واصلت الطالبة جهادها عبر الإنترنت لتستنكر بكل ضراوة موقف هذا المستشرق العنصري والمعادي للإسلام.

* * *

تعرفت إلى صنعاء مع صديقي جيل غوتيه، المستعرب الذي يتقن عدة لغات و مترجم رواية «عمارة يعقوبيان»، التي أصبحت من أكثر الكتب مبيعاً في فرنسا، هو يتذوق اليونانية الحديثة، ونقرأ معاً قصائد «كفافي». تقاعد جيل من العمل الدبلوماسي بعد أن شغل منصب القنصل العام في الإسكندرية وسفير فرنسا في اليمن وحافظ على شبكة من الصداقات في هذا البلد.

دعانا أحد الطلاب للحاق به إلى «ساحة التغيير»، التسمية المستوحاة من «ميدان التحرير» في القاهرة لكن على الطريقة اليمنية، وهو عبارة عن مجموعة من الشوارع أمام الجامعة حيث اعتصم الطلاب لمواجهة قوى القمع إلى أن تخلى الجيش عن الرئيس وتبعه في ذلك الشيخ الأحمر وحمت المعارضة الجميع بمراقبة هذا الحي.

ابتداء من تلك اللحظة، لم يغادر الطلاب الميدان تحت ضغط الشرطة، على عكس أقرانهم في مصر، استقروا هناك في خيام على طريقة القبائل البدوية وعلى «طريقة الـ 2 هكتار للحى اللاتيني» في أيار/ مايو 1968، وودستوك الأميركية في أرض الإسلام، حيث القات حل محل الماريغوانا. ولمواجهتهم في منطقة أخرى من العاصمة، بالقرب من المتحف، كان أنصار الرئيس صالح يحشدون القبائل المؤيدة والساكين في الجبال مقابل مبلغ من المال، وتوقفوا عن المساعدة بمجرد توقف المدفوعات ورحيل صالح إلى الرياض فعادوا إلى ديارهم تاركين الخيم فارغة ووسخة وتاركين الأرض لخصومهم. بين عشية وضحاها، أصبح مخيم ميدان التغيير مأوى لآلاف الثوار الذين ينتمون لقبائل شتى، يضم أنشطة جميع الأحزاب السياسية التي تجمهرت ضد الرئيس وتعايشت سلمياً على الرغم من وقوع عمليات قتل في أجزاء أخرى من البلاد، في خيام الحوثيين والسلفيين في الشمال بالقرب من الحدود مع المملكة العربية السعودية حيث إنهم بالتوالي كانوا أعداءها وزبائنها. إن هذه الخيم تتجاوز دون إشكال في هذا المعسكر الطوباوي حيث إنه محظور منعها.

أراد الطلاب إسقاط الصراعات القبلية والسياسية من مستقبل اليمن، حظر الأسلحة التي تنتشر في جميع أرجاء البلاد ليحل السلام والأمان وتنظم انتخابات ديمقراطية إنها سعادة دائمة، وتحت خيمة واسعة، اجتماعات تتوالى كي تناقش في الثورة ومستقبل البلد وتنظيم انتخابات ديمقراطية.

* * *

كنت، أنا وصدقي جيل الغرباء الوحيدين ظاهرياً مع الحرس الشخصي وطالبة دكتوراه أوروبية ترشدنا في مائة الخيام، كان ينتظرنا جمهور من المقاتلين سعيدين، وغير منظمين، متبهمين إلى ما أعلنه مكبر الصوت أن اثنين من الأجانب (كلمة أجنبي تعني غير العربي) أتوا ليتحدثوا عن الثورات في الدول العربية الأخرى.

إنه مدرج ريشليو في جامعة السوربون، مزيج من نشطاء سياسيين مدرين على إلقاء الخطابات على المنصة، متشردون وصعاليك فاشلون، ومواطنون عاديون يريدون أن تسمع مطالبهم الملحة، إلى ما لا نهاية من التناقضات... الجمهور متعدد ومركب إلى جانب اشتراكيين يعتمرون قبعات من الجلد، هناك شباب قبائل عيونهم لامعة يلبسون

حزماً مرصعاً، حدودهم منتفخة من القات المخزن، يلبسون قمصاناً بالإضافة إلى نساء منقبات بالسواد.

استمعوا إلينا بحكمة. فجأة قاطعنا خطيب، وبدأ يتكلم ولم نفهم منه أية كلمة. كان يعلن ثم يتوقف الصوت بسبب انقطاع الكهرباء. «جيل وأنا لاحظنا أن حدثاً مماثلاً ما كان من الممكن التفكير به منذ عدة أشهر: أجنب في الشارع كان من الممكن أن يُقتلوا. اختلاط رجال ونساء. أكثرية النساء كن في الخلف [بعد مدة من مرورنا، اختبأت النساء وراء ستار أسود].

النداء لصلاة العشاء، الذي أُعلن عن طريق مكبر صوت من المسجد القريب أنهى مقابلتنا وأفرغ فجأة صفوف المواطنين المتحولين إلى أتقياء متجهين إلى مكة، بعيداً مئات الكلوترات شمالاً في العربية السعودية القريبة.

الأربعاء 4 كانون الثاني /يناير 2012

عدن العربية

غادرت مجدداً مع جيل إلى عدن، عاصمة الجنوب البحرية، التي تقع على المنحدرات وحول فوهة بركان خامد. في فصل الشتاء تكون درجة الحرارة معتدلة والجو لطيف، أما في الصيف فالوضع لا يُحتمل. يمتد شاطئ حضرموت إلى ظفار جهة الشرق، وعلى بعد ستين كيلومتراً من محافظة أبين، يقطع الجهاديون الموالون لتنظيم القاعدة، والذين أقاموا إمارة إسلامية في دولة اليمن أو ما تبقى منها. خلال إقامتي السابقة، كنت أتفاوض مع أحد أعضاء المخابرات لزيارة المدينة القديمة «زيد» المطلة على البحر الأحمر، طريق تجارة التوابل بين مصر والهند، والمنحوتة جدرانها من الحجر الجيري الخشن، مع السقوف الخشبية المزخرفة، وهي شاهد عيان على روعة الماضي المتداعية والحنين إليه. لا يوجد اليوم موظفو استعلامات في أوتيل «غولدموهير»، حيث نقيم على شاطئ خليج «ارثررنبو» الذي كان (أي الفندق) الغيتو المذهب حيث تضع الجمهورية الاشتراكية الدبلوماسيين الغربيين ممنوعين من التجول في المدينة.

العلم السابق لدولة جنوب اليمن مرسوم على جميع الجدران والحواجز وإذا كانت عدن ومنطقتها عبروا عن ثورتهم بلغة الانضمامية (اللاتقسيم) ليس بسبب الأسف على الديكتاتورية الشيوعية ولكن بسبب السيطرة البريطانية التي سبقتها، وكانت سابقاً تحت الاستعمار البريطاني تتمتع بالرخاء والازدهار مع مجيء البواخر إلى ميناء عدن قادمة من أوروبا وقناة السويس في طريقها إلى جزر الهند والشرق الأقصى. وقد هشمت الثورات

العربية الأساطير التي بنتها الأنظمة الديكتاتورية المصادرة للاستقلال، ولكن نادراً ما تترجم الشعوب أقوالها إلى أفعال، كما هو الحال في عدن التي ترغب في العودة إلى حضن الاستعمار، حتى لو لم تعبر عن ذلك، والمشجعون على ذلك يريدون أن تكون المدينة، مدينة - دولة - خالية من الرجعيين والجهاديين. هناك بعيداً، سنغافورة الساحرة التي خلفها الإنكليز، ربما لأنها بدورها ألهمت «دبي» التي جعلتهم يحلمون أن يرتقوا إلى قلب العولمة وصناعاتها. ولكن حيث إن أهل سنغافورة ودبي أصبحوا تجاراً فقد أصبحت أرض هذين البلدين خصبة لشركات التجارة في الأولى، وشركات البترول في الثانية. وعدن ليست اليوم سوى بلد مكبل بين مناطق فقيرة وخطرة. الصهاريج التي تجتاز أفريقيا تمر عرضاً منذ أن أصبح خليج عدن مرادفاً للانفجار غير المسموع به لقرصنة القرن الواحد والعشرين المستند على شواطئ الصومال بعد عدة ساعات من الإبحار.

الضباط العاملون في هذه النواحي البحرية يرون كيف أن الفرق البائسة للصيادين الصوماليين - المفلسين من الاستغلال المكثف لثروتهم السمكية التي عمرها آلاف السنين عن طريق الصيادين العالميين الكبار، ومن ثم هو متروكون لقرصنة عن طريق دولة متخلفة عنهم، وأصبحوا أخيراً قرصنة بالخطأ، وأصبح لديهم فيلات فخمة.

وسارت الأمور كذلك في مرفأ أفريقيا الشمالية حتى القرن التاسع عشر والذي نشطه الجهاد البربري- السباق ضد السفن الشراعية المسيحية- الذين - أي المسيحيين- إذا أسروا كانوا يباعون كعبيد بناء على أوامر دينية خاصة.

ويقال إن المنطقة امتلأت بالقرصنة الذين يزودهم الجيش اليمني بالوقود، في حين يهاجم الصيادون الصوماليون الأميون السفن التجارية لاسيما تلك التي تحمل شحنات ثمينة. إلى مخاطر البحر في هذه المدينة أضيفت مخاطر البر، فعائلة ابن لادن هي في الأصل من المناطق النائية في عدن، من حضرموت. في هذه المنطقة من الوديان الخصبة المنحوتة من تآكل الهضبة الصحراوية، ينتج أفضل أنواع العسل المحرك للشهوة الجنسية والمكلف للغاية، يحتكر الرجال الملتحون ببيع وهم يغلقون محلاتهم وقت الصلوات الخمس، مثل المملكة العربية السعودية.

يقل عدد السكان في هذه المنطقة مقارنة بشمال البلاد وتزداد فيها الآبار النفطية حيث شيد المعمل الكبير العصري لتحويل الغاز إلى سائل، وفي السابق، تقاسمت النخب التقليدية

في الجنوب، سلاطين الدويلات، مواردها مع المستعمر البريطاني - ثم دمرها الشيوعيون الذين اضطهدها - ولم يتمكنوا من الفرار إلى الشمال أو إلى الخارج. في عصر الاشتراكية والتحديث والعلمنة والاستثمار في التعليم تحررت النساء ولم يرتدين الحجاب في المناطق الحضرية، وعاد الشباب الذين ذهبوا لإكمال دراستهم في الاتحاد السوفيتي بنساء شقراوات استبدلن صقيع روسيا بشواطئ المحيط الهندي حيث يشربن وهن بلباس البحر البيرة المحلية، عاد الكثير منهم إلى الاتحاد، بعد انهيار الاشتراكية، لأنهن لم يتحملن ضغوط نظام الإسلام، تاركات وراءهن أبناءهن من هذه الرذائل المختلفة، هذا النسل المختلط من لحم الأومية البروليتارية. شاركت في مؤتمر تحدثت فيه بالعربية، عقد في المركز الثقافي الفرنسي الألماني في عدن في نصف العقد المنصرم، وكنت متفاجئاً من سماع الفتيات والفتيات يعبرون عن أنفسهم باللغة الإنكليزية وفي بعض الأحيان بالفرنسية، ودهشت عندما أخبروني أن أمهاتهم أوروبيات شقيقات تعلموا على أيديهن هذه اللغات في سن العطاء.

عام 1990 اشتراكية الرمال لم تعش طويلاً بعد تدمير جدار برلين دون مساندة السوفيات، وقد حصل التوحيد مع الشمال قبل وقت بسيط من الاكتشافات البترولية. وتهميش الجنوب الذي تلا ذلك سبب كردة فعل حركة مسلحة سنة 1994، وقد سحقت من قبل مجموعات علي صالح، المحصنة من قبل عصابات من الجهاديين الأصوليين من اليمن الجنوبي والعائدين من أفغانستان. أضرحة وقبور الحركة الشعبية الصوفية، التي اعتبرها السلفيون المتطرفون، هرطقة، كانت أول ما هُدم على أيديهم.

الكوادر القديمة للعهد الاشتراكي والذين لم يقتلوا هربوا نحو المنفى، عادوا بالتاريخ إلى الورا. من لباس البحر الذي كانت النساء يرتدينه سنوات 1970 لم يتبق إلا الذكرى وتحول إلى حجاب أسود يغطي وجهه وجسد أغلبية النساء.

سكان الجنوب لم يتعاطوا الفات عكس سكان جبال الشمال، والمرحلة الشيوعية استأصلت بعض الموجودات القليلة لأفيون الشعوب هذا. في العقد الأول لسنة 2000 لم ألحظ في حضرموت حدوداً مفتوحة إلا مع الجنود الذين يقفون على الحواجز في الطرقات، الرمز المتضجر للاحتلال العسكري الشمالي هو ضد هذه التبعية. تمركزت ثورة 2011 في عدن.

منذ أن عُرف بوجودنا أنا و«جيل» في «غولد موهر» أتت مجموعة من كافة العصابات للقائنا وكان يجب علينا أن نقسم مهمتنا كي لا نُغضب محدثينا، بدون مفاجأة، المسؤول المحلي للإخوان المسلمين يكره التقسيم، بالتوافق مع إدارته في صنعاء، ويرى أن التقسيم فتنة، وهذا يؤدي لتدمير وحدة المؤمنين، بالنسبة له فإن التحرر في عدن يكون أكثر من غيره لأنه في هذه المدينة تختلط كل أعراق المنطقة. لاحظت أنه هو نفسه من أصل إفريقي كما أن اعتناق عائلته للإسلام حديث نسبياً.

سيد عجوز، اسمه سافيل رو، محاطٌ ببعض الكتاب وجامعيين كبار في السن، ومنهم سيدة غير محجبة، قدّمت لنا مندوباً من المجلس الوطني في عدن: استقلال المدينة هو الحل الوحيد. حمل المندوب صورة تمثل شاباً حافي القدمين، من دون شك، هارب من أبيان، يحمل رشاشاً يرهب به المارة في أحد شوارع العاصمة. مجموعة أخرى عدادها عدة رجال أعمال بينوا لنا إعلان «أول مؤتمر للجنوب» عُقد في القاهرة في آخر تشرين الثاني/نوفمبر سنة 2011 حيث أسماها الحاكمين الاشتراكيين السابقين تظهر في مكان لائق إلى جانب زعماء القبائل المحلية. بعد وقت بدأ بترتيل القرآن الكريم قبل أن تتحرك سوياً من أجل حق تقرير المصير لشعب الجنوب.

الخميس 5 كانون الثاني/يناير 2012

فندق «آرثر رامبو»

كان هناك مؤشرات قلق مستوحاة من تطورات غير متوقعة في العالم العربي خارج دائرة المتخصصين، طلبت مني إذاعة الثقافة الفرنسية، تقديم برنامج صباحي أسبوعي خلال الفصل. حررت أول حلقة في إحدى ليالي «غولد موهر في عدن» لكن الهاتف الذي شاركت من خلاله كان سيئاً وبالكاد يُسمع، لكي يعقب أو يشارك أحد المستمعين. وفيما يلي مثال على بعض الفقرات:

عدن، عدن العربية...

«على موقع سلفي فرانكوفوني اسمه «على الطريق الصحيح إن شاء الله»، يحدّث مستخدمي الإنترنت على غزو عدن، أتخيل الداعية أمام شاشة الحاسوب في مدينة حزينة مزدحمة بالأبراج والحانات في مكان ما في فرنسا. ثم يذكر أن تنظيم القاعدة قد

ارتكب في خريف عام 2000، هجوماً مذهلاً ضد سفينة أميركية. كما يقتبس حديثاً من النبي محمد أن «جيشاً من اثني عشر ألف رجل يخرجون من عدن أبين، ينصرون الله ورسوله». بالأمس، استهدف هجوم نادي «ليالي دبي»، في حي كريت، سمعت أنها كانت مجرد تصفية بين قطاع طرق للسيطرة على المكان الذي تتواجد فيه الفتيات الصوماليات والكحول. القوة المهيمنة هنا هي لأنصار الحكم الذاتي للجنوبيين الذين يمقتون تنظيم القاعدة، ويقولون بأنه مجرد لعبة في يد الرئيس السابق علي صالح الذي يريد أن يخيف الدول الغربية والخليجية ويقدم نفسه على أنه الحصن الوحيد ضد الإرهاب الإسلامي. يكرهون صالح لأنه أفضل التوحيد بين الشمال والجنوب عام 1990، ويتمنون أن يلقي مصير بن علي ومبارك أو القذافي نفسه.

بعد فترة وجيزة من عام 1990، أحدثت فرنسا ضجة كبيرة وسط عدن، بحضور رولان دوما وجاك لانغ، خلال افتتاح معهد آرثر رامبو للشعراء، لكن هؤلاء لم يستطيعوا احتمال درجة الحرارة التي كانت تصل إلى 55 درجة مئوية. بيع المعهد لمستثمر محلي حول «رامبو» إلى فندق. وهكذا حل بطل كمال الأجسام الهوليوودي محل الشاعر المراهق، وأصبح تاجر أسلحة عبر البحر الأحمر، قبل أن يموت بسبب الفرغرينا.

الفصل السادس

مصر 2

السبت 16 حزيران / يونيو 2012

الانتخابات الرئاسية

«الفيوم»، عرفت هذه الواحة بإقبال عشاق الفن عليها من كل أنحاء العالم، أعجبتني الصور الجناززية في المقابر اليونانية- الرومانية والتي وجدت تحت الرمال محمية من فساد القرون في الصحراء الدائمة النضرة، والتي كنت قد شاهدت العشرات منها أثناء زيارتي الأولى لوادي النيل، في عام 1974، وكان عمري حينها تسع عشرة سنة. رأيتها في صالة عرض غير مضاءة بوضوح، يملؤها الغبار وكأنها منسية في المتحف المصري، بميدان التحرير.

بعد القرون الهيروغليفية الخالدة لمعبد مليء بالآلهة ذوي الرؤوس الحيوانية التي حرسها الفراغة ذوي الأقنعة التي لا تُخترق والتي تعكس الأمر الإلهي الأبدى المنظم لغضب النيل كما تعكس الصور التي تبدو فجأة وكأنها قبل عصرنا بقليل وتبين الارتقاء الهش للإنسان وتؤشر لنا على ذلك.

هذا المواطن من العصر القديم -الذي يشبهنا- تحرر فجأة من الوحل السمائي، راسماً معالمه الخاصة إنه على شاكلتنا. وفي الوقت عينه الرسامون القدماء رفعوا الرسم إلى مصاف الفنون الجميلة ولكن قلة حيلة داعمي هذه الفنون إضافة إلى غزوات المسيحيين التي تتسم بالغيرة أفسدوا إلى الأبد هذه الروائع - متروكين للصدفة الشحيحة للكوارث مثل ثوران بركان «فيزوف» إذ إن رماده احتفظ لنا تحت غازاته بنضارة الرسوم الجدارية لبومباي في مصر، عمق الرمال تركت مفاجأة ماث

الصور التي نَقَب عنها علماء الآثار والموزعة في المتاحف والمجموعات الخاصة في زوايا الأربع الأرض.

عصر رسم الوجوه استمر أربعة قرون بين انهيار الكهنة الفراعنة فاقدن سيطرتهم على العقول ومحاكم التفتيش المنتصرة للكهنة المسيحي الذي صادر الصور عن البشر ليحتفظ بها لأيقونات المسيح، العذراء والقديسين - قبل أن يأتي الإسلام ويلغي كل تمثّل بشري. هذه العقود الأربعة، حققت، بالإيقاع البطيء للزمن الغابر، نقلة في الأساليب المشابهة لنصف القرن السريع للعصر الصناعي الذي فصل «أنجرموديغلياني»: الصور البشرية الأولى، تجبر نفسها على واقعية ما بعد الطبيعة، أوجه مستطيلة تحيا بالتناقض الضوئي للألوان، هذه الرسومات الريفية الشرعية التي حافظ عليها المناخ الجاف للفيوم بينما رواث «أبيل» أو «بوسياس» التي مدحها كثيرًا الكتاب اللاتين، اختفت، هي أيضًا شاهد كوني من الزمن قديم الذي يكلم قرننا المولع بالعالمية.

هؤلاء مصريون يتبنون الأنسنة الإغريقية ورموزها الفنية، والديمقراطية في اليونان ومن ثم الجمهورية في روما - كما أحفادهم اليوم في ميدان التحرير تأثروا بالديمقراطيات الأوروبية والأمريكية المنحدرة من عصر الأنوار وأصبحوا أصدقاء على شبكات التواصل الاجتماعي. الأوائل القدماء قهرتهم سلطة الكنيسة، هل يصادر متدينو عصرنا ثورتهم- ثورة الحاضرين-؟

* * *

اشتهرت الفيوم في التاريخ السياسي المعاصر لمصر وبالإضافة إلى فقرها فهي تصنف «المحافظة التي في الصفوف الأخيرة للنمو»، كي تكون المكان الذي يتواجد فيه الشيخ الأعمى «عمر عبد الرحمن» المبشر الذي يتمتع بسمعة سيئة لتورطه بالإسلام الراديكالي. في سنة 1970 بعد وفاة عبد الناصر، هذا المتخرج من جامعة الأزهر منع أتباعه من الصلاة على «هذا الفرعون السيئ» الكافر.

أصبح (عمر عبد الرحمن) أيام السادات مشهورًا لأنه دافع عن تلميذاته بالسماح لهنّ أن يطرحن عليه الأسئلة مباشرة، ومن ثم خاف أن يجره صوتهن إلى «الفسق» فطلب أن تسألنه بواسطة إخوتهن أو أزواجهن. أصبح بالمقابل أحد موجهي المجموعة التي تجلّ الجهاد المسلح.

اتهم بمقتل السادات عام 1981، فنفي إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1984 في عملية غير واضحة حيث تشابك طرق المخبرات السرية، عندما كانت الولايات المتحدة تغازل الميليشيات المسلحة الذي جاهدوا ضد الجيش الأحمر في أفغانستان. بعد عشر سنوات اقتيد إلى السجن بتهمة الاعتداء على «وورد سنتر ترايد» سنة 1993 وهو المقدمة لأيلول/ سبتمبر 2001.

أتباعه الذين أعلنوا براءته وطالبوا بتحريره جعلوا من قضيته شهيرة في مصر حتى خارج صفوف الجهاديين الراديكاليين. زاوية ميدان التحرير التي تجاور سفارة الولايات المتحدة شغلت منذ بدايات الثورة من قبل أتباع هذا الرجل المتعدد الزوجات والكثير النسل، والمتعاطفين معه، وهم يتابعون حتى اليوم الجلوس أمام صورة كبيرة لسنمهم هذا (أي الشيخ)، المعلقة فوق رصيف عصر الاستعمار والمزينة بشريط غار للأزهر.

أثناء القيام بحملته في الفيوم، وعد المرشح للانتخابات الرئاسية الإخواني محمد مرسي بجعل الشيخ عبد الرحمن يعود إلى مصر. وهذه أولوية في سياسته الخارجية حين يصبح رئيساً للجمهورية واعياً لأهمية هذا الموضوع في الانتخابات المحلية.

* * *

تضم هذه المنطقة الريفية المليئة بالتناقضات مليون ونصف ناخب، حيث ينشط الأقباط ويزداد عددهم في مدينة الفيوم التي عدت إليها اليوم.

اصطحبت فريق تصوير الفيلم الوثائقي عن الثورات العربية وبدأنا التصوير مع بداية الانتخابات الرئاسية المصرية، ذهبنا في أول المطاف إلى مركز اقتراع النساء وسط المدينة. لا بصوت الجنسان معاً خوفاً من أن تنهياً لهما خلوة.

لم أعود استخدام كلمة «خلوة» في مثل هذه الظروف رغم ارتيادي المجتمعات العربية لأكثر من ثلاثين عاماً لأن التصويت لا يعني شيئاً هنا. كنت أعرف أن كلمة «خلوة» لها استعمالات أخرى: تعني الخلية حيث يعيش الطالب في مدرسة دينية تقليدية حيث الغموض في دير موجه من أستاذه الروحي.. وهي تستخدم في الغالب اليوم لتسمية جريمة «الاختلاط التي تعارض الأخلاق الدينية وتعزل المرأة عن الرجل، ويمكن أن يتهم مرتكبها بالزنا ويعاقب بالرحم حتى الموت. قد يصل إلى هذا الحد في بلاد أفغانستان طالبان أو ملالي إيران أو في بعض الأماكن النائية في العربية السعودية، لكن السلفيين يفتخرون

بذلك باعتبارها أساساً للحفاظ على النظام الأخلاقي للمجتمع المسلم من الانحراف الغربي. في ماليزيا الإسلامية والحداثية، يزوّد رجال الشرطة بقارئ أقراص مغناطيسية لمسألة أي زوجين لا تظهر بطاقة الهوية الإلكترونية إشارة تثبت علاقة الزواج بينهما حتى لا يكونا في وضعية «خلوة».

* * *

هذا هو الاستخدام الحديث لكلمة «خلوة» عنوان المواطنة المتأتمني من مزايا الثورة التي أنا بصدد متابعتها اليوم، بما يعنيه أيضاً التاريخ الاجتماعي لهذه الكلمة. كان استقبالنا مميزاً في المركز الانتخابي الذي كان محاطاً بالعساكر بزي قتال يحملون أسلحة الرشاشات والخوذ. ساعدتنا كثيراً شعبية قناة «فرانس 24» بالعربية، وكذلك قناة «فرانس 3» التي بثت فيلمنا الوثائقي.

لا يتقن الضابط الذي رحب بنا اللغة الفرنسية جيداً، يتذكر ما تعلمه منها في الصفوف الابتدائية في مدرسة مسيحية، سهّل لنا مهمة تصوير جميع المشاهد التي تروق للمخرج. لم تتحرج الناخبات من الظهور أمام الدخلاء الأوروبيين متأبطين آلات تصوير وميكروفونات في مجمع الحريم الانتخابي الذي خصصته لهن الدولة.

لم نستطع التمييز بين الرجال سواء كانوا أقباطاً أو مسلمين، لباسهم متشابه، من الفلاح المعمم بجلبابه التقليدي إلى الرجل العصري بقميص وربطة عنق وبنطلون، إلا إذا كانوا يظهرون الإشارات الدينية الخارجية الخاصة بهم، مثل اللحية والجبين المطبوع بزبيبة سمراء للمسلم كدليل على التقوى وكثرة السجود لله أو وشم المعصم بالصليب الخاص بالكنيسة للتعرف إلى قطعها وتجنب التحول من دين إلى آخر بالنسبة للرجل القبطي. في المقابل، تعتبر علامة الانتماء الديني للمرأة المسلمة واضحة لاسيما المحجبة ما عدا بورجوازيات المدن. في مركز الانتخاب كل اللواتي تأتين لتأدية واجبهن سافرات هن نساء أقباط.

عندما سألت الناخبات في مكتب الاقتراع عن انطباعاتهن عبّرن عن فخر كبير:

- «فخورات بهذا اليوم الذي ننتخب فيه فرعوننا».

- «أنا مسرورة جداً أن الشعب انتخب، هي الديمقراطية الآن، كما عندكم».

كان اختيارهّن واضحًا، جميع القبطيات صوتن لمرشح المؤسسة العسكرية (الجنرال شفيق) وإن كان بعضهّن يعبرن عن ذلك بجمل ملتوية، واعبات للاشعبية النظام القديم الذي تحاولن تفكيكه:

- «أصوّت للمرشح الذي لا يخلط السياسة بالدين، للشخصية الحداثيّة القادرة على قيادة البلاد واستعادة النظام والازدهار».

على النقيض من ذلك، تصرّح الأقلية المسلمة تأييدها للإخواني محمد مرسي دون عقد:

- «مصر دولة مسلمة، ومحمد مرسي سيحكم وفقًا لشرعة الإسلام».

سألت إحدى الناخبات المسلمات فيما إذا كانت سلفية:

- «أنا اخت مسلمة، أتمني الى تنظيم الإخوان المسلمين لكن جميع المسلمين الجيدين هم سلفيون».

حاولت أن تعلن التقارب بين التيارين (الإخوان والسلفيين) ولا ننسى هنا أن المملكة العربية السعودية هي التي دفعت إلى ذلك. بحثت عبثًا عن مندوب الجنرال شفيق. لم أجده إما لأن أي قبطي لم يجرؤ على أن يكون كذلك وإما أن الجنرال لا يثق بالعسكريين الذين يحمون المكتب.

سانت بارثولوميو الأقباط

ما زال الأقباط قلقين من تكرار أحداث «ماسبيرو» وهي عبارة عن تظاهرة وحشية انطلقت من شبرا باتجاه مبنى الإذاعة والتلفزيون المعروف باسم «ماسبيرو» في 9 تشرين الأول/أكتوبر 2011. في هذا اليوم نزل شبان أقباط إلى الشارع ليحتجوا ضد برنامج متلفز للشبكة الوطنية، وهم يتهمونها بالصمت عن هجمات السلفيين المتعصبين الذين أحرقوا كنيسة في مصر العليا. نشرت الصور على مواقع التواصل الاجتماعي. نرى الدبابات المصفحة للجيش تخترق الجمهور وتسحق التظاهرات حيث مُزقت أجسادهم بالجنازير. أسفرت هذه الحركات البربرية عن خمسة وعشرين قتيلًا وأكثر من ثلاث مئة جريح.

يعود اسم ماسبيرو إلى الباحث في شؤون مصر «غاستون ماسبيرو» الذي أعطى اسمه لمبنى التلفزيون وكان أحد مؤسسي متحف القاهرة الذي يقع في ميدان التحرير.

مع مرور الوقت وتداخل الشخصيات، أتساءل: لماذا أثرت بي أحداث ماسبيرو؟ هل لأن هؤلاء الشبان القبطيين الذين دهسوا بدبابات الجيش، يعبرون عن قيمة الثورة التي تمت خيانتها ووقع الالتفاف عليها مثلما فعلت أجهزة الحزب الشيوعي والديغولي بحركة أيار/ مايو 1968؟

كل صور التعسف ضد الثورة المصرية و ضد المتظاهرين المستهدفين من القنصاة جرحى أو موتى ملطخين بالدماء، كانت على مستوى من الفظاعة لا توصف. ماذا كان يدور في مخيلة الضباط الذين أعطوا أوامرهم للدبابات لدهس الأقباط مثلما تدهس الصراصير بالأحذية.

تظهر مقاطع الفيديو رؤوساً مفصولة عن بقية الجسد وأجزاء مبعثرة هنا وهناك، نفكر بالأيقونات الأكثر عنفاً للقديسين المسيحيين الشهداء. لا يمكن أن ننظر إلى هذه وكأنها لوحة زيتية بل هي بمثابة توثيق رقمي لإحدى مذابح خريف الربيع العربي 2011.

يصعب على المتابع عدم ربط الأحداث بالدعوة السلفية التي تعتبر الأقباط «كفاراً» ودمهم حلالاً. ماذا حدث لصدى كلامهم كي يصل إلى أدمغة العسكريين؟ هل يرون في هؤلاء الضحايا تكفيراً لكرههم للثورة حيث قتل هؤلاء - الأقباط - لا يغير أبداً سخط المسلمين. ويريدون أي العسكريين كسب ود الإسلاميين في مساجدهم.

بعد التعسف الدموي في أحداث «ماسبيرو» برر السلفيون (ولم يكونوا وحدهم) تظاهرات 9 تشرين الأول/ أكتوبر 2011 في الصحافة كمؤامرة صليبية صهيونية تمولها إسرائيل وأميركا لإضعاف مصر. احتفل الأقباط المصدومون برأس السنة الميلادية في 7 كانون الثاني/ يناير حسب الطقوس الأورثوذكسية، لقد دفعوا ثمناً باهظاً بسبب العنف الذي رافق الثورة.

في 31 كانون الأول/ ديسمبر 2010 سُنَّ هجوم مسلح على كنيسة بالإسكندرية خلف 21 ضحية اعتقل الأمن على إثرها سلفياً عدبوه حتى الموت وهو «سيد بلال» المتهم الأساس في هذا الهجوم. فقد اتهم عدد من الثوريين بلالاً بأنه عميل للمخابرات يسعى لإذكاء نار الفتنة الطائفية التي تخدم نظام مبارك ضد الثورة، في حين كان السلفيون يفتخرون

به ويعدونه شهيداً. زاد السلفيون من هجماتهم في أماكن أخرى لتدمير الكنائس، مثلت أحداث «ماسبيرو» النقطة العليا لهذا الامتعاظ العميق للأقباط إذ إن نجاح الإخوان المسلمين لن يساهم بالطبع في تهدئة الأجواء وطمأنة المسيحيين.

في هذا المناخ أحيأ الأب شنودة - رئيس الكنيسة التسعيني، بتياب الكهنونية خاصته وبكلام طنان وملتق- قداساً كأنه يعود به إلى أيام الفراعنة. وبذلك حاول أن يحيي ذكرى 7 كانون الثاني/ يناير 2012 (مات بعد عدة أشهر تاركاً جثته المعطره ليتبارك منها الأتباع).

لم يحتفل أتباع محمد أبداً في مثل هذا اليوم بمولد المسيح؛ في الصف الأول مجموعة من ضباط هيئة الأركان، كلهم مسلمون، بتياب الاحتفال، وليسوا بعبيدين عن قادة الإخوان المسلمين يتجمعون تحت شعار الصليب. بدت القاهرة وكأنها في قداس احتفالي.

على الجانبين، كان «شباب ماسبيرو» يصرخون بأعلى صوتهم متهمين الجنرالات بأنهم قتلة. فجأة بدأ النظامان القديم والجديد يتنافسان على كسب ود هذه المجموعة (المسيحيون)، لكن اضطهادهم أثار احتجاجات الصحف الأجنبية.

انسحب السلفيون فقط من هذه الازدواجية، مذكِّرين أنه كان محرماً الاحتفال بأعياد الكفار وكافة أهل الكتاب، وحتى تقديم التمنيات لهم، ولأن احتفالاتهم تُكرّس آلهم وتحرف المسلمين عن عبادة الله الواحد.

بمواجهة الاتهامات التي وجهها السلفيون إلى المسيحيين بتعدد آلهة، الذين يقدسون حسب قولهم (قول السلفيين) ثلاثة آلهة مختلفين: الأب، الابن والروح القدس، وجهت الكنيسة القبطية بمناسبة الميلاد رسالة رعوية تُثبت فيها العقيدة المسيحية.

بررت فيها بكل حماس أنها تبشر بالوحدانية، وأن المسيح ذو طبيعة إلهية وليست إنسانية، وهذا الذي كان دافعاً للانقسام بين الكنيسة الأورثوذكسية والكاثوليكية في مؤتمر خلقدونية سنة 451.

أسأل نفسي ماذا فهم السلفيون والإخوان - إن أرادوا أن يفهموا - من الحجج البيزنطية لهذا المؤتمر حول سر الثالوث المقدس، ولكنني أشك أن ذلك كان يهمهم.

نشرت الصحف في اليوم التالي، صور الأقباط بعيد الميلاد مع الجنرالات والإخوان في كاتدرائية القديس مرقس، التي طبعت تحت صورة البابا شنودة وصورة مبارك محملاً

على نقالة. محضر الإخلاء عن الرئيس رُفِع ونُقل إلى المحكمة حتى يطالب المدعي العام بالعقوبة القصوى بحق من أمر بإطلاق النار على المتظاهرين في ميدان التحرير.

هذا التقاطع الموجه للصور يذكرني بصور أخرى منذ 30 عامًا، عندما كنت أعمل على أطروحتي في القاهرة في الفترة نفسها في أيلول/ سبتمبر 1981، إذ أدخل السادات كل المعارضة السجن وأصدر قراراً بأن يتوقف البابا شنودة، وكان وقتئذ في العقد الخامس من عمره، عن إلقاء درسه الأسبوعي، الأمر الذي رفضه البابا ثم قرر تصعيد الأمر بأن أصدر قراراً بدوره بعدم الاحتفال بالعيد في الكنيسة وعدم استقبال المسؤولين الرسميين الذين يوفدون من قبل الدولة عادة للتهنئة كعلامة على التقليل من مكانته، بعد بضعة أسابيع قتل السادات على يد إسلاميٍّ أصولي.

اليوم، مبارك هو الذي سقط، لكن شنودة والإخوان الذين شاخوا في الخدمة هم دائماً هنا. في الشرق الأوسط، تظهر المؤسسات الدينية قوة وصلابة أكثر من السلطة السياسية، لكن الثورة بدأت بتقويض سلطتهم بالرغم من تظاهرهم بالقوة.

العودة من أطلنطا للتصويت في القرية

القرية التي أوُمِّها اليوم على بعد بضعة كيلومترات من الفيوم، كل سكانها مسلمون لا ترى إلا المساجد ولا يوجد بها كنيسة واحدة كما هو الحال في بقية القرى الأخرى، كبرت - هذه القرية - بشكل مخيف خلال العقود القليلة الماضية وتمددت إلى ضواح من الحجارة المرصوفة التي تفترس حقول قصب السكر والأشجار، لكن وسط القرية يظهر وكأنه لوحة من زمن الفراعنة.

وصلنا إلى مكتب الاقتراع للرجال في مدرسة قرب حديقة عامة حيث ينتظر عشرات الريفيون وهم يلبسون جلابيهم.

استقبلتني مجموعة هائلة من القرويين الذين يبدو أنهم لأول مرة يرون فريقتاً تلفزيونياً وربما «خواجات».

لاحظت رجلين، أحدهما يحمل عصا، يجلس منزويًا على الكراسي. كانا يلبسان كما جمهور الفلاحين «جلابية» باللون نفسه، نظيفة ومكوية جيدًا. شعرهما مصفّف جيدًا، وأحذيتهما السوداء لامعة، اقتربت من المجموعة، المحاطة بمجموعة من الأطفال الذين

نادوا قائلين «هالو هالو!» بصوتهم الصغير. حبيبتهم بعربية فصحي مستعملاً الكلمات الإسلامية المهدبة. ردوا عليّ بتأق واضح: لقد ذاب الجليد. أوضحت ما جئنا لأجله. تبرع بعضهم لمساعدتنا في الدخول إلى المدرسة المحروسة من عسكريين مسلحين بثياب القتال. أحد الرجلين صاحب الحذاء الأسود اقترب وتنصت، توتره ظاهر بوضوح.

الضابط المناوب، كان خدوماً أقل من رفيقه في مركز اقتراع النساء في المدينة، انتقل إلى الهيئة المراقبة للعمليات الاقتراعية. وهو موسوس، أخرج بطاقات حق المرور واعتبر أن بطاقتنا لا تسمح لنا بالعبور. أمر الضابط بأن يطردنا، وعنى لي هذا بأنني يجب أن أبتعد مسافة أكثر من مئة متر. يجري أمر سيئ في القرية، هناك إشارات سيئة.

عند عودتي إلى الشارع، استقبلت بجمهور كبير متراسٍ: الكل يريدون أن يعرف من أين أتيت، كيف أتكلم العربية، إذا كنت مسلماً، إلخ.

كانوا يتدافعون كي يظهروا في الوقت نفسه أمام الكاميرا، ويعبروا عن سعادتهم بالانتخاب. ولكن أيّ من هؤلاء الفلاحين لم يصرح عن الجهة التي انتخبها.

فجأة تقدم باتجاهي شاب من بين الحشد وهو الوحيد الذي يرتدي بنطلوناً وقميصاً، وقال لي باللغة الإنكليزية:

- «هل تفهم الإنكليزية؟ أريد أن أتحدث معك؟

- لا مشكلة، خذ دورك في قائمة الانتظار.

فعل ما طلبته منه حيث اصطفّ بكل رصانة سعيداً بظهوره في التلفزيون، يذكرني هذا المشهد بأحد صغار الفلاحين الذين كانوا جيران عائلتي في الريف، حصل على إجازة في مادة الرياضيات لكنه اختار أن يعمل في الحقول.

عندما جاء دوره طلبت منه أن يقدم نفسه:

- «عدت من الولايات المتحدة الأميركية لأساهم في الانتخابات الرئاسية، كنت في أطلنطا، وحصلت على درجة الدكتوراه في علم الأحياء، جميع القرى اختارت مرسي، لأنه مخلص ورجل صالح، لقد قاسى الشعب من مرارة التعسف، ولم يعد أحد يحتمل الظلم وشفيق ينتمي إلى نظام مبارك لذا لن ننتخبه».

تجمهر القرويون حولنا متعجبين لكنهم لم يفهموا من حديثنا إلا كلمة «مرسي» اسم

مرشح الإخوان المسلمين، طلبت منه إعادة ما قلناه باللغة العربية ليفهم الحاضرون أو أترجم أنا إلى اللغة العربية إن كان يفضل ذلك.

في اللحظة التي بدأ بها بالترجمة، اخترق الرجلان صاحباً الشعر المهندم الجمهور بصرخان، وهما يحملان العصا، كي يعتدوا على الشاب حتى يسكت، واتهموه بالكذب، وكانا منفعلين لدرجة أنهما نسيا الكاميرا التي تصور ما يحصل.

بقي الفلاحون ساكتين، وأحاطوا بتلميذ البيولوجيا كي يحموه ويمنعوا «الفلول» المهاجمين الاثنيين - كما يسميهم أتباع النظام القديم - من أن يصلوا إليه. حول الاثنان غضبهما نحونا، وهما يحاولان تأليب الجنود علينا متهميننا بأننا جواسيس.

وضع المصري الشاب الذي رافقنا لتحضير الموعد، السيارة في وضع انطلاق، وأخذنا موقف الهروب قبل أن تقلب الأمور علينا بشكل سيء. منذ عدة عقود كان ابن الفلاح المتعلم والعائد من الغربية ينظرون وقيص من الممكن أن يكون اشتراكياً، شيوعياً، أو ناصرياً، وسوف يتنكر للإقطاعية والإنكليز. اليوم، هو يفسر بالإنكليزية أنه يؤيد الإخوان المسلمين، الذين كانوا قديماً متهمين بمساندة الإقطاعية نفسها.

الألة الإخوانية

للفوز بالانتخابات الرئاسية، كان على محمد مرسي أن يستغل نجاح جميع الأحزاب الإسلامية التي فازت في الانتخابات التشريعية المصرية في نهاية الاستطلاع في شهر كانون الثاني/يناير لعام 2012، وفوز الإخوان بألتهم القادرة كان منتظراً. إنه رمز كبير. مصر هي أكبر دولة عربية حيث يبلغ عدد سكانها حوالي تسعين مليون عند كتابة هذه السطور (وبضعة ملايين سيولدون بعد طباعة هذا الكتاب) الإخوان الذين ولدوا في عام 1928 كانوا ضحية نظام مستبد، يمثلون اليوم أكثر القوى تنظيمًا لسياسة الإسلام الدولية. كانوا قادرين على الحفاظ على سريّة مقارنة بالأحزاب الشيوعية في الماضي أو الجيوش العربية ومخابراتها.

هذا الانفجار السكاني أغرق البلاد بمشاكل عديدة منها الفقر والبطالة والديون، تحت حكم ناصر والسادات ومبارك كانت مصر في حالة إفلاس حتى فقدت قيادتها للعرب وأصبحت تابعة لممالك النفط في الخليج العربي. ولكن مصر هي المارد العربي لكن إذا سقطت مصر، هل يتبعها العالم العربي لمكانتها في الموازين العربية؟

ورغم ذلك، وما بعد التأثير الرمزي لفوز الإخوان المسلمين في الانتخابات، فإن المعنى الحقيقي للتغيير يبقى أكثر تعقيداً من أن يفهم: في كانون الثاني/يناير في البرلمان، لم يكن نجاحهم مع نحو 45% من الأصوات هو الانتصار المعلن. إنهم اليوم أكثر انقساماً مما كانوا عليه في أي وقت مضى من تاريخهم، كما أنهم لم يتكيفوا بعد مع النظام الديمقراطي وغير مستعدين له، فاتحين الطريق أمام اعتراضات داخلية خلف الأغلبية المعلنه، خاصة أن 75 بالمئة من الأصوات منقسمة بين الأحزاب الإسلامية: ربع الأصوات حصدها ائتلاف الأحزاب السلفية.

وعلى الرغم من ذلك فإن تصريحات قادتهم الإسكندريين لي في شهر نيسان/إبريل 2011: أنهم لا يرغبون الاندماج في اللعبة الديمقراطية، رافضين هذه الديمقراطية الكافرة التي تجعل من الشعب هو المشرع بدلاً من الله.

ربما أغرتهم السلطة التي ظهرت لهم فجأة ولاسيما مع الحوافز القوية التي قدمتها السعودية لهم لإدخال حصان طروادة السلفي في حلبة البرلمان المصري لتمرير مشاريع الرياض، فغيروا من مفهومهم مع النظر إلى ما يجري في الكويت حيث تواجد أحزاب سلفية ممثلة في البرلمان. حصل الإخوان على نصيب الأسد من الأصوات البورجوازية الصغيرة المتدينة بينما تمتع السلفيون بأغلبية الأصوات في الأحياء الشعبية. لقد استفادوا من هذه الأحياء المزدهمة بالسكان التي ترتفع فيها نسبة المواليد والفقير معاً، وأقنعهم السلفيون أن هذه البطون الخاوية يمكن إشباعها بالرجوع إلى الله والخضوع له ولأوامره التي تدعو إلى تغطية وجه المرأة بالنقاب وإطالة اللحية عند الرجال، وذلك هو الثمن لطاعتهم وهذا هو المعنى العام لكلمة إسلام بالعربية، وهكذا يمكن الحصول على المن والسلوى والحياة العصرية عبر تسول البترودولار من المملكة السعودية.

في العديد من المناطق الفقيرة، هبط المرشحون السلفيون بشاحنات صغيرة محملة بالمواد الغذائية والأدوية وتذاكر مجانية للحج إلى مكة، بنوا أحياءهم في المحيط القريب من المساجد حيث إن منافسيهم العلمانيين، الليبراليين أو الاشتراكيين لا يخاطرون بالاقتراب منها حتى الإخوان المسلمين كانوا ينظرون إليهم على أنهم أعضاء في المؤسسات المكروهة بالرغم من كونهم ملتحين. من الناحية السياسية البحتة، فإن نجاح السلفيين لن يكون مفهوماً، فهو لا يصلوا إلى قطار الثورة إلا في الساعة الخامسة والعشرين، متأخرين بالنسبة إلى الإخوان الذين كانوا مفوضين من البيروقراطية.

أعطت الثورة للضباط باللباس الموحد سياسة الدولة العليا، وللملتحين بربطات العنق السياسة الداخلية أي الصغرى. للأوائل العلاقات الدولية: إسرائيل، الحرب والسلام وللآخرين الحضور الاجتماعي، علاقات الجمعيات الدينية، التبرعات، التعاونيات، كل إرث الدولة الاشتراكية الناصرية التي نشرت الفوضى والفساد والمساجد لتقيد الناس. بالعربية نسمي هذا فوضى، هذه الكلمة التي نلجأ إليها في آخر المطاف للتعبير عن ازدحام السير المستعصي في القاهرة، سحابة سوداء بسبب التلوث، في فصل الشتاء والصيف على حد سواء، ومناهة البيروقراطية التي تخنق المبادرات.

بالإضافة إلى مجموعة من القيود والأثقال الاجتماعية والثقافية التي تعاني منها البلاد والتي تمنح أولئك الذين يعيشون هناك شعوراً بأن كل شيء يسير من سيئ إلى أسوأ دون معرفة كيفية عكس دوامة لا يمكن كبتها. باستثناء الإسلاميين الذين يؤمنون أنه يمكن استعادة النظام بتطبيق الشريعة وتجنب معصية الله. وفي نهاية الأمر يقولون باللهجة المصرية «ما فيش فائدة» أي إن الأمر ميؤوس منه.

هذه العبارة نطق بها أهم شخصية تاريخية في العشرينيات، وهو سعد زغلول، مؤسس حزب الوفد، الحزب الديمقراطي المعارض الرئيسي والليبرالي في الحقبة الملكية قبل ثورة ناصر و«الضباط الأحرار» في عام 1952، اشتهر زغلول أيضاً بعبارة أخرى ألا وهي: «الدين لله والوطن للجميع».

لم يحصل ورثة الوفد إلا على نسبة متواضعة من الأصوات في انتخابات 2011، وأصبح تعبير العلمانية محرماً، حتى إن الليبراليين والاشتراكيين لا يقدرّون على الدعوة إليها خوفاً من أن ينعتهم الملتحون من كل الأطياف بمساندة الإلحاد يخافون، من إنكار مواظنتهم، والاحتقار الاجتماعي، بحيث لا يجد أحدهم مخرجاً لكرامته إلا التدين الواضح، هم ييشرون بأن كل فرد هو مخلوق من الله، الإيمان المعلن عنه يصلح كمتراس أخلاقي أمام الفوضى.

وبشكل متناقض، فإن الثوار الشباب لميدان التحرير، الذين حطموا أصنام الطغيان أسرعوا للمناولة أمام الأيقونات الرقمية «للفايس بوك والتويتر» الذين صنعوهم. الأغلبية تجنّبوا أن ينظروا إلى الدين بعين ناقدة. بالرغم من ذلك فالمصطلحات الريفية لم تكن ذات تأثير على الشعارات في بداية الثورة.

كانت المؤسسات الدينية من البابا القبطي إلى إمام الأزهر الأكبر تتأرجح بين دعم مبارك وإدانة الثورات والصمت مثلما فعل معظم السلفيين، أما الإخوان فقد انتظروا بضعة أيام قبل أن يلتحقوا بالمظاهرين مع كثير من التردد، بخلاف الثوار الذين التحقوا بميدان التحرير بدون تنظيم أو حزب وبعض المناضلين الذين نزلوا في المقدمة مع بعض رواد الفايبروك أو تويتر. لم يكونوا منظمين ولا يتمتعون بالوعي الذي يسمح لهم بتعليم الجماهير ولا بإدراك المفصلات الأساسية لمكونات النظام القديم.

هذه الجهات السياسية نتيجة خوفها من الإيمان الديني خسرت السياسة ولم تتجرأ أن تبرز كأمة معرفة ثقافية تعادي الآلات الكبرى الإسلامية، ولم تستطع المحافظة على وضع يدها على الثورة التي قامت بتحريكها. وفي اللحظة التي تُرجمت فيها الانتخابات تحت مظلة النظام الدستوري، هذا الانقلاب الكبير، ولجأت إلى مصادرة هذه الحركة عن طريق بوليس الأحزاب الدينية الذين حاولوا أن يأسروا هذه الحركة لمصلحتهم.

سيناتور سلفي

بالعودة إلى مدينة الفيوم، التقيت بسيناتور سلفي ثم نائب إخواني في مقهى يقع خارج المدرسة التي سيصوتون فيها، في نهاية بعد ظهر يوم من حزيران/يونيو، الحرارة خانقة، وقناة الماء التي تمر إلى جانب الكراسي لا تضيء أية رطوبة على المكان، ولكن صوت الماء الجاري جعلني أحلم ببيرة محلية، ستبلا مثلجة مشتهة. لم أكن متأكدًا أنني سأجدها في الفيوم. ربما في الصالة الخلفية لمكان فيه قبطي يبيعه بسعر مرتفع. ألا تدعو هذه الفكرة لنفور المحاورين مني؟ اخترت الليمون، الشراب الطبيعي المخلوط مع عصير الحامض الأخضر المعطر والذي لا يتواجد إلا في مصر.

رفعت رأسي لأشرب، لاحظت أن المبنى الذي يعلو المقهى كان قد بُني حديثًا. استقر إخوان مسلمون سكنوا فيه بشكل دائم. عندي انطباع أن هذا المبنى مائل كما هو برج «ببزا» ولكن لم تسنح لي الفرصة لتقدير الوقت الذي سوف يقع فيه المبنى عليّ لأن السناتور كان قد وصل.

هذا الأربيعيني المرح هو أستاذ الحضارة الأمريكية في جامعة الفيوم، وأصر أن يكون حوارنا باللغة الإنكليزية، لأن رسالته كما يقول عالمية. كان له لحية طويلة تُسمى «لحية ربطة العنق»، حركاته جامدة، يلبس ربطة عنق حقيقية. إيران الثورية، الشيعة الراديكاليون

بشكل عام وكذلك الإسلامي الشيخ طارق رمضان رفضوا هذه الربطة المشابهة للصليب المسيحي والبورجوازية المستغلة وأبدلوها بقميص ذي ياقة تدعى «ياقة ماو» (ماو تسي تونغ). السلفية السنية لا يبدو أنها توقفت عند هذه التشاؤمية بل اتهمت أعضاء البرلمان بالبورجوازية. جاء عضو المجلس للتصويت مع ابنته التي ترتدي فستاناً وردياً وحجاباً ملائماً، أبوها يرتدي لباساً أصفر كنارياً. وهو ذوق يعود دون شك إلى سنوات الدراسة في الجنوب - الشرقي للولايات المتحدة. هل أنا ضحية هلوسات تعود إلى العطش. لكنهم ذكروني بقدر كبير من الفريز - حامض مصطنع مثل الآيس كريم الذي نتناوله في «المول» في المقاطعات الأمريكية.

قدم السيناتور أطروحته عن الدعاة الإنجيليين الذين يظهرون بكثرة على شاشات التلفزة، لذلك نحن إذن زملاء، وقصصت عليه كيف أنني درست الظاهرة نفسها على أرض الواقع. يوجد إرث للإسلاميين المتشددين مشابه للإنجيليين البروتستانت، على محطة الـ «disputation» المتوسطة، وهو بين القسيسين المسيحيين، اليهود والمسلمين في بداية عقد 1990 في كتابي «انتقام الإله». في ذلك الوقت، كانت أشرطة الفيديو للجدل الديني بين المسلم أحمد ديدات من جنوب أفريقيا والمبشر الأميركي جيرى فالويل الأكثر مبيعاً في جميع أنحاء العالم الإسلامي. هذا الأخير قد دمره خصمه حسبما صدق المدافعون المسلمون. وقد أدى هذا الاحتكاك الجدلي بين المتنافسين إلى التقليد الأعمى الغريب، الذي لا يقتصر على ملابس السيناتور فقط ولهجته هي نفسها لهجة الإنجيليين التلفزيونيين، ولو لم يكن يقرأ آيات من القرآن ويستدل بالأحاديث النبوية، لأمكن أن نعتبره معمدانياً أو شارحاً للكتاب المقدس.

« - ما المهمة الملقاة على عاتقك في مجلس النواب؟

- عندما دخلت المجلس، شعرت بالمسؤولية الجماعية. الشيء الأول المهم هو أن هناك الكثير من المواد الإباحية، وعلى الفور اقترحت حظر المواد الإباحية في الإنترنت. هناك أيضاً أوضاع سورية، يجب أن تلعب مصر دوراً كبيراً في هذه القضية. وتحديث عن رفع رواتب أساتذة الجامعات، كما أثرت قضية حبينا الشيخ عمر عبد الرحمن، الذي هو في سجن الولايات المتحدة منذ سنوات عديدة

يجب أن نشكر الولايات المتحدة على هذه الأموال التي تغدقها علينا رغم أننا

لسنا بحاجة إليها، هل تعلم أن مصر من أغنى دول العالم؟! منذ العصور القديمة، وعهد الرومان، كنا سلة غذاء العالم، نحن أغنياء جدًا، ولا نحتاج ملياراتهم. مرسي يمثل الثورة وسنصوت لصالحه، كنا متحفظين تجاهه في بداية الثورة، لكننا نخشى من الفتنة الطائفية، والمجازر. يجب التفكير جيدًا قبل أن نبدي الرأي وننطلق، الشيء الجميل اليوم هو أن نوحّد صفوف المجموعات السلفية: في الجولة الأولى كان التصويت لعبد المنعم أبو الفتوح (إسلامي معتدل) والآن أصوّت لمرسي. الإخوان المسلمون هم أماننا وليسوا ضدنا. ليس هناك من فرق في النهاية، نحن جميعًا أخوة، نحن جميعًا واحد.

النائب الإخواني هو أيضًا جامعي ومهندس، متخصص بإحدى فروع الهندسة الذي لا أعرف عنه الكثير، وكان حوارِي معه باللغة العربية.

كانت ملابسه باهتة وعادية مقارنة بملابس السلفي، ولحيته أقل كثافة منه، كلامه لا يحتوي على قراءات من النصوص الدينية أو التاريخية، الإخوان هم سياسيون، لا يتكلمون إلا في السياسة - لهذا تركوا المساجد للسلفيين. لقد أجهد نفسه لإقناعي كغربي بأن الإخوان منخروطون ومساندون للديمقراطية الانتخابية وأن علاقتهم بالأقباط كانت وستبقى دائمًا جيدة.

* * *

في طريق العودة إلى القاهرة، استعرضت مع زميلي برنار روجيه، الذي رافقتني إلى الفيوم ما قمنا به طيلة النهار، وهو المدير الجديد لمركز الأبحاث الفرنسي للعلوم الاجتماعية في مصر، حيث كنت مديره السابق وقت اغتيال السادات ومجيء مبارك، منذ ثلاثين عامًا.

في صندوق كاميرا التلفزيون، يوجد كل صور الفيوم الحديثة، الناخبون القبط والمسلمون لشفيق ومرسي، هذا الطفل الفلاح الذي عاد من طنطا إلى قريته بالبطنون والقميص، يتكلم الإنكليزية، هذان الاثنان من «الفلول» مع الجلاية، ووجوههم التي شوهدوا الكره، هذا السناتور السلفي وابنته، هذا النائب الإخواني.. صورهم المشفرة التي وضعها المخرج المسؤول على قرص مدمج تنادينا كما كانت تفعل الوجوه المرسومة بالشمع، أو بالألوان القديمة.

التحق بنا نائب من الإخوان المسلمين، وتعانق الاثنان أمام الكاميرا بغية تكذيب الشائعات حول الخلافات بين هذين الفرعين الإسلاميين اللذين يمثلان الأغلبية في المجلس النيابي، أو بالأحرى يركبا هذه الأغلبية لأن البرلمان قد عُلّق بقرار محكمة متهمًا الانتخابات بعدم الانتظام. قرار رأى كثيرون أن يد المجلس الأعلى للقوى المسلحة العسكرية وراءه.

أثناء متابعة الصور التي حصلنا عليها من هذه الرحلة الخاطفة إلى حديقة مصر القديمة «الفيوم»، تيقنت أنا و«برنار» أن انتصار مرسي في الانتخابات الرئيسية أمر لا مفر منه.

الفصل السابع

ليبيا 2

الثلاثاء 3 تموز / يوليوي 2012

مختطف في مطار بنغازي

ما إن وطئت قدماي مدرج مطار بنغازي، إذا بمجموعة أفراد- يتمتعون ببنية قوية يتطاير الشرر من أعينهم، يرتدي كل منهم زياً عسكرياً مموهاً، مع مسدس مثبت على الحزام ويحمل بندقية كلاشينكوف- انقضوا عليّ، وبعد التحقق من هويتي، أرادوا أن يقتادوني معهم دون أن أتمكن من إعطاء إشارة للمخرج ومهندس الصوت اللذين يرافقانني والموجودين على مسافة بعيدة ضمن طابور طويل من الركاب الذي ينزلون من الطائرة التونسية (حيث كنا نحن الأوروبيين الوحيدين على متنها).

هذا الذي يبدو للوهلة الأولى كحادثة اختطاف أو أخذ رهينة كان في الواقع مراسم استقبال كبار الشخصيات أعدّها على شرفي الشيخ زهير السنوسي، الذي كنا على موعد معه في سياق زيارتنا. وهو من سلالة الملك إدريس، تعرض لسنوات طويلة للسجن والتعذيب، ويقود حالياً حركة فيدرالية تطالب بالحكم الذاتي لبرقة، في المنطقة الشرقية من ليبيا، حاضرتها بنغازي، التي انطلقت منها الثورة في 15 شباط/ فبراير 2011.

* * *

تعد بنغازي أكبر مدن المنطقة الشرقية، وهي مقر المملكة السابقة التي تمّ تهميشها من قبل الطاغية، كانت قد شهدت فيضاً من المساجين السياسيين تمت إبادتهم في المعتقلات لتظاهروهم يوماً بعد آخر في ميدان التحرير المحلي. همش الطاغية المدينة العظيمة في الشرق، مقر النظام الملكي القديمة، وشهدت أمهات السجناء السياسيين الذين أيدوا في المعتقلات، مجازر الاعتقال وتظاهرون يوماً بعد يوم في ميدان التحرير المحلي يحاكيين «متظاهرات ساحة مايو» في بونيس إيرس، اللائي طالبن بشكل يومي بجثث أبنائهن المقتولين بالسجن بعد أمر من الجنرالات الأرجنتيين.

هذه التظاهرات بدأت تظهر لأن هذا السجن الكبير المتمثل في ليبيا بدأ يشهد نوعاً من الانفراج الطفيف حيث كان سيف الإسلام، نجل القذافي، يسعى لتلميع صورة الديكتاتور في الخارج في الوقت الذي أصبحت فيه هذه الصورة تتحسن مع الغرب. ولكن بعد أن أخذت الحركة تتجاوز حدود التحمل وبدأت تستقطب المعارضة، واجهت عمليات قمع عنيفة طبقاً لردود الفعل القديمة للنظام. كرد فعل انتفضت المدينة واستولت على الثكنات وطرقت ممثلي القذافي.

خلال ستة أشهر - حتى الاستيلاء على طرابلس من قبل الثوار، في نهاية آب/ أغسطس 2011، أصبحت بنغازي مركزاً للعصيان المسلح وليبيا المحررة. منذ استعادة الدولة لوحدها، أصبحت بنغازي مدينة من المقاطعات. حتى إن بعض سكانها انتابهم شعور بالإحباط لأن دورهم الحاسم في الثورة لم يُقدّر وجُردوا من أي تمثيل في السلطة الجديدة، هذا الشعور بالإحباط وُلد الحركة الفيدرالية.

* * *

يقود الشيخ زهير أحد الأحزاب التي قاطعت الانتخابات التشريعية في 7 تموز/ يوليو، احتجاجاً على العدد المحدود جداً لنواب إقليم برقة. ويشار إلى أن الإقليم أقل عدداً من حيث السكان عن طرابلس، إلا أنه أكثر ثروة، لأنه يشمل الحقول والموانئ الأساسية للنفط والغاز. وقد عمل كل حزب على حشد أنصاره واستقطب الثوار المسلحين الذين كانوا بالأمس مكللين بهالة المجد وأبطالاً ملطخين بالدماء، أصبحوا اليوم شبه جنود، غير قادرين على الاندماج في ليبيا الجديدة. لم تعد الإدارة تعمل وأصبح الجيش النظامي غير قادر على حشد أو تنظيم عشرات الآلاف من المقاتلين المنضوين تحته الذين خاطروا

بأنفسهم في مواجهة دبابات القذافي وليست لديهم أي نية لتسليم أسلحتهم لهيئة مبهمة تمثل في المجلس الوطني الانتقالي الذي ظهر إلى الوجود على حساب تضحيتهم.

إن الأقوياء الذين كانوا في استقباله على مدرج مطار بنغازي، مجندون بواسطة «الجيش الحر في برقة» والذي يسيطر عليه الشيخ زهير وتستفيد منه قبيلته بالإضافة إلى الجناح الديني للسوسيين، وهو أيضاً رئيس هيئة أركان. وأفراد هذه القوة يعملون في الوقت الحالي حراساً شخصيين.

وبينما نحن بانتظار حقائقنا حاولوا إهانة محمد، الشاب الذي أتى للبحث عنا، وهو شقيق صديقة ليبية من فرنسا. كان هذا الشاب تلميذاً في الليسيه الفرنسية في القاهرة. خاطب المسلحين قائلاً: «جئت من أجلهم». أجابوا: إنها أوامر، يجب أن يأتي معنا. حاولت أن أكون وسيطاً: ليس عليهم إلا أن ينقلوني بسيارتهم ويلحق بنا محمد بمعية المخرج ومهندس الصوت.

أشار إليهم برأسه طالباً الصبر حتى يخرج سيارته من الموقف إلى المحطة المزدحمة، معوضاً عن وضعه الأضعف من حيث القوة المادية والعسكرية، بلهجة متسلطة، ولغة عربية متميزة وكاريزما عمر الشريف معوضاً بذلك عقدة نقصه الجسدية والعسكرية. الشاب الذي يتحلى بأخلاق وتربية رفيعة، استطاع أن يستدرجهم إلى القانون السائد في ليبيا وهو قانون السلاح. إلا أنهم أثبتوا أهميتهم عندما قام موظف الجمارك بالمطار بفتح حقيبة أجهزة الإنارة، تجرأ على المطالبة ببقشيش ليعيدها إلينا: وبشيء من العجرفة والضغط تمت تسوية الأمر دون أن ندفع شيئاً.

* * *

عند انطلاق موكب السيارات الهائلة رباعية الدفع بحركة سريعة وأبواق، تأكدت أن محمد برفقتنا، تذكرت وصولي يوماً ما إلى مطار صنعاء، العاصمة اليمنية، فقد كانت هناك أيضاً سترة وقاية ضد الرصاص وحرس بالموقع إلى جانبي، إلا أن المرافقين اليوم على عكس الشرطة المهنية الهادئة، هم من مقاتلي الثوار. إن النباهي بالأسلحة والتلويح بها في كل اتجاه لإرهاب السكان يثير حماسهم.

من خلال نظرة سريعة قبل التصويت المتوقع في 7 تموز/ يوليو، في أربعة أيام حيث يمكن لكل شخص أن يعبر عن إرادته بثقة داخل غرفة التصويت في مواجهة هؤلاء

المخالفين للقانون والذين يعملون على مضاعفة الصفوف ويهددون هدوء سائقي المركبات العاديين من خلال حركتهم التهديدية.

ويلاحظ في كل اتجاه من خلال لوحات الإعلانات والملصقات على الجدران والمعلقة على المصابيح وعلى أغصان الأشجار، مرشحون يعرضون برامجهم وسط فيض من الألوان، والحلوى الوردية على الباستيل الأزرق، وليس هناك من يتميز ببرنامج متفرد، فالجميع يثبتون الشعار نفسه مع بعض الاختلافات الطفيفة في ترتيب المفردات: «الإسلام، الديمقراطية، العدالة، الحرية»، ذلك أنه في حقبة الديكتاتور، ليس هناك سوى وجه واحد في ليبيا، أي وجه «القائد» وهناك لون واحد هو اللون الأخضر. اليوم تجد أن المشهد المدني مكتظ بضروب مختلفة من الجماهير.

بعض المرشحين يرتدون الزي التقليدي، إلا أن الأغلبية يرتدون بذلة كاملة مع ربطة العنق. لكن جميعهم كانوا مثيرين للسخرية بتوجههم السياسي الجديد المستعار، وكأنهم يخرجون فجأة من كواليس التاريخ، حيث كانوا منسيين وفي الوقت عينه يغامرون على الساحة العامة ليلعبوا فيها دوراً ما والأغلبية الكبرى ظهرت بشكل مؤقت وبعضهم أصبح ممثلاً، بإرادة الشعب الليبي - هذا المجهول.

تظهر النساء من خلال الصور محجبات، بينما يظهر الرجال في صور مختلفة بين أجرد وملتح، ومن هؤلاء الصورة المعروفة للإخوان المسلمين والسلفيين والجهاديين. السائق كان ذا لحية ضخمة سوداء ورأس حليق، خضت حديثاً حذرًا وبطريقة استكشافية حول السلفيين الجهاديين الذين لهم نفوذ في «درنا» القريبة. فعلت جيداً بأنني بقيت على الحياد. الرجل الجالس على المقعد اليمين، وهو ملتح، يده مثبتة على الكلاشينكوف، والآخر يمسك بهاتف محمول، ظل يستقبل من خلاله بلا انقطاع تعليمات غريبة تتعلق بجدولنا الزمني. ويقول بأن السلفيين هم أعداء الشيخ زهير ويسخرون منه كونه مسلماً لأخوية غامضة يعتبرونها كافرة، وحراسي الملائكة يمدحون أنفسهم بأنهم اغتالوا العديد منهم.

في إجابة عن سؤالي حول إمكانية ذهابنا إلى «درنة» أكدوا لي أن برقة التي طردوا منها السلفيين هي المنطقة الليبية الأكثر انفتاحاً على أوروبا، وأن الإرهابيين جميعهم يتركزون الآن في الغرب، في مصراتة وطرابلس. هذا التأكيد مدعم بإشارة إلغاء على

جدول الرحلات، إلا أنني أعلم أنه غير صحيح ولذلك سوف أتجاهله، وقررت الحد من الحديث في الموضوع في الجزء المتبقي من الرحلة، مما سمح لي بملاحظة أننا نتحرك الآن في مناطق ريفية رتيبة، تاركين بنغازي بعيدة خلفنا إلا أن الموعد كان مقرراً أن يكون في المدينة.

كنت أشعر أن محمداً والمخرج ومهندس الصوت قد تمّ التخلص منهم. وبدأت أتساءل بين رجلين من وقعت. فجأة، لاحظت أن الجنديين المعنيين بحراستي لم يعودا مصدر ثقة بالنسبة لي.

* * *

تذكرت رحلة لامتناهية مع اثنين من المرافقين، ملتحين وعريضي المناكب، في سيارة مرسيدس قديمة الطراز سارت آلاف التعرجات في الضواحي الشيعة لبيروت في العام 2007، حيث قادوني إلى موعد مع نائب الأمين العام لحزب الله. وقد قاموا منذ البداية بمصادرة هاتفي المحمول والذي أبعده لتجنب التقاط الأقمار الصناعية الإسرائيلية. عندما هبطنا فجأة عند مدخل مرآب تحت بناية ونزلنا إلى طابق لا أعرف رقمه تحت الأرض في العتمة، وأدخلوني دون أية كلمة في مصعد معدني ضيق، وجدت نفسي في لحظة شك.

فكرت في صديقي ميشيل سورا، الذي تمّ اختطافه في عام 1985 في مطار بيروت أمام الطائرة ونقل من مركبة إلى أخرى بواسطة هؤلاء الشيعة أنفسهم، حتى توفي في المعتقل. واسترجعت تاريخ الصحفي دانيال بيرل، الذي نصب له كمين في 2002 في كراتشي من قبل الإسلاميين الباكستانيين الذين يشتبكون مع سلطات المباحث التي اقترحت له موعد لقاء مع شيخ، فاعتقلوه وأخيراً ذبحوه أمام الكاميرا.

لكن باب هذا المصعد البيروتي المظلم - حيث حُشرت بين هذين الحارسين الشرسين الأخرسين، لم أميزهما إلا من رائحة الثوم والتنفس الثقيل - فتح مباشرة على إحدى شقق «حزب الله» حيث كان ينتظرنني الشيخ نعيم قاسم، زعيمه الأيديولوجي. تناقشت مع هذا الرجل الصغير العذب والذي يلبس ثياب الدين وعمامة، كان يفرك يديه على طريقة أساقفتنا القدماء. كتاب: «حزب الله: المنهج، التجربة، المستقبل»، أهده لي بوّدي في نهاية المقابلة وطلب مني أن أبلغ رسالة إلى بيرنارد كوشنير، وزير خارجيتنا وقتها، أن لا يدخل

كوسيط في اختطاف الجنود الإسرائيليين بواسطة حزب الله أثناء حرب الثلاثة و ثلاثين يوماً في صيف 2006، ثم سلمني للرجلين الملتحيين اللذين بعدما رأيا توقيع على الكتاب الذي أهداني إياه، ابتسما لي دون أن أرى أسنانهما.

استقبلني الشيخ زهير مصحوباً بمراقبيه في ضواحي بنغازي، بالإضافة إلى الحرس الخاص الذي يبدو مدججاً بالسلاح من رأسه إلى أخمص قدميه على الشاطئ، على ضفاف المتوسط في استراحة، يوجد معه أيضاً مستشار دبلوماسي، رجل شاب يتحدث الإنكليزية بلهجة المملكة المتحدة، ذلك أنه ولد وعاش أثناء حقبة القذافي، وهو من أقارب الشيخ. أما الشيخ فإنه ملتح يرتدي بذلة بلون داكن، ذكرني بممثل نسيت اسمه، لكنه دائماً يمثل دور عزاب في الأفلام الأميركية.

علمت لاحقاً أن هذه الجولات اللانهائية في الأقاليم ليس الهدف منها تضليلي عن الموقع المستهدف، خلافاً للبرنامج في بيروت في سيارات المرسيدس الخاصة بحزب الله، وإنما لإعطاء الوقت اللازم لمضيفي لإنهاء الاستعدادات النهائية. فقد وصل للتو إلى هذا الموقع الذي أعد خصيصاً لهذه المقابلة لترك تأثير لدي وإتاحة الفرصة لي للاطلاع على قدرات الجيش الحر في برقة.

وصل فريق الدورية مصحوباً بمراقبينا لاحقاً، وقد تمّ إعداد المكان لإجراء المقابلة داخل صالون مزين بالزهور مع أثاث وزارتي، حيث قام المستشار الدبلوماسي الشاب بالحديث إلى وسائل الإعلام، متحققاً من شاشة التحكم في الكاميرا، وقد تأكدت من الإخراج الدقيق وتنظيم أجهزة العرض. كان الشيخ زهير يتحلى بشخصية تنم عن زعيم عظيم وأسلوبه لطيف ومهذب في التعامل والمخاطبة. ابتدرني قائلاً:

- «أود أن أشكرك على ما بذلته من جهد وما واجهته من معاناة لتصل إلى هذه المنطقة والاطلاع على ما يجري في منطقة برقة وإجراء دراسة ميدانية في ليبيا بوجه عام وهذه المنطقة بصفة خاصة».

وتطرق إلى الحديث متناولاً ما تعرض له أفراد عائلة الملك إدريس من تعذيب وتصفيات جسدية، وهي تعدّ من الأساليب الروتينية للثوريين في العالم الثالث المنضوين تحت سلطة القذافي في انقلابه عام 1969. من خلال الاستماع إلى الشيخ زهير، عادت إلى ذهني ذكريات التاريخ التي سردت لي عندما كنت في عدن حول الإعدامات الجماعية

لسلاطين حضرموت وعائلاتهم من قبل الماركسيين الذين استولوا على السلطة بعد خروج الإنكليز في الحقبة نفسها تقريباً. وقد لاحظت أن مصطلح «الثوريين» نفسه، كان يستخدم لأولئك الذين تمّ الانقلاب عليهم والذين أطاحوا بهم في نوع من التقاطع التاريخي حيث تصبح الكلمات متعادلة وتعم الأشياء في أذهاننا. وأردف الشيخ قائلاً:

- «ساعد الديكتاتور على خلق تشكيلات متعددة من حركات المعارضة هدفها المشترك القضاء على النظام الملكي. وقد كنت أول من قاد عملية مقاومة ضد القذافي. في عام 1970، أي بعد عام واحد من استيلائه على السلطة، تمّ اكتشاف الانقلاب الذي عملت على تنظيمه، واعتقلت وحبست في العديد من الأماكن مثل السجن العسكري في برقة ثم سجن الحصان الأسود في طرابلس.»

وبعد لحظة صمت، واصل الشيخ:

- «عُذبت مع رفاقي لمدة سنتين، حتى بعد انتهاء التحقيقات. علقنا من أقدامنا وأيدينا، وأغرقت رؤوسنا في الماء حتى الاختناق، وكثيرون أصيبوا بإعاقة. لقد عانينا كثيرًا، قبل مثلونا أمام محكمة عسكرية في عام 1972، حكم عليّ بالإعدام سنقًا، بينما حكم على الآخرين بالمؤبد، أو بعدة سنوات في السجن. مع مرور الوقت، وتحت حكم نظام ديكتاتوري، تمّ تكميم الأصوات التي تدعو إلى العدالة حتى خنقت تدريجيًا. لأنه بالنسبة للشعب فإن الثورة لا تستطيع إلا أن تحرر الشعب من النظام البوليسي. استمر هذا الوضع لمدة اثنتين وأربعين سنة. اثنتان وأربعون سنة من غسل دماغ لشعب بأكمله.»

كان هناك مجلة يسارية، لا أذكر عنوانها، قرأتها في فترة السبعينيات من القرن الماضي، في الصف الثاني بمدرسة لويس لوگران، كانت قد خصصت تقريرًا ماديًا «للضباط الشباب من الثوار الليبيين». هذه المقالة أعادت إلى ذهني ذكريات الحقبة الحالية بعد أربعين سنة من تاريخها، وتحديدًا أرى صورة باللونين الأسود والأبيض للقذافي في بداية عهده، وصديقه المقرب النقيب جلود تحقيق يمدح هذه الضابطين بطريقة رومانسية.

كنا في الحي اللاتيني في باريس نعجب بهؤلاء الأبطال (بعد انقلاب القذافي ورفاقه سنة 1970) الذين قلبوا الإقطاع المتحالف مع الامبريالية، وبذلك حضروا الإنسانية للسير نحو المستقبل المشع للاشتراكية.

لماذا ظهر القذافي هكذا في منشورات «التروتسكيين» الذين كنت أناضل معهم

بحماس؟ هل أعطى ضابط ما من بينهم إشارة إلى الأهمية الرابعة؟ هل ابتعد هو ورفاقه عن ستالينية موسكو؟ أجهل ذلك. هذا الافتتان بهم لم يدم طويلاً ربما بسبب الارتباط الكامل للقذافي بعبد الناصر الذي كنا نراه صلة الوصل مع البيروقراطية السوفياتية، أو ربما بسبب أن التعاليم التروتسكية كانت مليئة بصور الشهداء ضحايا المجازر الستالينية، التي كان يدرسها لنا أستاذنا في التاريخ سولجنستين. هذه هي المرة الأولى التي كنت أسمع فيها ذلك من فم الطلاب الشيوعيين في هذه المدرسة البورجوازية.

صور أخرى في تحقيق متلفز أضيفت لاحقاً إلى صور سنة 1970. لا أذكر متى رأيته ولكنها تركت في داخلي انطباعاً نهائياً عن رأيي بالقذافي. صور طلاب من بنغازي مشنوقين علناً في 7 نيسان/ إبريل 1977 لأنهم تظاهروا ضد النظام، ثم في سنة 1984 أيضاً سُئِن معارض سلمي في بنغازي بوجود الدكتاتور وأمام أطفال المدارس المتجمعين في ساحة ملعب لكرة السلة. حاول المسكين مقاومة الموت محرّكاً قدميه بقوة، فخرجت إحداهن وهي هدى بنت عامر من وسط الجموع وهي تصرخ رافعة قبضتيها ركضت وتعلقت برجلي الرجل كي توقف حركته وأرخت بثقلها عليه كي تجعله يموت بسرعة مكملة بذلك درب الآلام لهذا الرجل الذي عذبه النظام. هذه القساوة المريضة أوصلتها إلى مركز سياسي مرموق تحت حكم القذافي.

ولدت هذه الفتاة من عائلة فقيرة، وأصبحت الآن عضواً مرموقاً في لجان الثورة التي نفذت الحكم على القذافي. أصبحت هذه الفتاة عمدة بنغازي ويبدو أنها أظهرت رغبة خاصة كي تكون قائلة فكرية للبورجوازية والإقطاع.

اشتهرت بنت عامر بشعار يلخص مُثل النظام «لا نريد كلاماً بل نريد إعداماً» وقد لُقبت بهدى الجلادة ووعدت بتعيينها رئيسة للجامعة العربية.

أثناء توقيفها في أيلول سنة 2011 بعد السيطرة على طرابلس حيث هربت (أحرق منزلها في بنغازي منذ شباط 2011) رأيت صورة لها في قمة مجدها جالسة أمام بشار الأسد في دمشق بحجاب أبيض بينما في المرة الأولى التي شاهدتها فيها صورتها كانت سافرة. تساءلت بعد رؤية صورتها مع الأسد ما الهدف من لقاءهما؟ هل أتت لتؤكد شعارها السابق ناصحة الرئيس بعدم استعمال الرحمة؟ بينت الصورة الأسد شابكاً أصابعه وكأنه يهم بخنق أحدهم، بينما هي كانت تبدي ابتسامة مزهومة.

في هذه النواحي قطع من الماعز يميل لونه إلى السواد يرعى الأعشاب عندما اقتربنا منه أطلق نغاء مشوؤماً. هنا ضرب الحلف الأطلسي قافلة القذافي الهارب.

الجمعة 6 تموز/يوليو 2012

إلى الغرب من سرت، بالقرب من شبكة قنوات

عند أسفل أحد المنحدرات حيث يمر طريق سريع، إلى الغرب من سرت، بالقرب من محطة كهربائية، محاطة بجدار مغطى بالغرافيت، توجد صناديق من العوازل الزجاجية لخط التوتر العالي، تركت على الأرض.

استغل الثوار سرت، الموقع الحصين للنظام السابق، بعد مذبحه في صفوفهم، في 20 تشرين الأول/أكتوبر 2011، وهو المنحدر الذي يستقبل أنابيب تصريف مياه الأمطار التي لجأ إليها القذافي: ماسورة ضخمة من الخرسانة عثر عليه بداخلها، وتم تصويره بالهواتف المحمولة مع مسدس ذهبي بيده حيث نطق بالعبارة اليائسة له: خير كم، شنو في؟ (خيرًا، ما الذي حدث؟) وكأنه كان يحاول أن يقيم علاقة غير مجدية، أن يُحيي بحيلة أخيرة الثوار السكارى من الغضب والتأثر والراكضين لملاحظته وكأن صورته الدائمة الحضور خلال أربعة عقود يمكن أن تمر غير مرئية. وكان حضوره الكلي السابق يمكن أن يمر كفعل السحر الأسود في التستر ويسمح له بأن ينفذ بجلده.

كانت هذه الكلمات الأخيرة للديكتاتور، قلبت فجأة الشعارات المنحرفة والهديانية الواردة بالكتاب الأخضر وانتشرت في كافة أنحاء ليبيا بعد موته. ويمكن مشاهدتها في الرسومات على الجدران، ويتكرر سماعها في المزاح وتُسرد لطرده الإرهاب الذي كان يثيره أثناء حياته.

المجاري المليئة بالأقراض والنفايات، تتطاير منها رائحة تنته من الغائط والبراز، نوع من التضرع المرتجل لمرافقة ذكرى الشيطان والتبول عليه. إن إطار الماسونية مُلطح بشعارات مليئة بالكراهية أو ساخرة، من بينها أميّر هذا: «هنا أخذنا الجرد من المجاري». نعت القذافي المتمردين بالجرذان أثناء خطابه في أغسطس/ آب 2011 واعدًا بسحقهم كما تُسحق القوارض في الأرياف. وهنا هو الذي أصبح كالجرذ.

على بعد عدة عشرات من الأمتار بقايا السيارات المحترقة، الصدئة، المتروكة.. بدا المعدن بصور رمزية كأنه في فيلم خرافي هوليودي. المركبات ودواليبها ذابت

أتصور أن ذلك قد حصل بواسطة الأورانيوم المخفف الذي يعطي حرارة 10.000 أثناء الانفجار.

الأرض مليئة بالعبارات النارية الفارغة، مخازن رشاشات أسلحة ذائبة، غير قابلة للاستعمال ومن الممكن أن تكون مواد شعاعية نووية. يجب تجنب أكل لحم الماعز، أو شرب حليبها. ويُروى أن القذائف التي ضربها الحلف الأطلسي على الدبابات في كل ليبيا سببت السرطان.

القذافي، المتفاجئ بالصدمة، المتروك من قبل وسطه ركض ليختبئ في المجاري القريبة حاملاً مسدسه الذهبي الذي يشهد على أبهة الماضي، كان مُطَارَدًا من رهط أرهقوه، دون أن نعرف بالضبط أين أو متى سقط. عبر نافذة السيارة أرى كتابة على الحائط تقول: «مات مُعمر».

السبت 7 تموز/ يوليو 2012

التصويت في طرابلس

سحبنا آلاتنا لتصوير مجريات الانتخابات، في صالة المؤتمرات في فندق «ريكسوس» أحد قصور طرابلس المبني وسط حديقة كبيرة في عصر حيث سيف الإسلام القذافي أحب أن يضيفي على نفسه صفة الأمير الوريث. هنا أيضًا صرح بخطفه خلال 2001. من واحد إلى الآخر، الأرض التي كان يتحكم بها الديكتاتور وعائلته تحولت إلى حزن: تحرير برقة مقاومة مصراة المحاصرة، عصيان مسلح في جبل «نفوسة».

سيف الإسلام بذل جهدًا لإحياء سحر أبيه الشاب. عندما كان هذا يلعب أمام مراسلي الصحافة العالمية دور البدوي من العالم الثالث بعينين كعيني الغزال. في أوقات أخرى، وبعادات أخرى: عمل الابن على تغيير شكله، رأس حليق، يدان بعضلات، تصريحات بالإنكليزية. زير نساء، حاصل على الدكتوراه (عن طريق الغش) من «مدرسة لندن للاقتصاد».

ولكن في 20 شباط/ فبراير 2011، في أحد تصريحاته، «المصلح» سيهدر أنهر من الدم إذا لم يتوقف العصيان المسلح. ووعده أن يأخذ بحياة آلاف الليبيين ليرسي «ديمقراطية من الصف الأول» حيث يدعي أنها رؤيته.

اليوم، الديمقراطية تتعمد من دونه. إن الوريث المزعوم للقذافي، المحروم من حقوقه المدنية، تعفن في عمق جحر في «زنتان».

اعتقله المسلحون عندما كان يحاول أن يعبر الحدود النيجيرية في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 2011. لبس ثياب «الطوارق» تاركاً الثياب الحديثة ليتنكر في الساعة التي كان عليه أن ينفذ بجلده. لقد خائنه نظارته ذات الشهرة العالمية التي ظهرت من وراء لباسه البدوي بفضاظة.

* * *

هذه الانتخابات الديمقراطية الأولى في بلد خرج تَوّاً من الحرب الأهلية، والذي صُدم عدة عقود بالقذافيّة، وقد جرت على دفعات. أقيم عليها الحظر في برقة من قبل الفيدراليين - الذين لم يحصلوا بالنهاية إلا على قليل من الأصوات - وكل يشك بأن الميليشيات المسلحة لن يزعموهم حتى يفرضوا اختيارهم.

وبالرغم من ذلك، وعلى حساب اقتراع معقد جعل التصويت ليس فقط للأحزاب بل لمرشحين مستقلين، أخذ الليبيون على محمل الجد صفتهم الجديدة كمواطنين.

في مصر، منذ حوالي خمسة عشر يوماً، جمعت شهادات مقترعات ومقترعين كانوا منشئين بأنهم اختاروا فرعونهم للمرة الأولى منذ خمسة آلاف سنة. ولكنهم انتخبوا عدة مرات منذ سقوط مبارك، من أجل الاستفتاء والانتخابات التشريعية.

وتحت مظلة النظام القديم، (أي نظام مبارك) كانت الانتخابات تجري بشكل روتيني حتى وإن كانت نسبة الاقتراع ضئيلة. في الحد الأدنى كنا نرى مكتباً للتصويت، لوائح انتخابية، إعلان النتائج - حتى لو لم ننتبه إليها. لا شيء مماثل في ليبيا.

في مقولات المؤيدين «حكم الجماهير» المستعارة من الأيديولوجيا الماركسية تعبیر «الانتخابات البورجوازية» فإن رفض الانتخاب الذي كان سائداً في السبعينيات ناتج عن قناعة بأن الانتخابات خيانة للثورة وتحلّ عن إرادة الجماهير.

في 7 تموز/ يوليو 2012، الانتشار العسكري والبوليسي حول المدارس حيث جرت الانتخابات، هو أقل كثيراً مما كان في مصر. يجب القول أن لا وجود للجيش هنا، وتواجد البوليس قليل نسبياً وإن جابت سيارات جديدة المنطقه، لا أعلم شيئاً عن مصدر هذه الآليات هل هي من الاتحاد الأوروبي، قطر أو قوات الأمم المتحدة (ONU).

صدمتُ باختفاء «الثورين». بينما بعض المراهقين المشاغبين المسلحين يركبون شاحنات صغيرة عليها اسماء مدنهم. كانوا يمارسون عدة وظائف، من السير إلى الأمن، كبديل عن الدولة. لا نرى سواهم في تشرين الأول/أكتوبر 2011 وأيضًا أثناء رحلة قمت بها بسرعة في شباط/فبراير لهذه السنة بمناسبة مؤتمر معين.

«ثوار زنتان» - هم أنفسهم الذين أسروا سيف القذافي - استثمروا الأرض على حساب خسارة كبيرة للطبقات المتوسطة الطرابلسية. كانوا يعتبرون هؤلاء الريفيين لخصوصًا عطاشي يأخذون بثأرهم من السكان المتمدنين في العاصمة حيث كثيرون منهم كانوا مدللين من القائد ولم يهربوا إلا في اللحظة الأخيرة.

* * *

بداية، طرد الريفيون مجموعات السلفيين السابقين للقاعدة التي كان يرأسها «عبد الحكيم بلحاج»، الذي سُمي الحاكم العسكري لطرابلس من قبل رئيس المجلس الوطني الانتقالي مصطفى عبد الجليل.

أذكر هؤلاء الشباب من زنتان، حيث كانوا ينامون في خيم من وبر الماعز في حديقة بناءً كان تابعًا لمؤسسة الدعوة الإسلامية وهو يشبه «الزلزل» حيث الإفريقيون كانوا يدرسون «فكر القائد» كي يتفرغوا بعد ذلك للتبشير في القارة السوداء. قبل سقوط طرابلس بأيدي الثوار، هرب سكان الزلزل الإفريقيون الخائفون من الغضب الشعبي. تحولت الحديقة إلى ما يشبه الغابة، ذكرتني بحديقة وزارة الخارجية الأفغانية التي زارها الأفغان سنة 1997 وهجرت ثم اجتاحتها القنب الهندي الذي تنامي كثيرًا ليصل إلى طول الإنسان.

عدت إلى مقر «الدعوة الإسلامية» نهار جمعة ساعة الصلاة. الشبان الثوريون لم يكونوا يرتادون المسجد، كانوا مشغولين بالنظر عبر حاسوبهم المحمول على فيديوهات تظهر أعمالهم العسكرية. وأنت تسمعهم استثمروا طرابلس كي يقيموا فيها الديمقراطية ويطردوا منها الإسلاميين.

وفكرت وأنا أراهم مخيّمين في كل المدينة، في النظرية الكبيرة لابن خلدون عن تطور المجتمعات التي كتبت في القرن الرابع عشر في «مقدمته»، معارضًا بين البدو والحضر. إن دورة التاريخ تريد أن يصبح هؤلاء الحضر اللثيني الأطباع نتيجة الحياة المدنية فريسة سهلة للبدو القساة، الذين بدورهم، سوف يرون أن حماساتهم سيطقتها الترف الملتين في

المدنية، كي يكونوا بدورهم مقهورين من قبل بدو آخرين جامحين خارجين من الصحراء. وهكذا حتى نهاية الأزمان.

بناء الديمقراطية، هذا الاختراع الحديث والغربي، هل هو كافٍ لوقف دورة آلاف السنين في مقدمة ابن خلدون؟ وحدث البدوي «القذافي» لم يكن ربما إلا آخر القفزات، وجدت هنا طاقتها الحقيقية عندما كنا نعتقد في سنوات 1970 أن «ثورته» كانت نتاج المادية الديالكتية التي تنبأ بها كارل ماركس في «رأس المال».

ومهما كانت الأيديولوجيا التي كانت ترفع شعارها الأنظمة المستبدة في العالم العربي منذ الاستقلال، فقد فشلوا أخلاقياً بأن خلقوا شكلاً من الحكم يقوم على إلغاء الحريات، التعذيب، المحاكمات المتعسفة - دون الكلام عن الفساد وتدمير الاقتصاد الذي ذهب ضحيته الطبقات الشعبية بامتياز. لقد محوا مفهوم المواطنة الذي تركز عليه حضارتنا المعاصرة، مع التوازن في الحقوق والواجبات بين الحاكم والمحكومين.

الذي يجري في ليبيا اليوم هو ظهور تلك المواطنة، تموضع هذا المفهوم المجرد في مجتمع ملموس، مقهور خلال أربعة عقود من الطغيان الذي أنجب الحرب الأهلية ثوارها الشجعان، ولكن القبليين حاولوا عن طريق استعمال القوة أن يعطوا قيمته لرؤيائهم الخاصة بمواجهة المصلحة العامة.

وهذا ما عبروا عنه بسذاجة، بسلوك قاس، الشجعان الذين جاؤوا للاهتمام بي حين وصولي إلى بنغازي منذ أربعة أيام. حتى تسير الانتخابات بهدوء وسلام، يجب على ثوار «زنتان» أن يتركوا طرابلس، بدون هذا كانت ستصبح أسيرتهم. وحدث نوع من الضغط المدني أجبرهم على الاختفاء.

* * *

في تونس ثم الجارة مصر، وضعت الانتخابات الأحزاب الإسلامية في المقام الأول. لم يحدث هذا بشكل واضح في ليبيا في مساء 7 تموز/ يوليو عقب الاقتراع المعقد. كيف يتم تفسير ذلك؟

في الحالة الأولى، كان قد استفاد حزب النهضة من الهالة الاستثنائية، ألا وهي مجموعة السجناء. لقد دفع الاسلاميون ثمنًا لا حصر له من العقوبة والتعذيب في ظل نظام بن علي.

وعلى الرغم من أنهم لم يلعبوا دورًا مهمًا خلال أيام الثورة، إلا أنهم استفادوا بشكل أفضل من النجاح الذي حققه الشباب المحرومون والنشطاء النقابيون والطبقة الوسطى العلمانية حيث إن التحالف قد تسبّب بسقوط النظام، بتاريخ 14 كانون الثاني/يناير 2011، لكن هذا التحالف كان غير منظم. إنّ الحسائر البشرية، من جهة ثانية كالشهيد الأبرز «محمد بو عزيزي» الذي استشهد في 17 كانون الأول/ديسمبر 2010 في سيدي بوزيد، لم تكن كثيرة (تقريبًا 300 شخص) قياسًا على مصر وعلى ليبيا خاصة - الذين أعطوا لممثلي الثورة شرعية لا يمكن القفز عنها لخطة انتخابات 23 تشرين الأول/أكتوبر 2011.

في مصر، حيث لم ينضم الإخوان المسلمون - من دون الحديث عن السلفيين - إلى قطار الثورة إلا في وقت متأخر، كان عدد الضحايا كبيرًا جدًا (ما يقارب الألف قتيل)، وقد استمرّ ذلك حتى بعد سقوط مبارك بسبب القمع الوحشي من قبل الجيش لأيّ تظاهرة تعبّر عن الانشقاق. لكن العدد لم يكن قد وصل إلى جموع حرجة مما أدى إلى التحالف الهش للشباب، النقابيين والتحركات الترابطية للمساهمة في سقوط الطاغية والتحفيز لاستطلاعات الرأي لحظّة الحماس للثورة. إن وزنهم لم يكن ثقيلًا في وجه جهاز الإخوان، الممتد عبر شبكة ضخمة من جمعياتهم الخيرية، ولا في وجه الشعارات والهتافات البسيطة للسلفيين المدعومين من الخليج في الضواحي البائسة المنتخعة بالانفجار السكاني.

في ليبيا، حتى ولو كان الإسلاميون المتطرفون بشكل خاص مقموعين خلال آخر 15 سنة، عبر الشنق والتعذيب، فإن اعتقالات المعارضين شملت المجتمع كله. إنّ الإخوان والإسلاميين الآخرين قد دخلوا أيضًا الثورة، في وقت متأخر، من دون أن يرتكزوا كما في مصر إلى جهاز حزبي أو إلى شبكة جمعيات خيرية قادرة على اجتذاب الأصوات في يوم الانتخابات. لقد أتت الشرعية عبر عشرات الآلاف من القتلى، وهو عدد غير دقيق حتى اليوم (لكن غير متكافئ مع مئات الضحايا من البلدين الجارين)، مما أدى إلى الوقوع في حرب مدنيّة، قبلية، وإقليمية شاملة ضد دولة القذافي.

بين جميع صور المرشّحين في كل مكان في طرابلس، تبدو الأحزاب الإسلامية، المنقسّمة إلى ستة أشكال، غارقة. يساهم الإخوان المسلمون تحت اسم «حزب العدالة والبناء»، وعبد الحكيم بلحاج الذي هو أقوى شخصية في «حزب الوطن»؛ ويقوم السلفيون بترتيب غير منسّق للمرشّحين المعترف بهم بشرط نمو لحيّة الرجال

ونقاب للمرشحات اللواتي يختبئن وراءه، إلى جانب الشعارات التي تتطلب تنفيذ جميع تعاليم القرآن.

إن الحزب الوحيد الذي تميز حملته الانتخابية في جميع أنحاء البلد، عبر لافئات عملاقة منتشرة على واجهات المباني بأكملها، ومنشورات موزّعة من قبل شباب يرتدون زيًّا موحدًا مؤلفًا من تي شيرت وقبعة، وأجهزة عرض في أغلبية الأماكن العامة، هو «حزب الوطن».

ظاهريًا، استفاد (أي الحزب) من كافة الموارد المالية الكبيرة ومن استشارات وكالات الإعلانات. يستعرض الرسم البياني البارح رمزًا من لونين الرمادي الغامق والبنفسجي العنابي، مماثلًا لرمز الخطوط الجوية القطرية. كان واضحًا أن الحزب الذي دخل في العلاقة من الإخوان التي تؤيدها إمارة الغاز لأسر الثوار العرب، هو محسوب على الدوحة.

* * *

استقبلنا الأمين العام في مقر الحزب، وهو عبارة عن فيلا حديثة في حي سكني مزينة برايات رمادية وبنفسجية، وهو شاب «مهندس في إدارة المشاريع، مع خبرة في الاستثمار العقاري والتطوير»، قال لي باللغة الإنكليزية وبلهجة أميركية:

«لقد تقرر تأسيس الحزب في نيسان/ إبريل 2011 في اسطنبول، خلال لقاء بين قادة الثوار والإخوان المسلمين. كان يجب الرد على احتياجات الأمة بمجرد أن تنجز الثورة ويتحقق النصر، وأضاف: «الاجتماع الأول حصل في تشرين الأول/ أكتوبر 2011. كل الأطراف جلست حول طاولة. كان هناك الإخوان المسلمون، المجموعة الإسلامية المقاتلة الليبية (الحركة الجهادية الأساسية) وبعض الأعضاء من المجموعة السلفية. كان هناك أيضًا متصوفون، وهناك أتباع للشيخ يوسف القرضاوي الساكن في قطر، مالكيون (الإسلام التقليدي لأفريقيا الشمالية)، مستقلون، وثور».

وحسب رأيه، فإن موزاييك الحضور الذين قاتلوا جنبًا إلى جنب أثناء الثورة كانوا يريدون إنهاء جهودهم بخلق حزب موحد ينهض بالأمة:

- «كان عندنا مبدآن: الوطنية بمرجعية إسلامية، أو التقسيم بين الأعضاء المؤسسين. المجموعة الأولى الداعية للتقسيم هي الإخوان المسلمون.

بعد ذلك، كان الجهاديون قد أسسوا حزبهم الخاص في آذار/ مارس 2012 ثم بدأوا يجمعون أعضاء ويقولون إنهم ممثلو الوسط وجنوب ليبيا وخلقوا حزبهم في نيسان/ إبريل 2012.

- ما كانت علاقة عبد الحكيم بلحاج مع حزبك؟.

- دخل في الحزب مع رجاله وحركته الجهادية. وعندما تركونا قرر أن لا يرافقتهم، كان قد تغير.. ولعدة سنوات كان جهاديًا، داخل وخارج ليبيا، هذا العصر قد تطور هدفه الآن خدمة الأمة.

- قيل لنا كثيرًا إن اللون البنفسجي للحزب هو اللون نفسه لعلم قطر؟ هل هناك من علاقة؟

- بين لي ألوان الشعار في ملف تحضره وكالة التصوير للحزب .. -

«في الحقيقة اخترعنا ألوان القسيسين، البنفسجي الأسقي، هو شعار الزهد، وهو من الفضائل الأربعة الرئيسية».

ما هذه المآثر الخطابية من الاتصالات السياسية التي أنجزها هذا المستثمر العقاري الذي أصبح مسؤولاً عن حزب إسلامي. أقارن بين مكرهم مع المحسوس البسيط والحقيقي للمواطنين الجدد أثناء سيرورة العمليات في المدارس التي تحولت إلى مكاتب اقتراع، حيث استقبلوني جيدًا، عرضنا توزيع قوارير مياه صغيرة على المقترعين الذين يقومون بدورهم في الحر الشديد، مادة اقتراعية نموذجية وضعت بمساعدة الـ ONU فوجئت بجدائتها المفرطة. الإعلانات الملونة التي تفسر كيف تجري العملية مقررة للأمين والناس البسطاء بشكل عام مطبوعة جيدًا، واضحة تفصل طريق المقترح من لحظة دخوله إلى المكتب حتى الخروج.

أنا نفسي أديت واجبي الانتخابي في باريس في أيار/ مايو وفي حزيران/ يونيو في مدرسة في الحي الذي أسكن فيه. من المؤكد لم نكن نحتاج لا إلى رمز مصور، ولا إلى حبر لا يُمحى عن أصبعنا. وكل منا كان مهتمًا بدون شك لأهمية انتخابه لرئيس الجمهورية أو لنائب منطقتة. ولكن عادتنا الديمقراطية القديمة فقدت حرارة الأولى التي تعيشها بسعادة غير عادية، وبجدية ليبيا المحررة.

أصوات الميكروفونات في المساجد ترافق الانتخاب مذكرة أن الإسلام يبارك العمليات الانتخابية - محمد جبريل رئيس التحالف غير الإسلامي، الذي حصل على أكثرية قصيرة وغير ثابتة عشية 20 تموز/ يوليو، ضاعف من التصريحات ليعلم أنه وخلافًا لاتهامات منافسيه، لم يكن من مؤيدي العلمنة، ولكنه يريد أن يجعل الإسلام مرجعًا لدستور المستقبل.

بدأت الحديث مع أحد الناخبين في مكتب الانتخاب في أحد الأحياء:

صوت عميق: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الحمد لله.

- «بماذا تشعر في هذا اليوم؟»

- في البداية، أشكر لكم مجيئكم إلى ليبيا لتفسروا للعالم سير العملية الانتخابية في جو من الفرح، اليوم عيد. أستمعون تمجيدات الله، إنه فرح الناس الذين يستخدمون حق التصويت الذين كانوا محرومين منه طوال فترة 42 سنة طيلة حكم القذافي وال 18 سنة التي قبله. بعد 60 سنة من الانتخابات المخادعة، استطاع الشعب الليبي أخيرًا أن يعبر بواسطة التصويت. لم أضع ورقة اقتراع أبدًا، لقد أتيت فقط لكي أعيش هذا الحدث، لكي أرى فرحة النصر على وجوه الشباب، هذا النصر مهم لليبيين عندما كان الثوار يصرخون: «إن دم الشهداء لن يذهب سدى» نحن نفهم جيدًا معنى هذا اليوم، لقد منح الأموات حياتهم للديمقراطية. ولا يمكننا أن نعيش الديمقراطية إلا عبر ورقة الاقتراع. اليوم، اليوم تتجسد الديمقراطية.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الحمد لله...

- هل تعتقدون بأن الانتخابات سوف تمهد لفترة من الاستقرار؟

- صحيح أن الثوار يحملون أسلحة بين أيديهم، لكن وسائل الإعلام تضخم الموضوع. عندما يلوح أحدهم بسلاحه، ويقول بأنه يشعر بفرحة النصر فإن هذا من حقه، بعد ثورة 17 شباط/ فبراير. قد تعزى الاشتباكات التي تحدث أحيانًا إلى المنافسة فيما بينهم. لكنهم لم يرتكبوا أية عملية خطف أو عملية سرقة. عندما تستقر الحكومة وتبدأ بممارسة سلطاتها الإدارية والتشريعية، سوف تختفي هذه الاشتباكات وحياسة الأسلحة.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الحمد لله...

الأحد 8 تموز/ يوليو 2012

باستيل القذافي

كان سجن أبو سليم، في ضاحية طرابلس، بمثابة سجن الباستيل الفرنسي للنظام الليبي السابق. مع وجود فارق وهو أنه، في 14 تموز/ يوليو 1789، لم يكن هناك إلا سبعة سجناء عاديين في قلعة حصينة في فوبورغ سانت أنطوان الذي اجتاحه الثوار الفرنسيون، الذين دمروه جعلوه رمزاً عالمياً للطغيان المهزوم. بينما يوجد في سجن أبو سليم، وراء جدرانه الإسمتية التي تعلوها أسلاك شائكة وأبراج مراقبة، آلاف السجناء السياسيين، الذين تعرّضوا للتعذيب حتى آخر أيام القذافي.

بتاريخ 24 آب/ أغسطس 2011، أثناء تحرير العاصمة، خرج جميع السجناء من زنازينهم، وهذا ما أتينا لتصويره اليوم. عرف السجن شهرة عقب «مجزرة أبو سليم»، التي ارتكبت فيها حملة إعدامات داخل جدرانه بتاريخ 29 حزيران/ يونيو 1996، ولم يعرف العدد الدقيق واليقين للضحايا، لكن المنظمات غير الحكومية مثل هيومان رايتس وواتش قدرت العدد بحوالي 1.270 كان أغلبية الضحايا ينتمون إلى المجموعة الإسلامية التي تقاتل في ليبيا والتابعة لعبد الحكيم بلحاج.

هذه المجزرة، التي أصبحت ظروفها موضوعاً للروايات مختلفة، عادت على أثر محاولة عصيان. ولكن مع السنوات، أصبح هذا الحدث والإشاعات حوله رمزاً للديكتاتورية. وعائلات الضحايا هم الذين يتظاهرون بعناد في بنغازي والضغط الوحشي الذي سببه تجمعهم هو الذي كان مفجر الثورة.

بخلاف الباستيل، لم يهدم أبو سليم بل حوفظ عليه ليكون شاهداً، سجن خال من السجناء والحراس، وكأنه شبح خال من الحراس، ربما بانتظار نمو إعمارٍ لهذه الأراضي المدنية. على عكس القصر الرئاسي، لباب العزيزية، الذي سُحق من قبل ضربات حلف شمال الأطلسي، فإن السجن الذي كان يزدحم بضحايا القذافي ما زال باقياً، باستثناء مباني الإدارة التي سوّيت بالأرض بواسطة الصواريخ.

* * *

في هذه الساعات الصباحية دخلنا من الباب الكبير، حيث أصبحت مهنة المسؤول عنه أقرب ما تكون من الآن فصاعداً إلى حارس متحف بدلاً من حارس سجن، كان الجو شديد

الحرارة وخائفًا بالفعل بالتعمد تنمو فيه النباتات بشكل حر منذ سنة تقريبًا من شقوق الخرسانة، كان ينبغي على هذه الحرارة أن تكون مشابهة لنهاية حزينان/ يونيو 1996.

دخلنا إلى ساحة مغلقة ذات جدران عالية، محاطة بسياح. كان الجلادون يجلسون عاليًا على قمة الجدران ويهاجمون السجناء المحتجزين في هذه الحفرة لثلاثين عامًا من الهرب. لوحات جدارية ساذجة بألوان مشرقة تمثل السجناء بزي برتقالي اللون (لقد وضع الرسام من دون شك نموذجًا لغوانتنامو)، كلهم ملتحون، في طريقهم للوقوع تحت نار العسكر، دم أحمر يجري من جروحهم، يذكرني بأيقونات بدائية لشهداء مسيحيين.

كنا نبحث عن زنزانتين مغطاتين برسوم متقنة لمحمد بلامين، وهو فنان من مصراتة، بلحية وشعر طويل وصوت جهوري، رسمها خلال فترة سجنه، في منتصف شهر شباط/ فبراير 2011، وفتح السجن كان في 24 آب/ أغسطس. لقد أمضينا ليلتين في مصراتة في خيمته: ليلة في ورشة العمل حيث تم إيقافه، وهو عبارة عن كراج قديم حيث كان قد نحت أشخاصًا في جياكوميتي من بقايا القذائف، الخراطيش، الدروع، وشظايا الأسلحة المتنوعة التي تم جمعها في المدينة، حيث إن الشوارع كانت مغطاة بها. الليلة الثانية كانت في فندق مدمر، كان يتخيله مركزًا ثقافيًا يعرض صورًا للحرب، حيث دعاني إلى عرض صور فوتوغرافية لجون- بابتيست لوبيز أمام أعضاء المجلس البلدي.

اتصلت به هاتفياً لكي يخبرني من مصراتة كيف يمكن العثور على زنزانتين من بين المئات الأخرى المماثلة، كما لو أننا في الصحراء المصرية، الهواء ساخن وجاف. ظل وخفايا الممرات، الغبار المتراكم منذ عام، الجدران الرمادية اللون ورائحة العفونة، إنه شعور تجربة مخترعي المقابر الفرعونية. تخيلت نفسي في لورد كارنارفون أو في هوارد كارتر داخلًا في مسكن لتوت عنخ آمون الذي كان سجيناً لدى القذافي!

كانت قوارير المياه البلاستيكية، متكلسة كمزهريات، حيث إن علب الكرتون بدت كأنها قد دفنت الكنوز اليومية، السلك الذي تعلق عليه أيضاً الثياب الرثة، متصلب بسبب الجفاف - كل شيء بقي على حاله منذ هرب السجناء في تاريخ 24 آب/ أغسطس 2011.

لحفر رسوماته في جدران الزنانات، استخدم محمد بلامين الألمنيوم من الصواني المخصصة للوجبات الغذائية. كانت الرسومات بقلم رصاص. اعتقد أن ما رأيته هو سرداب مزين بالكامل بلوحات جدارية.

هذه هي رواية الاعتقال والسجن لمحمد بلامين، كما سردها لي في مشغله في مصرّاة:

«في تاريخ 17 شباط/ فبراير، أعلنت الثورة، حيث كان التاريخ قد نشر على الإنترنت... كان النظام يعرف بأن شيئاً ممكن أن يحصل، وقد استبق ذلك بشكل وقائي باعتقال الذين وقّعوا على الدعوات على الإنترنت للتظاهر، لا سيما المثقفين، كي لا يقوموا بدور القائد. كانت الخطوط الهاتفية والرسائل الإلكترونية مراقبة. وقد اخترقوا عنواني وحفظوا رسائلي، خصوصاً في يومي 14 و15 شباط/ فبراير، عندما تبادلت الأحاديث كثيراً مع الأصحاب الذين لهم صلة بالثورة، مذ بدأت مدينة بنغازي بالتحرك».

سجنت هنا، في ورشتي، بتاريخ 16 مع أخي حبيب، وهو مدوّن، كاتب وشاعر كتب الكثير من النصوص ضد النظام والقمع. لقد صدرت أوامر من طرابلس لضبطنا، واقتادونا من دون مذكرة توقيف ونقلونا إلى طرابلس.

قام ضباط من ذوي المراتب العليا باستجوابنا، كان لديهم ملف برسائلنا النصية المطبوعة ويتناوبون من الساعة الثالثة من بعد الظهر إلى الساعة الثالثة صباحاً. كانوا يعتقدون بأن الوضع تحت السيطرة وظلوا نسبياً «مهذبين»... على الأقل حتى 20 شباط/ فبراير، حيث بدأت أحداث مخيفة في طرابلس، قُمت بوحشية بالدم، وهو جمعت مراكز البوليس، الخ...

في ذلك اليوم، نقلنا إلى سجن أبو سليم وتعرّضنا للضرب في الطريق من قبل خمسين عضواً من قوات القذافي. كان اليوم مخيفاً بالنسبة لي، لقد أتوا في الساعة الثالثة صباحاً. كانوا يريدون الشخص الذي ولد في العام 1969 عام مولدي أو العام الذي استولى فيه القذافي على السلطة. كانوا يبحثون طيلة الوقت للتمييز بين المواطنين الأصليين من مواليد هذا العام. وقد قالوا لي: «لقد ولدت في العام 1969، كيف تتصرّف هكذا؟ «عصبوا عيني، وأركعوني، وبدؤوا بتكيلي بالسلاسل التي أصدرت أصواتاً مزعجة».

كان البلد قائماً على إطلاق النار والدماء، ولم يكن أحد يعرف شيئاً، حتى وصول بداية نيسان/ إبريل، شبان من بنغازي قد تمّ إيقافهم في رأس لانوف وأيضاً من مصرّاة، نقلوا بآخر طائرة قبل الحصار الجوي. لقد أعطونا كمية كبيرة من الصحف، قرار الأمم المتحدة، الجامعة العربية والمحكمة الجنائية الدولية والتدخل الفرنسي وقرار ساركوزي وقصف

الطابور المدرّع الذي شرع بالهجوم على بنغازي.... طوال هذه الفترة، تمّ استدعاؤنا للاستجواب، وتعرضنا للتعذيب. مات سجناء بسبب التعذيب، وسجناء آخرين ماتوا بسبب عدم تلقيهم العلاجات الطبية الضرورية.

أنا، كفنّان، حاولت التعبير عن مشاعري برسم كافة هذه الهلوسات، وهذا القلق.... لتغذية الأمل بحد ذاته في السجن! أخذت صحون الأكل المصنوعة من الألمنيوم وبدأت بتفتيتها على الجدران. لقد ملأت حجرتين، الأولى حيث كنت مسجونًا مع أخي، ثم غرفة أخرى كان قد تمّ نقلي إليها لاحقًا.

كنت أتمنى دائمًا تغيير الغرفة، لأنّ الجدران كانت تمتلئ بسرعة. كنت أحلم بجدران جديدة فارغة. في بعض الأحيان، كنت أظنّ بأنّ الرجل يستطيع أن يرسم في كل مكان، حتى على الهواء، لقول أي شيء ونقل رسالته.

الفصل الثامن

تونس 2

الجمعة 7 أيلول / سبتمبر 2012

العودة إلى سيدي بوزيد

هذا هو المكان الذي بدأ فيه كل شيء في يوم الجمعة 17 كانون الأول / ديسمبر عام 2010، عندما أضرَم محمد بوعزيزي، بائع الفواكه والخضروات المتجول، النار في نفسه في مكان عام، لتشتعل بعدئذ نار الثورات في العالم العربي بأسره وتطيح بأنظمة بن علي ومبارك والقذافي وصالح، وعندما وصلت التيار إلى البحرين وسورية، اضطرت ممالك النفط لإنفاق مئات المليارات من الدولارات لتحويل دون الحريق وتلقذ عروشها.

ساهمت هذه المليارات في إحداث الاضطرابات التي أعقبت الثورات والانتصار الانتخابي للأحزاب الإسلامية، كان الخليج يخشى وصول شرارة بوعزيزي إليه وتفشي المطالبات الديمقراطية والعلمانية التي تقض مضجع السلالات الملكية، التي قاموا بخنقها بفضل تعاليم الدين، رغم أن الحريق الاجتماعي لا يزال يعتمل تحت الرماد السياسي.

* * *

في سيدي بوزيد، حررت تضحية بوعزيزي الخطاب الذي كان سائداً في ظل حكم بن علي. لكن الشباب الذين طردهم البؤس من أريافهم، شوارع هذه المدينة تزدهم بهم، و«الخريجون العاطلون عن العمل»، الذين تناولتهم إحصاءات التعليم العالي مع شهاداتهم سواء كانوا من حملة درجة البكالوريوس أو درجة الماجستير غير الملائمة لسوق العمل، يبقى هؤلاء متسكعين في المقاهي من الصباح إلى الليل، يدخنون السجائر، الواحدة تلو الأخرى، غازفين عن الزواج حتى يجدوا وظيفة، إنه الغضب الذي يتجلى في كل منعطف

ضد السلطات، ويهاجم مقر حزب النهضة بانتظام، الممثل الجديد للدولة، حتى إنهم أحرقوا العلم هناك منذ بضعة أيام، كما تحرق الرايات المزداثة بالنجوم في باكستان أو إيران.

* * *

اليوم، في سيدي بوزيد، أيقونة الثورات العربية ومهد ولادة الحلم العربي الجديد، يوجد قوة سلفية صاعدة يمثلها مجموعة أنصار الشريعة التي سيطرت على المسجد الكبير الذي يقع في شارع محمد بوعزيزي. قبل أمس، دمروا حانة فندق الحرشاني، التجمع الأخير لبيع الكحول في هذه البلدة حيث يجب من الآن فصاعدًا الحصول عليه من السوق السوداء بضعف السعر.

يحتوي سيدي بوزيد مركزين مهمين، أحدهما تقليدي يتكون من ضريح قديس يحمل اسم البلدة نفسه، المرابط سيدي بوزيد، وهو أحد الفاتحين العرب الذين أغاروا على المكان، مما أدى إلى أسلمة وتعريب السكان البربر الأصليين أثناء الغزو الهلالي في القرن الحادي عشر، والنساء أكثر من يبجل هذه الآثار سعيًا وراء شفاعتهم للثور على الحب، أو لولادة ذكر، أو لإبعاد عين الجارة الشريرة التي تتطلع إلى الزوج، ويقام سوق أسبوعي صباح كل سبت حول هذه الأماكن المقدسة.

المركز الثاني، استعماري، حوله ساحة مستطيلة ومبانٍ إدارية، مغروس بالتين المخصص للزينة بجذوع مزودة بالجير الأبيض، هذا هو المكان الذي أضرم فيه بوعزيزي النار في جسده، وفي هذا المكان أيضًا تم نحت تمثال من الخرسانة «للكاريتا»، وهو مصطلح اقترضته من اللغة الإيطالية والذي يشير إلى عربة البائع المتجول.

تحرم المجتمعات الإسلامية التماثيل البشرية، على غرار الأصنام الوثنية، وبالتالي تستخدم هذه العربة الفقيرة كشيء مجازي للدراما الأصلية، المثقلة بأرضها الاجتماعية.

لذا يتم التعبير عن هذا الإجلال بصورة أكثر دراماتيكية من شاشة الكمبيوتر أو الهواتف المحمولة. تزين صورة بوعزيزي واجهة مبنى البريد، كما تغطي جدران المباني العامة برسومات وكتابات باللغة العربية والفرنسية والإنكليزية التي تعد لغة كاميرات الصحافة

الدولية، إلى جانب مجد «شهداء الثورة» الذين سقطوا تحت رصاص الشرطة، مؤرخين لهذا اليوم بـ «ثورة 17 كانون الأول/ ديسمبر» - يوم التضحية - وليس «14 كانون الثاني/ يناير» - يوم سقوط نظام بن علي.

* * *

على جدران سيدي بوزيد، تلاحظ الانتفاضة الشعبية من قبل الطبقات الوسطى في تونس، وكبار الضباط، وحزب النهضة الإسلامي.

نحن في إحدى المناطق النادرة التي لا يوجد فيها مؤيدون لحزب النهضة الإسلامي التونسي، وأطلق النار على مقره الرئيسي هنا حتى أثناء الانتخابات، في حين تمّ شتم رئيس الحكومة، حمادي الجبالي، لولادته في مدينة سوسة الساحلية، حيث ولد أيضاً زين العابدين بن علي. عامة النخبة السياسية والاقتصادية التي جاءت من الساحل المحاط بالأرياف والسهول (بورقية جاء من شبه جزيرة المنستير)، متهمّة باستغلال بساتين الزيتون وضخ المياه الجوفية لترك المراعي المشتركة شحيحة.

* * *

بوضع منحوتة عربية بوعزيزي في ساحة عامة، ترسخ رمز الثورة مع المباني الاستعمارية، التي لا يزال يسكنها أصحاب النفوذ ورعاة الفساد. حلت الكاريتا محل صورة بن علي في كل مكان، في المحاكم، مراكز الشرطة، في المحافظات، ومقر (الاتحاد العام التونسي للعمال) ولجأ هؤلاء إلى تعديلات طفيفة في موظفيها الإداريين. ومع ذلك، حول النشاط الشباب اليساريون لاسيما المعلمون في المدارس الثانوية والابتدائية، تضحية البوعزيزي إلى انتفاضة منتصرة.

في اليوم التالي للمأساة، السبت 18 كانون الأول/ ديسمبر، امتلأ السوق في سيدي بوزيد بأكشاك الفواكه الطازجة والفلاحين القادمين لبيع محاصيلهم، ووزعت منشورات تدعو إلى التظاهر ومواجهة الشرطة. لولا هؤلاء الشباب المتمتمون إلى النقابات، ربما تناسى الناس تضحية هذا البائع المتجول بوعزيزي بسرعة، كما حدث مرات عدة عندما وضع يائسون حدًا لحياتهم في المغرب خريف عام 2010.

استراحة التوحيد

التقيت طارقاً في مطعم بيتزا يقع مقابل مسجد محمد بوعزيزي حيث اجتمع ستة ملتحمين يرتدون جلابيب يصل طولها إلى الكاحلين تطبيقاً لتعاليم النبي محمد كعلامة على التواضع.

خلاًفاً للمصلين الذين يرتدون الجلابيب للصلاة، لا يزال طارق بلباس المدينة ويبدو بمظهر هجين يشبه مظهر الجهاديين والمستمتع بعطلة، بلحية طويلة غير مشذبة، وبدون شارب: يعتمر قبعة عسكرية، مع قميص رياضي أصفر بخطوط أفقية بيضاء بكمين طويلين، وبنطلون أبيض إلى منتصف الساق لإخفاء العورة التي تشمل وفقاً للتصور الإسلامي الصارم، الأعضاء التناسلية والفخذين والركبتين.

يبلغ طارق من العمر ثلاثين عاماً، إلا أن وجهه تغطيه التجاعيد العميقة. في البداية، تحدث إلي بعد أن قدمت نفسي إليه باللغة العربية الفصحى القديمة، مستفيداً من رحلتي العديدة إلى المملكة العربية السعودية، مشيراً إلى أسماء «علماء الإسلام» الأساسيين، علماء السعودية الذين يحظون بشعبية جارفة لدى السلفيين. سألتني عن هذه الجنة «السعودية» التي لم يستطع الذهاب إليها، حتى لأداء العمرة في مكة المكرمة. كرّس وقته للدعوة إلى الله، منذ سقوط نظام زين العابدين بن علي، الذي تزامن مع إطلاق سراحه من السجن. فلقد سجن لمشاركته في مجموعة جهادية اتهمت بالتآمر وشن هجمات بالقنابل، ربما تعزى تلك التجاعيد إلى التعذيب الذي مورس بحق الإسلاميين الأصوليين في السجن. يعمل اليوم كمسؤول عن المسجد، ولم يكن لديه اعتراض بعد نهاية حوارنا، بتصوير صلاة الجمعة. هؤلاء السلفيون، الذين كانوا أشد أعداء الصور، ووسائل الإعلام، التي تعزز الشرك والوثنية كما كانوا يقولون، أصبحوا اليوم مفتونين بالتلفزيون والشبكات الاجتماعية التي استثمرها أئمتهم لنشر الإيمان بالله وتعاليم الإسلام بلا كلل أو ملل.

رافقت طارق على متن شاحنته في الضاحية التي يقيم فيها، وهناك توضأ ولبس الجلابيب قبل أداء الصلاة، وكان معنا سلفي آخر، أصغر سنًا. حيث يبدو شكله من آسيا الوسطى، ثمرة بعض الاختلاط القديم من تاريخ الغزوات الإسلامية.

وصلنا إلى منزله، الذي يقع كاستراحة بجواره خيمة ممتلئة بالأرائك وصواني الشاي والكعك، تستخدم كاستراحة التوحيد للسلفيين. شرح لي طارق كيف أن «الإخوة» في

هذه الخيمة يرحبون بالشباب ويقدمون لهم النصح والموعظة لحل مشاكلهم بالكلمة الحسنة والمعاملة اللطيفة وتلقين مبادئ أنصار الشريعة، المنظمة السلفية الرئيسية.

بدأ ببناء منزله منذ قيام الثورة، مستفيداً من غياب قانون تنظيم المدن والفوضى التي تعم البلاد، وتزوج للتو: ليس لديه سوى زوجة واحدة وهو أب لرضيع وحيد - وهذا أمر نادر عند السلفيين الذين يؤمنون بتعدد الزوجات وكثرة النسل بر ذلك بأن هذا الخروج عن العادة ناتج عن الاعتقال بعد «دخوله في الإسلام».

التحق بالأصولية في منتصف العقد 2000: كان شاباً يقيم في تونس، ويعيش في الجاهلية كما يقول، هذا المصطلح يعني أنه كان غارقاً في الكفر وجاهلاً بتعاليم الإسلام الصحيح»، وهذا ما يميز الوثنيين في مكة قبل نزول الوحي على النبي محمد في بداية القرن السابع الميلادي. لكنه سرعان ما وجد نفسه في سجن بن علي بعد ارتماؤه في أحضان الجهاديين السلفيين، فهدمت من كلامه أنه كان يحب البيرة ويحب النساء وكان رساماً صاحب شهرة، أزمة شخصية جعلته ينقطع عن حياته السابقة وقادته إلى أحضان السلفيين الجهاديين ووجد نفسه في سجون بن علي. بعد تحريره عاد إلى مسقط رأسه ومارس التجارة وهي مهنة مارسها النبي وتركت له وقتاً حراً للتبشير.

حين كان يتوضأ، تجولت في الحي، والتقيت بمراهقتين، يتلاعب الهواء بخصل شعرهن، ترتديان الجينز الضيق ومكشوفتي الذراعين، وهما تسكعان في الزقاق الذي يقيم فيه طارق، وتغمران للأولاد متبخرتين، محدقتين في وجهي باستغراب، بعد أن حبيتهن باللغة العربية، ركضتا للاختباء خلف باب عتيق، وهما تضحكان. لا يحكم السلفيون النظام الإسلامي في تونس، لكن إلى متى سيبقى الأمر كذلك؟

* * *

نعد مرة أخرى إلى المسجد حيث يوجد لافتة كبيرة ترحب بالمصلين: فيها صور لجثث أطفال دامية لا يمكن تحملها، ومنازل مدمرة، ومسجون عجزه يكون. في الماضي، كانت هذه الصور تمثل الفلسطينيين بعد القصف الإسرائيلي على قطاع غزة، لكن هؤلاء هم ضحايا سوريون حيث إن الرأية المعلقة تحدد أنهم مسلمون سُنَّه قتلوا من قبل العلوي الهرطقي بشار الأسد.

يحتوي المسجد نحو ألفي مصلٍّ غير سلفي، إذا حكمنا عليهم من خلال الزي أو المظهر. يستهدف الواعظون هؤلاء الناس العاديين في هذا الحي الفقير ليحكموا قبضتهم تدريجيًّا على القلوب والعقول. وتبلور اللافتة الجنائزية فيه العواطف لتخصيص المساعدات «للأشقاء في سورية». تتحدث الخطبة اليوم عن واجب تدمير الخرافات الشعبية وعبادة المزارات، والشهوة الجنسية والطب السحري والسيطرة عليها حتى لا ينحرف المؤمنون عن عبادة الله وإخلاصهم له!

يتحدث الإمام الشاب «خليفة» بلغة بليغة ورفيعة، ويعتمد في خطبته على العظة الكلاسيكية، التي تطبق القوانين الاجتماعية الوهابية السعودية، لتهيئة المؤمنين للمعايير السلفية التي ستفرض تدريجيًّا للسيطرة على الحياة اليومية. في ليبيا المجاورة، وفي مصر أيضًا، أسفرت هذه عن تفجير أضرحه ومزارات شعبية، أتذكر أنقاض المزارات التي فُجرت في شهر تموز/ يوليو في مصراتة كما بين لي الرسام محمد بيلامين، وقتئذ سألت نفسي في بداية الثورة العربية: متى سيفجرون ضريح سيدي بوزيد؟ ربما عندما يشعرون بأنهم أقوى بما فيه الكفاية والمرحلة الثانية عندما يصبح لديهم عدد كاف من الأتباع والمناصرين.

بعد إلقاء خطبته، خاطب الإمام «خليفة» المؤمنين في ساحة المسجد، والهدف من ذلك كان سياسيًا، وهاجم بعنف النظام السوري، فضلًا عن الكفرة والمهرطقين بشكل عام. وأشار إلى الصور، قائلاً: «كيف ترضى أمة محمد، أمة الإسلام، بعمليات القتل وهذه المجازر؟». وافق على مقابلتنا بصعوبة بعد إغراء السمعة والشهرة التي قد يحصل عليها من تصوير تلفزيون أجنبي أتيا إلى هنا لتصويره، ولم يكن يخفي أبدًا احتقاره للكفار.

بعد الإثارة في خطبة الجمعة وارتفاع الأدرينالين في خطابه عن سورية، كان الإمام في حالة كبيرة من الإثارة، سمح لنا بوضع دقائق، لكن ليس لدي أدنى شك أنه بمجرد أن تبدأ الكاميرا بالتصوير، سيثق بالمصطلحات السلفية التي أستطيع الحديث بها، وسيتكلم معي بفصاحة وينسى الوقت وكذلك الخطابة الدينية.

* * *

وقفنا تحت مظلة جانبية من المسجد، والإمام محاط بالحراس الشخصيين، على أهبة الاستعداد:

- «في البداية كيف تقيّمون موقفكم في المجال الديني التونسي اليوم؟

- نحن، الحمد لله، من أتباع الوحداية الإلهية التي تنتمي إلى أنصار الشريعة، برئاسة الأخ أبو عياض.

- ما رأيك في حزب النهضة؟

- هم يدعمون الديمقراطية، التي تمثل «الكفر» ونحن نحرم الديمقراطية، لأنها تنافي السيادة الإلهية، لكن إذا وافقت أغلبية الشعب على المعصية، تحولت الخطيئة إلى قانون. أهدافهم جيدة، وندعم سعيهم لإقامة الدولة الإسلامية، لكن طريقتهم والوسائل التي يستخدمونها لتحقيق ذلك سيئة.

- بالنسبة إلى الخطيئة، ما رأيك في تدمير ونهب حانة فندق الحرشاني الذي حدث للتو؟

- الشعب يعارض استخدام الكحول، ونحن مع الشعب. نحن ضد انتشار الإدمان على الكحول، الذي ينتهك الأخلاق العامة، الحمد لله.

- ما رأيك في الثورة، وعلى وجه الخصوص بعد عام من تضحية محمد بوعزيزي وإحراق جسده في سيدي بوزيد، في حين لا يزال الشباب يائسين وعاطلين من العمل؟

- بدأت الانتفاضة بعد موت محمد بوعزيزي.

- عفواً، هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها في تونس أنه «مات»، هل هو عن سابق تصور بأن لا تقول إنه استشهد.

- لا نستطيع التحدث عن استشهاده، فهو لم يفعل ذلك في سبيل الله، حتى وإن كان قد بدأ يصلي خلال الأسبوع السابق لوفاته. بالنسبة للشباب اليائس في سيدي بوزيد اليوم سيتبعون طريق الله».

ونحن نتحدث، دخل شاب في العشرين سكراناً، مترنحاً قدرًا، نجح في الدخول إلى المبنى عن طريق باب بقي مفتوحًا. أبعده خارج الكاميرا. تحدث دليلنا مع بعض الشباب الذين كانوا يمارسون ألعابًا بهلوانية على دراجة أمام الأوتيل. لم تكن لهم سمة دينية ولكنهم انضموا إلى غزوة الأتقياء، مستفيدين من الاضطراب ليختلسوا

قوارير بيرة. اعترف لي الدليل بصوت منخفض: «لقد جمعوا كثيرًا من الأموال حين باعوا باقي البيرة منذ صعود الملتحين أصبحت القارورة بدينارين (أورو واحد) في السوق السوداء».

* * *

السبت 8 أيلول / سبتمبر 2012

الشرطية فائدة حمدي

في سوق الجملة في سيدي بوزيد، عند الفجر، هذا هو المكان الذي كان يذهب إليه محمد بوعزيزي كل صباح للتزود بالخضروات أو الفواكه ومن ثم يشرع بالتجول بعربته لبيع بضاعته. ثم يسير نحو كيلومترين للوصول إلى موقع جيد في وسط المدينة قبل احتلالها من قبل تاجر آخر وهذا حاله في جميع الفصول الأربعة، ففي فصل الصيف يقف تحت أشعة الشمس الحارقة، وفي الخريف والربيع، تغرقه مياه الأمطار، ويرتعش من الرياح الباردة شتاءً.

ذهبت إلى أحد زملائه الذي تأهب للإجابة عن أسئلتني. كان لديه كشك محمل بالفلفل الأخضر، البطاطا والطماطم التي شكلت ما يشبه العلم الإيطالي بين طريقة أرسيمبولدو وفابريس هير. كلفته البضاعة حوالي 90 دينارًا أي «45 يورو»، يبيعها بنحو 110 دنانير (55 يورو)، أي إن دخله اليومي عشرون دينارًا ما يساوي سعر عشر زجاجات من البيرة في السوق السوداء. عمره حوالي ثلاثين عامًا، وهو تقريبًا لم يعد لديه أسنان.

حاولت تعويضه عن الوقت الذي قضاه ليدلنا على المكان الصحيح، لكنه رفض بلطف وتركنا على عجل. كلما اتجهنا إلى السوق الأسبوعية، تذكرت القصص المتضاربة التي تغذي فعل الأسطورة محمد بوعزيزي في 17 كانون الأول/ ديسمبر 2010. بدأت الشائعات تقول إنه عاطل عن العمل يحمل شهادة دبلوم مثل أولئك الذين خرجوا إلى الشوارع لمواجهة الشرطة بعد يوم من تضحيته بروحه، لكنه في الحقيقة غير متعلم يتيم الأب، هاجر من الريف إلى ضاحية فقيرة في سيدي بوزيد، وكان عاملاً زراعيًا، ويعيل أسرة مكونة من سبعة أشخاص.

لقد شهد اليسار والعالم الثالث تضحية هذا البروليتاري الذي عبر عن اليأس الاجتماعي

الذي يعيشه الشباب، والذي تفاقم بسبب مضايقات الشرطة فائدة حمدي التي صادرت ميزانه لأنه يبيع بضاعته المتواضعة دون ترخيص، لتجسد الظلم وليصبح ميزانه رمزاً للعدالة، استولت عليه شرطة فاسدة كما يحصل عادة مع تجار الشوارع، الذين يسترجعون بضاعتهم مرة أخرى مقابل رشوة.

وقالت الشائعات أيضاً إنه ضحى بنفسه لأن الشرطة صفعته وهذا يعني قمة الإهانة والذل في الثقافة الذكورية الشعبية، وقاده تصرفها إلى انتهاك هذا المحرم الإسلامي ألا وهو الانتحار الذي يعتبر فضيحة اجتماعية ودينية، فمن المحرم أن تأخذ من الله الحياة التي أعطاها هو وهو من يأخذها. إن تضحية بوعزيزي في عام 2010، في نهاية عقد تميز بالاغتيالات الانتحارية أو ما يسمى عمليات استشهادية - حسب وجهة نظر الإسلاميين الأصوليين الذين أثاروا الجدل في صفوف المسلمين.

يحرم بعض الأئمة اللاهوتيين، خاصة السلفيين الانتحار، والبعض الآخر - لاسيما جماعة الإخوان المسلمين - يرون أن التضحية بالنفس، جزء من الجهاد، والحرب المقدس لقتل أعداء الإسلام، وهو إرضاء لله. لم يسع بوعزيزي لقتل أحد ولم يمت على الفور بل إنه تم نقله إلى المستشفى ولفّ جسده المحترق بالضمادات من الرأس إلى القدم، وظهر للمرة الأخيرة على سرير غرفته في المستشفى إلى جانب الطاغية بن علي أمام الكاميرات وهو يزوره في غرفته في المستشفى قبل وفاته.

وتنسب شائعات أخرى الصفحة كمبرر للدفاع عن كرامة المرأة، حين قال بوعزيزي لفائدة حمدي، عندما صادرت ميزانه: «كيف سأقوم بوزن الفواكه؟ بتديك؟» مما جعلها تستشيط غضباً وتوجه له صفعه قاتلة، أولئك الذين يؤمنون بهذه الشائعة، يصورون الخرافة المؤسسة لـ «ثورة الياسمين» كشاب فظ غليظ كان تحت تأثير المشروب حيث يزعمون أنه تناول بضع قوارير من بيرة سلتيا قبل أن يصبّ البنزين على جسده، وبذلك يكون الفعل الافتتاحي للثورات العربية والإسلامية عبارة عن هذيان سكير ذليل. حاولت دولة بن علي، السيطرة على الوضع الذي استعصى عليها بوقف الشرطة لاستخدامها العنف في أداء واجبها والتحفظ عليها لتبقى رهن الاحتجاز الوقائي.

بعد سقوط الطاغية، وهروبه إلى السعودية في 14 كانون الثاني/يناير 2011، قضت فائدة حمدي ثلاثة أشهر في السجن، لتكون كبش فداء لخطايا الدولة البوليسية المخلوعة،

ولتواجه الفعل البطولي لبوعزيزي. لكن قبيلة حمدي القوية سعت لإخراجها من السجن وتبرئتها، فقاموا بتعبئة الحشود لصالحها، وفي أثناء محاكمتها، شهد كل شهود العيان أنها لم تصفع بوعزيزي، وبعد النطق ببراءتها في مقر المحكمة، أطلقت مئات الزغاريد أمام أولئك الذين أحرق بوعزيزي نفسه بينهم.

منذ ذلك الحين، وشرطة البلدية السابقة، الموظفة الإدارية حاليًا، تجري العديد من المقابلات مع وسائل الإعلام، وتنفي اعتدائها على البائع المتجول، تقلد أمام شبكات التلفزة العالمية الحركة الوحشية التي قام بها الجاني الذي اعتدى عليها جسديًا أثناء الخلاف. وتظهر في الصور المنشورة لها بعد 17 كانون الأول/ ديسمبر، وهي ترتدي الزي العسكري، وقبعة على شعرها الطويل الذي تغطيه اليوم بحجاب أبيض، ربما أرادت أن تخفي سقوط شعرها بسبب الاكتئاب الذي عانت منه في السجن، أو ربما أرادت الظهور بهوية وقائية من خلال الانضمام إلى النموذج الذي يدعو إليه القادة الجدد. كما أن ليلي بن علي، لم تعد تظهر منذ هروبها إلى شبه الجزيرة العربية، إلا بحجاب أبيض، حيث تخلت مصففة الشعر السابقة عن مجدها.

بعد مرور عام على الواقعة، لم يعد خافيًا على أي ثوري اشتراكي في مقهى الرصيف في سيدي بوزيد وعدد قليل من الصحفيين الذين لا يزالون يهتمون بالقضية، أن رفاقه «بهرجوا» القضية في بدايتها. أبعدا قضية سيئ الحظ بوعزيزي عن المركز وأظهره كشاب «عاطل عن العمل شهادة دبلوم» لإثارة سخط الطبقات الوسطى والمتقنين، واخترعوا قصة الصفعة لبلورة المشاعر الشعبية. لقد عزفوا على الدوافع الذكورية الكامنة وإهانة رجل صفحته امرأة أمام الناس لأنها ترتدي زي ضابط شرطة. وفي النهاية - سقوط بن علي - الثورة العربية - تبرر الوسائل - الشرف الضائع لشرطة.

سوق السبت

يحتل ضريح سيدي بوزيد المركز السابق لسوق السبت الأسبوعي. تحت القبة البيضاء، يوجد قبره وقبر ابنه، مغطى بقطعة قماش خضراء ومزينة بعبارات عربية، وعلى الأرجح صُنعت في الصين. عند المدخل، بعض كبار السن بوجوههم المتجعدة، يعتمرون الطربوش الأحمر من جنوب تونس أو عمامة صفراء من الحجاج القادمين من مكة المكرمة ويرتدون «الجهة» التقليدية، لتقيهم من الشمس. بيتسمون وأفواههم بلا

أسنان، ويقدمون الشاي بالهال بأكواب صغيرة فيما بينهم. حارس الضريح الذي أكرمني بالتعرف على المكان، والساحة الكبيرة المحاطة بسور، يوجد فيه تجهيزات المطبخ وسرائر لاستقبال الأسر الريفية الذي تأتي لقضاء بضعة أيام هنا حتى يستجيب سيدي بوزيد لها لشفاء مريض أو لجعل بقرة تنتج أو العثور على الزوج المناسب، أو لإزالة «العين» الشريرة وأثر الحسد.

* * *

يتملى السوق بالفواكه والخضروات التي تنتجها الأرياف المجاورة. في نهاية هذا الصيف، كان هناك فائض من العنب الأبيض والأسود، وعناقيد ثقيلة تتدلى من الكروم لجذب المتسوقين.

ينشر السلفيون في سيدي بوزيد منشورات على مواقع التواصل الاجتماعي فيلمًا مسجلًا عن جهودهم في السوق. يشرح الإمام خليفة الذي أجريت معه لقاء بالأمس للمستخدمين الإنترنت كيف يطارد أنصار الشريعة اللصوص ويسمحون للمتسوقين بقضاء حوائجهم بسلام، داعين إلى تطبيق العقوبة الإسلامية للقضاء على الجريمة بشكل دائم.

* * *

وجدت ذلك الشاب السلفي بملامحه الآسيوية الذي ركب مع طارق، كان وجهه عابسًا وغادر بسرعة. أظهرت دهشتي من تصرفه أمام زميلي الذي رافقني، وهو أستاذ علم الاجتماع في جامعة صفاقس، ولد في سيدي بوزيد وقيم بها:

- «هذا غريب، بالأمس كان منفتحًا نوعًا ما، ربما فوجئ بوجودي هنا؟

- [يضحك] لا، لا، سيد جيل، لا تهتم. لقد عبس في وجهي أيضًا عندما رأني!

- أوه، ولماذا؟

- لأنني أعرفه، هو ابن عم بعيد، ننتمي إلى القبيلة نفسها.

- وماذا في ذلك؟ السلفيون يظهرون مبادئهم علانية بدون خجل. لا أعرف أين المشكلة.

- لأنني أعرف ماذا يعمل جيدًا، لذا تضايق من رؤيتك معي [يضحك].

- ماذا يفعل؟

- جميع أفراد أسرته يبيعون الكحول في السوق السوداء بالإضافة إلى الحشيش ومشتقاته، لذا انضم إلى حزب السلفيين لحماية أعمالهم، وهو نفسه يشرب البيرة! كل أولئك الملتحون، ذهبوا لنهب وتدمير حانة فندق الحرشاني للتخلص من منافسهم الرئيسي! الآن هم يسيطرون على السوق ويحددون الأسعار!»

اقتربت من السلفي الأكثر بلاغة، وهو شاب ملتج ويضع على رأسه طاقة، يشرب الماء بكثرة ربما لجلاء صوته، يشجع المارة على الاستشهاد في سورية، استأذنته لتصويره بعد أن استأذنت الإمام خليفة، فنظر إليّ بريبة وأشار ببعض الإيماءات. في أي وقت. أرى بسرعة هذه الطاقات المتقاربة فوق رؤوس الملتحين، شباب أقوياء يعتبرون أنفسهم، شرطة الأخلاق السلفية، التي تلاحق المجرمين وتحمي المجتمع من الانحراف. يذكروني بمطواعي السعودية الذين يسمون رسمياً بـ «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، الذين يلاحقون العشاق والأزواج في المراكز التجارية: ويتأكدون من توقف أي نشاط وقت الصلوات الخمس ويقطعون أيدي وأقدام اللصوص.

هذه المرة، اقترب مني ملتج أكبر سناً وأصغر حجماً، عيناه سوداوان خاطبني باللغة العربية من دون تلطف، قائلاً:

- «السلام عليكم، إلى أي قناة تنتمون؟

- وعليكم السلام! التلفزيون الفرنسي، فرنسا 3. بالأمس قابلت الإمام خليفة و...

- [قال بالفرنسية] فرانس 24؟

- إنها مثل فرانس 24، لكن برامجها أطول.

- فرانس 24، لا بأس».

اختفى بالسرعة نفسها التي جاء بها، يحيط به أتباعه. بينما كان المخرج يصور السلفي العظيم الذي يلقي خطابه على المارة، ومهندس الصوت يلتقط رنين قطع النقود في الدلو، سألت زميلي من جامعة صفاقس:

- «أمرهم غريب، لم كل هذا الهجوم؟

- لقد أرادوا التحقق من أنكم لا تبغون لقناة نسمة، وهي قناة تونسية خاصة بثت

الرسوم المتحركة برسبيوليس، عدوة السلفيين اللدودة. على خلاف ذلك، فإن قناة فرانس 24 العربية مشاهدة على نطاق واسع، حتى قنواتها الناطقة باللغة الفرنسية. ما يريدونه هو أن يحتلوا المشهد الإعلامي للظهور كقوة سياسية رئيسية».

اليساريون و«الخريجون العاطلون من العمل»

غادرنا السوق بعد أن اشترينا قبعة من القش لتحمينا من حرارة الشمس، من بائع في العشرين من عمره، بعد مقايضتي بأربعة دنانير «2 يورو» بدلاً من ثلاثة دنانير «1.50 يورو»، كان يتحدث الفرنسية بطلاقة. سألتني عن مهنتي، وأبلغني أنه حصل على درجة الماجستير في التاريخ، وأن كتاب فرناند بروديل عن البحر الأبيض المتوسط في عهد فيليب الثاني هو كتابه المفضل، قائلاً: «أحب هذا الكتاب، يشتمل على كل شيء»، ومع ذلك، يرى أن الفصول التي تهتم العالم الإسلامي تعاني من نقص في المصادر الأولية باللغة العربية، والتي كان يحلم الكاتب بحب بأن يكرس لها أبحاثه ولكنه لم يحظَ بفرصته بعد، لم يجد عملاً يتناسب مع درجته العلمية ولن يجده، فاكتمى بيع القبعات في السوق - «الكنتي أكسب أكثر من أي أستاذ جامعي!».

* * *

في طريقنا إلى قرية الرقاب أي «التلال» التي تبعد حوالي خمسين كيلومتراً من سيدي بوزيد، في هذا المكان وبتاريخ 9 كانون الثاني/يناير عام 2011، سقطت تحت رصاص رجال الشرطة أول خمسة شهداء للثورة. ذهبنا لتناول طعام الغداء مع قادة رابطة الخريجين العاطلين من العمل. تشتهر المنطقة بجودة لحم الضأن الذي يسمى باللهجة المحلية «علوش»، ويأتي من اسم لولوش، المؤلف لدى التونسيين اليهود الذين هاجروا إلى فرنسا.

تصورت جوعاً بعد السير لمسافة طويلة والتجول في الكثير من الطرقات لاسيما تلك التي تمتلئ بأكشاك الطعام التي تفوح منها رائحة الضأن المشوي. فكرت بإعداد وليمة من «العلوش» ودعوة الزملاء التونسيين المرافقين لنا والخريجين العاطلين من العمل الذين يريدون التحدث إلينا عن متاعبهم بعد التخرج.

عاطفت مع المتحدث الفرانكفوني باسمهم، الذي يتقن مفردات المجموعات

اليسارية في كليات المنطقة الباريسية، ويضع على حاسوبه الآلي لاصق (الاتحاد الوطني للعمل)، المنظمة الأناركية النقابية الفرنسية. وعلى قميصه رسم يمثل مجموعة من الأسماك السوداء الصغيرة، مرتبة على شكل رفّ، وسمكة كبيرة جدًّا على وشك التهام أخرى بيضاء، متوسطة الحجم، تقول الأسطورة العربية «اتحدوا قبل أن تؤكلوا يوم أكل الثور الأبيض». ذهبنا معه إلى مطعم شعبي، ومن هناك اشترينا اللحم، وفي طريق العودة، همس بأذني زميل تونسي، قائلاً: لقد أحدثت ضجة كما يحدث عادة مع الغاوري، من جهة أخرى، لم يكن اللحم أحمر قاني، أما بالنسبة للسعر، فقد خدعك الباعة وأخذوا قيمة خروف كامل.

هذه هي المرة الثانية اليوم التي يتّم فيها تمييزي في المعاملة لأنني غاوري، هذا المصطلح الذي يعني «أجنبي غير مسلم»، أجنبي يجهل الحقيقة العميقة للأشياء، لذا من السهل خداعه.

يكشف تاريخ هذه الكلمة (غير المعروف لأولئك الذين يستخدمونها) عن التسلسل الهرمي للحضارات التي أسست لإسلام مقتنع بتفوقه الأنطولوجي على غيره من الأديان، بما فيها المسيحية التي تماثلته في استخدام هذا المصطلح على الكفار. وغاوري هو تحريف باللهجة المغربية العربية من تشويه لكافور التركي من قصيدة بايرون «كافور» (أو معركة «Giaour» وباشا ديلاكروا)، وهي مشتقة من كلمة «كافر» العربية، الذي قد يعاقب بالقتل إذا لم يعتنق الإسلام.

* * *

هذه هي التأمّلات اللغوية التي تذكّرتها حين وصلنا إلى مقهى على مشارف الرقاب لتصوير المقابلة، كان المقهى يغصّ بالشباب الذين يلعبون الدومينو أو الورق أو يشاهدون كليات الأغاني اللبنانية والمصرية التي تبثها قنوات تعود ملكيتها لملياردير خليجي، والتي أصبحت الأفيون الذي سلب عقول الشباب العربي. توجب علينا أن نقطع التصوير عدة مرات بسبب أصوات موتورات التراكتورات الذين يروحون ويجيئون بالقرب منا. شاحنات تمر محمّلة بنساء مركونة بعضها فوق بعض، وهن عاملات حقول، تقبلن أجرًا بائسًا في حقول الزيتون المملوكة من «البورجوازية الكومبرادورية وصاحبة العزب» في صفاقس. هكذا أخبرني المرافق.

تطوع خمسة شباب، من الخريجين العاطلين من العمل للحدث معنا عن مشكلتهم، واحد منهم فقط يتحدث الفرنسية. سألت عن مدى مناسبة مصطلح «الخريجين العاطلين من العمل» باللغة العربية، حتى لا تترجم بصورة سيئة أو يكون وقعها ثقيلاً على السامع، كررتها بصوت عالٍ لأتأكد أنني لم أخطئ، قيل لي:

لا يستحق الأمر كل هذا العناء، الجميع ينطقها باللهجة العامية بـ«Diplomes chomeurs» أي خريج عاطل من العمل، لذا فهنا المعنى المقصود جيداً، بمن في ذلك غير الناطقين بالفرنسية.

قال لي الشباب تقريباً الكلام نفسه، وهو أن: الثورة تعرضت للخيانة من قبل الطبقة البورجوازية في تونس، التي استعادت حركة الشباب والعاطلين عن العمل. في 22 كانون الثاني/يناير 2011، انتهت مسيرة الشباب في سيدي بوزيد والقرى المحيطة بالمطالين باستقالة وزراء بن علي بالاعتصام أمام قصر الحكومة في تونس، في القصة، ليتم قمعهم بعنف وكان من بينهم الخمسة الذين أحاورهم.

وبعد شهر، خلال ما يسمى بمسيرة «القصة الثانية»، رحل رئيس الوزراء السابق لزين العابدين بن علي، لكن البرجوازيين خنقوا العملية الثورية، الأمر الذي هباً لانتخابات 23 تشرين الأول/أكتوبر 2011 والتي وحدت الإسلاميين من حزب النهضة كي لا يؤدي الصراع الطبقي إلى انتصار العمال والفلاحين والطلاب والعاطلين عن العمل. انخرقت الثورة عبر «التيرميدور الإسلامي»، الذي يشمل على طبقة برجوازية الصغيرة ملتحية تستخدم الإسلام للدعوة إلى طاعة النظام الاجتماعي وإظهار العلمانية كعدو.

اليوم، عدم رضا الشعب أمام تراكم الصعوبات الاجتماعية التي عوض عنها السلفيون، وهم نسخة دينية عن الأحزاب الفاشية لسنوات 1930، التي تحرك البروليتاريا الرثة حتى تنفر إلى أفعال متطرفة ضد المتعلمين، الفنانين، والصحافيين التقدميين لخدمة المصالح الرجعية المجسدة بحكم ملوك البترول في الخليج. بعد هذا البرهان، أصدقائي الماركسيون قادونا إلى الميدان الرئيس لرقب. على أسوار مركز الشرطة رسمت وجوه الشهداء الخمسة للثورة. جعلوني أفكر بشهداء شارع محمد محمود، بجانب ميدان التحرير في القاهرة. مجموعة من بينها ملتحون بدؤوا معنا مشادة لم أفهم موضوعها. إن فرنسا الاستعمارية الامبريالية والتي تخاف الإسلام هي المسؤولة عن بؤس تونس. فهمت

في الحقيقة أن لهم مأخذًا على ممثلي الخريجين - العاطلين عن العمل المتهمين بتشويه سمعة تونس الإسلامية أمام التلفزيونات الأجنبية، ولم يقدموا الشريعة للعالم كتطبيق جيد لمستقبل مشرق للإنسانية.

* * *

صورنا دوارًا، قرية مماثلة لتلك التي غادرها محمد بوعزيزي للذهاب إلى سيدي بوزيد، كانت على حافة الطريق، إلى جانب إحدى التلال الصخرية، فيها أكواخ أعيد بناؤها مجددًا ومسيجة بأسوار، والدجاجات الملطخة بالطين تفرّ من أمامنا، كما تختفي النساء من طريقنا، لنبقى بصحبة الأطفال، ولأن الكلاب يعضون أولئك الذين راثحتهم غير مألوفة: تبعتنا وهي تبتح بشراسة دون أن تلمسنا بسوء حتى بدأ المطر بالهطول. بينما كان المزارعون يجلسون القرفصاء أو مستلقين على الأرض حول حانوت (دكان). من بين الرجال الذين تناقشنا معهم حول هجرة الشباب واستنزاف المياه الجوفية، كان أحدهم معتبًا بهندامه ويرتدي ملابس نظيفة. أخذني مرشدنا في المكان جانبًا وهمس لي، إن هذا الرجل أحد قادة الفرع التونسي للأمية الرابعة، وهو تروتسكي قضى معظم حياته في السجن والتعذيب، في عهد كل من بورقيبة وزين العابدين بن علي، عاد إلى قريته محطّمًا ولم يعد يريد الحديث في السياسة.

عندما نظرت إليه تذكرت تونسيًا كنت أتابع معه محاضرات عن الحضارة الإسلامية للمأسوف عليه محمد أركون في سانسيه (باريس) سنة 1975. كنا كلانا مؤيدين للأمية الرابعة في ذلك العصر، هو الفرع التونسي وأنا الفرع الفرنسي. وأتذكر اندهاشنا كبورجوازيين صغار وكمترعرعين في الحي اللاتيني عندما روى لنا (أي أركون) شبابه في الدولة حيث لم يكن يجد شيئًا ليأكله. كانت أمه تطبخ الحجارة كي تخفف نفسيًا من جوع الأطفال على أمل أن يسكت صوت الغليان بطونهم الخاوية.

نظرت إليه بكل اهتمام، مضت أربعون سنة ووجه ريفي تلاشى من ذاكرتي، نسيت اسمه ولكني تذكرت فكه المربع مثل الرجل الذي أمامي. ربما يكون هو! لم يتكلم إلا قليلًا وبلكته المحلية مع القرويين ورفاقه التونسيين. في اللحظة التي تحضرنا فيها للمغادرة وأنا أحيي وأشكر كل واحد منهم، وعندما أتى دوره أظهر لي ابتسامة حزينة وقال لي بالفرنسية هذه الكلمات الخفية: «إذن سيد جيل، لا يوجد إسلاموية هنا ولا سلفيون...».

الشمس تخرق الأفق تحت طبقة من الغيوم، وتشر أشعتها عبر نقاط الشتاء. قوس قزح في السماء يرسم ثم يختفي. دخلنا إلى سيدي بو زيد، بدا الجو محمراً، لقد حان الغروب عندما وجدنا مهد الثورات العربية.

الأحد 9 أيلول / سبتمبر 2012 «أنصار الشريعة»

كان هناك اشتباكات خلال الليل بين الشباب العاطلين من العمل والشرطة، لقد كنا نتنفس رائحة الغاز المسيل للدموع ولم تستطع الرياح تبديد رائحته التي هيمنت حتى على روائح الصباح.

تلقيت اتصالاً على الهاتف المحمول، وقيل لي: «تعال بسرعة، أمر غير قابل للتصديق، أبو عياض بنفسه أمام مسجد التوحيد!»، أسرعت فعلاً للانضمام إليهم للقاء زعيم أنصار الشريعة، المحاط بحراسه، اسمه الحقيقي سيف الله بن حسين، وهذا الأربعيني هو الجهادي السلفي الأبرز في البلاد، ناشط في حركة التيار الإسلامي، رائد حزب النهضة منذ الثمانينيات، هو يقود الجناح المسلح، للجهة الإسلامية التونسية. وعندما قمع بن علي المنظمة في أواخر 1980، هرب من البلاد. بعد عودته من بريطانيا حيث أبعده مواعظه الحماسية من هناك، انضم إلى أفغانستان حيث كان يتردد على ابن لادن في قندهار وأسس مجموعة المقاتلين التونسية، وهو ما يتضح من خلال تنظيم هجوم ضد القائد مسعود في 9 أيلول / سبتمبر 2001، وهي الشبكة نفسها التي خططت للهجوم على كنيس يهودي في جربة في شهر نيسان/ إبريل عام 2002. اعتقل في تركيا في عام 2003، وتم تسليمه إلى تونس، حيث سجن وتعرض للتعذيب حتى قيام الثورة، التي أطلقت سراحه. أسس في أعقاب ذلك أنصار الشريعة في ربيع عام 2011، واستثمر المساجد التي أهملها حزب النهضة للتركيز في السياسة.

من قاعدته في جنوب تونس، نظم احتجاجات عنيفة ضد قناة نسمة التلفزيونية عندما بثت الرسوم المتحركة «برسيبوليس» التي تمثل الله، في تشرين الأول/ أكتوبر 2011. ولا يزال يحفز طالباته للحفاظ على النقاب وأنصاره لاحتلال عمادة كلية الآداب في جامعة منوبة في تونس خلال فصل الشتاء. في شهر أيار/ مايو 2012، قام بتجميع الآلاف من أنصاره في ساحة الجامع الكبير في القيروان، الذي يُعد رمزاً لأزهى عصور الإسلام في تونس، ودعاهم إلى تطبيق الشريعة على الفور.

يقتبس أبو عياض أقواله من بيانات أمير تنظيم القاعدة أيمن الظواهري الذي يتهم النهضة بالكفر لإقرارها مبدأ الديمقراطية. خلال صيف عام 2012، نهب رفاقه معرضاً للفنانين في المرسى بحجة أنهم ينتقدون الإسلام. هذا الرجل الذي جعل تونس ترتجف أعاد الهدوء للأحياء الفقيرة. يدل وجود هذا الرجل في سيدي بوزيد على الأهمية التي تمثلها هذه المدينة لأنصار الشريعة حيث بدأت الثورات العربية وإخضاعها يعتبر انتصاراً كبيراً في نظام الرموز السياسية.

كان أبو عياض ذو الجسد الصغير يرتدي جلباباً رمادياً. نظره ثاقب، يضحك عندما أتحدث إليه باللغة العربية، بالنسبة إليه، يبدو هذا التناقض مسلماً بين مظهري الأجنبي ولغتي. شرح لي عن طيب خاطر أهداف أنصار الشريعة ولم يستبعد إمكانية استجوابه أمام الكاميرا، بعد أن كنت قد حدثته عن حوارنا مع الإمام خليفة عقب صلاة الجمعة واجتماعنا مع السلفيين في السوق يوم أمس. فجأة، حدثني أحد حراسه الشخصيين باللغة الفرنسية، وباللهجة المميزة لأهالي الضواحي الشعبية في منطقة باريس، وبلا شك إنه تونسي نشأ في فرنسا وأبو عياض أعطاه الأولوية للعمل معه، قال لي:

- «لكن هل أنت حقاً الأستاذ جيل كيبييل! يا إلهي، كم هو العالم صغير!

- هل تعارفنا سابقاً؟

- ليس بصورة شخصية، لكن رأيتك على شاشة التلفزيون».

بعد أن أستأنفت الحوار مع أبي عياض، لاحظت أن موقفه مني قد تغير. بدأ يضع العراقيل ويتردد في حوار معي، قال لي إنني يجب أن أعيد تحرير وإنتاج مجمل تصريحاته، لأن الإسلام يحرم التمثيل المسرحي، سواء كان سينمائياً أو تلفزيونياً! وشورى الإخوان هي التي تقرره فقط. سجل رقم هاتفني التونسي على هاتفه المحمول، لكنه رفض الاتصال بي للتأكد منه، قائلاً: «أنا لا أريد أن تعرف رقم هاتفني!»، لكنه ترك لنا رقم هاتف سكرتيره.

جميع محاولاتي لإقناعه بالحديث عن القادة الإسلاميين الذين وردت أسماؤهم في الفيلم، باءت بالفشل، قبل أن يختفي في سيارته ويسير بعيداً إلى وسط المدينة، محمياً بحراسه الملتحين ومفتولي العضلات. عرفني مرشدنا على أحدهم الذي كان أيضاً

مسؤولاً منذ بضعة أيام عن تطبيق العقاب على سكان حي مجاور شربوا الكحول. بعد رحيلهم أخبرني بذلك المرشد الذي تعرف إليّ. همس لرفاقه: «لا تؤخذوا بلغته العربية، هنا يتصنع اللطف، ولكن بعد ذلك حين يظهر على وسائل الاتصال، سوف يحطّم الأخوة». في ثرثرة المستشرق المعسولة يختبئ دائماً سمّ الكفر.

الاثنين 10 أيلول / سبتمبر 2012

الثورة الثقافية السلفية

التقيت اليوم في تونس، ضحيتين رمزيتين لأنصار الشريعة: حبيب كازداغلي ونادية الجلاصي، الأول هو عميد كلية الآداب في جامعة منوبة، والثانية هي فنانة تشكيلية. رفعت طالبة متقبة دعوى ضد حبيب، اتهمته فيها بالاعتداء عليها أثناء مشاجرة بشأن دور الدين داخل الحرم الجامعي وقبّلت المحكمة شكواها. من النواقد حيث العلم التونسي كان معلقاً والذي، حين الاحتلال، نُزِع من قبل السلفيين ووضع مكانه راية سوداء وعليها بالأبيض «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وقعت إشكالات ولكن طالبة أعادت العلم الوطني الذي يعتبره السلفيون إشارة إلى عبادة الأصنام. ولقد استقبلها الرئيس مرزوقي في مدخل المكتب وضعوا فرشاً، يأكلون ويشربون بين الصلوات، فوجئت بالتشابه بينهم وبين اليساريين خلال سنوات دراستي.

* * *

كنت قد التقيت في رحلة سابقة، رئيس السلفيين في الكلية، وهو طالب يدعى محمد بختي، تمّ اعتقاله خلال تفكيك مجموعة تسمى «سليمان» نسبة إلى بلدة قريبة من تونس حيث كانوا يعدون لهجمات ضد نظام بن علي، وأطلق سراحه بعد هروب الطاغية. على الرغم من أنه كان في سن الثلاثين، إلا أنه سمح له بالعودة إلى الدراسة واستئناف دراسته في التاريخ، كتعويض عن انقطاعه خلال العهد الديكتاتوري. سألته:

- «ما هو مفهومك للتاريخ؟

- لا تاريخ سوى تاريخ نبي الإسلام، صلوات الله وسلامه عليه، والحمد لله.

- هل هذا ما تعلمه هنا؟

- لا على الإطلاق، أساتذتنا ملحدون كلاب حراسة للفرنسيين الذين غسلوا أدمغتهم

وأفسدوا عقول المسلمين بتعليمهم الأكاذيب، لكننا عازمون على ملاحقتهم، إن شاء الله!».

أبرزت له مقابلة في مجلة «إفريقيا الشابة» مع صورة له. بعد أن ترجمتها له إلى العربية وبرهنت له أنها حقيقية، طلب مني أن أعطيه إياها، دون أن يبدي أي حذر تجاه تصويره (بالرغم من أنها مسألة ممنوعة بشكل دوغماتيكي). بالمقابل أراني الكتيبات التي يقرأها، التي يحتفظ بها في حقيبة بلاستيكية، مؤلفو هذه الكتب علماء سعوديون من التراث الوهابي أسياذ السلفية العالمية، وعند سؤالي عن حالته الاجتماعية، أجاب أن إحدى زوجاته، أنجبت له طفله الأول، والأخرى على وشك أن تلد.

* * *

انتخب عميد كلية الآداب المتخصص بالتاريخ، من قبل زملائه وتلقى الدعم بالإجماع، وهو عضو في حزب النهضة. يناقش محاكمته بثقة، اقتناعاً منه بأن ملفه فارغ وأن هذه التهمة ستسقط.

سألته عن اسم عائلته، كازداغلي الذي يشير إلى أنه من أصل تركي. «أخبرني زميل تركي عندما زار منوبة عن معناه: «الطفل من جبل إوزة». وأضاف «مثل العديد من أبناء تونس الذين ينتمون إلى العرق العثماني». وتعتنق عائلته المذهب الحنفي، وهو أحد مذاهب الإسلام الأكثر انتشاراً في الأناضول، وأكثر ليبرالية من المذهب المالكي المهيم.

* * *

استقبلتنا الفنانة نادية الجلاصي في مرسماها في إحدى ضواحي تونس الجميلة، حيث تقيم مع زوجها، المتخصص بالعلوم التقنية. أقامت منشأة تعرض فيها الفن المعاصر كما حدث في الصيف في قصر العبدلية في المرسى. قبل أيام قليلة من إغلاقه، قصدنا مأمور مكلف من السلفيين لمشاهدة بعض الأعمال، واستنتج أن بعض الأعمال كان لها طابع تجديفي تجاه المقدس متعارضاً مع النظام العام. بعد ذلك دخلت مجموعة من الملتحين خربوا وكسروا عدة قطع والباقي ضاع بين المهاجمين.

بعد الحادثة، استدعاها القاضي للتحقيق، بتهمة نشر المنتجات الثقافية التي يمكن أن تقوّض النظام العام. وكانت هذه إحدى مواد القانون الجنائي، التي أقرت في عام 1991

في ظل حكم بن علي، وشكلت الأساس القانوني للرقابة الصارمة التي اجتاحت تونس في عهد الديكتاتور، وهي جريمة يعاقب عليها القانون بالسجن خمس سنوات. ولقد أصيبت حتى في هويتها كفنانة في هذا الهجوم المزدوج. بالنسبة لقاعات العرض فإنها لا تخاطر بعرض أعمالها خوفاً من أن تتعرض للاعتداء.

قالت أمام الكاميرا، إنها سوف تعيد بناء الورشة مع ما تبقى: ثلاثة تماثيل للمرأة من البوليسترين، وتمّ تصنيعها في الصين، ذات حجم مختلف ومغطاة بالحجاب كما هو موجود في الأسواق على الرفوف وضعتهم على الحشيش في حديثها في دائرة ومعهم منشورات جرائد تعيد مواضيع الخطابة الإسلامية. ذكرتنا هذه التماثيل المكورة بالنساء المرجمات بالحجارة لارتكابهن جريمة الزنا في أفغانستان. يزعم السلفيون أن المنشأة تشجع على رمي النساء المحجبات بالحجارة. وقد أثارت القضية شعوراً بالضيّق لدى الحكومة حيث أكد بيان وزير الثقافة على تضامنه معها، وسلمه لي زوج نادية. إن وضع النهضة بالنسبة للسلفيين بدا لي فجأة أكثر تعقيداً، من قواعد الرياضيات هذه التي بالنسبة لي لا يمكن اختراقها

الثلاثاء 11 أيلول / سبتمبر 2012

إضراب الصحفيين في تونس

حضرت اجتماع الصحفيين في دار الصحافة، دعت إليه إحدى أبرز الصحف وأقدمها وهي «الصحافة»، للاحتجاج على تعيين رئيس تحرير من قبل حكومة النهضة التي لا تملك وسائل إعلام كبيرة تدعم خطها السياسي، المتهم بمحاولة وضعه من أجل الدعاية للحزب. جاء العديد من الصحفيين التونسيين لإظهار تضامنهم بالإضافة إلى حضور المصورين من القنوات التلفزيونية. أصدرت الصحيفة عائلة من الطبقة البورجوازية المثقفة - صورة المؤسس معلقة في البهو - واستولت عليها الدولة لتروج لنظام بن علي. بعد سقوطه، كانت رئاسة التحرير إحدى وسائل النقاش الديمقراطي واشتهرت بكتابتها الثائرة ضد الحكومة الإسلامية. وحزب النهضة لا يملك وسائل إعلام كبيرة تدعم خطه السياسي. لقد تشرب الصحفيون التقليديون العلماني الذي أسسه بورقيبة. رئيس التحرير الجديد عُرف منذ أن حصل على وظيفته بتقطيع الرؤوس. حتى شخصه قد هوجم. فهو ضابط بوليس سابق أيام بن علي ولكنه أبعد بسبب عملية اختلاس. لقد كتل المعارضات وضاعف من

حالته من أنه قد صدم أحد الصحفيين وأرسله إلى المستشفى. دان المتحدثون ومؤيدوهم انتهاك حرية الصحافة والاستيلاء التدريجي للحكومة على التلفزيون العام. ردت السلطات بأنها منتخبة بطريقة ديمقراطية وتملك مطلق الحرية لتعيين رؤساء وسائل الإعلام التابعة للدولة وديدنون بدورهم الدكتاتورية الفكرية التي تمارسها أقلية علمانية، مفرسة ومرتبطة بالنظام القديم، وبجمهور لم يُعْطها إلا انتخابات متواضعة.

شاركت العديد من الأحزاب اليسارية في الانتخابات، وكثير منها لم تحصل إلا على نسب تافهة، أقل من 1% من الأصوات. خلال الاشتباكات التي تعارض بانتظام كلا المعسكرين في تونس، كان النهضويون والسلفيون، يسمون العلمانيين بجماعة الصفر فاصلة واحد (0.1) لكن إلى أي مدى ستصل إليه هذه الحركة التي يشارك فيها الصحفيون وأساتذة الجامعة في منوبة أو الفنانون الذين يعرضون أعمالهم في قصر العبدلية، هل ستصل إلى المجتمع المدني في البلاد البعيدة عن المناطق السكنية في الضواحي الشمالية للعاصمة؟ وما هو تأثير ذلك على سيدي بوزيد؟

الأربعاء 12 أيلول / سبتمبر 2012

استكشاف القصة

القصة هو الاسم التقليدي للقصة التي تضم السلطة السياسية - العسكرية في المدينة العربية البدائية. تأتي الكلمة من قصب السكر المزروع حول أسوارها التي كانت كافية لحماية السلطات من ثورة الجماهير، لكنها غير قادرة على حمايتها من الاعتداءات الأكثر عنفاً من القبائل البدوية العطشى للنهب التي تكون روح جسدهم ملتحمة بالغزوة النهائية ضد العالم الحضري اللين.

بالمعنى الحالي الفرنسي، أصبحت هذه الثمرة تستخدم للدلالة على لغة المجتمع الاستعماري في شمال أفريقيا، أي إن مصطلح «القصة» يعني تلك البلدة القديمة المتدهورة والقدرة، التي خلفتها الحكومة والأسر الكبيرة منذ مطلع القرن العشرين للتفريغ البشري حيث فشل الأحفاد البائسون المتفخرون المتحولون عن طريق الحضارة الحديثة إلى مهاجرين إلى المدن، عمال في الأرض، ومن الآن وصاعداً إلى متخرجين عاطلين عن العمل.

يقع هذا القصر الإداري «القصة» على حدود تونس، بجوار المسجد الكبير «الزيتونة»،

الذي لا يكاد يفسح المجال لأي استخدام عسكري. كان مقر رئاسة مجلس الوزراء أيام بورقيبة وابن علي، ومنه نقل الطغاة ثروتهم إلى قرطاج، اللجنة الساحلية التي تناثر فيها الآثار القديمة، وهو يشبه نوعاً ما قصر فرساي الباريسي بعيداً عن رعاى المدينة حيث الآثار البونية والرومانية في كل مكان.

أدى هروب زين العابدين بن علي في 14 كانون الثاني/يناير 2011، إلى نقل السلطة التنفيذية إلى رئيس مجلس الوزراء في القصة، لإعادة استقرار المدينة رهينة التظاهرات الشعبية التي تستطيع بسهولة محاصرة هذا المكان المعقد في النسيج الحضري. وهكذا فإن المسيرات الكبرى في شهري شباط/فبراير وآذار/مارس عام 2011، نجحت عن معاناة المحرومين في سيدي بوزيد والضواحي المجاورة للعاصمة للضغط على الطبقات الحاكمة التي كانت تمنى أن لا تتغير الأوضاع بعد نفي الديكتاتور، حاولوا منع الوصول إليه، لكن المتظاهرين غطوا جدران القصر بكتابات ورسومات الجرافيتي على الجدران وقتلوا هناك الشرطة في اشتباكات عنيفة، لذا سُميت «القصة الأولى» و«القصة الثانية».

بعد انتخابات 23 تشرين الأول/أكتوبر 2011، تقاسم ائتلاف الأغلبية الرئاسات الثلاث أي مجلس الوزراء والجمهورية ومجلس النواب. وعين الشريك الرئيس، النهضة، ممثله، حمادي الجبالي، رئيساً للمجلس، في القصة، بينما كان بقية الشركاء الأصغر سناً، من أحزاب المؤتمر العلماني، الجمهورية والتكتل الديمقراطي، لرئاسة الجمهورية والجمعية على التوالي. الثاني (أي رئيس مجلس النواب) دون سلطة حقيقية كما كان تحت نظام بورقيبة وابن علي على حساب نقلة سياسية وضعت تحت رعاية المجلس المؤسس؛ ولكن الأغلبية الإسلامية صادرت حريته في الكلام وفي الفعل.

رئيس مجلس النواب، مصطفى بن جعفر، رجل مهذب، خرج من هذه العائلات الكبيرة التونسية، وذريتها، الذين يتميزون بلون جلد، وعينين، وشعر فاتح. حزبه ينتمي إلى الأهمية الاشتراكية. يسكن في قصر باردو، حيث مقر الرئاسة البكوية القديمة. وهو نصف دائري - على طريقه مجلس النواب في قصر بوربون أو السناتورات في قصر «لوكسمبورغ» - فيه مكتب على الطراز المغربي الأنيق، إنه الأجمل في الجمهورية.

قصر قرطاج حديثٌ ومليء بالأثاث الثمين.. كان يجسد أيام بورقيبة، قوة «المقاتل السامي» ثم ظهر الترف الملفت لخليفته من بعده، ضابط الشرطة بن علي. كان البناء تابعاً لكاتدرائية قرطاج التي بناها الآباء البيض على تلة قريبة تمجيداً لمجد المسيحية القديمة ومؤسسها، القديس أغسطينوس، كأنها كانت من أجل الإرجاع الرمزي لأسلمة أفريقيا الشمالية إلى قرون مظلمة حيث إن الرسالة التمدنية لفرنسا الاستعمارية أوقلت عليها الهالين. بورقيبة هذا الأب الصغير للمدنية كان ضد الكهنوت ويأكل كل شيء من القسيس مثل الإمام - ولكن لم يكن منزعجاً من أن يضع رجله في الكنيسة وأن يعلن في التاريخ الطويل لتونس أنه بربري، عربي. وهذا ما سمح له أن يروض الجامعة الدينية في الزيتونة وأن يحتقر الملتحين شارباً أمام الشاشة كأس خمر في صباح يوم من شهر رمضان.

اختبأ بورقيبة وراء الحجة المقدسة للجهاد حتى يدنس مقدس رمضان، دافعاً بضربة واحدة النمو الاقتصادي لتونس في صراع متعال ليبرر تعليق الأوامر الدوغمانية ويرفض الصوم الذي يضعف الجسد ويقلل من إنتاجية العمل. الجهاد هو نوع من تحريك عام للجماعة، إعلان أن «الأمة في خطر» ما يسمح بالاستغناء عن الصيام، الصلاة وأسس الإسلام: في النهاية انتصار الجماعة يبرر كل الوسائل.

مثل أي شرطي جيد، لم يسع السيد الجديد للاصطدام مع العقيدة، لكنه بنى لنفسه شرعية إسلامية «من إسمنت» والتي باسمها اغتال وعذب الإسلاميين في قصره المنعزل والمخيف.

خلف المحامي والبوليس المخلوع في قصر قرطاج بعد انتخابات 23 تشرين الأول/أكتوبر 2011، طبيب أعصاب كان يعارض دائماً الديكتاتور، مدافعاً عن حقوق الإنسان والذي أمضى عقوداً من النفي عند القوة الاستعمارية القديمة (أي فرنسا). منصف مرزوقي يبدو أنه «ابن تونس الذي تخبئه لأيام بؤسها». أصله من جنوب البلاد، القريبة من الحدود الليبية لونه أسمر وشكله «بربري»، وهو على نقيض الرئيسين الاثنين يلبس ربطة عنق، وعلى طرف بذلته عُلق دبوس يُحيي فيه مجد الثورة.

التقيت به مرتين في القصر، في ربيع 2012، المرة الأولى في آذار/ مارس وجهاً لوجه، والثانية في أيار/ مايو لتصويره. كان محاطاً بمستشاريه، خليط من يساريين سابقين شعرهم

أبيض، منفيين طوال حياتهم في باريس، اختصاصين في تجمعات الطلاب، والشبان المتخرجين الانكلوفون في جامعات الماوراء الأطلسي.

قرر المرزوقي فتح القصر للشعب، وتحولت ساحته- التي لم تخترق تحت حكم بن علي- إلى مرآب مركبات متنوعة، وبذلك شارك السائقون في اجتماعات ممثلي غرف الزراعة أو النقابات المهنية. في الصالونات المذهبة، الظاهرة الأولى للهاجس الأمني القديم كاشفة للمتفجرات تلف بهدوء. في لقائنا الأول، لم يكن لديه كلمات قوية بما يكفي للتنديد بالمعارضة العلمانية التي تتهكم على التحالف المخالف للطبيعة بين الإنسانية والإسلاميين. وقد رد على خصومه أنه يجب عليهم الانحناء لنتائج التصويت لصالح النهضة، مشيراً إلى قوة الهوية الدينية التي فشل بورقية في استئصالها أو القضاء عليها. هو نفسه أثناء الانتخابات لبس العباءة التي لم نرها أبداً في تونس المستقلة.

وكانت النخبة تؤكد عصريتها بلباس يتماشى مع موضة باريس. سمعته يقول لي، منزعجاً من الكلمات الناقدة لإحدى المناضلات: «هؤلاء الناس فرنسيون يتكلمون العربية». الرئيس المؤقت للجمهورية في فرنسيته الممتازة ينزع المواطنة عن هذا أو تلك من مواطنيه الذين يضايقونه بلاشريعيتهم الثقافية.

خلال لقائنا الثاني، بدأت العلاقات بين النهضة والطبقات الدنيا الشعبية بالتوتر، حيث تضاعفت الإضرابات العمالية المنظمة، وأقلقت رغبة الإسلاميين بالهيمنة، أولئك الذين استبشروا وتزينوا بفضائل الديمقراطية، ويبدو أن انتهاكات السلفيين وتركهم دون عقاب شجعت على ذلك. كما رأت الأحزاب العلمانية للترويكاً أن قاعدتها تآثرت تحت رحمة الانقسامات والانضمام إلى أحزاب المعارضة البرلمانية.

خلال حوارنا، كان رئيس الجمهورية قد أخذ مسافة من النهضة:

«في الترويكاً، التي تشكل النهضة أحد أعمدها، وهي جزء أساس من ديموقراطية الطيف الإسلامي، مثل ديموقراطية المسيحي الأوروبي، ديمقراطيون بدلالة دينية قوية، وعلى المستوى الاجتماعي ليبراليون محافظون، من ناحية أخرى، الأحزاب اليسارية العلمانية التي تتوجه بقوة نحو الإصلاحات الاجتماعية بالعمق، والصعوبات التي واجهتها الترويكاً، ليست قضايا فكرية بين الإسلاميين والعلمانيين، إنما توترات بشأن السياسة الاجتماعية. يجب أن تكون النهضة على بيّنة من الحاجة إلى إجراء إصلاحات اقتصادية واجتماعية كبيرة،

مع الأخذ بعين الاعتبار بمطالب التونسي البسيط، وليس التفكير فقط بمصالح الطبقات الحاكمة. وإذا لم يحصل ذلك ففي الانتخابات المقبلة الناس سوف تنسى الأسباب التي من أجلها انتخبوا النهضة في تشرين الأول/أكتوبر 2011 الحزب الأكثر تنظيمًا والمناهض لـ «بن علي» إذا لم نقدم برنامجًا للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي، نخاطر، نحن جميعًا، بأن نفقد الانتخابات. لدينا نوعان من التطرف: يميني ويساري، الظاهرة السلفية والحركات اليسارية، والقناع أو الحجاب الأيديولوجي لا يقدم إلا فقط للتعبير عن المطالب الاجتماعية للفقراء. الآن، نحن نوفر لهؤلاء المتطرفين القضبان لقتالنا.

أثناء إصغائي لمنصف المرزوقي، تذكرت أبا الحسن بني صدر، رئيس إيران الثورية التقدمية عندما بدأ ينأى بنفسه عن آية الله الخميني، وبعد عام من سقوط الشاه. لكن النهضة ليس حزب جمهورية إيران الإسلامية بأجهزته الكليريكو- لينينية عديمة الرحمة على الرغم من إعجاب راشد الغنوشي منذ مدة طويلة بإيران. في مقابلة معه في مجلة إكسبرس الفرنسية عام 1993، قال الغنوشي:

«يستند نظام طهران على إرادة الشعب الإيراني. على حد علمي، لم يزعم أي مراقب أن انتخابات البرلمان الإيراني كانت مزورة أو تم تزويرها. أعتقد أنه لا يوجد إلا برلمانان جديران بهذا الاسم في الشرق الأوسط: الإيراني والإسرائيلي، وبالتالي نحن في إيران أمام دولة شرعية وحديثة. ومن المؤكد أن الحريات فيها ليست كافية، ولكن نأمل أن تتحسن الأوضاع.

منذ ذلك الحين، لم يعد لإيران تلك الرائحة المقدسة عند الإسلاميين السُّنة، حيث إن عرابيهم القطريين والسعوديين يقاتلون حتى الموت ضد عدوهم الشيعي في الخليج العربي الإسلامي، حرب ترخي بظلها على الثورات العربية.

* * *

دارت هذه الأفكار في رأسي عندما دخلت كسبا لتمضية الصباح في متابعة نشاط حمادي الجبالي رئيس الوزراء الإسلامي لتونس المستقلة. الساحة أمام القصر، منذ تظاهرات 2011، كانت معزولة عن السير وعن المتسكعين بالشرائط الشائكة المعدنية، وخلفها وضعت بعض الدبابات وبعض السيارات. إنها الترجمة الحديثة لاستعمال العصي قديمًا، وهي سياج هش للسلطة ضد غضب الجمهور.

استقبلني حمادي الجبالي في مكتب رائع كان محجوزاً قديماً لاستعمال بن علي، الذي استعمله كرئيس للوزراء قبل ثورة السراي، ومن خلالها أرسل بورقيبة إلى التقاعد. استقر بعد ذلك في قصر قرطاج، الشرطي الذي أصبح رئيساً، منع أيّ كان من أن يلوّث المكان بحضوره، وأصبح المكتب محرماً لمدة ربع قرن.

رئيس الحكم الإسلامي، الذي لم أره منذ بدء أعماله، هو قوة من الطبيعة - نتخيل أن ذلك قد ساعده على تحمل سبعة عشر عاماً من السجن والمعاملة السيئة - ضحكته العريضة أضفت عليه مظهرًا مرحًا دائماً.

أوحى لي بأنه رئيس وزراء راديكالي - اشتراكي للجمهورية الثالثة، محباً للفاصوليا وماسوني.. قبل بأن يُصوّر في نشاطاته اليومية في الحكم.

عندما حضرنا اللقاء مع حمادي الجبالي، مستشاره الاثنان اللذان عادا من المنفى - أحدهما من فرنسا، والآخر من كيبك - أصراً أن يتكلم العربية، إنه يتقن الفرنسية. في مقابلة حديثة لقناة التلفزيون، ارتكب خطأً لغوياً وانتشر على الروابط الالكترونية بين أوساط المجتمع الفرانكوفوني. في الصالونات المزخرفة «لمارسا» يتهزون الفرصة لاتهامه بأنه «عروبي» وأنه لا ينتمي إلى العالم الصغير لـ«الليسيه الفرنسية».

أشرت له بأن المقابلة بدأت وأنا لا نريد إحراج من نحاورهم، اختار لغة «مولير» مقتنعاً بأنه من الأفضل التوجه دون ازدواجية للجمهور الذي يتمنى أن يقنعه. أخبرني بأن السفير الأميركي في ليبيا قتل البارحة أثناء الهجوم على مستشارية الولايات المتحدة في بنغازي.

سألته عن رأيه بالسلفية التونسية فقال:

- «الذي يقلقني أن نظرة السلفية التونسية تقفز بسهولة نحو وسائل شديدة الوحشية. وأخاف أن يكونوا أناساً مخترقين من قبل مخابرات أجنبية. ومن ثم فإنه من السهل عليهم أن ينتقلوا بين يوم وآخر إلى العنف، حتى تجاه النهضة التي يعتبرونها كفرًا إنه التحدي الأكثر تعقيداً، والأكثر حضوراً، الأكثر خطورة على تونس الآن، مع الوضع الاجتماعي - الاقتصادي السائد فإنهم يستعملون هذه المرحلة من الصعوبات كي يدخلوا إلى عقول الناس في الأوساط الفقيرة، في ضواحي تونس الكبيرة. الناس تبحث عن الملجأ في هذه الحركة عن طريق شعاراتها الراديكالية. البطالة وعدم المساواة،

هذا ما صنع لبّ المعارضة والتطرف لاحظوا، نحن أيضاً، في النهضة أخذنا جزءاً من ذلك هناك كانت قاعدتنا. ولكن اليوم سلطتنا ليست ديكتاتورية! أن تواجه الصعوبات الاجتماعية - الاقتصادية ليست مسألة سهلة. إنها المشاكل البنوية التي وسعتها الثورة، والآن مستوى المطالبات قد ارتفع عالياً مدعوماً بكل البنى التحتية للأحزاب وخاصة النقابات.

سألته عما يفكر حول اقتراح تعديل مادة الدستور التي تنص على المساواة بين المرأة والرجل لجعل المرأة تابعة، أجاب «الجبالي»:

«في المجتمعات التونسية، حيث المرأة لها مكتسبات لا تقبل الجدل، فإن نضع التبعية ضد المساواة من المؤكد أنه توجه خاطئ. نحن مع المساواة، ولكننا مقتنعون بأكثر من المساواة، يتوجب علينا أن نحارب هذه الأفكار الرجعية تجاه المرأة في بقاعنا - هذه هي التبعية، صحيح - ولكن المساواة بين الرجل والمرأة هي قاعدة كل شيء».

* * *

عند مغادرتنا كسبا علمت أن سكرتيريا أبو غياض، رئيس السلفيين الذي لم يكن يريد البارحة أن يوافق على اللقاء المطلوب «إلا بعد الحصول على رأي المجلس الاستشاري أنصار الشريعة» نادي بالتظاهر ضد السفارة الأميركية في تونس. بسبب انتشار فيلم «براءة المسلمين».

مررنا من أمام السفارة ولاحظنا أنها ليست محمية إلا بشاحتين خربتين عليهما أربعة شرطيين يعمرون خوداتهم ويقذفون بقنابل دخانية ليفرقوا مجموعة مهاجمين يقذفون الحجارة.

الخميس 13 أيلول / سبتمبر 2012

الحبري راشد الغنوشي

كان علينا البقاء يوماً إضافياً في تونس لانتظار راشد الغنوشي. الشيخ راشد، كما يدعوه جمهوره وبعض الصحفيين، كان حتى يوم أمس في قطر. شارك هناك في مؤتمر حول «الإسلام والقومية العربية والديمقراطية» تحت رعاية مركز البحوث من سلسلة

قناة الجزيرة الذي يديره صهره، وزير الخارجية التونسي حاليًا. وبدعمه رئيس الوزراء القطري حمد بن جاسم. كان من المقرر عقد اللقاء بعد ظهر هذا اليوم، اغتنمت الصباح للذهاب إلى «الكرام الغربي»، وهو حي شعبي يقع بالقرب من قصر قرطاج حيث لا تزال الجداريات الأخيرة تمجد الثورة في العاصمة. تعتبر هذه الصور الساذجة عن قتل شرطة زين العابدين بن علي للمتظاهرين، التي تذكرنا قليلاً بـ«الجدران الناطقة» حول ميدان التحرير في القاهرة.

في تونس، كانت الثورة أسرع بحيث كان التعبير الفني أقل، وقامت السلطات على الفور بإزالة الصور وشعارات الواجهات. في حين استطاعت «الكرام» الحفاظ على اللوحات الجدارية، لأن الشرطة لم تخاطر بالذهاب إليه. عند مدخل الحي، يوجد نصب تذكاري يحمل اسم «الشهداء» الذين سقطوا. الشباب المحرومون الذين يعيشون في هذه الشوارع في منازل منخفضة يتم تنظيمهم في عصابات للقتال مع جميع الدخيلين.

* * *

بدأ الغنوشي مسيرته كقومي عربي معاد للغرب سياسياً ويستوحي ثقافته من الحداثة الأوروبية، بعد هزيمة عبد الناصر خلال حرب الأيام الستة في حزيران/يونيو 1967، انهيار عالمه. في سياق الأحداث ذهب في رحلته الأولى إلى أوروبا، والتقى بالشباب المحبطين الذين اجتمعوا في أيار/مايو 1968، استخدم النموذج الثقافي الغربي كمرجع، في 15 حزيران/يونيو لهذه السنة بدأ بالصلاة.

بعد بقائه سنوات في المنفى، عاد الغنوشي صاحب الجسد الصغير بلحية بيضاء تمامًا وشعر كذلك. يرتدي عادة لباساً رسمياً: قميص وبنطلون بدون ربطة عنق (كما يفعل المرزوقي)، إلا في المناسبات الرسمية فإنه يرتدي الزي التقليدي: مع التقدم في العمر والحديث بصوت هادئ، اكتسب مظهرًا وقورًا كأسقف أو رجل دين. كان رئيس حزب النهضة يشغل منصبًا بابويًا سواء كان في حزبه بتحقيق التوازن دون تحديد الاتجاهات المختلفة التي تقسم القادة الشباب، أو في الحركة الإسلامية السنية الدولية وأصبح القاسم المشترك المعولم.

«أود أن أبدأ بالسؤال عن مكانة حزب النهضة في طيف الإسلام السياسي.

أجاب: يغطي الإسلام السياسي مجموعة واسعة تمتد من أردوغان إلى ابن لادن، لكن لا يمكننا أن نضع جميع هذه التيارات في سلة واحدة وهي تفتقر ومن الممكن أن تعمل متحدة. ينتمي النهضة إلى التيار المعتدل الذي يؤمن بالتنوع السياسي، ولا يرى أي تناقض بين الإسلام والديمقراطية، التي هي التعبير الحديث للمبدأ الإسلامي الشوروي [التشاور بين العلماء]. في تونس، نحن جزء من بيئة حديثة، حيث علاقتنا بأوروبا قوية جداً منذ القرن التاسع عشر، نقبل التنوع السياسي، الذي لا يستثني أحداً، خاصة العلمانيين، وتجربة الترويكا دليل على ذلك.

- هل تدفعون ضريبة تسامحك اليوم بسبب السلفيين؟

- بعضهم سلمى، والبعض الآخر يلجأ إلى العنف باسم الجهاد ورفض الديمقراطية، وينبغي أن يكون مفهوماً أن هؤلاء نتاج مجتمع عنيف رفضهم بسبب العلمنة المتطرفة التي بدأها بورقيبة مما أدى إلى ردود فعل متطرفة. نحن أنفسنا عندما هاجرنا في بداية سنوات 1970، في هذا المناخ، كنا راديكاليين، ولدت السلفية الأصولية كرد فعل على عنف بن علي من 1990، عندما ارتبط مع اليساريين والمفكرين الأصوليين الآخرين الذين عملوا من أجل القضاء على الإسلام، تم حظر الحجاب والقرآن، وكل شيء يسمح بتعدد التيارات، لذا وجد الشباب الإلهام من بعض القنوات التلفزيونية عبر الأعمار الصناعية في الشرق الأوسط، التي تشارك فيها عناصر من تنظيم القاعدة التي صنعوا منها نموذجهم، جذبت حرب العراق مئات التونسيين الشباب، وكذلك حرب أفغانستان والصومال وليبيا وسورية أيضاً. اليوم بعد الثورات العربية لم يعد هناك أسباباً لممارسة العنف ضد السلطة. ونحن نعتقد أن تيارنا الإسلامي المعتدل فاز في الثورات العربية لأن الحوار هو أفضل وسيلة للتعامل مع السلفيين كما فعلتم في أوروبا مع اليسار المتطرف واليمين المتطرف، اللذين تم دمجهما في السياسات المؤسسية حتى أصبح لهما أعضاء في البرلمانات الوطنية والأوروبية. عانى (أي السلفيون) من القمع في عهد بن علي بعد الضربة التي تلقاها سنة 1990 حزب النهضة، في العقد الذي يليه. اتجه القمع ضد السلفيين الشباب، إنهم ضحايا، شباب عاطلون عن العمل، سجناء سابقون. ولكن هذه الظاهرة سوف تنطفئ مع الحرية التي تتمتع بها، وبفضل التنمية التي ستظهر في كل مناطق تونس».

الجمعة 14 أيلول / سبتمبر 2012 ارتفاع عمود الدخان الأسود

تأخرت طائرتي إلى المدينة الأوروبية بضع ساعات، من صالة محطة الطيران، أتصفح المدونات والمواقع الإلكترونية التونسية مباشرة من جهاز الكمبيوتر الخاص بي. دعا سلفيو أنصار الشريعة المؤمنين للتظاهر والتعبير عن غضبهم ضد فيديو «براءة المسلمين» أمام السفارة الأميركية، التي تقع على بعد بضعة أميال من المطار. وألقى زعيمهم أبو عياض، خطاباً في مسجد الفتح الكبير في حي لافاييت وسط المدينة، حيث كنت هناك في تشرين الأول/ أكتوبر عام 2011. بعد ركوب الطائرة، رأيت من خلال نافذتي عموداً من الدخان الأسود يتصاعد من منطقة لاك، حيث تمت مهاجمة المجمع الدبلوماسي والمدرسة الأميركية المجاورة للذين كانا فريسة سهلة للنار التي أضرمت.

الفصل التاسع

قطر

السبت 6 تشرين الأول / أكتوبر 2012

الأمن الداخلي

كان من المقرر أن يتواجد وزير الداخلية مانويل فالس على متن الطائرة نفسها التي استقلتها إلى قطر، حيث كان من المفروض أن يقوم بافتتاح معرض ميلبول. هذا المعرض الذي يُنظم مرة كل سنتين للمعدات والتقنيات الأمنية المخصص لمكافحة الإرهاب في دول مجلس التعاون الخليجي، ويستعرض التميز الفرنسي في هذا المجال. ألغى الوزير رحلته في اللحظة الأخيرة وقام بالإشراف الفوري على استخدام هذه المعدات نفسها في فرنسا، إذ قتل في ذلك الصباح برصاص شرطة ستراسبورغ مجرمٌ فرنسي عمره 33 سنة من أصول كاريبية، اعتنق الإسلام بنسخته السلفية الأصولية عندما تمّ سجنه في عام 2009 وتعلمه في المغرب، أفرغ ذخيرة مسدس ماغنوم 353 على الموظفين. وكان مطلوبًا للعدالة لرميه قنبلة يدوية دفاعية على محاسب داخل محل بقالة في منطقة باريسية. أطلق سراح امرأتين حاملتين مقلداً فيديو لموسيقى الراب حيث قام ملتح يرتدي الكوفية الفلسطينية بمهاجمة الغرب والبيض، مردداً «الله أكبر». كانت أسرته ذات صلة بأشهر ناشط للانفصالية الغوادلوبيية، وهو أحد الثوريين في العالم الثالث، أدين سابقاً بسبب هجومه بقنبلة على الجزيرة، ثم تمّ العفو عنه وأصبح لاحقاً مدير سوبر ماركت.

الأحد 7 تشرين الأول / أكتوبر 2012

مُمَوَّل الاخوان

اعتبرت قطر نفسها بطلّة للثورات العربية، إذ كانت قناة الجزيرة، التابعة للدوحة، تمثل لهم القطب والقوة الموجهة الأساسية في تنسيقها وتغطيتها المباشرة وشبه المستمرة لأحداث الربيع العربي. أصبحت هذه الإمارة التي زرتها مرات عديدة على مدى العقد الماضي حديث الصحف الفرنسية. إذ لا يمر يوم من دون أن يُروى عن استثماراتها الكبيرة في وسائل الإعلام وشراء حقوق البث الحصري لمباريات الدوري الفرنسي لكرة القدم، فضلاً عن تمويلها المثير للجدل للمبادرات المختلفة في ضواحي المحرومين والفقراء جدًّا، المنبثقة عن «التنوع المنتخب»، وأغليبتهم من المسلمين.

على إثر تبليغ السفير في باريس عن رغبتني في مقابلة إحدى الشخصيات الهامة حول سياسة «إمارة قطر» تجاه الثورات العربية وكذلك المسؤولين عن قناة الجزيرة، طُلب مني تأجيل رحلتي بسبب تواجد الأشخاص المعنيين خارج البلاد. لقد أصبحت اللائحة الرسمية للمقابلات على مدى التبادلات غير واضحة بشكل متزايد خلال إقامتي، التي اشتملت على زيارات إلى متاحف العلامات التجارية الجديدة في العاصمة الدوحة، ومعارض سياسة الاتصالات المحلية، من دون أن أتمكن من تمييز إن كان هذا عرقلة، عدم كفاءة أو إهانة. على إثر احتجاجات قمت بها، تقرر عدم إلغاء الجولة إلى استوديوهات قناة الجزيرة، حيث كنت قد قمت بزيارتها عدة مرات من أجل إجراء مقابلات للقناة العربية، لكنها استمرت بإعلامنا بعدم توفر مسؤول تلو الآخر.

قبل بضعة أيام من مغادرتي، بثت محطة تلفزيونية فرنسية تقريرًا عن القناة الزميلة القطرية، مشيرة بشكل خاص إلى صحيفة فرنسية من أصل أفريقي تابعة لقناة الجزيرة الإنكليزية، كانت تعمل سابقًا في قناة فرانس 24، ومقارنته بشكل إيجابي منصبها الجديد بوضعها السابق كمضاعفة الراتب والتكفل بنفقات السكن وتعليم أطفالها بالإضافة إلى توفير مركبة لتسهيل نقلها.

كان هذا البرنامج الوثائقي محل تقدير في الدوحة، عرفت في وقت لاحق أنه تمّ توظيف محرره بالشروط نفسها التي تفاخر بها زميلته.

وصلنا في ساعة مبكرة إلى مقر وكالة الأنباء القطرية من أجل سحب تراخيصنا، المفتاح السحري الضروري لظهور أي كاميرا في الإمارة. قدم لنا شاويش أفريقي متنكر بزي بدوي عتيق كوباً من القهوة مع الهال. ثم جعلونا ننتظر طويلاً على كراس في مكتب صغير ممتلئ بكتيبات تمجد الإنجازات الثقافية والرياضية والعقارية المحلية والمشاريع الفرعونية المقبلة للدولة. بالنسبة للقائي بشخصية مهمة، لم تعد المسألة نفسها، إذ كنت قد التقيت في الماضي بالشيخة موزة باعتبارها زوجة الأمير المفضلة، عدا عن وزرائه الرئيسيين.

أما بالنسبة إلى زيارتي لقناة الجزيرة، فقد كانت مجرد تسوية: انتهت سريعاً في المكتب الذي أرسلنا إليه أحد المصريين المشبوهين الذين يوفرون اليد العاملة ونصف الماهرة لدول الخليج التي بدورها تحتوي على عدد ضئيل من الخريجين، لتحقيق طموحاتهم العالمية. كان ممتلئ البطن، مشرق الوجه، غليظ الشفتين، ويرتدي حلة رمادية لامعة فضفاضة فوق قميص بنفسيجي وربطة عنق عريضة أرجوانية اللون تعكس وميض الضوء.

بدا لي أنه يعرفني على الرغم من أنني لا أذكر أنني التقيت به من قبل. كان يجلس على كرسي ذي عجلات كبير، ثم تحدث إليّ بلغة فرنسية دارجة وحادة جداً، قائلاً:

«إذن أستاذ، لم نسמעك تتحدث عن الاستثمارات القطرية في التلفزيون الفرنسي! كنا قد سمعنا عن الزميل إكس» وهو زميل تدور الشائعات الباريسية حول أنشطته التي تدعمها الإمارة بشكل كبير»، لقد تحدث بشكل جيد!، وأنت، لماذا ترغب بزيارة قناة الجزيرة؟ كان هناك تحقيق صحفي منذ أيام في التلفزيون الفرنسي، هل شاهدته؟ ليس من الضروري أن تقوم بتقرير آخر، ما الذي ستضيفه؟ استمتع بإقامتك فحسب، يوجد مطاعم جيدة هنا».

عند مغادرته، قام بتذكيرنا بأن سيارة مع سائق ومرافق خاص تحت تصرفنا طوال فترة رحلتنا. ثم جعلني أوقع بياناً أتعهد من خلاله بعدم كتابة أو قول ما من شأنه أن يعرقل سلامة البلاد أو تعزيز الفتنة الطائفية وهي عبارة مشفرة تشير إلى العداء بين السنة والشيعة، الأمر الذي قد يؤدي إلى طردي فوراً من البلاد.

اتجهنا مع حارسنا الملاك إلى الموعد الرسمي الوحيد المعني بتقديم بعض الاهتمام: إلى الهلال الأحمر القطري. تتواجد العديد من المنظمات الخيرية الإسلامية، من دول الخليج، بكثرة على الحدود السورية في مخيمات اللاجئين ومستشفيات صغيرة، لتقديم مساعدات لا يمكن مقارنتها بغيرها من المنظمات الإنسانية غير الحكومية.

أفاد مجموعة من الصحفيين الذين استطاعوا الاقتراب من المكان أن هذه المنظمات تعتمد شروطاً مماثلة للمعونات الخليجية خلال الحرب في البوسنة، التي كانت توزع في المساجد وتشرط على المستفيدين منها معايير إسلامية صارمة مروراً بارتداء الحجاب للنساء إلى إطالة اللحي للرجال. أما في الحالة السورية، تمّ تشجيع اللاجئين الذين يقبلون المساعدة من بعض المنظمات الخيرية الخليجية على إظهار انتمائهم إلى المذهب السني والتباهي به. من وجهة نظر خليجية، فإن الحرب الأهلية في سورية هي ساحة معركة بين السلطة العلوية، التي تدعمها إيران الشيعية والمعارضة السنية المدعومة من الممالك النفطية العربية. يعتبر اللباس السلفي واللحية الطويلة مع شارب حليق أفضل ترخيص للحصول على الغذاء والأغطية أو العناية الصحية، هذه العقيدة التي تعتبر الشيعة هراطقة أو مرتدين عن الإسلام وقد يعاقبون بالموت. مدير الهلال الأحمر القطري، هو قائد طيران متقاعد، أخبرنا من البداية أن منظمته إنسانية بحتة، لا تحمل أي بعد سياسي أو ديني، والدليل على ذلك أنها قدمت مساعداتها في دولة هايتي. كما زدنا بمجموعة من التفاصيل التقنية حول آليات التبرع لكن لا يزال الغموض سائداً بشأن حجم المبالغ المالية. وعندما غادرنا، لاحظت أن ملائكة الحارس قد غلبه النعاس. اقترحت عليه أن يتمتع باستراحة يستحقها لأن معظم مقابلاتنا ستكون في فندق الشيراتون حيث أقيم. لم يطلب أن يبقى فاختمى مع السائق والسيارة ووعدنا بأن يحضر لنا في وقت لاحق مجموعة من الكتيبات المروجة للعلامة التجارية القطرية، التي سبق أن حصلنا عليها.

* * *

يعتبر الشيراتون أقدم فندق في الدوحة، بني في عام 1979 بتكلفة قدرها 100 مليون دولار، وكان المبنى الواسع الوحيد في غرب الخليج، في منطقة صحراوية قبالة المركز العتيق على الضفة المقابلة.

أما الطريق الذي يقع الفندق في نهايته فلا يزال يسمى بـ«شارع الفندق» بالرغم من وجود المئات منها اليوم. يشبه الفندق الهرم المقطوع مع قمة مسطحة تحتوي مطعمًا بانورامياً ويلتف شاطئه في غابة مدارية صغيرة تمّ إعادة تشكيلها وريها لمدة ثلاثة عقود بالمياه المحلاة وهي تمثل موطنًا للبيغاوات المتحدثة.

* * *

يعتبر الشيراتون أيضًا محور الدبلوماسية الموازية للبلاد بفضل مركز المؤتمرات الضخم والغرف والأجنحة التي استضافت عددًا لا يحصى من الناشطين الملتحين المنفيين من وطنهم، من الجزائريين إلى الشيشانيين إلى جانب رجال الأعمال من جميع الدول التواقفة إلى توقيع العقود. اليوم، أصبح المبنى الأكثر انخفاضًا على الكورنيش يمثل فخر قطر ويوفر المواد اللازمة للإعلانات، حيث ناطحات السحاب المصممة بواسطة أكبر الأسماء في الهندسة المعمارية الدولية التي تحت على المباهة بفخامة ما بعد الحداثة المصنوعة من الزجاج وال فولاذ.

يهدف هذا المبنى الباذخ إلى منافسة الجارة التجارية أي مدينة دبي الإماراتية، وقد شارك في السباق المحلي للعولمة، بالرغم من تقلب حركة التنمية وازدهار الأسواق بسبب الأزمات الاقتصادية والمخاطر الظرفية. تمتلك دولة قطر ثروة مالية لا تضب تعتمد على احتياطي الغاز المضمون على مدى يتجاوز هذا القرن. فهي أغنى بلد في العالم وتملك ناتجًا قوميًا إجمالًا يستفيد منه ما يقارب مئتي ألف مواطن. لكنها دولة صغيرة وهشة مهددة في المقام الأول من جشع اثنين من أكبر جيرانها المباشرين لها، وهما إيران والمملكة العربية السعودية.

بنت دبلوماسيتها على أساس متواصل ودائب لتأمين البلاد من جميع الأخطار، والمضايقات السياسية أو الدينية أو الثقافية المتواجدة على هذا الكوكب، ضمن سباق جنوني أجبر الإمارة على الابتكار المستمر واكتساح لأمحودود في المجالات الجديدة لإنشاء مواقع سلطة حيث تبلغ الوحدة الحسابية لها مئة مليون دولار.

تنتمي الجزيرة، القناة الرائدة في الإعلام إلى هذه الإمبراطورية التي تضم أيضًا شركة الخطوط الجوية القطرية وزيت الغاز «الكيروسين» المعفي من الضرائب وموظفيها بدون نقابة. في مؤسسة قطر، تتواجد فروع لأشهر الجامعات الأميركية في الرمال وتقوم بتأجير علامتها مقابل الحصول على ثروة، وبطولة كأس العالم لكرة القدم المقرر افتتاحها في العاصمة في عام 2022 والعقود الضخمة التي نجمت عنها من أجل البناء والنقل؛ بالإضافة إلى القاعدة الأميركية في «القيادة المركزية»، التي تنطلق منها الطائرات العسكرية لمراقبة منطقة الخليج.

وتطوي هذه الاستراتيجية أيضًا على استثمار الأسهم في الخارج التي تُرجمت في

فرنسا من خلال الحصول على جائزة «قوس النصر» التي أُعيد تسميتها إلى «جائزة قطر قوس النصر»، أو فريق باريس سان جيرمان الذي أصبح قادراً على استقطاب أغلى اللاعبين في العالم. بالإضافة إلى استعدادات الإمارة لنهائيات كأس العالم، وحصولها على حقوق بث مباريات الدوري الفرنسي الأول، بالإضافة إلى إعادة شراء قصور «المثلث الذهبي» الباريسي وشاطئ الريفييرا الفرنسية، الاستثمار في الضواحي وتمويل أنشطة زميلي «إكس» الذي وجد الكلمات المناسبة لينقل إيجابيات هذه الاستثمارات للمشاهد الفرنسي.

لا تهتمّ شبكة العنكبوت الضخمة هذه، التي تتخذ مسؤولية كل هذه الأوامر وتضم أفراداً من مختلف الجنسيات ومناطق النفوذ، بأية أيديولوجيا، شرط أن تعتمد الإمارة على التفاهم والتسامح، ومساندة أو ولاء الملتزمين بالعمل معها، ووفقاً لدرجة الاعتماد عليهم.

بناء عليه، قد تبدو قطر من أشد المؤيدين لحركة حماس الفلسطينية وفي الوقت نفسه تحافظ على العلاقات التجارية مع إسرائيل، دون أن يجرؤ أي طرف منهما على إظهار استيائه منها، وعلى بعد كيلومترات قليلة، تقع أيضاً القاعدة الجوية التي انطلقت منها طائرات لقصف العراق، واستوديوهات قناة الجزيرة حيث كان صدام حسين يستند إلى مؤازر قوي. تمّ تدشين المدرسة الثانوية الفرانكو-قطرية التي أسماها الأمير «فولتير» بإدارة مشتركة مع البعثة العلمانية الفرنسية مع ضمان أن لا تغرس إلا العقيدة الإسلامية في نفوس الطلاب ليدخلوا في منافسة مع زملائهم السلفيين في المملكة العربية السعودية، وبذلك يُدانون بلعنة روح فولتير على حدّ سواء.

بفضل ثروتها الخرافية والفريدة، تحررت الإمارة القطرية من هندسة إقليدس. الخاضعة لمسلمات محددة من حيث إنها تستطيع أن تجعل خطين متوازيين يتقاطعان أو لا يتقاطعان لحمايتها من طمع جارتها إيران والمملكة العربية السعودية العملاقتين المستعدتين لتصفية الحسابات مع الأقرام الأثرياء، لكنهما وجدتا نفسيهما عالقتين بشبكة عالمية قامت الدوحة بحياتها، وعاجزين أمامها بسبب العداوة الشديدة المتبادلة. تعتبر قطر الوسيط في كل الأزمات المحتملة في المنطقة بفضل حكمتها وأموالها، التي مهدت لها تكوين صداقات (تقريباً) لكنها صداقات باهظة الثمن.

رغم ذلك، غيّرت الثورات العربية المشهد مما اضطر قطر، لأول مرة منذ ولادة الدولة الأربعينية في أيلول/سبتمبر 1971، لتأدية دور بطل المسرحية، فاعتلت خشبة المسرح وحفزت الممثلين للعب الأدوار الثانوية بينما لا زالت حتى الآن وراء الكواليس تحرك الخيوط وتغير الديكُور وتلقن النص إذا لزم الأمر. يعد مثل هذا التحول مقياسًا لحالة الذعر التي سادت ممالك النفط الخليجية في كانون الثاني/يناير 2011، عندما كانت الأنظمة الاستبدادية تشاهد الحشود المتحررة في ميدان التحرير في القاهرة أو دوار اللؤلؤة في المنامة.

اكتسح عشرات الملايين من المصريين الثوار عابري البحر الأحمر كوايس الأمراء، بينما يعبر الكثير من الإيرانيين الخليج العربي انطلاقاً من الجزيرة الشيعية البحرينية. كما كانت ردود أفعال المملكة العربية السعودية وقطر مختلفة تبعاً للموارد الخاصة، الصعوبات الخاصة والمنافسة التي تنهك هذين المنتجين للذهب الأسود الفيل السعودي، عملاق النفط، والنمر القطري عملاق الغاز.

يبلغ عدد سكان المملكة العربية السعودية حوالي عشرين مليون مواطن، وأقل من عشرة ملايين مهاجر ومغترب، في حين تضم قطر مئتي ألف مواطن قطري وعشرة أضعاف هذا العدد من المقيمين الأجانب، فساكنها أقل حتى من سكان جزيرة كورسيكا. بالنسبة إلى الرياض، فإن الخطر الأكثر إلحاحاً هو إفقار عدد متزايد من سكان المملكة من التركيبة السكانية الاستثنائية حيث أصبح الكثير من الشباب عاجزاً عن إيجاد وظيفة ويشعرون بالتوزيع غير المتكافئ لعائدات النفط الهائلة، التي يستفيد منها بإسراف خمسة عشر ألف أمير وأميرة إلى جانب أقاربهم الذين يشكلون العائلة المالكة.

وبهدف إجهاض هذا السخط والوقاية من آثار الثورة التي اندلعت في مصر والبحرين، قام العاهل السعودي وهو في عقده الثامن في شهري شباط/فبراير وآذار/مارس 2011 بعد خضوعه لعملية جراحية في الولايات المتحدة بدعم الميزانية العامة للدولة بـ130 مليار دولار من حسابه الشخصي، «بلغت عائدات النفط السعودي حوالي 200 مليار دولار في عام 2010».

استحوذت هيئات نشر الإسلام السلفية، التي تمثل أيديولوجية المملكة وعاملاً موجهاً لمسلمي السنة في جميع أنحاء العالم، على جزء كبير من هذه الثروة.

من الواضح أن السعوديين مقاومون للثورة وكارهون للديمقراطية؛ لكن عدوهم اللدود هو جماعة الإخوان المسلمين. فهي في الواقع، تنافسهم على السلطة العليا للإسلام وتتفاخر بإحكام سيطرتها على مكة المكرمة والمدينة المنورة التي تعتبر منبع شرعيتهم والتمتع بلا منازع بالثروة النفطية.

لمواجهة الثورات العربية، قام «خادم الحرمين الشريفين»، بعد تأمين الوضع في المملكة، بتقديم المزيد من الدعم للتيار السلفي الذي يحث المؤمنين السنة في جميع أنحاء العالم على طاعة كبار العلماء السعوديين أصحاب فتاوى الإنترنت والتي تستمد قوتها من القانون. وكان هذا بهدف الحد من صعود الإخوان المسلمين - صعود تقوم قطر بتشجيعه - ثم مكافحة الشيعة على أسس عقائدية وسياسية، وأخيراً عرقلة التوسع الإيراني في الخليج من أجل تجنب السيطرة الفارسية على النفط المتمركز في شرق المملكة.

بالنسبة إلى دولة قطر، كانت الثورات العربية ذات مجموعة من المعادلات مختلفة، لا يوجد ما يدعو الإمارة إلى القلق على مواطنيها قليلي العدد والمنتشرين بعائدات الغاز. في المقابل، فإن زعزعة استقرار النظام الإقليمي تحت تأثير الأيديولوجيات الديمقراطية بعد الإطاحة بـ«بن علي ومبارك والقذافي» تعتبر تحدياً خطيراً. اختارت دبلوماسية الدوحة وضع ثقلها المالي خلف جماعة الإخوان المسلمين، التي تراها حليفاً موثوقاً يمكن الاعتماد عليه، وغير راغب بزعزعة التسلسلات الهرمية الاجتماعية.

منذ الأيام الأولى للثورة، اتخذت قناة الجزيرة موقف الدفاع عن قضية المتمردين، وأعطت امتياز الوصول إلى استوديوهاتها للإخوان من مختلف البلدان المعنية لشرب مذهبهم على الشعوب الثائرة وليصبحوا المتحدث الرسمي باسمهم قبل النجاح النهائي في الانتخابات.

بعد الفوز بكرسي الحكم، في تونس ومصر، والتنافس بقوة في ليبيا واليمن وفي سورية غداً - قام الإخوان بتأطير العملية الديمقراطية بمنطق إسلامي سياسي، ذلك أنهم كانوا غير مطمئنين لتصرّيات المتقاتلين اليساريين، الذين طالبوا بانقلاب التسلسلية السلطوية، والذين احتلوا الشارع في الأسابيع الأولى للاضطرابات. وهم على استعداد للاعتراف بالسيادة المالية للإمارة وتوفير الشرعية الدينية التي يفتقرون إليها مقابل النظام السلفي السعودي وعشرات الآلاف من العلماء المسؤولين.

قامت قطر، التي تبنت إيديولوجية سياسية ودينية، والتي اعتبرتها الدوحة قادرة على ترويض الثورات في اتجاه يتوافق مع مصالح البلاد، بترويج استراتيجية التوسط في كل الاتجاهات. وأقلق تطور الإمارة بعض حلفائها والعملاء الغربيين، الذين يشعرون ببعض الريبة تجاه الإخوان المسلمين، مقابل ترسيخهم لمبدأ معاداة الغرب والسامية.

هل تجنب الأسئلة المحرجة حول هذه القضايا كان السبب لرفض لقائي بالمسؤولين القطريين؟ رغم أن وصولي إليهم قبل الثورات العربية كان سهلاً، أو لأنهم يخشون أن يظهر في فيلم وثائقي لا يسيطرون على السيناريو الخاص به أو في كتاب لا يخضع لرقيبهم في حين تسبب استثماراتهم في فرنسا جدلاً متكرراً؟

منذ عام 2011، أصبحت خطابات المسؤولين نادرة بشكل متزايد، إذ جعلوا عددًا لا يحصى من وكلاء الاتصال يتحدثون باسمهم ويقومون بالترويج للعلامة التجارية القطرية والمنتجات الرياضية والثقافية. لكنني تجاهلت هذه العقبة من خلال مقابلة شخصيات تمتعت ببعض الاستقلالية وتملك أجندتها الخاصة، كما أنها ستستفيد من هذه اللقاءات بهدف دعم مشاريعها.

قناة الجزيرة، إشعال الثورات وإخمادها

كان «وضاح خنفر» المدير العام لقناة الجزيرة في الفترة الممتدة بين 2003 وأيلول/سبتمبر 2011، حيث شهدت القناة، تحت قيادة هذه الشخصية الفلسطينية المولودة عام 1968، تطورًا هائلًا دفع القناة دفعة صاروخية نحو صدارة القنوات التلفزيونية في العالم ونحو أوج الشهرة حتى أصبحت رسول الثورات العربية ورائدة جماعة الإخوان المسلمين.

بعد تسلم خنفر زمام الأمور أثناء غزو أميركا لبلاد الرافدين، تدهورت العلاقة بين الدبلوماسية الأميركية وإدارة التحرير. إذ كان تعامل المدير العام السابق معها متحاملًا بصورة حفّزت الجماهير العربية ضد سياسة الولايات المتحدة إلى درجة تجاوز الخط الأحمر والدخول في نزاعات مع مصالح الإمارة. وتمّ شكره لكياسته تجاه صدام حسين. كما تألق خنفر عندما ترأس مكتب القناة في بغداد مدة ثمان سنوات رغم إثارته للجدل.

تخلّى وضاح خنفر عن مهامه في 20 أيلول/سبتمبر 2011 وهو في أوج شهرته، بعد بضعة أيام من تداول برقية دبلوماسية أرسلها السفير الأميركي في الدوحة في تشرين

الأول/ أكتوبر 2005 وقام موقع ويكيليكس لاحقاً بتسريبها. وفقاً لذلك أظهر رئيس قناة الجزيرة تقبلاً لضغوطات وزارة الخارجية الأميركية لتحسين تغطية احتلال العراق. هونّ المعني بالأمر الحقائق وأعلن أنه كان ينوي منذ مدة مغادرة القناة لتجنب التقايل من سلطته التحريرية، وترأس بعد ذلك مؤسسة قام بإنشائها «منتدى الشرق» والتي تهدف إلى مراقبة وتوجيه الحكومات الجديدة الناتجة عن الانتخابات، وخصوصاً في تونس ومصر.

في انتظار الاستقرار في هاتين العاصمتين، ظل المنتدى في الدوحة، وفي هذا السياق وافق خنفر أن يمنحني مقابلة حرصاً منه على نشر أخبار مؤسسته. انضم إلينا في غرفتي في فندق الشيراتون، حيث قام المخرج بالتقاط شاشة قناة الجزيرة على التلفزيون الجداري كخلفية.

يبدو لي أن هناك ازدواجية في حديثه. فهو من ناحية يتخذ موقفاً من إحدى الجامعات الغربية التي اختار من أجلها اللغة الإنكليزية لتبادل العقلانية التي يفرضها، وفي المقابل صور القناة تشكل توضيحاً ملموساً على الرغم من عشوائيتها وانحيازها، فكان لنا الناحيتان النظرية والعملية والمبادئ وتطبيقها.

خلال التسعين دقيقة من لقائنا، شاءت المصادفة أن نتابع على الشاشة - بالإضافة إلى شعار القناة والإعلانات (حصرياً للشركات القطرية الكبرى) ونشرة الطقس العالمية ومذيعي الأخبار التلفزيونية - تقريراً عن جبهة مورو الإسلامية في الفلبين يتحدث عن العصابات المسلحة التي تؤدي صلواتها باتجاه مكة، وموضوعات بشأن الذبح الصناعي الحلال للدجاج في شبه القارة الهندية وتلقين اللغة العربية والقرآن لفتيات صغيرات محجبات بالكامل في أفريقيا السوداء وكرة القدم في فرنسا، وأخيراً مقتطفات من لقاء الصحافي النجم أحمد منصور، المنحدر من جماعة الإخوان المسلمين المصريين، مع شخصية تاريخية من الإخوان يروي ملحمتهم على مدى السنوات الثمانين الماضية مقدماً شهادات على ذلك.

من وجهة نظر خنفر، فإن أحداث العالم العربي تمثل في الواقع «صحوة» تغلق قوساً طويلاً و«خطأً تاريخياً» منذ ما يقارب قرناً من الزمن يعود تاريخه إلى نهاية الحرب العظمى، تفكك هذا العالم بسبب اتفاقية سايكس بيكو عام 1916 التي قسمت الأراضي العربية للإمبراطورية العثمانية بين انكلترا وفرنسا، وهذا ما رسم حدود الدول التي لم تتطابق مع

أية أمة، والتي عندما تحرّرت لم تخدم سوى مصالح النخب الموالية للغرب على حساب الشعوب العاجزة عن تحديد وزنها دوليًا:

«ليست سوى صراعات متكررة وتبعية دائمة للأجانب، ومع صحوة 2011، سنقوم بإعادة حركة تعود جذورها إلى أكثر من 1400 عام «أي منذ ظهور الإسلام»، لتعود للدول نشاطها الطبيعي وأهميتها بعيدًا عن التمحور حول الغرب أو السوفيات. ستستعيد الشعوب العربية قوتها التي تمت مصادرتها لمئة عام مضت وستنشئ المؤسسات التي تصافر الجهود مع الذاكرة الجماعية وروح هذه المنطقة» (الشرق).

يعتقد خنفر أن الانقسام الذي نراه اليوم بين الشيعة والسنة والعلويين والمسيحيين والدروز والأكراد والبربر هي حالة مؤقتة جراء نزاعات القرن الماضي، سيتم تجاوزها عبر «حوار يؤدي إلى نهج سياسي مدني، كما نجحت أوروبا في التغلب على صراعاتها مقابل عجز العالم العربي عن ذلك»، تماشى وجهة نظره ومشروعه الذي يحلم به مع عقيدة الإخوان المسلمين:

«لقد ولدوا في عام 1928، في الفراغ بعد زوال الخلافة العثمانية، وسعيًا منهم لاتباع نهج آخر، هذا ما أعطى موضوع الإسلام السياسي بداية حقبة جديدة بعد الربيع العربي حاملًا معه نماذج وفلسفة جديدة سوف تستغرق عدة سنوات لتفسيرها.

بنى الإخوان المسلمون نظرهم إلى العالم على معارضة السلطة وركزوا على الهوية. وهم الآن في السلطة وسيكون عليهم إثبات ذلك! السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو كيف يمكن تطبيق الإسلام في دولة حديثة؟ هذا هو السؤال لأن هذه الدولة لم يؤسسها المسلمون إنما تم استيرادها بعد الحرب العالمية الأولى.

ضمن هذا الحوار الواسع، يمثل الإخوان أحد الأصوات المتواجدة بالإضافة إلى السلفيين الذين ظهروا إلى جانب مجموعات غير منظمة».

سيصبح هؤلاء الإخوان «أكثر براغماتية وواقعية مما كانوا عليه في الماضي»، كما يرى خنفر نموذجًا جيدًا لذلك في الغنوشي في تونس، فهو مستعد لمواجهة العقبات لإيجاد حل وسط لا يؤدي إلى فرض الشريعة أو نظرية أن المرأة «مكملة» للرجل إذا كان هذا العامل سيؤدي إلى انقسام البلاد. يستأنف حديثه:

«لا أحد من الإخوان يريد حكم دولة كطالiban، فالدولة التي يديرها الإسلاميون ستكون

أكثر ديناميكية وعملية من دولة يديرها العلمانيون، لأن الإسلاميين يملكون الشرعية لتحدي الأفكار المسبقة أو التي تمس قضايا تعدّ مقدسة أو من المحرمات في ثقافتنا.

«قامت قناة الجزيرة بتهيئة العالم العربي لهذه الصحوة لأنها نجحت في فهم النسيج الاجتماعي والسياسي لمجتمعاتنا، وخلق شعور جماعي:

من عمان إلى المغرب، يشاهدون البرامج نفسها والضيوف نفسهم أي إنها أصبحت القناة التي يتفق عليها الجميع. ومع الربيع العربي، تحقق كل ما نطمح إليه، لقد كان لحظة الإثارة الكبرى حيث تمّ تغطية أحداث ميدان التحرير في القاهرة بصورة أفضل. قمنا بتكريس جميع برامجنا لها. كانت هناك حاجة لكاميراتنا لمراقبة ما يجري ودراسته بدقة. وكان العالم العربي كله يراقب هذه الصور، لقد كانت أكثر اللحظات الرائعة في تاريخنا، خلال تلك الأيام الثمانية عشر، وضعت ورشة عمل كبيرة تحت تصرف التلفزيون حتى يتمكن العالم العربي من الجلوس وسماع كل الحوارات، الديمقراطية والديكتاتورية، كل شيء كان على المحك!

والأروع من هذا أن النجوم الجدد كانوا شبابًا بحيث شعر الشعب بالنشاط. كما يجب أن نفهم أن هذه المنطقة كانت تمر باكتئاب مزمن وكانت قد فقدت كل أمل بالتغيير!».

حدثت محاورتي عن اليوم الذي أمضيته في رام الله يوم 18 آذار/ مارس 2011، عندما كنت أشاهد القنوات العربية في فندق الموفنبيك، متابعًا تغطية قناة الجزيرة الحية لتحرير بنغازي حيث رفرت الأعلام الفرنسية قبل «ضربة ساركو». بحثت عبثًا عن صور الاحتجاجات والقمع في البحرين بعد دخول القوات السعودية لسحق «الاحتجاج الشيعي» كما يسمى في العالم الشّني، فلم أجد لها أثرًا سوى على القنوات الشيعية العراقية التي حاولت بكل وسائلها المتواضعة إعادة خلق جو ميدان التحرير في دوار اللؤلؤة في المنامة. اعترف لي أن تغطية القناة للثورة البحرينية لم تكن مثالية بسبب حشد جميع الطواقم الإعلامية لتغطية أحداث ليبيا في تلك الفترة:

«العرب قلقون بسبب قوة إيران النووية التي تحاول التدخل في شؤون سورية ولبنان والعراق، ودعم الحوثيين في شمال اليمن والبحرين وشرق المملكة العربية السعودية... هناك استياء في المنطقة العربية ضد إيران، وذلك سبب الصراع الكبير بين الشّنة والشّيعية، والمعروف على مرّ التاريخ!

لكن إيران رغم ذلك تعتبر جزءاً من المنطقة ويعتبر التوازن بين المكونات الثلاثة التركية والعربية والإيرانية ضرورياً. لهذا السبب يجب على إيران أن تدرك حدودها. من بين العناصر الثلاثة يُعتبر العرب الحلقة الأضعف. إذ لكل من الأتراك والإيرانيين دولة قوية، أما نحن فنملك اثنتين وعشرين دولة لكن دون شعور جماعي وهذا هو ما يجب على الربيع العربي إصلاحه: يجب على الأمة العربية أن تستفيق!

أما إسرائيل فمشكلتها كبيرة مع العالم العربي وتركيا وإيران، لا يمكن اعتبارها جزءاً من منطقتنا لا من الناحية الثقافية أو السياسية أو الاجتماعية ولا حتى التاريخية!.

لم يسبق لي أن التقيت وضاح خنفر عندما ترأس إدارة القناة كما لم أستطع الحصول على موعد مع خليفته الحالي. فعلى الأرجح لم يكن لديه الميل ولا القدرة في خضم العمل لاستعراض التاريخ بطريقة أو بأخرى كما فعل معنا الآن. حتى إذا توافق ذلك مع مشاريعه المستقبلية، لا يستطيع إلا أن يلامس التمهيد الأساسي بين سياسة الجزيرة وسياسة قطر.

يعتبر اندلاع الثورات العربية في ظل «صحوة» بعد قرن من السبات والكوارث مع رؤية جماعة الإخوان المسلمين والقومية العربية، جوهر «الجزيرة ميكس»، كما يقال بسخرية في المنطقة.

* * *

نزلت إلى الطبقة الأرضية لفندق الشيراتون حيث تقام لمدة ثلاثة أيام ندوة يتحدث عن «الإسلاميين والحكم الديمقراطي»، وفقاً لمنظور قناة الجزيرة، نُظِّم (مركز الأبحاث) حديثاً وبتمويل من قطر وبقيادة شخصية بارزة في القومية العربية اليسارية، عزمي بشارة، من مواليد عام 1956 «وراء الخط الأخضر»، في مدينة الناصرة ضمن أسرة مسيحية، أعيد انتخاب هذا الجامعي، الذي تدرّب في ألمانيا، أربع مرات ككاتب عربي في الكنيسة وغادر إسرائيل إثر ملاحقته سنة 2007.

وجد عزمي بشارة نفسه مثل الكثير من الناشطين البارزين في المنطقة في قطر حيث الموارد المادية التي تجسد مضمون أفكاره. المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، الذي يترأسه، والذي استفاد من دعم وتشجيع ولي العهد الأمير تميم، لديه طموح بأن يصبح أحد أهم الخلايا الفكرية للغة العربية في العالم إلى جانب كلية الدراسات العليا

المتخصصة في العلوم السياسية التي ساهمت في مركزية الثقافة في قطر. أدرج اسمه في الصراع حول خلافة الأمير الحالي حمد بن خليفة آل ثاني الذي نشأ بين ولي العهد، ابن إحدى أبرز الزوجات، الشيخة موزة ورئيس الوزراء حمد بن جاسم، أغنى رجل في الإمارة وابن عم الأمير.

يمارس الشيخ حمد بن جاسم سلطته واهتمامه بمركز الأبحاث المنافس المرتبط بقناة الجزيرة الذي عقد ندوة منذ ثلاثة أسابيع في فندق الشيراتون كالعادة، تناقش الموضوع نفسه بعنوان: «الإسلاميون والثورات العربية» مع الكثير من المنتمين إلى النخبة الإسلامية الدولية كالشيخ راشد الغنوشي الذي حل ضيف شرف قبل اجتماعنا به في تونس يوم 13 أيلول/ سبتمبر حيث عاد اليوم إلى الدوحة للمشاركة وأدى بدور البطولة مع خالد مشعل، زعيم حركة حماس الفلسطينية، الذي سيبقى من الآن وصاعداً مقيماً في قطر.

الأمر ذاته بالنسبة إلى حسن الترابي، الرمز الرئيسي للتيار الإسلامي السوداني، الذي كان قد جعل من بلاده بين التسعينيات وبداية الألفية الثانية، ملجأً للحركة فقام بتوزيع جوازات سفر لجماعة الإخوان المنفيين من بلدانهم. كما أنني وجدت علي البياتوني، المراقب العام منذ مدة طويلة لجماعة الإخوان المسلمين السوريين، والعديد من الشخصيات غيرهم الذين قبلوا الدعواتين المتتاليتين، والتي تدير الأحزاب والمنظمات الأردنية واللبنانية والكويتية والمصرية والليبية والجزائرية والمغربية وتدور حول جماعة الإخوان المسلمين مع استبعاد كلي لممثلي السعودية. حول طاولة قطر، اجتمع المثقفون القوميون والعلمانيون والليبراليون والماركسيون للرد على أولئك الذين قضوا حياتهم في النضال، وقد تمّ تشجيعهم برعاية إمارة الغاز على العمل من أجل المصالحة مع أعدائهم الذين سلبت منهم الثورات العربية السلطة والدخول كشركاء صغار في تحالف بقيادة جماعة الإخوان المسلمين لمنافسة التحجر السعودي.

هذه المعركة من أجل قيادة العالم السني في أعقاب الثورات هي معركة النمر والفيل بين الغاز القطري والنفط السعودي. «إذا توقف النمر سيتخطاه الفيل بقوته الدفاعية، أما إذا لم يتوقف النمر وانقض على ظهر الفيل، سيموت الفيل ببطء بسبب الإرهاق والنزيف».

بعد العودة إلى الفندق وحضور حفل عشاء رسمي، لاحظت وجود ممر يقود إلى حانة، فوق قاعة المؤتمر وتحت غرفتي حيث صورنا الفيلم مع وضاح خنفر، على الرغم من عدم ذكره في منشورات المؤسسة.

تمّ اختزال بيع الكحول، الذي سُمح به مع تدفق المغتربين، في الفنادق الكبرى فقط بعد احتجاجات المواطنين القطريين ضد هذا التصرف اللاأخلاقي الذي يقدمه الأجانب كمثال، والذي يهدد بانحراف الشباب من السكان الأصليين. في الواقع، أصبح إدمان الكحول والمخدرات لدى الشبان الأثرياء والعاطلين عن العمل مشكلة رئيسية في ممالك النفط الصغيرة حيث لم يعد الحديث في هذا الموضوع من المحرمات حتى في الصحافة المحلية بالرغم من مراقبتها من قبل الحكومات.

للتخلص من شعورنا بالملل، قررنا قضاء عطلة نهاية الأسبوع بقيادة السيارات الفخمة في مسابقات الروديو وسط كثبان الصحراء قبل أن نشرب الكحول داخل الخيام المكيفة. وهناك أخبرني عدد من المسؤولين في الإمارة عن قلقهم من عدم قدرة جيل الشباب المدلل والكسول على تولي المسؤولية، وهذا يطرح مشكلة وجودية حول نجاة دول يجبرها تدني مستوى الكفاءة الوطنية على التنازل تمامًا عن إدارة شؤونها العامة للأجانب، الذين سيستولون على البلاد في نهاية المطاف. وحاليًا فإن المجموعة العرقية الأولى المستقرة في سواحل الإمارات من الهنود الذين يحتكرون القطاع المالي ويسرون أعماله. كما نجد في الجزء السفلي من السلم البنغاليين والباكستانيين والأفغان والفلبينيين الذين يوفرون القوى العاملة العادية، أما في الخدمات، فنجد معظم العرب من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وأما الجزء العلوي من هذا النظام فيسوده الأوروبيون حيث الأنغلو- ساكسون يتفوقون.

توجد «حانة إيرلندية» للمغتربين الأنغلو-أميركيين في الطبقة السفلية من فندق الشيراتون يعلو فيها صوت الموسيقى الصاخبة التي تصم الأذان. قررت أن أجرب حظي في شرب آخر جعة في هذا المكان الذي يشترط الدفع لغير المقيمين في الفندق.

هذه الحانة عبارة عن ملهى ليلي، تراقص على خشبة المسرح شابتين من أصل صيني ترتديان ثيابًا قصيرة وتتخذان وضعيات مغرية. ومن جهة أخرى يتكئ زبائن من الشرق الأوسط أو أوروبا الشرقية تحديدًا في الكراسي ممسكين البيرة بأيديهم ومفتونين بالتعبير

الجنسي الواضح للراقصات. وكان هناك شاب خليجي نحيل في حالة سكر يتمايل ملتصقاً بخشبة المسرح يضع علبة سجائر بتوازن فوق رأسه ويمد يديه نحو مؤخره الفتاة التي حاولت التملص منه بالالتفاف عندما حاول لمس أردافها. فحاول مواصلة التسلق إلى المسرح، ولكن اثنين من الحراس أمسكوا به مما أثار ضجة ودوت أصوات عالية باللهجة المصرية. ثم بدأت المحترفات بالتجول لصيد فريستهن من الحاضرين. جلست بجواري إحداهن، ممثلة القامة وعيناها مرسومتان بالكحل كما هو معروف في منطقة الخليج وقالت لي باللغة الإنكليزية إنها من شنغهاي، وعرضت عليّ خدماتها، بدفع 2500 ريال (530 يورو) «مقابل فتاتين»، و1300 ريال (275 يورو) مقابل واحدة فقط. لكن رغم إجابتي بالنفي، أصرت، فتحول نقاشنا حول نظام الخدمات والعروض لعاملة الحب الكادحة القادمة من إمبراطورية التصنيع الكبرى نحو منطقة تشتري منها النفط ليستقر ميزانها التجاري.

تفاجأت من السعر الذي يبدو باهظاً بالنسبة إلى نموذج مبتدئ، حتى أعلمني أحد المغتربين الفرنسيين في اليوم التالي أن الصينية تكلف 400 ريال «85 يورو» في الليلة الواحدة، بعد ذلك أدركت أنني العميل الوحيد الذي يرتدي بذلة وربطة عنق، وبالتالي خلقت ما يسميه الاقتصاديون مكسباً مفاجئاً. مارست الصينيات الإغراء إثر تدفقهن في السنوات الأخيرة ولاحقوا الفلبينيات في الأسواق الأولى.

الاثنين 8 تشرين الأول / أكتوبر 2012

الشيخ القرضاوي، المرشد

زرت منزل الشيخ يوسف القرضاوي القاطن في حي راقٍ للفيلات الكبيرة على شاطئ البحر، بالقرب من الجامعة حيث يشرف، رجل الدين المصري ذو الستة وثمانين عاماً وخريج جامعة الأزهر وعضو جماعة الإخوان المسلمين، على قسم الشريعة. جرده عبد الناصر من جنسيته المصرية بسبب عضويته في جماعة الإخوان، ومُنح الجنسية القطرية وهي تعتبر شارة تميز وعلامة ثقة من النادر منحها.

يُعدّ القرضاوي الداعية الأكثر شهرة في العالم الإسلامي، وبلغت شهرته ذروتها عبر قناة الجزيرة. فهو يقدم كل يوم أحد برنامجاً دينياً اسمه «الشريعة والحياة»، يجيب فيه مباشرة ولمدة ساعتين على أسئلة المشاهدين ويشرح لهم ماهية الإسلام (وفقاً لتفسيره) والمقررات أو المحظورات في الحياة. ويُعتبر كتابه «الحلال والحرام في الإسلام» ثاني

كتاب من حيث المبيعات باللغة العربية بعد القرآن الكريم، وأكثر الكتب مبيعاً في العديد من اللغات (تم منعه مؤقتاً في فرنسا في عام 1995).

لقب بـ «المفتي العالمي» وهو عضو في مجالس أكبر المصارف الإسلامية مصادقاً بذلك على طابعها الحلال، وهذا ما جلب لها الكثير من العملاء، وهو أيضاً رئيس الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين والمجلس الأوروبي للفتوى والبحوث، لكن شهرته لا تخلو من الاعتراضات.

القرضاوي هو أبو الوسطية: يلتقي هذا المصطلح الذي يعني «الوسط» مع أحد تعريفات الإسلام، «حزب الوسط»، ويعني بذلك الطريق الوسط الذي يقف على بعد متساو بين التطرف السلبي، وخاصة في نسخته الجهادية، والتسامحية التي تغزو المسلمين الدنيويين.

تقوم الوسطية على الهيكل الضمني لعقيدة جماعة الإخوان المسلمين وأنصارهم وأيديولوجيتهم، وهندستهم المتغيرة والمتاحة على موقع الويب إسلام أونلاين الذي يترأسه الشيخ والمقيم في قطر وفي مصر.

يراه السلفيون منافساً لا يطاق لوحدتهم العقائدية التي تترأسها منظمة العلماء السعوديين في معركة قيادة الإسلام المعاصر. فهم يكرهون القرضاوي كشخص، وينددون بتنازلاته للمجتمع الحديث والسياسة.

غمرت الشائعات مواقع الإنترنت الخاصة به حتى إنه تم نعتة «بالقرءاوي» وهو تشابه لفظي عربي. واتهم من ناحية أخرى من قبل معظم العلمانيين في العالم الإسلامي وفي الغرب لمواقفه المتطرفة التي عبر عنها من خلال دعم «العمليات الاستشهادية» (أو التفجيرات الانتحارية) لفلسطيني حماس ضد الإسرائيليين بما في ذلك ضد المدنيين على أساس أن الدولة اليهودية هي مجتمع عسكري يمارس التجنيد لكلا الجنسين، وبالتالي ليس لديها مواطنون «مدنيون».

تجلى عدوانية القرضاوي تجاه اليهود بصفة متكررة وعنيفة مما جعله متهماً بمعاداة السامية. كما إنه أحد أهم وأقوى الأصوات في الحملة التي شنت ضد الرسوم المسيئة للنبي محمد التي نشرت في صحيفة دانماركية سنة 2005 وكانت ردة فعله قوية ضد القانون الفرنسي الذي حظر وجود الرموز الدينية في المدارس سنة 2004. ومع ذلك،

استنكر نوعية الجهاد في هجمات 11 أيلول/ سبتمبر مما يجعل من مرتكبي هذه العمليات متحرين يصلون نار الجحيم بدل أن يكونوا شهداء يتمتعون بملذات الجنة ومحاطين بالاحور العين، علماً أن تنظيم القاعدة يُعتبر العدو للددود لجماعة الإخوان المسلمين. كما أصدر فتوى تحيز مشاركة الجنود الأميركيين المسلمين في حرب العراق لملاحقة البعثة صدام حسين.

* * *

يكتسب الشيخ يوسف القرضاوي سمعته من أسلوبه الذي يذكرني بداعية آخر يحمل الأسلوب نفسه، نشأ يتيماً الأب في قرية بائسة في دلتا النيل وهو الشيخ عبد الحميد كشك، المتوفى. قابلت هذا الخصم الشهير «كشك» لعبد الناصر والسادات منذ وقت طويل وقمت بترجمة إحدى خطبه من أجل أطروحتي وكتابي الأول «النبي والفرعون» في عام 1981.

فقد كشك بصره بسبب إصابته بالتراخوما منذ طفولته وظل معارضاً شرساً يتأمل بشكل غير مباشر التغييرات في العالم من حوله والفرص التي ساهمت في إنشاء طغاة الربع الأخير من القرن الماضي، كالسادات وابن علي والشاذلي بن جديد. هذا ما جعلهم ينظمون ترتيبات مالية مع الاستمرار بالتنديد ضد شرور هذا العالم من دون تخطي الخطوط الحمراء.

كان للقرضاوي عينان يرى بهما التحولات الخفية للسلطة مع ظهور الحركة الإسلامية، وتطور موازين القوى الإقليمية واندماج الممالك النفطية مع الشرعية الدينية. لقد فهم التنازلات التي يمكن لداعية أن يستفيد منها قبل أن تسلط عليه الجزيرة الضوء ولم يتركها أبداً.

يتشارك كشك والقرضاوي في الروح الثورية التي تجمع بين طلاقة لسان فلاح النيل الشعبي والكمال النحوي لعلماء الأزهر. هذه البلاغة المشاكسة هي التي شدت المسلمين إلى الشاشة الصغيرة، ومنحت ربوات المنازل المحجبات دون الخمسين عاماً أو تقني الحاسب الآلي الملتحي، شعور امتلاك أساس علم الإسلام من خلال سحر الكلمات.

يحترق أصدقاؤه سواء كانوا كتاباً أو أكاديميين، والمنحدرون من ثقافة عربية راقية أولئك الذين يتعاملون بالدجل والغوغائية، ويضعون مصلحتهم فوق الجميع.

لمست بالرغم من المبشرين بعدي تمام البعد عن هذه الأيديولوجية، ضرورة مهنية للاستماع إلى خطابه من خلال اختيار النعوت وصياغة الجمل، كما استمعت إلى أكثر الدعاة تأثيرًا.

تمكنت من تحدث اللغة العربية بفضل حفظ مقاطع كاملة من خطبة كسك إلى جانب اللغة المألوفة التي يستعملها القرضاوي حتى يتمكن الجميع من الاستماع إليه، فهو يتجنب الكلمات النادرة الاستخدام في الأدب العربي والألفاظ العامية التي لا يفهمها إلا المتحدثون بها. هذا هو فن الخطيب: فالمستمعون إليه يتوهمون فهم الدين كما توهمت أنا فهم اللغة العربية.

* * *

تُعتبر علاقة الشيخ القرضاوي بفرنسا صراعية، ففي ربيع 2012 وعلى إثر عملية إطلاق النار في مدينتي تولوز ومونتوبان التي ارتكبتها محمد مراح، أخبر ساركوزي صديقه أمير قطر أن القرضاوي (حامل جواز السفر الدبلوماسي المعفى من تأشيرة الدخول)، ضيف الشرف في الاجتماع السنوي لاتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا، ليس موضع ترحيب.

احتج الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين مؤكداً إدانته الحادثة. ولكن شخصاً يحمل كل هذه العدائية لليهود لا يمكنه أن يقتحم حملة الانتخابات الرئاسية الفرنسية بعد أن تعرض مدرّس وثلاثة طلاب من ثانوية أوزار هاتورا للقتل بدم بارد على يد فرنسي ذي أصول عربية أسلم في السجن ومن ثم في الشرق الأوسط.

وجدت نفسي في قطر الشهر التالي، حيث قدمت طلباً لمقابلة القرضاوي لكنه قوبل بالرفض، على الرغم من أنني قد قابلته ثلاث مرات في السابق، لكنه قال إنه لم يعد يستقبل الفرنسيين. طلب مني مساعده المصري عبر الهاتف إرسال بريد الكتروني باللغة العربية بما أن القرضاوي لا يقرأ بلغة أخرى وبيت بنفسه جدول أعماله. فوظفت ما يمكن من العبارات المصقولة والكلمات المختارة لأقارب أسلوبه في استعمال المفردات وساعدني في ذلك بعض الثوريين العرب الذين اعتدت زيارتهم في باريس وقد فوجئوا بطلبي هذا. مر الاختبار بنجاح إذ طلب مني بريدًا إلكترونيًا ثانيًا يذكر لائحة الأسئلة، حتى لا يتفاجأ الشيخ بأسئلتني، فأعلمته أنني أردت أن أفهم الدور الذي نسب إليه في الثورات وكيف

أن الإسلاميين المنتصرين قاموا بإعادة كتابة التاريخ الشاب، وأن ليس لي نية في زعزعة الاستقرار أو إسقاطه في الفخ، فحصلت على موافقة.

* * *

ترتبط فيلا القرضاوي الواسعة بمكاتبه التي تحتوي على مكتبة تمتد رفوفها المعدنية حاملة الآلاف من الكتب الفقهية باللغة العربية، فالشيخ دائم الاستعداد لتغذية فكره بالآراء القانونية أو الفتاوى. كما يقوم بتوظيف مساعدين ملتحين من الشباب لاستقبال رسائل البريد الإلكتروني والمكالمات الهاتفية المتواصلة وإعداد البيانات الصحفية.

بالكاد أنهى طاقم العمل تجهيز الإطار والأضواء داخل مكتبه الشخصي الممتلئ بالزخارف والمزدهم بالملفات والمزین برسم قبة الصخرة في أورشليم القضية السامية للجهاد ورمز للانتصار النهائي. وصل الشيخ من شققه الخاصة التي ينبعث منها صراخ الأطفال، عاري الرأس دون عمامته الحمراء، يرتدي وشاحاً أبيضَ يرمز للأزهر وجلباباً أبيضَ قطرياً.

كان لقاؤنا الأخير منذ ستة أو سبعة أعوام، لذلك أذهلني مظاهر الشيخوخة التي لا نلاحظها أثناء ظهوره في قناة الجزيرة. لم يرد على سلامي مما أثار تساؤلي، لكنه أشار إليّ أنه عليه أن يقوم بتثبيت جهاز السمع في كلا الأذنين، كما طلب مني مساعدته أن أتكلم بصوت عال أثناء طرح أسئلتي:

- «فضيلة الشيخ، ما هو دورك في الثورات العربية؟»

- بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اتبعه. أولاً أريد أن أرحب بكم في قطر.

لدي مسؤولية أمام الله وأمام الشعب وأمام التاريخ من أجل تلك الشعوب المضطهدة من قبل الأنظمة، وكان علي أن أقف معهم منذ اليوم الأول - أعتبر نفسي تونسياً فتونس عربية وأنا عربي، وتونس مسلمة وأنا مسلم. وتصريحاتي ومواقفي دعمت بقوة التحركات الشعبية والحمد لله.

بعد ذلك جاءت الثورة في مصر، أكبر دولة عربية، يبلغ عدد سكانها تسعين مليون نسمة. فذهبت إلى قناة الجزيرة وقلت لهم: «ستنتصر الثورة وسيرحل مبارك»، وفي ذلك

اليوم تغيير كل شيء. بعد ذلك كان هناك ثورة ليبيا وقلت على الفور: «رحل القذافي انتهى القذافي!»، فثار الناس وانتهى القذافي. كذلك الأمر في اليمن.....

سوف يهزم الشعب السوري أيضًا هذا النظام الذي حول السلاح ضده. أنا متأكد من أنني سوف أصلي في المسجد الأموي في دمشق كما صليت في ميدان التحرير وفي تونس وليبيا في طرابلس وبنغازي وسأصلي في سورية، إن شاء الله!

صرح القرضاوي يوم 29 كانون الثاني/يناير 2011 رسميًا على قناة الجزيرة قائلاً: «أيها الرئيس مبارك، أنصحك بالرحيل» متماشياً مع الدور التقليدي للعلماء الذين يعملون في الإسلام على تقديم المشورة وتوبيخ الأمراء. يوم 21 شباط/فبراير، أصدر الشيخ فتوى مباشرة على القناة بإلزام كل شخص قادر على القبض على القذافي وإطلاق النار عليه، لاسيما بعد إرسال القذافي قواته الجوية لقصف السكان، وأشار إلى المبدأ الإسلامي الذي لا يفرض طاعة الحاكم عندما يحكم بالمعصية والتمرد على الله.

كان القرضاوي قد صلى مسبقاً في المسجد الأموي عام 2009 خلال زيارته العاصمة السورية حيث أقام قادة حماس لتنظيم تأييد غزة في مواجهة القصف الإسرائيلي خلال عملية «الرصاص المصبوب»، وعندما قام بشار الأسد بتجسيد المقاومة العربية للدولة اليهودية.

- «كيف ترى فضيلتكم دور جماعة الإخوان المسلمين في الثورة؟»

- الإخوان هم أبناء الشعب، وهم موجودون الآن في أكثر من سبعين دولة، وكانوا أول من شارك في هذه الثورة منذ اليوم الأول. وأنا لا أقول إن كل الثوار كانوا إخواناً، إذ كانت هناك أيضاً حركة «كفاية» وهي حركة تعبت من مبارك وغيرها من الجماعات. لكن شبكة الإخوان هم من دعموا الحركة منذ البداية، فقدموا البطانيات والمواد الغذائية والرعاية، وقاموا بوضع كل الوسائل تحت تصرف الثوار.

كما كان الإخوان القوة الأولى الداعمة للثوار بغض النظر عن ماهيتهم، مسلمون، إسلاميون، ليبراليون أو مسيحيون، لكن الكنيسة القبطية لم تشارك في الثورة، أما المسيحيون كأفراد ساندوا جماعة الإخوان المسلمين خلال تلك الأيام، وفي النهاية انتصرت الثورة!

دائماً ما كان مبارك يقول للغرب: «إذا رحلت أنا، سيأتي الإخوان، ويقتلون الناس،

الخ» حتى جعل المسلمين أنفسهم خائفين من ذلك. اليوم، فهم الناس أن الإخوان ليسوا فزاعة. فأنا إخواني، أكل وأشرب مثل أي شخص آخر، وإذا استمر كل شيء كما هو عليه الحال الآن، فستكون مصر في غضون سنوات قليلة واحدة من أبرز الدول في العالم إن شاء الله».

في الواقع، ركب الإخوان قطار الثورة، متأخرين رغم انضمام الأعضاء الأصغر سنًا إلى اليسار الثوري الذي ينتمي إلى فئتهم العمرية منشقين بذلك عن التعليمات كما ترك الكثيرون المنظمة، ومثلوا بين 18 كانون الثاني/يناير و18 شباط/فبراير، الشريك الثانوي للثورة..

في أول جمعة بعد سقوط مبارك، يوم 11، وصل القرضاوي بنفسه من قطر وقد عدّل موازين القوى حين أقام الصلاة في ميدان التحرير ونقلت خطبته مباشرة على قناة الجزيرة وألقى خطبة حول الإخوان، صوت الثورة.

- «لم تذكر، فضيلتكم، البحرين في قائمة الثورات العربية، كما أنكم وصفتم الأحداث في هذا البلد بكونها «احتجاجات» بسيطة. ما هو السبب؟

- ما حدث في البحرين ليس ثورة شعب واحد، بل هو عصيان مذهب ضد آخر، الشيعة ضد السنة. لم يشارك بها أي فرد من السنة ضد قادة هم أنفسهم من السنة... لقد بدأت بمسيرة شيعية تحت القيادة الإيرانية بلا شك. وأنا أتفق مع (التدخل العسكري السعودي!) البحرين هي من دول الخليج العربي، ولا يسمح لها أن تلجأ إلى إيران.

يعتبر دور إيران في سورية أساسيًا، فهي ترى هذا البلد كعنصر للتوسع السليم لاستراتيجيتها في العالم السني بغاية تحويله إلى عالم شيعي. فنجدها حاضرة عسكريًا مع حزب الله اللبناني والحرس الثوري الإيراني. كما أن الأسلحة الإيرانية تمر عبر العراق... ونحن نرفض ذلك!

كنا مع الثورة الإيرانية ضد الشاه، ولكن ثورتهم الآن تقوم ضد الشعب، وليس ضد الحكام! سوف يرحل الأسد، وسوف ترحل إيران من سورية كما سترحل من لبنان والعراق، وستعود إلى حدودها! فمن المستحيل أن يتحول العالم السني، بهويته ومعتقداته إلى شيعي!».

الإسلاميون والقوميون حول طاولة قطر

في الطريق إلى المطار الذي يأخذنا إلى البحرين، توقفنا في محطة أخيرة في فندق الشيراتون لحضور ندوة حول: «الإسلاميون والحكومة الديمقراطية»، حيث كان الشيخ راشد الغنوشي حاضراً كنموذج تونسي.

وجد الغنوشي نفسه في كرسي الاتهام في تونس مؤخراً بعد أن بُتَّ على مواقع التواصل فيديو، يظهر فيه مع شباب سلفيين في المكتب نفسه الذي استقبلني فيه يوم 13 أيلول/سبتمبر. ويشجعهم على المشاركة في الحياة السياسية من الناحية القانونية وهو الخطاب نفسه الذي قاله لي، ولكن يبدو هنا أنه ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ حثَّهم على الصبر استعداداً للنضال النهائي ضد العلمانيين والليبراليين الذين لا يزالون أقوياء جداً في الجيش والشرطة والإدارة والإعلام والأعمال التجارية والتقابات العمالية.

خلق الفيديو فضيحة في تونس، حيث إنه أشار، وفقاً لخصومه، بالتواطؤ العميق بين حركة النهضة والسلفيين الذين أضرموا النار في السفارة والمدرسة الأميركية وضاعف من أعمال العنف.

في انتظار إنهاء كلمته، كان لي لقاء مع ياسر البرهامي، واحد من أشهر السلفيين المصريين، وهو طبيب أطفال، حصل على شهادة في الشريعة من جامعة الأزهر ونائب رئيس «الدعوة السلفية» بالإسكندرية، وهي أكبر منظمة سلفية في البلاد، وهو مشارك في هذه الندوة. عندما أُجبرت الجمعيات المصرية على الكشف عن مصادر تمويلها الأجنبي في نهاية كانون الأول/ديسمبر 2011 وهي إجراءات متخذة من قبل المجلس الأعلى للقوات المسلحة للضغط على المنظمات غير الحكومية المؤيدة للديموقراطية والمرتبطة بالغرب. تمَّ اكتشاف أن «الدعوة السلفية بالإسكندرية» تتلقى تمويلًا من الجمعيات القطرية. «لم تكن لدي هذه المعلومات عندما قابلته، طرحت أسئلتني ببراءة».

أولاً، أنا مندهش لمشاركة محاورتي في مؤتمر يجمع جماعة الإخوان المسلمين و«العلمانيين» الذين يشكلون اليوم نوعاً ما عاراً عليهم. وخلافاً لجماعة الإخوان المسلمين الذين يفضلون ارتداء بذلة من دون ربطة عنق ولحية مشدبة، كان البرهامي في حلة سلفية بحتة: قبعة على رأسه، وعلى جبهته أثار السجود أثناء الصلاة، واللباس الأبيض تقليداً للنبي، ولحية أطول من قبضته تميل إلى الحمرة.

ولكن لاحظت أنه لم يحلق شاربه كما هو سائد في هذا الوسط. كان يضع نظارات محيطة بعينين ملونتين نتيجة الاختلاط الجيني بشعب شمال البحر الأبيض المتوسط. تحدثت مع البرهامي باللهجة المصرية، بدا له ذلك مسلياً حتى إنه أخذ على الفور بتطعيم ردوده بالفكاهة والسخرية. كان يبتسم طوال المقابلة مما جعلني أتذكر الشخصيات المسيحية المرحلة:

- «كثيراً ما سمع الناس حديثاً عنا لكنهم لم يسمعوننا نتحدث، وأنا اليوم أستغل كل الفرص الجيدة للتعبير، لمدة أربعين عاماً عانينا من ضغوط عدة وأجبرنا على الصمت. أما اليوم، فنحن نقوم بخيارات جديدة وتحولنا من الحظر إلى المشاركة في الحياة السياسية. وقد أعطى الله لنا إسلاماً كاملاً شاملاً والسياسة هي جزء منه في الديمقراطية تأخذ وتعطي. وفي كل الأحوال، نحن ضد الليبرالية التي تمنح الحرية لمخلوقات الله الذين يجب أن يخضعوا لقوانينه.

- أنا مندهش من رؤيتك في قطر، عادة، السلفيون يتمتعون بالدعم السعودي، أليس كذلك؟

- ضاحكاً أي دعم؟ لا يوجد دعم! إذا جئت إلى الإسكندرية يوماً ما: سأريك سيارتي، فهي من طراز سنة 1974!»

ذهبت لإلقاء التحية على الغنوشي، الذي عبّر عن سعادته لقدمه وطرح أفكاره والخروج لمدة يومين عن جو السياسة اليومية في تونس. ثم أخذ مكانه على طاولة الشرف: استضافت قطر قادة جماعة الإخوان المسلمين وغيرهم من الإسلاميين السوريين والجزائريين والسودانيين والأردنيين والمصريين، يحيطون بمنظم المؤتمر القومي العربي الذي ولد في إسرائيل «عزمي بشارة»، لا ينقصهم سوى زعيم حركة حماس، خالد مشعل الذي سيلقي كلمته غداً.

عندما استقبلت الطائرة، تلقيت مكالمة هاتفية من ملاكنا الحارس النعسان، أعلمني أنه لم يستطع الانضمام إلينا في المطار وكان قلقاً حول كيفية تسليمنا حزمة الكتيبات والمنشورات التي تروّج لإنجازات الإمارة. فاقترحت عليه أن يهديها للمحاور المصري لدى وكالة الأنباء القطرية وأن يشكره على نصيحته حول المطاعم الجيدة.

الفصل العاشر

البحرين

الاثنين 8 تشرين الأول / أكتوبر 2012

المقاومة الشعبية

تستغرق الرحلة من الدوحة إلى المنامة نصف ساعة على متن الطائرة: أثناء هذه الدقائق القليلة، سنحت لي الفرصة بالتعرف إلى مضيئة في غاية الجمال تعود جذورها إلى مدينة المرسى التونسية. كانت قد شاهدتني عبر التلفاز وهي في بلدها، فأعربت عن قلقها حيال مستقبل تونس ونفورها من حركة النهضة والسلفيين والإسلاميين بجميع أنواعهم وتضايقت كثيرًا عندما أخبرتها أنني قابلت راشد الغنوشي هذا الصباح.

لم يكن يفصل هذين البلدين المتجاورين سوى خليج ساحلي تنتشر فيه بعض الجزر والذي شكل سبب النزاع بينهما حول السيادة، مما تطلب تدخل محكمة العدل الدولية سنة 1991 للفصل بينهما متفادية بذلك اندلاع نزاع مسلح. وفي عام 2008، فاز فريق فرنسي متخصص في إدارة المشاريع والبناء بعقد إنجاز مشروع بناء جسر يربط بين الدوحة والمنامة ويبلغ طوله 40 كيلومترًا ليكون بذلك أطول جسر في العالم. وفي هذا الشأن تم تخصيص مبالغ طائلة تقدر بمليارات اليورو من أجل تشييد سلسلة متتالية من السدود والجسور تمر عبرها عشرات الآلاف من السيارات يوميًا.

لم يكن بوسعي أن أثبتن سوى أمرين اثنين وسط الحجم العملاق لهذا المشروع السياسي، أولًا: النفقات الخيالية التي تعبر عن إرادة الوحدة بين دول الخليج العربي وثانيًا: تراؤهم الفاحش الذي لا حدود له.

«جسر الصداقة» الذي كان من المزمع إنشاؤه عام 2011، لا يزال إلى يومنا هذا مجرد

تصاميم على ورق. فهل يمكن القول إنّ دولة قطر هي أقلّ حماسة لتأسيس معبر يربط بينها وبين دولة البحرين الشقيقة في وقت تشهد فيه هذه الأخيرة عدّة اضطرابات داخلية، زيادة على احتوائها أغلبية شيعيّة غير مرغوب فيها؟ أم إنّ المملكة العربية السعودية، والتي بدورها ترتبط بخليج البحرين بواسطة جسر آخر يبلغ من الطول 25 كيلومتراً، تريد احتكار العلاقة بالجزيرة البحرينية وإبقائها تحت السيطرة؟ لأنه بواسطة هذا الجسر تحديداً، «جسر الملك فهد»، استطاعت المدرّعات السعودية العبور لإجهاض «الربيع البحريني» في 14 آذار/ مارس 2011.

تعد البحرين منطقة أرضيّة محفوفة بالمخاطر تتجه نحو تصادمات حادة بين الشيعة والسنة، وقد كانت أوّل من أيقظته الثورات العربيّة بالرغم من تواجد اتهامات أكثر فتكاً هزّت في ذلك الحين سورية، في وقت اكتفى فيه العراق ولبنان بمتابعة الأحداث. كما ترابح الحكومة البحرينية بشدّة كلّ التقارير الصحفية وعدادات الكاميرات الأجنبية ويمكن أن تلمس الوضع نفسه في قطر، إذ أن نضبط وسائل الاتصال هو قضية استراتيجية في الخليج.

لا تزال شبكة العلاقات التي نسجت خيوطها بصبر منذ سنوات طويلة، تمكّنتي من الدخول إلى حيث أشاء ما عدا المملكة السعودية، ولكن كل ذلك يبقى غير ثابت. فبالرغم من كل الاحتياطات والتدابير التي اتخذناها، ومع كامل التراخيص التي منحتني إيّاها باريس، ظل طاقم التصوير الذي رافقتي عالماً لأكثر من ساعتين في جمارك مطار المنامة. فقد اختفت رخصة التصوير، التي تمكّنتنا من اصطحاب الكاميرا، والملزّمة قانوناً لجميع الدول، داخل متاهة بيروقراطية.

كانت مملكة البحرين ثالث دولة عربيّة تندلع فيها شرارة الثورة في 14 شباط/ فبراير 2011 بعد تونس ومصر، والوحيدة التي تمّ قمعها من قبل الحكومة وسط لا مبالاة شبه عامة من العالم وابتهاج العديد من الدول العربيّة.

هذه الجزيرة التي تبلغ مساحتها حوالي سبع مئة كيلومتر مربع هي أصغر دولة عربيّة. وتضمّ قرابة مليون وثلاث مئة ألف نسمة نصفهم تقريباً مواطنون. وتعتبر نسبة هامة جدّاً مقارنة بدولة قطر الشقيقة التي لا تتجاوز فيها نسبة السكان الأصليين 20 بالمئة. ومن ضمن هؤلاء البحارنة الأصليين نجد قرابة ثلاثة أرباع العدد ينتمون إلى

الطائفة الشيعية، في حين أن العائلة المالكة التي تركزت هناك منذ القرن الثامن عشر هي من الطائفة السنية.

ارتفعت نسبة المواطنين السنة باستمرار، وذلك بفضل سياسة نشطة لتجنيس المغتربين المتمين إلى هذا المذهب، والذي يؤدي إلى ضرر الأحزاب والمنظمات الشيعية.

لماذا استقر الشيعة في الجزيرة؟ أو بالأحرى هل هم، كما هو الحال في العراق وشرق الجزيرة العربية، السكان الأصليون في البحرين الذين عاشوا من الزراعة وصيد الأسماك أو الحرف، وتبنوا المذهب الشيعي منذ الأيام الأولى للإسلام، في حين انتشر المذهب السني بين البدو الرحل؟ تتأرجح الفرضيات المختلفة بين الباحثين:

وفقاً للبعض، انتشر المذهب الشيعي على يد كبار العلماء المتعطين للعلم. في حين يقول البعض الآخر بأن الشيعة زُرعت هناك حيث كانت تزدهر قديماً - كما في البحرين - وأن المسيحية النسطورية ورجال دينها، هذا الدين دُمِّرَ بقدم الإسلام، لكنها عادت إلى الظهور في صورة المذهب الشيعي مع استيعاب المفردات الإسلامية.

* * *

منذ «الاجتياح»، أنشأت السلالة ما يسمى بالسخره» هكذا شرح لي منصور الجمري ونحن نتناول طعام العشاء بعد وصولي بصعوبة بسبب التأخير في جمارك المطار، وهو رئيس تحرير صحيفة «الوسط» المعارضة، في الخمسينيات من عمره وحائز على عدة جوائز في الصحافة الدولية، وهو ابن الزعيم الروحي والسياسي السابق لشيعة البحرين، الشيخ عبد الأمير الجميري.

يعتقد الجميري أن صورة السخره تجسد قمع العائلة الحاكمة وحاشيتها من اللصوص الشيعة المستعبدين. كما وصف لي كيف أدى اكتشاف النفط في الجزيرة في عام 1931 إلى الإخلال بالتوازن التقليدي في الوقت الذي دمر فيه اللؤلؤ الياباني المزروع صيادي الخليج.

روى لي أحد الضيوف، الذين ينتمون إلى مجموعة المعارضة العلمانية الممثلة خاصة بين المثقفين، التاريخ الذي لا يحتمل للشيوعية في أرض الذهب الأسود:

«مع احتكار الأسرة الحاكمة لعائدات المحروقات، ظهر المزارعون والصيادون الشيعة

كطبقة عاملة في مجال صناعة النفط الوليدة. وحدث الشيء نفسه مع أمثالهم من السعوديين وهكذا، ولدت الطبقة العاملة الشيعة في الخليج، التي من خلالها نمت الماركسية.

بعض أبناء علماء الشيعة «آيات الله»، ورثة التقاليد العريقة من البلاغة الدراسية، انضموا إلى البروليتاريا وبالتالي تقدموا إلى مدارس الحزب الشيوعي في موسكو بدل المعاهد الإكليريكية الكبرى في النجف، حيث تعلموا المادية الجدلية. ولمواجهة هذا التحدي، قامت الحماية البريطانية والسلالة المحلية بالاستجابة لذلك باستعمال سياسة العصا والجزرة.

حدث في الوقت نفسه، قمع وحشد للناشطين وللنخبة داخل الجامعات البريطانية. وهكذا تم إنشاء مجتمع منقسم بشكل غريب، حيث يتواجد عنف الأسرة الحاكمة مقابل الخطر الأحمر والنخبة الفكرية الأكثر ثقافة في الخليج سواء كانوا شيعة أو سنة، من خريجي أكسفورد وكامبريدج، والبعض منهم ارتبط بالماركسيين العائدين من موسكو.

وفي وقت ما، ازدهرت فيه الناصرية والبعثية، تراجع اليسار في البحرين وفي جميع أنحاء العالم الشيوعي بعد انتصار الخميني في إيران في عام 1979، ليحل محله الإسلام الثوري، وليصبح أبناء المادية التاريخية ونشطاء النزعة الأممية البروليتارية في الإطار الديني والتفاني في سبيل الإمام الحسين المظلوم الذي قتل على يد الخليفة العباسي السني في كربلاء سنة 680.

شهدت البحرين بعد استقلالها سنة 1971، خلال التسعينيات انتفاضة اقترضت عنوانها وشعاراتها من الانتفاضة الفلسطينية سنة 1980 ضد إسرائيل. حيث لعب والد منصور الجميري دوراً قيادياً، مما أدى إلى سجنه عدة مرات، ويوضح ابنه قائلاً:

- «قام والدي بتشجيع الشيوعيين والليبراليين والإسلاميين على توحيد قواهم ضد النظام الملكي، وذلك على خلفية نضوب الموارد النفطية وارتفاع البطالة. انتهت الانتفاضة سنة 1999 بعد وصول حمد بن عيسى آل خليفة إلى عرش السيادة الحالي، واعدًا بإصلاحات دستورية قامت بالحد من التوتر، والسماح بعودة المنفيين وإجراء انتخابات وتكوين أحزاب وإصدار صحف مستقلة.

وفي هذا السياق أطلقنا صحيفة الوسط. لكن سرعان ما أصبنا بخيبة أمل: إذ بقي جوهر السلطة في يد العائلة المالكة وغالبية السكان لا تزال تعاني من التمييز العنصري».

الثلاثاء 9 تشرين الأول / أكتوبر 2012

التناقض البحرينى

إلى غاية أحداث 2011، أظهرت الجزيرة البحرينية للزائرين الأجانب صورة الدولة الأكثر ليبرالية من بين دول الخليج العربي. حيث ازدهرت الساحة الفنية التي تعتبر من المحظورات في الدول المجاورة، إلى جانب المعارض والمسرحيات والندوات التي تطرح موضوعات يمكن أن تثير النزاعات والخلافات بين الملتحقين المحليين، والتي كانت غير واردة في قطر، ناهيك عن المملكة العربية السعودية.

ليبرالية التقاليد هذه لها وجه آخر. فبالإضافة إلى البيع الحر للكحول، نجد الدعارة التي جعلت المملكة تلقب بـ«بيت الدعارة الخليجية». فالمذهب الشيعي الذي يجيز «زواج المتعة» أو «الزواج المؤقت» الذي يعقده الملا لفترة تحدد مسبقاً، يوفر لأقدم مهنة في العالم نوعاً من ضمانة دينية وتنظيم كنسي. أنشأ هذا التقليد الذي يغذيه فقر البحرينيين، حكماً بأن الحداثة قد تعولمت إلى درجة عولمة الرقيق الأبيض وإغراق السوق بالقوى العاملة الأوروبية والآسيوية الرخيصة.

يمكن أن نلاحظ في كل مكان على طول الطرق السريعة، علامات مرورية ضخمة تشير إلى اتجاه «المملكة العربية السعودية» كوسيلة لإعادة العملاء الذين اجتاحتها «أرضية الملك فهد»، الملقب بـ«جسر جوني ووكر» الذي يربط البلدين من مساء يوم الأربعاء حتى مساء الجمعة خلال عطلة نهاية الأسبوع مسبباً ازدحاماً هائلاً.

اقترح عليّ أحد الضيوف المرحين والعاشقين للويسكي يوم أمس، حل لغز:

« هل تعرف لماذا انطلق الغزو العسكري السعودي لإخماد الثورة يوم الاثنين 14 آذار/ مارس 2011 وليس الأربعاء؟

-آه، هل لأن الجيش السعودي في إجازة عطلة نهاية الأسبوع؟

-ها ها! لا، الجيش لا يعمل أكثر أو أقل من الأيام الأخرى. بل لأن المدرعات لا

يمكنها المناورة في ظل الازدحام المروري.

أنجز هذا الجسر الحدودي في عهد العاهل السعودي فهد سنة 1986 وهو رمز لتبعية الجزيرة المتنامية لجارتها الكبرى، منذ استفاد حقول النفط. تأتي الموارد اليوم من خلال استغلال وتكرير المحصول الذي تمنحه المملكة الوهابية السعودية

لدعم شقيقتها السنية الصغرى، بالإضافة إلى عائدات قطاع الترفيه والمركز المالي في المنامة.

سرت شائعات مستمرة عن الجزيرة بعد أحداث 2011، حول عملية إلحاقها القريب بالمملكة العربية السعودية، كما حدث مع هونغ كونغ والصين. وكانت آخر كلمة قالها محاورى الطريف:

« هذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعل من الشيعة أقلية! ».

* * *

كان لقائى الرسمي الأول مع وزيرة الدولة لشؤون الإعلام، سميرة رجب التي تتخذ مظهر الحدائه، فهي غير محجبة، وقالت إنها تلقت تعليمها في بغداد عندما كان يُشاد بالعراق باعتباره منارة للتقدمية العربية، وكانت ناشطة في جمعية لحقوق المرأة المضطهدة من التقاليد الدينية. ومع ذلك، أثارت هذه الصحافية السابقة باعتبار تحدرها من قومية عربية معادية لأميركا، ضجة لمساندتها صدام حسين خلال غزو العراق سنة 2003، وعداوتها لعدد كبير من رجال الدين الشيعة.

تطاولت سميرة رجب سنة 2004، على آية الله علي السيستاني المقيم بالنجف ونعتته «بالجنرال الأميركي»، مما أثار ضجة بين أتباعه المحليين. وفي حزيران/يونيو 2009، أثناء محاولة البحرين الحفاظ على علاقات متوازنة مع إيران قبل أحداث 2011، كتبت مقالاً تنتقد فيه تزوير إعادة انتخاب الرئيس محمود أحمددي نجاد في طهران بعد سحق «الثورة الخضراء» في البلاد، مع تمرير إشاعات حول «أصوله اليهودية». تمّ توقيف نشاط الصحيفة التي نشرت المقال لأربع وعشرين ساعة كرد لها.

سرعان ما اختفى هذا التحفظ تجاه الجار الفارسي العظيم بعد إجهاض ثورة 2011، إذ عُرض منصب وزارى حساس على هذه البطلة ذات الخط الصدامي تجاه الشيعة السياسية وجمهورية إيران الإسلامية وهي نفسها تنحدر من هذه النخبة الشيعة العلمانية التي يتحالف جزء منها مع النظام الملكي. وتمّ تعيينها في نهاية شهر نيسان/إبريل، بعد إقامة سباقات الفورمولا 1 في البحرين عام 2012، التي أوقفت العام الماضي بسبب التمرد.

استقبلتنا السيدة رجب في مكتبها الكبير المزين بصور لأربعة أفراد من العائلة

المالكة. هي الصور نفسها المنتشرة في جميع الأماكن العامة باستثناء القرى الشيعية: الملك حمد ابن عيسى، والده الراحل، عمه خليفة بن سلمان ورئيس مجلس الوزراء لمدة أربعة عقود، وابنه ولي العهد الأمير سلمان بن حمد. تمّ تهميش هذا الأخير الذي جسد انعطافاً ليبرالياً، منذ 2011، لمصلحة رئيس الوزراء التابع لاتجاه متشدد في مواجهة المعارضة الشيعية التي قام بقمعها في العهد السابق، والمؤيد الكبير للاتحاد مع المملكة العربية السعودية.

تحدث معي مساعد الوزيرة بلغة فرنسية ممتازة، وعندما أثار موضوع بحثه الذي كتبه حول إحدى كتيبي في جامعة غرونوبل، أدركت أنه من أصل تونسي، وبالتالي سني نال حديثاً الجنسية البحرينية. أبلغني أن محاورتي ستحدث باللغة العربية، على الرغم من أنها تتقن الإنكليزية ولكن بدافع النزعة القومية الثقافية:

«عكست الأحداث التي وقعت هنا في شباط/فبراير 2011 ما كان يحدث في أماكن أخرى من العالم العربي، ولكن هذه الاحتجاجات كانت ذات صبغة طائفية شيعية تحت رعاية حزب المعارضة «الوفاق»، الذي ينتمي إلى التيار السياسي الشيعي وغيره من المنظمات غير المسجلة بغض النظر عما يتحدثون به عن الديمقراطية أو غلاء المعيشة. اقترح عليهم ولي العهد منذ البداية، الحوار المفتوح، لكنهم رفضوا. وكل ما أرادته المعارضة هو استفزاز السنة وخلق فتنة طائفية خطيرة جداً، فكان هذا سبب التدخل الأمني.

ومهما كانت الأسباب الداخلية، نحن دائماً على استعداد لمناقشتها. هذه الاحتجاجات هي جزء من المجموعة الإقليمية التي تضم سورية أيضاً، حيث نلاحظ حضور التدخل الإيراني بقوة. وهي تتمثل في التيارات السياسية الإسلامية الشيعية التي في كل مكان ترتبط بإيران حتى لو ادعت العكس.

انظر إلى ما وصلت إليه ليبيا اليوم. هل يجب أن تترجم الاحتجاجات بتدمير البلد؟ إذا كانت هذه هي الحال فلن نستطيع أن نسير إلى الأمام في الإصلاحات وعلى العكس فقد نتراجع لنصبح دولة إسلامية ذات طائفة أحادية كما في إيران والسودان وهذا الأمر ليس جيداً.

لماذا قضى الغرب على كل هذه الحركات الدينية؟

قبل تفوق الملتحين باسم ثورات 2011، اعتبر البعثيون وجزء من اليساريين العرب أن

الإسلام السياسي هو مجرد مؤامرة من قبل البريطانيين والأميركيين لدعم القوى الرجعية وعرقلة التقدميين المناهضين للإمبريالية».

وهنا تتهم الوزيرة المؤيدة للتدخل العسكري للمملكة الوهابية السعودية في البحرين يوم 14 آذار/ مارس 2011، المذهب الشيعي بأنه مسيس، مشيرة إلى انتقام القوميون العلمانيين العرب ضد إيران.

بعد انتهاء اللقاء، مررنا للحصول على تراخيص التصوير، وهناك علمت بأن لدينا حق التصوير فقط في بعض مراكز التسوق وسط النمامة والأحياء السنية الراقية، وليس في القرى الشيعية. يعتبر منهج مراقبة الصورة في البحرين مختلفاً عن منهج قطر. فهنا، أعرب المسؤولون بأنفسهم عن حرصهم على التصوير الخارجي الذي يأملون أن ينتقل لصالحهم من خلال اللعب على مخاوف الغرب تجاه إيران وأحمدي نجاد وسعيها للحصول على الأسلحة النووية. أما في الإمارة المجاورة، لقد انغلق السياسيون في خطاب منمق، واختاروا تحريك رجال الأعمال سرّاً.

أرادت مملكة البحرين تطبيق الديمقراطية منذ أن أقر ملك الجزيرة دستوراً عام 2002. فجمعية الوفاق (يمنع استعمال مصطلح «حزب») وصحيفة الوسط لمنصور الجميري مرخص لهما. ولكن خطاب الوزيرة رسم خطأ أحمر لتفسير الأحداث: «الاحتجاجات» الشيعية الطائفية والمتعصبة، تحرك من قبل إيران. ولكن التراخيص التي تمنحها الوزارة تحظر أي تحقيق في الأبعاد الاجتماعية للثورة التي خنقتها الحكومة.

للتغلب على هذه العراقيل، حصلنا على مساعدة من سائق شيعي داهية، وهو من سكان إحدى هذه القرى الفقيرة يتحرك بها مثل سمكة في الماء، ومن صحافية شابة من المذهب نفسه، كانت مكشوفة الذراعين لا تضع الحجاب، تنازع وسط مجتمع تسيطر عليه إعادة الأسلمة منذ أن فرضت جمهورية إيران الإسلامية معايير اللباس والسلوك في أواخر السبعينيات، وتنحدر من عائلة بقيت ملتزمة باليسار ولم تستسلم للضغوطات الدينية.

قمت بزيارة مكتب الوفاق لكن الأمين العام، الشيخ علي سلمان، الشيعي المعتم كان خارج البلاد. فالتقيت المتحدث باسمه، خليل المرزوق، رجل في الأربعين من عمره وسيم، أنيق، يشارك في نقاشات الراديو ويتواصل مع وسائل الإعلام الأجنبية. كان يرتدي حلة داكنة أنيقة وربطة عنق أرجوانية فوق قميص أزرق مخطط مع لحية خفيفة يمكن أن

تكون مجرد نزعة عصرية كما يمكن أن تكون صورة للتقوى واضعاً في بنصره الأيمن خاتماً فضياً فيروزي اللون.

وفقاً لاعتقاد نقله الإمام السادس من بين الأئمة الاثني عشر المبجلين لدى الشيعة، جعفر الصادق، فإن هذه الجوهرة، التي توضع في اليد اليمنى في حلقة معدنية بيضاء تمنح الصحة وتقوي القلب.

أحاط بالمتحدث اثنان من قادة الجمعية، كان الأول السيد، أو من سلالة النبي، يرتدي حلة رمادية بدون ربطة عنق، منمق اللحية وعريض الجبين، يضع في خنصره الأيسر عقيقاً بالإضافة إلى الخاتم الفيروزي في بنصره الأيمن. وفقاً للإمام الصادق، فإن صلاة من يلبس العقيق تتضاعف أربعين مرة. تعدّ مثل هذه العقائد حول ميزة هذه الأحجار الكريمة خرافة بالنسبة إلى الشرق الماقبل - إسلامي، بما في ذلك الزرادشتية المحافظة المتعمقة بعلم اللاهوت الإسلامي. أما المسؤول الثاني فكان امرأة شابة ترتدي زياً إيرانياً إسلامياً يتمثل في فستان أسود طويل ووشاح رمادي مزركش بالأبيض.

لا يوافق أي منهما على مصافحة شخص من الجنس الآخر، كان مظهرهما يذكرني باتباع حزب الله اللبناني أو الحكومة الإيرانية. وكانا حريصين على التحدث باللغة الإنكليزية لضمان عالمية رسالتهم، حتى وإن لم يكن السيد والمرأة المحجبة متمكنين من اللغة. بدأ المتحدث بالتكلم أولاً:

«بسبب التقسيم الانتخابي، لم يحصل الوفاق إلا على ثمانية عشر نائباً في البرلمان سنة 2010، و45% من المقاعد بالرغم من فوزه بـ 63% من الأصوات!، فقررنا بعد قمع ثورة شباط/ فبراير 2011 مغادرة البرلمان لأننا لم نعد قادرين على حماية الشعب في ظل النظام القائم.

البحرين تحكمها عائلة يترأسها ملك يقوم باتخاذ جميع القرارات وتخضع لسيطرته كل المؤسسات. فولد هذا الاستبداد وهذه السلطة الفردية مشاعر الإحباط الشعبية، وليس صراعاً بين الشيعة والسنة.

شهدت المملكة منذ العشرينيات 1920، حركات ثورية في كل عقد من الزمن، وقد استلهمت الثورة الماضية حركتها من الربيع العربي لأنها استطاعت أن تفعل ما لم تتمكن من تحقيقه خلال قرن. حيث نزل الناس إلى الشوارع، وقمعهم الجيش، لكن ظلوا

مصممين على تحقيق المشاركة السياسية وتقاسم ثروات البلاد. وهم لن يعودوا إلى الخلف بعد اليوم!»

قام السيد بتعداد مئة قتيل جراء التعذيب ورمصاص الشرطة أو جراء الاختناق بالغاز المسيل للدموع أو بسبب الإصابة دون تلقي الرعاية. كما ذكرت زميلته اعتقال الشرطة لمجموعة من النساء من منازلهن ليلاً، عن طريق شرطة اعتمدت سياسة الاعتداءات الجنسية هؤلاء النساء اللاتي تعرضن للاغتصاب هن الموظفات، الطبيبات، والمعلمات تُردن في عملهن ليحل محلهن عمالة غير ماهرة مؤيدة لنظام الحكم».

وواصل المتحدث قائلاً:

«المشكلة لا تكمن في الاختلاف بين الشيعة والسنة، إذ نجد سنة ثورية تم قمعها، وهي لا تكمن في المجتمع الآخر، بل في سيطرة العائلة المالكة على كل شيء: التحدي يكمن في المواطنة المتساوية! فهم يزعمون أن إيران هي من تحرك الخيوط، وهذا هو السبب في أن المجتمع الدولي لا يتفاعل معنا حتى عندما يكون الصراع من أجل قيم كونية.. فما حاجة إيران إلى ست مئة ألف بحريني؟ فهم بالكاد يساؤون عدد المارة في أحد شوارع طهران!

لا تفك الحكومة تردد «إيران! إيران!» «تجنباً للإجابة على سؤال بسيط: لماذا يظل رئيس الوزراء في منصبه لاثنين وأربعين عاماً؟ هل هي إرادة إلهية؟

صارت جمعية الوفاق، التي تدعو إلى معارضة سلمية، متخطة من قبل جماعات أكثر راديكالية. هذه الجماعات لا تفوض التعقل والاحتراص في خطابها الشمولي. فحزب الحق الممنوع على سبيل المثال، يطالب بإقامة جمهورية في البحرين على غرار جمهورية إيران الإسلامية. كما نظمت حركة «شباب 14 شباط/ فبراير» تظاهرات بعد حلول الظلام في القرى الشيعية، ونسبت زجاجات المولوتوف والتفجيرات إليها.

بعد المقابلة، ذهبت إلى مأدبة غداء أقامتها وزيرة الثقافة، التي كنت قد نسقت معها في الماضي، مؤتمرات في قاعة المتحف الوطني. هذا المبنى الجديد، بالرغم من فخامته لا يتردد إليه الكثيرون. يعرض قطعاً فنية حديثة لا يمكن أن تسيء إلى صورة المتاحف الغربية الكبرى لكنها سوف تسبب التجهم في الإمارات الأخرى.

تورطت الوزيرة التي تنتمي إلى العائلة المالكة، في مشاكل مع بعض أفراد العائلة

الحاكمة الأكثر تحفظاً نتيجة تقديمها لأحد عروض الباليه بلباس قصير الذي أثار غضب المتزمتين وهي غير محجبة.

أهدتني كتاباً قامت بتحريره كتحية لأعمال الداعية الإسلامي الراحل محمد أركون، الذي كان أستاذاً. الذي لقب بمفكر الإنسانية، يحتوي على بعض الصور اللطيفة لأستاذاً العجوز بطريقة أندي وار هول. وكانت زميلتها سميرة رجب مدعوة أيضاً ووصفت عملها بـ«المذهل».

* * *

التقيب فريق العمل بقرية باربار الشيعية في ضواحي المنامة، في المنطقة المحظورة من التصوير. وتعرف هذه القرية بمواهب فناني الشارع التي تغطي الجدران برسومات واقعية تمجد الثورة تحت توقيع «رجال باربار الأحرار». قام المخرج بتصوير الرسومات التي تحاكي بألوان زاهية صور «شهداء الثورة» والسجناء السياسيين.

أثارت انتباهي إحدى اللوحات التي كنت قد رأيتها على أحد مواقع الإنترنت: تمثل جزيرة البحرين بألوان علمها الأحمر والأبيض مع صورة الناشط في حقوق الإنسان عبد الهادي الخواجة الذي تم اعتقاله في نيسان/إبريل 2011 وحكم عليه بالسجن مدى الحياة في حزيران/يونيو بعد تعرضه للتعذيب، واعتبرته منظمة العفو الدولية سجين رأي. إلى جانب شمعة كبيرة مضاءة تقطر قاعدتها دماً رمزاً لـ110 أيام من الصوم الاحتجاجي والذي انتهى بتغذيته بالقوة لمنع وفاته أثناء الاحتجاز. تذكرني هذه الرسوم بتلك التي رأيتها في القاهرة. هل سوف تنتهي في نهاية المطاف في صالات العرض والمتاحف، ولكن في الوقت الراهن، تحول فن الشوارع إلى متاحف بعد أن قامت سيارات الشرطة بإلقاء طبقات من الطلاء الأسود لهذا الغرض.

تعتبر البحرين الدولة الخليجية الوحيدة التي يعيش فيها المواطنون في مساكن بمثل هذا الاضمحلال، تذكرني بالأحياء الفقيرة في الضاحية الجنوبية في بيروت، حيث يعيش سكان الشيعة الفقراء. في الماضي، كانت هذه القرى المواجهة للبحر، توفر الموارد البحرية للسكان إلى جانب أشجار النخيل. اليوم، عزلت مجموعة من الأراضي المستصلحة من البحر -بالآلاف الأطنان من الرمال المستوردة من المملكة العربية السعودية- السكان عن الشاطئ. وتم إنشاء أحياء سكنية عصرية تطل على البحر، ومراسٍ تطابق تلك الموجودة

في دبي، وتقليد زائف لبندقية ديزني لاند، في سبيل الترويج الموجه للمغتربين الأثرياء والطبقات الغنية في الجزيرة.

ومن مكان بعيد، انتصبت جذوع مسودة، هي بقايا بساتين النخيل الواسعة القديمة، التي أحرقتها مُلوحة التربة، متآكلة تسودها الفوضى. كما أن الأخشاب التي كانت تُستعمل سابقاً في البناء أصبحت الآن تستخدم في صنع الحواجز لمنع تقدم التظاهرات الليلية. سلمت تركيا السنية هذه السيارات المصفحة للشرطة بعد أن منع الكونغرس الأميركي تصدير المدرعات الخفيفة تحت ضغط المدافعين عن حقوق الإنسان.

يتسكع الشباب العاطل في الشارع الرئيس المغمور بالروائح الكريهة: حيث قام العمال البنغاليون الصامتون بفتح أعطية فتحات الصرف الصحي وتنظيف الأنابيب. هذه القوة العاملة المنصاعة الخاضعة أثارت حفيظة الشيعة العاطلين من العمل. وتضاعفت منذ قيام الثورة الهجمات على العمال المهاجرين، وأحياناً تسببت بسقوط ضحايا. قامت الحكومة بتسليط الضوء عليهم وأعدت أموالهم إلى المنظمات التي تسعى إلى محاكمتهم بسبب انتهاك حقوق الإنسان.

هاجمت العديد من الكتابات على الجدران سباقات الفورمولا 1، التي أقيمت في نيسان/إبريل ضمن انتشار مكثف للشرطة والجيش بهدف إعادة هيبة المملكة بعد عام من القمع. تجلّى صراع الحضارات بين ميزانيات رياضة السيارات باهظة الثمن، وفقر القرى المحاطة بسيارات الأمن. على أحد الجدران، كتب حرف الـ«F» الإنكليزي باتجاه الأسفل، وإلى جانبه كتب باللغة الإنكليزية «لا سباق فوق دماننا». وصورة أخرى تعرض الملك وهو يقود سيارة فيراري حمراء اللون تحت عنوان «يسقط حمدا!» باللغة العربية.

في قرية أخرى، اصطدم فريقنا بحشد من الأطفال الصغار يرتدون ملابس رثة وظهروا متحمسين فجأة من الشوارع الفارغة. رأت الصحافية في هذا ظاهرة غير طبيعية وأرسلت السائق ليستجوبهم، مما اضطره لركن السيارة والنزول. فاندھشت وسألته:

- «ألا تريدون أن تسألهم بنفسك عما يفعلون؟

- لا، سيخافون مني، ويهربون بعيداً.

- لكن لماذا؟

- أنا لست محجبة وأرتدي الجينز وذراعاي عاريتان. وهم لم يعتادوا الخروج من قريتهم، ولم يروا امرأة بهذا اللباس من قبل. سيظمنون إلى السائق بملابسه التقليدية». عاد السائق حاملاً الأخبار: إنها تظاهرة للأطفال وهذا تكتيك تستخدمه جماعات المعارضة لمضايقة الشرطة ودفعها لارتكاب جريمة ضدّهم ثم فضح انتهاكاتها. قام الأطفال برمي الحجارة على سيارات الشرطة في الجانب الآخر من القرية ثم هربوا عبر الأزقة.

بدأ المخرج بتصويرهم إلى أن هتف أحدهم: «شرطة!» فرت الفرقة الصغيرة مرة أخرى كسرب العصافير الذي يغيب مع غروب الشمس.

خلف مقبرة واسعة، توقفت قافلة من الدراجات الجبلية، وقبل أن تتمكن من العودة إلى سيارتنا، انضمت إلينا هذه المركبات الصامتة، فوجدنا أنفسنا محاطين بضباط الشرطة المسلحين الذين يلعبون لعبة القط والفأر مع الأطفال. من الواضح أنهم من باكستان، البلوش تحديداً، وهي مجموعة عرقية سنّية مقاتلة غير ناطقة بالعربية توفر المرتزقة لجميع الأنظمة الخليجية.

كان الضابط الذي أوقفنا برفقة مصور يقوم بتصوير العملية برمتها على كاميرا رقمية صغيرة، كانت لغته العربية تشوبها لكنة يمنية حادة، طلب منا الأطلاع على تراخيص التصوير. وأثناء قيامه بطلب التعليمات عبر الهاتف، اتصلت الصحافية التي ترافقنا بمسؤولين من الشرطة من مختلف الرتب لتسهيل الأمور. يعرف الجميع بعضهم بعضاً في هذه الجزيرة الصغيرة، وعلى الرغم من العنف والتناقضات السياسية والدينية، والسجن وسوء المعاملة وحتى الموت، ما زالوا يتحدّثون.

بعد حديث سري بين الصحافية والضابط، دعينا لركوب السيارة، وتتبع سيارة القيادة المحاطة بقافلة من سيارات الشرطة. لكن رفيقتنا بدت من خلال حديثها متفائلة:

- «ستوجهون بنا إلى مركز الشرطة، كان معي ضابط أعرفه على الهاتف: بعد قليل سيتم الإفراج عنا. إنهم لا يريدون صوراً، لكنهم يراعون كثيراً تصرفاتهم أمام أطقم التلفزيون الأجنبية.

- هل أنت على علاقة وطيدة مع السلطات؟

- دعنا نقول من حيث «العمل المهني»... ومن الأفضل التعامل مع أناس من ذوي الخبرة في المجال، لأنه إذا أتيت هنا مع ناشط، سيتبادر إليك القلق، وتبدأ المتاعب بالإحاطة بك.

- وكيف هي علاقتك بالشرطة؟

- الأمر نسبي! أنا رفعت دعوى قضائية ضد ضابطة قامت بتعنيفي في السجن عندما تمّ اعتقالني أثناء الثورة. وستعقد جلسة الاستماع خلال الأيام المقبلة.

في معظم الدول العربية، لا تستطيع ملاحقة الشرطة قضائياً. هنا، نتبع الإجراءات الموروثة من الحماية البريطانية، ولكن في نهاية الأمر، فإن القرار سياسي وأنا لن أخدع نفسي حول نتائج قضيتي.

- هل تعرفين الضابط الذي اعتقلنا؟

- لا، هو ليس بحريني، إنه من شمال اليمن. هل سمعت لهجته؟ هذا ما وصلنا إليه نحن في بلادنا، فأنا ولدت هنا وعائلتي من البحارنة منذ فجر التاريخ، ومع ذلك يقومون بتجنيد المرتزقة الأجانب لقمعنا».

عند مفترق الطرق خارج القرية، أوقفنا ضابط وأعاد لنا تراخيصنا وجعلنا نمضي في حال سبيلنا:

- «وأخيراً، لن يأخذونا إلى مركز الشرطة؟»

- لا، لقد قرروا أن يكتفوا بإخراجنا من القرية، ولكن من الأفضل عدم العودة، والذهاب إلى المدينة. كان هذا تحذيراً، وإذا تمّ القبض علينا للمرة الثانية، سوف تتمّ مصادرة الكاميرا».

اللؤلؤة والضيروز

قررنا الذهاب إلى المناطق المرخصة للاجتماع مع ممثلي «المعارضة البناء» التي تتمثل أساساً في الإخوان المسلمين والسلفيين من السنة. يطلق عليهم الشيعة لقب «معارضة جلالته». أشار لنا السائق في مرآة الرؤية الخلفية أن سيارة لا تحمل علامة تتبعنا، لكنها تخطتنا ما إن وصلنا أولى المناطق السكنية والتجارية، عندما كنا نعبّر جسر الطريق السريع الذي يطل على دوار اللؤلؤة، التي تمثل بؤرة الثورة.

يمنع التصوير في هذا المكان فذلك قد يعرضنا للتوقيف الفوري والاستيلاء على المعدات، يجب احترام روح المكان، الذي أصبح بمثابة الأرض الحرام، تحدها الأسلاك الشائكة وكاميرات المراقبة، ويحرس مداخلها مدرعات وجنود من السعودية.

زُين مركز الساحة الذي تجمع حوله المتظاهرون في خطوة مستوحاة من ميدان التحرير في القاهرة أو استحضاراً لالتفاف الحجاج حول الكعبة، بنصب منحوت من الإسمنت الأبيض: لؤلؤة ضخمة نُصبت فوق ستة أعمدة شراعية، محاكاة لعدد أعضاء مجلس التعاون لدول الخليج العربية، والاتحاد المهني لمصدري النفط: المملكة العربية السعودية، الكويت، البحرين، قطر، الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان.

دمر النصب بواسطة الجرافات يوم 18 آذار/ مارس 2011، بعد أربعة أيام من دخول القوات السعودية بحجة تدنيس الأرض بالثورة. كان للقضاء على رمز جالب لحشود المعارضة تأثيراً في تفريق المتظاهرين نحو القرى الشيعية حيث يعيش معظمهم في حزام الفقر حول المنامة. تم تحويل الساحة إلى تقاطع للطريق السريع، لا يمكن أن يؤدي إلى أحداث مستقبلية، عندما يتم فتحه أمام حركة المرور.

ونشرت صور كبيرة للملك ورئيس الوزراء وولي العهد على واجهات ناطحات السحاب الفخمة المجاورة منذ الأحداث الماضية مشيرة إلى إعادة الفتح والاستيلاء على الأراضي والسيطرة على الفضاء. كما كان هناك علامات تجارية كبيرة جديدة تشير إلى اتجاه المملكة العربية السعودية وحلبة الفورمولا 1، لتوجيه السائقين إلى الاتجاه السياسي الصحيح.

تم تغيير اسم الساحة إلى تقاطع «الفاروق»، اسم مرتبط بثاني الخلفاء الراشدين، عمر، الذي حكم مجتمع المؤمنين الشاب لمدة عشر سنوات من 634 إلى 644.

انتصر عمر بن الخطاب في سورية ومصر والقدس التي كان يسيطر عليها البيزنطيون، واستولى أيضاً على فارس التي نهها ودمرها تماماً. ويعتبر محبوباً من قبل أهل السنة، الذين يرون فيه أعظم فاتح في تاريخ الجهاد البدائي. ولكنه مكروه من قبل الشيعة، الذين يتهمون بالاستيلاء على السلطة عن طريق الانقلاب لإبعاد علي، ابن عم النبي الذي يُوقرّه الشيعة ويعتبرونه خُلُقاً له وأول الأئمة. كما يتهمون عمر بكسر ضلع زوجته فاطمة، ابنة محمد، «أم المؤمنين» الحبيبة.

يبغض الشيعة اسم عمر إلى درجة لا يمكن تصور أن يقوم أحدهم بتسمية ابنه بهذا الاسم، فهو يبلور كل كراهية وحقد هذا المجتمع ضد اغتصاب الإسلام الصحيح وقمع المؤمنين المنفيين من قبل المذهب السني. طعن عمر الفاروق سنة 644 أثناء أدائه صلاة الفجر في مسجد المدينة المنورة من قبل سجين فارسي مستعبد، اسمه في اللغة الزرادشتية «فيروز» ويلقب بـ«أبي لؤلؤة».

* * *

أثناء وصولي إلى مقر تجمع الوحدة الوطنية، حزب «المعارضة البناء»، أجريت مقابلة مع المتحدث باسمه، وهو إمام سني ذو لحية طويلة، أتم جزءاً من دراسته في الأزهر ثم أكمل في الجامعة الإسلامية التونسية «الزيتونة» في ظل حكم بن علي، وأخيراً في المغرب. على الرغم من هذه الشهادات الأكاديمية السنية، إلا أنه يضع العقيق حول بنصره الأيسر: تعبر الخرافات الحدود بين الطوائف ويعتبر جعفر الصادق، الإمام السادس لدى الشيعة، مبعجلاً أيضاً من قبل السنة.

قمنا بالتصوير أمام صورة ضخمة لجامع الفاتح (الفتاح الإسلامي)، معقل السنة في البحرين. حيث تجمع الكثير من أنصاره، وهم يلوحون بالعلم الوطني بلونه الأبيض والأحمر في كل منهما خمس نقاط، إلى جانب بعض الأعلام السعودية. كما قضى معظم حوارنا في انتقاد منافسه «الوفاق»:

«تعمل جمعيتنا بطريقة ديموقراطية وتعتمد على التعددية، ينتمي أعضاؤها إلى كل الطوائف وتمثل ثلثي المجتمع البحريني. أما الوفاق فهي حركة شيعية أحادية، نموذج للسلطة الخمينية وتبغ أجندة خارجية تملئها الصفوية».

هذا المصطلح الذي يشير إلى السلالة الفارسية التي اعتنقت المذهب الشيعي في القرن الخامس عشر، هو الصورة النمطية التي يستعملها السلفيون لتحقير الشيعة والإيرانيين. كما طرح الشيخ حجة مثيرة للجدل تمثلت في تلويح متظاهري دوار اللؤلؤة بعلم البحرين المتغير:

«لقد استبدلوا النقاط الخمس في العلم التي تمثل الأركان الخمسة للإسلام، بست نقاط مؤكداً ولاءهم الحقيقي للأئمة الاثني عشر في المذهب الشيعي وليس للأمة البحرينية».

تحدث الشيخ بلغة عربية فصحة ودقيقة وتقليدية بدت مألوفة كثيراً بالنسبة لي، فظننت أنني أحرز تقدماً سريعاً في فهم لهجة هذا البلد حتى تأكد حدسي بأن الشيخ مصري الجنسية.

* * *

بالعودة إلى القرى الشيعية للقاء زينب الخواجة، ابنة الناشط الحقوقي الذي حكم عليه بالسجن مدى الحياة، علمت أن عليها زيارة صديق أصابته الشرطة، فتم تأجيل الموعد. حلت ليلة سوداء على القرى حيث تعطلت الإنارة العامة إذ حطّمها الناشطون ليتمكنوا من الاختباء.

تمركزت فرقة مكافحة الشغب عند التقاطعات الرئيسية مخترقة الظلام الذي تنشق من خلاله التظاهرات بواسطة المصابيح الأمامية للسيارات. وفي هذه الأثناء، تشكّل موكب في قرية البديع غرب العاصمة المنامة مستغلاً الغياب المؤقت للشرطة، وكان يضمّ مئتي شاباً وشابّة أغلبهم من المراهقين، الأولاد في مقدّمة المسيرة وخلفهم قرابة ثلاثين امرأة يلبسن التشادور، كانوا يحملون شعارات وأعلاماً لحركة شباب 14 شباط/ فبراير وحركة «الحق» المحظورة وصوراً لزعيمها المعارض المُلّا «حسن مشيمع» المحكوم بالسجن المؤبد، وصوراً لشهداء الثورة وبعض المعارضين السياسيين. كانوا يهتفون بسقوط الملك حمد وبأن دماء الشهداء لن تذهب سدى «يسقط... يسقط حمد».

تسير التظاهرات ضمن خطة تكتيكية منظمة، يتمّ تشكيل نواة في مدخل القرية وبعد ذلك تغلغل في الأزقة قبل أن تتمكن الشرطة من ملاحقتها. تحاول هذه الخلية استقطاب أكبر عدد من الشبان لتأمين حمايتهم خلال عبورهم، بعد ذلك تباغت حاجزاً أمنياً في نهاية القرية وتقوم بتفجيريه بواسطة ما توافر لهم من قذائف بهدف تدمير دبابة كوبرا التركية الصنع واستهداف ركابها.

يختنق الجنود وسط هذه المدرعات المصفحة التي لا تحتوي على أية مكيفات هوائية في خليج شديد الحرارة، لهذا يضطر الطاقم إلى المجازفة بترك مدخل للهواء عن طريق الفتحة العلوية للمدرعة: يكفي إلقاء زجاجة مولوتوف من خلال هذه الفتحة لتفجير الدبابة بأكملها. وفي إطار حمايتها لنفسها تقوم الشرطة باستعمال الغاز المسيل للدموع ضد كل ما تعتبره تحرّكاً مشبوهاً.

* * *

كنت حاضرًا لتغطية الأحداث مع فريقتي المساعد الذي اهتمّ بالتقاط الصور ونقل الأقوال عندما قام بعض الشبان المتظاهرين بسدّ الطريق من ورائهم بواسطة أحجار البناء وجذوع من أشجار النخيل تحسبًا لمباغتتهم بدبابات الكوبرا ذات الهيكل الضئيل الذي يسمح لها بالتسلل والهجوم من خلال الشوارع الضيقة.

مررنا بجادة مضاعة، لنصل إلى حاجز شرع المتظاهرون في قذفه بالحجارة. وسرعان ما انهمر عليهم وابل من القنابل اليدوية، ينبعث منها غاز خانق، تلاه تدفق تدريجي لرجال الشرطة الذين يرتدون الأقنعة، وأصوات تشغيل محرّكات الكوبرا. دبّ الدّعر في نفوس الجميع. لم أستطع إيجاد مهندس الصوت والمخرج وسط تدافع المحتجين. عندما أطلقت ساقى للهرب، تذكرت أنني لم ألاحق من قبل كتائب مكافحة الشغب وسط قنابل الغاز المسيل للدموع منذ سنة 1972 عندما طاردنا رجال مؤسسة الأمن الجمهوري في الحي اللاتيني الفرنسي منذ أربعين عامًا. لا أذكر مطلقًا أسباب تلك التظاهرة حينها، لكنني أتذكر جيدًا الارتفاع الهائل لهرمون الأدرينالين في جسمي تمامًا مثلما يحدث معي الآن. في هذا الوقت أمسكني شاب من يدي واندفعنا داخل بيت وسط رواق مظلم بعد أن أقفل وراءنا الباب الحديدي، بينما البورجوازيون المالكون للحي اللاتيني لم يكونوا يرغبون باستضافة أحد بشكل عام...

كنت أسمع قرع نعال رجال الشرطة يجوبون الزقاق وتعالّت صرخات بلهجة بحرينية على الأرجح. كان الرواق، ذو البابين الداخليين المقفلين، ممتلئًا بالكثير من الأحذية. أشحت بنظري إلى الأمام فتبينت مجموعة من النساء يجلسن هناك دون حجاب يسترنهن، حولهن أولاد صغار السن وبينهن امرأة ترضع صغيرها.

كان دخولي مفاجئًا بحيث لم يُسمح لهم بإسدال خمارهن أو حتى بالانسحاب. وعندما هممت بتقديم اعتذاري، لبسن حجابهن وأغلقت الباب.

دعيت للبقاء في غرفة الاستقبال إلى أن تهدأ الأوضاع في الخارج. داخل هذه الغرفة الواسعة، يوجد أثاث وإكسسوارات أكل عليها الدهر وشرب: جهاز هاتف قديم، طاولة من مادة الفورمايكا، جهاز تشغيل الموسيقى بتقنية القرص الدوار بجانبه مجموعة مؤلفة من ثلاثة وثلاثين شريطًا مستديرًا داخل ظرف مغلف وخمسة وأربعين آخرين في ورق الكرافت.

استرعى انتباهي بعض اللوحات المائية المعلقة على الجدران بدون إطارات تجسد بستاناً من نخيل وميناء صيد ومراكب شرعية، في هذه اللوحات شيء من الغرابة والتوحش.

أخبرني الشاب الذي أمسك بي خارجاً أن هذه الأعمال كانت لوالده، رسام الأحد، الذي يعد لنا بعض المرطبات في المطبخ؛ ثم أشار إلى زاوية في الغرفة حيث مجموعة من الفراشي وعلبة من الألوان الخشبية. أدركت لاحقاً أن لياقة أبناء السبعينات ليست هنا بالخطأ، بل رسمت عن قصد لتقوم إلى جانب اللوحات باسترجاع السنوات السعيدة، التي لم تعزل القرى بواسطة الأراضي المستصلحة والموائى والطرق السريعة وحلبة الفورميلا، حيث كان يذهب الصيادون إلى البحر، والفلاحون إلى الحقول. كان هذا قبل أن تصاب حضارة البحارة المجيدة بلعنة النفط.

وصل الأب بالمشروبات والكعك، كان من أبناء جيلي. قمت بتهنئته على لوحاته وأعربت له عن إعجابي لعدم قدرتي على الرسم. أخبرني عن حبه للرسام الفرنسي ماتيس صاحب لوحة «سعادة العيش»، فحدثته عن مدينته نيس خلال طفولتي ولقاء والدتي به فوق مرتفعات سيميماز.

أحضر ملفاً كبيراً يحمل صوراً معنونة ومؤرخة بعناية، صورة بشعره الطويل وسرواله الواسع الذي يتناسب مع صحبة تلك السنوات. وأخرى وهو مع صديقه زعيم النقابة، ثم شاب بزى الملاء والبيرة أمامهم. وصور أخرى، يستعرض فيها حصيلة صيده مع أصدقائه قبل المباشرة بشواء أسماك الهامور الخليجية. اليوم، يقبع أحد أبنائه في السجن، اعتقل في احتجاجات ثورة 2011.

تم إعلامنا بأن الشرطة انسحبت من القرية، رفض مضيغي بأدب اقتراحنا بتصويره ورواية قصته، لقد وجد وظيفة في الإدارة ويخشى على ابنه المسجون. وفي اتجاهنا نحو السائق أعلمتني الصحافية التي ترافقتنا أن زينب الخواجة حددت لنا موعداً في مقهى كوستا كوفي.

مقهى باسيوناريا (*) «كوستا»

يقع فرع هذه العلامة التجارية العالمية، الذي تديره في البحرين عائلة شيعية ثرية تدعم

(*) باسيوناريا: يعني إكليل الألم، استعارة من الإكليل على رأس السيد المسيح بعد صلبه.

المعارضة، في مركز تجاري على الجانب الآخر من الطريق السريع، على مفترق يبعد أقل من خمسة كيلومترات من القرية التي شهدت للتو تظاهرات وانتشار فرق مكافحة الشغب. يتم الوصول إلى هذا المقهى بواسطة سلالم كهربائية تنطلق من موقف سيارات تحت الأرض وتمر عبر محلات الملابس الأنيقة، والجنيز والقمصان والأجهزة المنزلية.

ينقسم الطابق العلوي من المركز التجاري بين الوجبات السريعة لجميع الأذواق (بيتزا، كباب، برغر، مأكولات صينية وهندية...)، والوجبات السريعة المشبعة بالدهون، كالبيلاف الإيراني أو الكباب الأفغاني، وتعبئتها بشكل صحيح للاستهلاك الفوري أو لحملها في صواني الألمنيوم.

عبرت هذه الغابة من النكهات الصناعية المعولمة والمعقمة للوصول إلى مقهى كوستا، الذي يقع بالقرب من النوافذ المطلة على تقاطع الطريق السريع، الذي يقع أمام قرية وبستان النخيل. جلست على الكرسي وطلبت فنجان إسبرسو وكعكة كما في ساوث كينزنگتون وهي منطقة وسط مدينة لندن، متأملًا سيارات الشرطة على مشارف القرية.

دخلت زينب الخواجة، امرأة في التاسعة والعشرين من عمرها، تضع وشاحًا أسود خفيفًا يمتزج لونه البني مع لون شعرها الكثيف، ذات عينين سوداوين واسعتين، ترتدي قميصًا زهري اللون يعكس لون شفثيها، وجينزًا رماديًا ضيقًا وحذاء رياضياً بأربطة زهرية ملائمة، كان يمكن أن ألتقيها في أي كافتيريا في إحدى الجامعات الأمريكية أو معهد الدراسات السياسية في باريس.

ولدت وترعرعت في الدانمارك، حيث كان والدها لاجئًا، لم تستطع الدخول إلى موطنها إلا في عمر السابعة عشرة بعد أن اعتلى الملك حمد العرش في فترة الانتفاضة سنة 1990 وبعد أن تمّ العفو عن المنفيين واسترجاع حقوقهم المدنية. أنهت دراساتها الجامعية في الولايات المتحدة وفضلت أن تواصل معي بالإنكليزية، بعد أن تعارفنا بالعربية:

- «عشت مع عائلتي في المنفى في بداية حياتي لأسباب سياسية، وشاركت في الكفاح من أجل الديمقراطية منذ 14 كانون الثاني/يناير 2011. والذي هو أحد الناشطين في حقوق الإنسان الأكثر شهرة في المنطقة، حكم عليه بالسجن مدى الحياة وأنا عن نفسي فقد تمّ إيقافني ست مرات، ولدي ثلاث عشرة قضية جارية ضدي أمام المحاكم، كلها سياسية.

- في السياق البحريني، هل بإمكاننا الحفاظ على عالمية حقوق الإنسان؟

- هذه هي وجهة النظر التي عمل والدي على تكريسها باستمرار، بما في ذلك مواجهة جماعات أخرى، لقد دافع عن مساجين غوانتانامو الوهابيين. من وجهة نظر بعض البحرينيين، الوهابيون هم أعداء الشيعة، فكيف لهم أن يدافعوا عنهم؟ كان أبي يرد دائماً: هذا ما يسمى بحقوق الإنسان، وليس بحقوق الشيعة ولا البحرينيين. كما أسس لجنة الدفاع عن حقوق العمال المهاجرين، في حين أن بعض البحرينيين كانوا يقولون له: «لكنهم يسلبوننا وظائفنا».

- بم تفسرين الإدانة الشديدة لوالدك؟

- كان يتحدث بصوت عال ولم يخف من قوة كلماته. لم يتردد بإدانة كل من يقترف جريمة حتى لو كان من الأسرة الحاكمة. لقد أوقف منذ عودتنا وضرب وعُذّب مراراً وتكراراً. يعتقدون أن السجن المؤبد رصاصتهم الأخيرة وأن مشاكلهم ستنتهي بمجرد رميه وراء النور.

- أليس هذا ما حصل فعلاً؟

- لا، على الإطلاق! فقد دخل في إضراب عن الطعام لمئة وعشرة أيام لكي ينال حريته هو وباقي المساجين السياسيين. كان ذلك متزامناً مع سباق الفورميلا 1، لذا فقد أثار الانتباه حول ما كان يحدث في البحرين.

- كيف ترين ما قمت به؟

- لا يجب أن ندفع كل هذه التضحيات لمجرد مطالبتنا بالديمقراطية، أليس من المفروض أن نمتلك هذه الحقوق منذ ولادتنا؟ منذ أجيال عديدة ونحن نرضخ للعيش تحت سقف الديكتاتورية، وهذا ما يجعلنا ندفع اليوم ثمناً غالياً، ثمناً مقابل حصولنا على الديمقراطية، حتى لو اعتقلونا وعذبونا أو حاكمونا فهذا لن يزيدنا إلا إصراراً. لديّ ابنة صغيرة عمرها ثلاث سنوات، وأنا لست متأكدة أنني سأعيش في ظل الديمقراطية يوماً ما، لكنني أحارب كي تستطيع ابنتي أن تشارك في التصويت، أن تنتخب رئيساً يمثل الشعب ويهتم به، عوضاً عن نظام ملكي لا يحكم إلا من أجل مصالحه.

- لكن ألا ترين أنّ الثورة قد أجهضت؟

- تعثرت الثورة بعد تدمير دوار اللؤلؤة. اليوم، تندلع على الأقل خمس عشرة تظاهرة كل مساء وفي الوقت نفسه، تحاول الدولة إخمادها بإطلاق النار على المتظاهرين حتى لا يقف الناس في صفهم.

- هل تشعرين أنك معنيّة بما يحدث في سورية؟

- بالطبع! لم يسقط هنا سوى بعض المئات من القتلى ومع ذلك كانت الأحداث صادمة بقوة! فكيف بالآلاف المؤلفة من الأشخاص الذين قتلوا في سورية، لقد تحطّم قلبي حقيقة... إنهم يعانون مثلنا من الديكتاتورية، ليس لهذا علاقة بكونك شيعيًا، سنّيًا، مسلمًا أو مسيحيًا. أريد أن تسقط الديكتاتورية في البحرين وكذلك في سورية وإن كانت الحكومة الإيرانية تقف ضد حقوق الإنسان فيجب أن تسقط أيضًا!

- لماذا كان التضامن ضعيفًا مع الثورة البحرينية؟

- كان ذلك بسبب تخلي الحكومات عنا... عندما أتابع موقع التواصل «تويتر»، (لديها 35 ألف متابع)، أجد الكثير من الناس الذين يساندوننا ويتفهموننا، لذا من الصعب حقًا أن تسمع أوباما يتحدث عن حقوق الإنسان وفي الوقت نفسه يطلق عليها النار بأسلحة أميركية الصنع! هذه الأسلحة أثرها أشد من كلماته، إنها تقتلنا.

الفصل الحادي عشر

المملكة العربية السعودية

الأربعاء 10 تشرين الأول / أكتوبر 2012

الدمام، العاصمة العالمية للنفط

تعد أفضل طريقة للتنقل من البحرين إلى لبنان، عبر التوقف في مطار الدمام، المدينة الكبرى الواقعة شرق السعودية والعاصمة العالمية للنفط. سمحت لي هذه الفرصة، المرور بضع ساعات بالأراضي السعودية التي لم أعد أستطيع الحصول على تأشيرة لدخولها منذ كانون الأول/ديسمبر 2011، مع أنني تمكنت من زيارة المملكة مرات عدة طوال العقد الماضي في أعقاب أحداث 11 أيلول/سبتمبر.

إلى حين هجوم تنظيم القاعدة على نيويورك وواشنطن، نادرًا ما كان النظام الملكي الوهابي يفتح أبوابه أمام الباحثين أو الصحفيين باستثناء الأميركيين، بعد التعهد لهم بالحب الأبدي وزواج كاثوليكي لا تنفصم عراه يوم 14 شباط/فبراير 1945، الذي يصادف أيضًا عيد القديس فالنتين «اليوم الذي شهد أول قمة سعودية-أميركية بين الملك عبد العزيز والرئيس روزفلت». عند مغادرته بالطا، حيث شارك العالم مع ستالين وتشرشل، قام رئيس الولايات المتحدة فرانكلين روزفلت بزيارة السفينة الحربية «يو إس إس كوينسي» التي كانت ترسو في إحدى البحيرات العابرة لقناة السويس المصرية. وكان الملك عبد العزيز آل سعود في استقباله هناك، لتأمين إمدادات النفط للولايات المتحدة في سياق الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفياتي المتمتع بحقول نفطية ضخمة من باكو وسيبيريا لتأمين الوقود للجيش الأحمر. وكانت شروط عقد هذا الزواج بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، واضحة: «الحماية الأميركية مقابل النفط السعودي، إلى الأبد».

كانت الدمام تمثل موطناً لهم. توجد احتياطات النفط السعودي، التي قد يتجاوز إنتاجها عشرة ملايين برميل يومياً، مما يجعلها أكبر مصدر في سوق الطاقة العالمي، في الجزء الشرقي للمملكة، بالتحديد محافظة الأحساء التي تمثل مقر شركة أرامكو، هي في الأصل شركة الزيت العربية الأمريكية، وصارت الآن ملكية سعودية تحت اسم شركة أرامكو السعودية (شركة الزيت العربية السعودية).

في ذلك الوقت، كان معظم سكان الأحساء من الشيعة. في عام 1945، تحول السكان نتيجة الغزوات الوهابية البدوية من فلاحين إلى عمال نفط. جنح اتحادهم النقابي الذي ترجم إلى إضرابات متكررة وشك طائفي من النظام الملكي إلى حركة واسعة من السكان السنة جنوب-غرب المملكة نحو مناطق النفط حيث أصبح الشيعة يمثلون الأقلية في أراضي أجدادهم.

وهنا يقع مطار الدمام، وريث قاعدة الظهران الجوية المجاورة، التي بنيت في عام 1945 لاستيعاب حصون الطيران الأمريكية واحتواء التقدم الشيوعي باتجاه البحار الدافئة. أصبحت اللوحة الدوارة لـ«PANAM» و«TWA» وتوَّأ عندما جلب أطول خط مباشر في تاريخ الطيران المدني بعد الحرب حشداً من العسكريين ورجال النفط من نيويورك خلال 13 ساعة.

أثناء النزول، تذكرت أحد طلابي الأوائل، فتاة لبنانية جميلة اسمها توسكان التي حدثتني عن طفولتها في تلك الأماكن وكان والدها مدير محطة التوقف هناك.

يعتبر المطار مثل كل المحطات السعودية الفاخرة، يعكس الرخام فيه الأضواء الغامضة، ويعطي الزجاج الملون مظهر الكاتدرائية القاتمة ونوعاً من التحفظ والتزمت الوهابي، على عكس تلك المعابد المبهجة كمطارات دبي والبحرين وقطر التي تشبه المراكز التجارية المخصصة للاستهلاك الفاخر المعفى من الضرائب!

كان موظف فلبيني مخنث يقوم بتوجيه فريقنا في متاهة من الممرات إلى صالة الانتظار.

تمّ التحقق من أوراقنا وتدوين جميع المعلومات يدوياً باللغة العربية في السجل. وكان يجب علي التفاوض مع موظف الجمارك ذي اللحية الطويلة والعلامة السوداء على جبهته التي تمنحه المظهر المتزمت لأتباع تنظيم القاعدة، من أجل إقناعه بعدم ضرورة تفكيك الكاميرا وجهاز التسجيل بحثاً عن متفجرات مخفية.

لا أعتقد أنه استوعب سخريه الوضع حتى أتى مسؤول أصلع لإلقاء نظرة على جوازات السفر ثم لوح بيده لأحد أتباعه لأخذنا إلى غرفة الاستقبال، حيث أمضينا ساعتين بصحبة الشاي الفاتر وعصير فاكهة بنكهة كيميائية.

* * *

لازلت أتذكر السنوات التي كنت أعامل فيها باحترام في المملكة العربية. بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر، اعتبر الأمير تركي الفيصل، الذي كان يرأس جهاز المخابرات لمدة خمسة وعشرين عامًا حتى بداية شهر أيلول/سبتمبر عام 2001، أن سياسة التعتيم الكلي المطلوبة من قبل المملكة كانت لها نتائج عكسية. إذ أشارت أصابع الاتهام من جميع الجهات إلى بلد الخمسة عشر انتحاريًا سعوديًّا من بين التسعة عشر الذين هاجموا نيويورك وواشنطن.

قرر الأمير تركي الذي يرأس مركز أبحاث تمّ تأسيسه إحياءً لذكرى والده، الملك فيصل، والذي كان قد قدمني إليه صديق مشترك في فندق ريتز، وتحديدًا في ساحة فاندوم في باريس، تسهيل الوصول والإقامة في المملكة لكل من الجامعيين والطلاب الأجانب وعدم حصرها بالأميركيين. وكانت أحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001، هي التي حولت شهر عسل 14 شباط/فبراير 1945 إلى شبه طلاق.

في الولايات المتحدة، حيث اعتبر الكثير أن أيديولوجية الدولة الوهابية هي التي أنتجت الوحش ابن لادن، عملت مراكز البحوث من المحافظين الجدد على طرح سيناريوهات بديلة للسيطرة على أسرة آل سعود المالكة للنفط. وتمّ تداول خرائط تعيد تقسيم الحدود.

أما في غرب المملكة، تحديدًا في الحجاز وعلى ساحل البحر الأحمر، تمّ إعادة توطين الهاشميين الأردنيين، الذين طردهم عبد العزيز آل سعود من مكة المكرمة في سنة 1926، وتكليفهم بإدارة الأماكن المقدسة الإسلامية. أصبحت الأردن فجأةً موطنًا للفلسطينيين، مما ساعد إسرائيل على التخلص من العرب في الضفة الغربية وقطاع غزة والجليل. تحولت حقول النفط في الشرق إلى «دولة نفطية» مستقلة تحت سيطرة آية الله المؤيد لأميركا، في حين يستعيد الشعب الشيعي الأصلي عظمته، في العراق المتحررة من صدام حسين وتحت حكم الشيعة المواليين للغرب وإسرائيل، والذين سيسقطون جمهورية إيران الإسلامية عاجلاً أم آجلاً.

لن يبقى للسعوديين سوى وسط شبه الجزيرة، الرياض وضواحيها الصحراوية. وسوف يحرمون من عائدات الذهب الأسود والحج وتقطع عنهم قنوات المياه المحلاة الخليجية حتى يجدوا أنفسهم محكومين بالموت جراء العطش وانجراف التربة والبؤس، ويعودون بذلك إلى حياة البدو الذين يعيشون على النهب، كعقاب لهم على جريمة ارتكبت يوم 11 أيلول/ سبتمبر، والعودة إلى نقطة الصفر بسبب لعبة الكراسي الموسيقية التي يلعبها المحافظون الجدد.

لم تبدد أوهام تلاميذ سحرة البنتاغون برئاسة جورج دبليو بوش، السياسة الواقعية خلال السنوات القليلة الماضية للقوة العظمى الإمبريالية ومضخة وقودها، استمر زواجهما العقلاني بحيث لا يستطيع أحدهما الاستغناء عن الآخر. لكن في ظل العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، كان هناك مجال لبعض المبادرات الخارجة عن نطاق هذه العلاقة الأميركية-السعودية الغيورة والحصريّة. وهذا ما سمح لي بالقيام بزيارات منتظمة للمملكة العربية السعودية، في إطار مركز دراسات الملك فيصل، حيث ناقش حوالي عشرين طالباً أطروحاتهم ورسائلهم المعتمدة.

من خلال علاقاتي مع العديد من السعوديين والسعوديات، أعجبت بحرية الروح والثقافة الواسعة لدى عدد كبير منهم خارج الكليشيات. الكثير من هؤلاء كبر وتربى على ثقافة المؤسسة الوهابية التي تحيط بها كتلة من السلفيين أو الجهاديين الذين يشجعونهم عبر الوعظ والمال.

وبعد نشر هذه الأطروحات على هيئة كتب، وترجمتها إلى اللغة الإنكليزية والعربية، عبّر الكثير من دوائر السلطة عن سخطه من المحتوى. ومنذ عام 2010، أثار زميلي الشاب ستيفان لأكروا، في كتابه «الإسلاميون السعوديون» جدلاً في المملكة العربية السعودية فتمّ رفض منحه تأشيرة الدخول كإنداز أول. ومنذ ذلك الوقت أعيد غلق الأبواب التي كانت قد فتحت بعد أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001.

ذات يوم حدثني شاب سعودي من أم لبنانية تتحدث اللغة الفرنسية عن رغبته في تسجيل أطروحة تحت إشرافي، ولم يخف أنه كتبها بلغة فرنسية رديئة. شعر بالإهانة بسبب اعتراضه وحذرنى أن قديمي لن تطأ المملكة ثانية. لم آخذ كلام هذا الشخص على محمل الجد حتى تمّ رفض منحي تأشيرة الدخول إلى الرياض لملاقة أصدقاء أردت جمع آرائهم

حول الثورات العربية، خلال سفري بين مصر وسلطنة عمان، في كانون الأول/ديسمبر 2011. أصبحت شخصاً غير مرغوب فيه، هذا هو مصير المستشرق المعاصر الذي يواجه أكثر القادة انغلاقاً في المنطقة.

* * *

غصت في ذكرياتي إلى أن سمعت إعلاناً باللغة العربية يأمرني بالذهاب فوراً إلى شرطة المطار. لم ألب هذا الطلب وركبت طائرة تابعة لشركة طيران الشرق الأوسط باتجاه بيروت دون اهتمام. من الأفضل دائماً تفادي البيروقراطية الشرقية، لا سيما وأنها تخفي قصوراً ذاتياً وعدم كفاءة، وهو أيضاً الموقف العفوي المتبنى من شعوب المنطقة أمام دولهم منذ ليل التاريخ.

تزدحم الطائرة باللبنانيين من جميع الأعمار والمهن، جاؤوا لتقديم منتجاتهم في الألدورادو السعودي الذي تحكم ثروته المنطقة وتبقيها تحت سيطرتها. من المؤكد أن الذين يجلسون بجواري قد امتنعوا عن تناول الكحول خلال إقامتهم في «أرض الحرمين الشريفين»، لأنهم تناولوا كؤوساً كبيرة من خمرة بلاك لايبيل أثناء الرحلة، وبعد عبور الجسر الجوي، تناولوا كأساً من «جونى واكر».

الفصل الثاني عشر

لبنان

الخميس 11 تشرين الأول / أكتوبر 2012

طريق دمشق

بعد مغادرة الواجهة البحرية في بيروت صباحًا، وصلت إلى ضاحية البرزة، الطريق المؤدي إلى دمشق. في هذا المشهد من سفوح جبال لبنان الذي يذكرني بطقولتي في إقليم الألب البحرية، ذهبت إلى مقر وزارة الدفاع، ويقع بالقرب منها، محلات تجارية يملؤها الضجيج بمصايح النيون الساطعة، لطلب تراخيص التصوير الممنوحة من باريس.

كَلَّف السائق باستعادة هذا الترخيص من مكاتب المخابرات العسكرية. انتظرته في مرآب السيارات الفارغ، في الهواء الطلق الكثيف على غير العادة إلى حد ما بسبب الارتفاع، أردت أن أكوّن فكرة ملموسة عن الأماكن وأستنشق هواءها. تذكرت أن إحدى طالباتي اللبنايات كانت قد أنهت أطروحتها حول القوات المسلحة لبلادها، ففكرت أنني لن أحظى بفرصة أفضل، حتى وإن كانت عابرة وسطحية، لاختراق هذا المبنى، حيث أجرت معظم مقابلاتها مع الضباط.

يمثل الجيش اللبناني مجموع الطوائف التي تشكل البلاد، وهو يحل رمزياً التناقضات داخله، ولكن بدون جدوى، إذ يتحالف كل عنصر مع أحد أطراف الصراع في المنطقة، فمعظم الشيعة مع حزب الله وسورية وإيران والآن روسيا والصين. إلى جانب المسيحيين الذين يحذون حذو الجنرال ميشال عون، ويسمى هذا التجمع بـ «تحالف 8 آذار/ مارس».

شكلت أغلبية السنة وباقي المسيحيين تحالفًا متنوعًا من الإسلاميين والموارنة المواليين للغرب واليسار، وبدعم من المملكة العربية السعودية وقطر والولايات المتحدة وفرنسا والاتحاد الأوروبي. وهم يطالبون برحيل الأسد ويريدون منع إيران من امتلاك أسلحة نووية: ويسمى هذا التحالف «14 آذار/ مارس».

تمثل تواريخ 8 و14 آذار/ مارس، التي جعلت من الصراع الكبير بين الطرفين يبدو مثيرًا للسخرية بسبب قرب المدة الفاصلة بينهما وهذه التواريخ تعود إلى تظاهرتين متتاليتين قامتا عام 2005. كانت الأولى مع، والثانية ضد وجود الجيش السوري في لبنان. حيث اعتبره التحالف الأول متأنيًا من بلد شقيق ورآه الثاني كقوة احتلال. ويتم كل منهما الآخر بالتحالف سرًا مع إسرائيل أو على الأقل يلعب لعبتها. أما بالنسبة للدروز بقيادة زعيمهم وليد جنبلاط، فهم يدعمون بالتناوب كلا المعسكرين، لتعويض النقص العددي من خلال أداء دور لا غنى عنه في تسوية المتغير.

لا يزال المسيحيون في لبنان منقسمين، فمنذ «اتفاق الطائف» هذا المصيف السعودي حيث تم توقيع اتفاقيات 1989 لإنهاء خمسة عشر عامًا من الحرب الأهلية والقضاء السياسي على المسيحية اللبنانية، أصبحنا نجد «مسيحيين شيعة» و«مسيحيين سنة». تجد الفئة الأولى، التي تنتمي لتحالف «8 آذار»، فرصتها الوحيدة للبقاء في اتحاد جميع الأقليات في الشرق ضد الأسطوانة السنوية الضاغطة. أما الفئة الثانية التي تنتمي لتحالف «14 آذار»، لا تزال وفيه للتحالف التقليدي مع الغرب الذي يرى في إيران الخمينية وأتباعها أكبر عدو له في الشرق الأوسط. تتحدث الفئة الأولى لغة العالم الثالث في النضال ضد الإمبريالية الأميركية وممالك النفط. بينما تتكلم الثانية بلغة حقوق الإنسان ضد قمع ودكتاتورية بشار الأسد والتهديد النووي الإيراني.

* * *

وصل الشرخ الكبير بين السنة والشيعه الذي هز الشرق الأوسط والبحرين خاصة إلى موقف وزارة الدفاع اللبنانية. حيث تخفي تناقضات البلاد مؤقتًا لتعاود الظهور في كل مكان.

شعرت بأن الهواء أكثر كثافة مع مرور الصباح. ولمحت وجود تصدع يخترق الإسفلت، في هذه الشقوق زرعت الرياح البذور التي نمت، وسُقيت بأمطار الخريف وأصبحت

تشكل خطأً منكسراً من الزهور الذهبية. وعندما رفعت عيني رأيت بعض الأشجار الجميلة المنتصبة على المنحدرات من حولي في المنطقة العسكرية، لاسيما أشجار الصنوبر الحلبي لأننا لم نعد نرى الأرز في بلد الأرز.

لعدة قرون، كان العثمانيون يقطعون الخشب المتعفن لبناء سفن تركيا العظمى وإطلاقها في سباق السفن التجارية الأوروبية لمداومة سواحل (Pouilled) بوليا، (Campanie) كامبانيا ومقاطعة نيس. أصبحت قمم جبل لبنان، التي تقع في الشرق نحو سورية، عارية بسبب التصحر، دون أي حماية ضد سوء الأحوال الجوية والأخايد.

وفي القرى التي دمرتها الخرسانة، انتهت الحرب الأهلية بتدمير القصور الفخمة ذات الحجر المشرقى والنوافذ المقوسة وسقوف القرميد الحمراء، التي استخدمت كأهداف للقصف ومأوى للقناصة من مختلف الأطراف المتناحرة. رأيت لبنان الفريد في مرحلة شبابي، الذي كان جماله يبهمني في عمري الذي لم يتجاوز التسعة عشر عامًا في 1974، قبل سنة من الحرب، يتحول في نهاية المطاف إلى دولة عادية، لا أهمية لها.

* * *

انقشعت السحب من السماء، ولكنها أخذت تتجمع في اتجاه الشرق، في اتجاه بعلبك. وصل السائق أخيرًا حاملًا الترخيص في يده، وهو مسيحي يخاف من ظله. استمر يذكريني بضرورة إعلام المكتب الثاني للجيش بكل تنقلاتنا في هذا البلد الصغير، خوفًا من العواقب في ظل عدم امثالي لذلك. حاولت طمأنته بالقول إننا سوف نقابل رئيس الوزراء، الذي أعرفه جيدًا، لكنه لم يطمئن. إليلي لا يتكلم اللغة الفرنسية وأوضح أنه لم يتمكن من مواصلة الدراسة بجدية خلال الحرب الأهلية. ثم انتابه القلق من تساقط الأمطار الذي ستسبب ازدحامًا لا نهاية له.

وصلنا إلى بيروت مع تساقط قطرات المطر الأولى، ولتجنب الازدحام المروري، دخل السائق في متهاة في شوارع حي الكرنيتينا، بالقرب من الميناء. يمكننا من خلال هذه المجموعة من الأكواخ الفقيرة أن نرى مراكز الأحزاب السياسية المسيحية الذين سيطروا على هذه المنطقة وطردها منها الشيعة نحو أحد الأحياء المزدهمة، وكانت من أولى مجازر الحرب الأهلية، منذ ما يقارب أربعين عامًا.

السراي الكبير

دمر وسط المدينة القديم خلال تبادل لإطلاق النار بين المسيحيين المقيمين في شرق بيروت، والمسلمين المقيمين في غربها. فقام رئيس الوزراء ورجل الأعمال السني رفيق الحريري، اللبناني وحامل الجنسية السعودية، البلد الذي جمع به ثروته الهائلة، مكرسًا لها لبنان من خلال اتفاق «الطائف» في عام 1989، بإعادة بناء تلك الأحياء على حد سواء. سمي هذا المشروع العملاق بـ «سوليدير»، وقد قام بإعادة بناء بيروت القديمة، ولم يكن ينقصها سوى سكانها الأصليين الذين قتلوا أو انتقلت أنشطتهم إلى أطراف المدن.

كان المركز المحيط بساحة الشهداء، منطقة شعبية تحتوي على محطة تعج بسيارات الأجرة الجماعية، وسيارات المرسيدس العتيقة من دمشق وجميع أنحاء البلاد، وسوق التوابل والخضروات واللحوم. وقد عرفت بيروت أيضًا ببيوت الدعارة الأكثر دناءة وإثارة للاهتمام في الشرق، فتحت أبوابها لأكشاك حاملي الأموال بين أصابعهم الماكرة.

اختلط المسيحيون والمسلمون بشكل عشوائي على مشارف أحيائهم، يدفعهم إيمانهم المشترك بالتجارة ومعتقداتهم الشرقية المتميزة. اليوم أصبحت هذه المنطقة مراقبة، حيث توفر مقاهي الرصيف الزجاجية المعطرة التي تفوح رائحتها من المحلات، هذه المحلات التي تروج العلامات التجارية الدولية من الملابس، والساعات، والمجوهرات، كما في الأحياء السكنية الواقعة في وسط المدن في العالم.

بالرغم من ملياراته، لم يتمكن الحريري من إعادة بيروت القلب النابض لمنطقة الشرق الأوسط، إذ حلت محلها التجارة العالمية، التي أصبحت تحت سيطرة دبي بمطارها الضخم، ومينائها العميق، ومناطقها الحرة الكثيرة. غادر رجال الأعمال الجدد اللبنانيون بيروت للاستقرار في الخليج، وهم الأشخاص أنفسهم الذين كانوا في الطائرة القادمة من الدمام، الليلة الماضية.

عدد الفتيات كبير في ملاهي الجميزة أو شارع مونو، ما أدى إلى منافسة شرسة بينهن للدخول في سباق مجنون مع الجراحات التجميلية تشبهًا بنجمات تلفزيون كاليفورنيا، فقممن بتحويل أنفسهن إلى شقراوات وخضعن لعمليات ترميم الأنف ونفخ عظام الخد والشفاه بالكولاجين وتكبير الصدر، وشفط الدهون من البطن والفخذين إلى جانب تجويع النفس بالحمية الغذائية.

يطل مركز المدينة الذي أعيد بناؤه من جهة على البحر حيث يطفو ظل السفن الحربية مثيّرًا قلق السفن التجارية التي بالكاد يترددون إليه. أما الجهة الأخرى، فتحدها ثلاث مناطق: الأولى من الشرق، السراي الكبير حيث مقر رئيس مجلس الوزراء حيث ساقبل رئيس الوزراء، أما المنطقتان الأخريان فمحكوم عليهما بالموت.

في الجنوب، تقع منطقة الفنادق الكبرى حيث اغتيل الحريري في تفجير ضخم يوم 14 شباط/ فبراير في عام 2005، وقامت محكمة دولية بالتحقيق في الحادثة ولم تصدر نتائجها، ولكنها تتجه بعد ثمان سنوات إلى تجريم النظام السوري وحزب الله التابع له. قتل الحريري اللبناني-السعودي بعد ستين عامًا بالتحديد منذ تبادل العهود سنة 1945 بين الرئيس روزفلت والملك عبد العزيز آل سعود في إطار اتفاقية «النفط مقابل الحماية» الذي شكل التحالف بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية وقام بتشكيل منطقة الشرق الأوسط بعد الحرب.

وفي الشمال، يكمن ضريح الحريري في المنطقة الثالثة من المثلث، إضافة إلى مسجد جديد ضخم يحمل اسمه. قام بتمويل بنائه أمير سعودي فاحش الثراء من أولئك الذين يريدون الاحتفاء بهيمنة الإسلام السني على لبنان المتعدد الأديان محطّمًا بذلك اتفاقية الطائف وساحقًا بحجمه الكبير، الكاتدرائية المارونية المجاورة.

لكن المشكلة لم تعد هنا: يكمن خلف التضعيف المتفاخر للمسيحية عن طريق الإسلام في لبنان، رمز الانتصار الكبير لمكة على الفاتيكان، ولاتفاقيات الطائف التي تسعى للحد من توسع الشيعة حيث تزايد السكان المتسارع جعلهم المجموعة الأولى في لبنان. ومع ذلك، فهي اليوم حكومة مدعومة من قبل تحالف «8 آذار» والكتلة الشيعية الذي يقع مقرها في السراي الحكومي، بعد سبع سنوات من انسحاب الجيش السوري، في حين أن الحرب الأهلية التي قامت بتأجيج نارها دمشق في لبنان من خلال ثلاث حرائق عادت بنتائج عكسية على سورية.

رئيس الوزراء نجيب ميقاتي، مثل سابقه الحريري، ملياردير سني، لكن ثروة الثاني تفوق ثروة الأول بأربعة أضعاف. ينحدر الحريري من عائلة متواضعة من مدينة صيدا القديمة، جنوب بيروت. ويعتبر رجلاً عصاميًا بدأ عمله كحمال على الأرصفة، كان أسمر البشرة ممتلئ الجسم، ذا حاجبين كثيفين، قام ببناء إمبراطوريته الهائلة من خلال تكريس مهاراته الشرقية في خدمة الأسرة السعودية الحاكمة.

أما ميقاتي، فهو نحيل وطويل القامة، فاتح البشرة والعينين، شعره الأشقر يتخلله الشيب. ينحدر من عائلة من أعيان طرابلس، أكبر مدينة في الشمال بالقرب من الأراضي السورية. وهو من أهل السنة الذين يهيمنون على المدينة، مثل سكان زغرنا المسيحيين، وهي بلدة كبيرة تقع على سفوح جبال طرابلس، معقل عائلة فرنجية.

تكونت ثروة ميقاتي من العمل في مجال الهواتف المحمولة في الشرق الأوسط وأفريقيا، بالإضافة إلى المشاركات المتبادلة في سورية. بعد اغتيال الحريري كان نجيب ميقاتي قد قام سابقاً بمهام رئيس الوزراء لتأمين عملية الانتقال ابتداءً من شهر شباط/فبراير إلى حزيران/يونيو عام 2005، فترة الأزمة العميقة. أصبحت رئاسة مجلس الوزراء، وهي منصب يتوالى عليه المسلمون السنة من الطائفية المؤسسة في البلاد، قمة السلطة التنفيذية منذ اتفاق الطائف، وذلك على حساب رئاسة الجمهورية المارونية، والتي كانت مسيطرة قديماً، اليوم أصبحت مثل الجمهورية الرابعة الفرنسية أو الجمهورية الإيطالية.

يعتبر ميقاتي رجل المساومات بالإجماع، وهو محط ثناء لتعامله الحاسم مع القضايا التي كانت تهدد البلاد بالانهيار. عاد إلى عمله الخاص بعد فوز التحالف الذي يقوده وريث الحريري، سعد، في الانتخابات النيابية في حزيران/يونيو 2005. وفي ذلك الوقت التقيت به باعتباره من الجهات المانحة لبرنامج الدراسات العربية الذي شاركت به ذات مرة في معهد العلوم السياسية في باريس.

كنا ذات يوم نتناول مشروباً في مقهى باريس في موناكو، فأدرك أنه قد نسي محفظته، فاضطرت، أنا الأكاديمي المتواضع، إلى دفع حساب الملياردير صاحب الثروة التي تحتل المرتبة 374 حسب تصنيف فوربس. هذا الموقف الغريب مسلماً بالنسبة إليّ وما انفك يذكرني به عندما كنا نلتقي من وقت إلى آخر. لذا من الطبيعي أنه وافق على مقابلي للحديث عن الوضع في لبنان في ظل الأزمة السورية:

- «أحياناً، أتمنى لو كان لبنان جزيرة! للأسف، نحن عالقون بسبب الموقع الجغرافي... تأثر لبنان بالصراعات الثلاثة في المنطقة: الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني والوضع السوري والقضية النووية الإيرانية، لهذا نحن بحاجة إلى دعم المجتمع الدولي. إذ ليس الصراع الداخلي الذي يهدد لبنان، بل الصراعات ذات البعد العالمي هي التي تؤثر علينا.

- من وجهة نظرك، كيف يمكن الحفاظ على أمن بلدك؟

- منذ بداية الأحداث السورية، اعتمدت سياسة فصل لبنان عما يجري. فلبنان يعيش وضعًا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا صعبًا نظرًا لعلاقاته الوثيقة مع سورية. هذا الجار السوري الذي يسيطر على ما يقارب من 80% من حدودنا، لا يمكننا إغضابه فنحن لدينا مصالح مشتركة مع السلطات السورية، كما تمر صادراتنا عبر سورية.

من ناحية أخرى، يقوم مئات الآلاف من اللبنانيين العاملين في دول الخليج بتحويل الأموال كل شهر إلى القطاع المصرفي اللبناني والبلد بشكل عام... لدعم الاقتصاد، بحيث لا نستطيع إثارة غضب هذه الدول العربية. وفي نهاية المطاف فإن المجتمع نفسه ينقسم بين العرب والنظام السوري. لجميع هذه الأسباب، قررت أن أنفصل عن الوضع السوري، للحفاظ على الاستقرار الداخلي لبلدي، لأن كل ما يجري في سورية قد يؤثر علينا.

- ما هو أكثر شيء يثير قلقك؟

- للأسف، وصلت المعارضة والنظام في سورية، إلى نقطة اللاعودة. وما يجعلني أكثر خوفًا، هو نشوء حرب أهلية تؤدي إلى تقسيم سورية، لأن هذا السيناريو يمكن أن يشمل لبنان مباشرة، كما أنه في حال استيلاء المتطرفين على السلطة، قد يسبب هذا الأمر مشاكل كبيرة».

* * *

شعر رئيس الوزراء بالقلق عندما علم بذهابي إلى طرابلس غدًا للقاء عدد من «المتطرفين» ذوي الصلة الوثيقة بأولئك الذين يقطنون في سورية، وكلف رئيس مكتبه بتنسيق لقائي مع مالك عبد الكريم الشاعر.

يتأس هذا المفتي في شمال لبنان المؤسسة الطائفية السنوية التي منحها وجهًا أنيقًا. وبالتالي أصبحت لدي وجهة نظر أكثر توازنًا حول هذه المدينة -الميناء-، التي ينحدر منها ميقاتي الذي أعرب عن أسفه لوصف الصحافة الدولية لها بأنها نسخة شرقية من بيشاور تم تسليمها للسلفيين والجهاديين بجميع أنواعهم، وسط حرب عصابات ضد العلويين المحليين.

مفكر «14 آذار»

ما يثير فضولي في الوقت الحاضر، في بيروت، هو كشف التشابك اللبناني ككل، قبل الصعود إلى الشمال. فبعد لقائي برجل الأعمال السني الذي يحكم البلاد عن طريق ائتلاف «8 آذار»، التقيت المفكر الماروني سمير فرنجية الذي كان صحافيًا وأستاذًا وناشطًا مهمًا في تحالف «14 آذار»، في حين ينتمي أفراد عائلته وعشيرته إلى تحالف «8 آذار». يعتبره كل من أتباعه ومعارضيه واحدًا من أعظم العقول في البلاد، وأمل لبنان القادر على طرد شياطينه. اليوم هو من جنود الخفاء وغدًا رئيس جمهورية مثالي.

رجل النهضة هذا، هو ابن أحد الوزراء وقادة الاستقلال، وابن شقيق سليمان فرنجية، الذي كان رئيسًا في الفترة 1970-1976، وصاحب الخيارات الفكرية والسياسية والأخلاقية التي تميزه عن الجميع وتفصله عنهم. شهدت السنة الأخيرة من رئاسته دخول الجيش السوري إلى لبنان لحماية المسيحيين في الأشهر الأولى من الحرب الأهلية ضد المعسكر «الإسلامي-التقدمي» والميليشيات الفلسطينية المسلحة.

جعلت الجغرافيا من الزعيم سليمان، هذا السيد الإقطاعي الماروني، الذي حكم موطنه زغرتا، الواقعة داخل طرابلس، عاليًا عبر الحدود السورية مقيدًا بدمشق. تمت ملاحقته من قبل العدالة للتأثر منه بعد أن أمر بقتل أفراد من عشيرة منافسة في كنيسة الرعية سنة 1957، ليصبح لاحقًا في اللاذقية في سورية العلوية. أقام علاقات قوية فيها ساعد ابنه طوني على تنميتها ليصبح من مناصري ضابط طموح يدعى حافظ الأسد.

بعد ترتيب أموره، عاد سليمان فرنجية لقيادة الحياة السياسية-المالية التي كرسها للدفاع عن سيطرة الإقطاعيين من كل الطوائف على كل لبنان، تحت تهديد النخب المثقفة الجديدة التي أُلقت في النهر كل الضغائن. انتخب رئيسًا للجمهورية من قبل النواب سنة 1970، وذلك بفضل تحول الزعيم الدرزي كمال جنبلاط- زعيم تقدمي نباتي وعضو في الاشتراكية الدولية - لصالحه. كان سيد جبل الشوف في صراع مع أتباعه المسيحيين الذين يكرهون سليمان فرنجية، وهذا ما أدى إلى دعمه له.

يذكرني المفكر سمير فرنجية بالشخصية المركزية التي رسمها بيرو ديلا فرانثيسكا في الجزء الأيمن من لوحة تعميد المسيح: الأمير المثالي للمستقبل الذي يجمع بين تعاليم الفيلسوف «كما هو موضح في لوحة الكاردينال بيساريون»، وقوة الدولة.

قام سنة 2004، مع ثلاثة من المفكرين، أحدهم كان مسيحيًا واثنين من المسلمين من خريجي صفوف الطلاب اللبنانيين التقدميين لعام 1968، بنشر «نداء بيروت» المطالب برحيل المحتل السوري، والذي يدعو إلى تحقيق المصالحة في البلاد. هياً النص البلاد سياسيًا لانسحاب الجيش السوري، الذي سيحدث بعد اغتيال الحريري في العام التالي.

فاز فرنجية في الانتخابات النيابية لسنة 2005 بأحد المقاعد المارونية في طرابلس على لائحة «14 آذار»، ولم يترشح لانتخابات عام 2009، وفضل إعادة النظر فيما يتعلق ببرلمان متشابك ضل وضعه الانتخابي وتكوينه، بقي قابلاً في لبنان الماضي مما منع تطوره.

هو يرى أن «ثورة الأرز» لعام 2005، هي أحداث مهدت للربيع العربي سنة 2010. ووضح أنه إذا كان الوضع الإقليمي في المشرق العربي قد أحبط بسرعة الآمال اللبنانية فإن الحركة الواسعة، من سيدي بوزيد إلى حلب، قامت بإعادة كتابة البرنامج السياسي للمجتمعات العربية، على الرغم من تقلبات الإسلاميين:

- «الربيع العربي قلب صفحة من تاريخ المنطقة. كل الأيديولوجيات القومية والدينية أصبحت من الآن وصاعدًا تنتمي إلى الماضي، لم تحظ بدفاع الشارع. قام هذا الربيع العربي هذا العام بإعادة تأهيل الأفراد الذين دخلوا حتى الآن في عملية اختزال مروعة في المجموعة، فأصبحت المجموعة ملك الحزب والحزب ملك القائد الذي يديره.

عندما احتلت سورية لبنان، كان جميع القادة اللبنانيين يدعونها «بسورية الأسد». وقاموا باختزلها في شخص واحد. وبعد ليل طويل، بدأت فترة الاستقلال، وجاءت الصحوة العربية. إنه لأمر رائع، لم يعرف لها أبناء جيلي -الذين ولدوا عام 1945- مثيلاً. وهو تغيير لم تأخذه الطبقة السياسية بعين الاعتبار..

- ماذا تقول لأولئك الذين أظهروا تناقضًا فنقلوا الربيع العربي في البداية إلى شتاء

إسلامي؟

- انظر إلى حال مصر مثلاً: النائب السلفي [المحامي ممدوح إسماعيل] الذي أراد

أن يصلي داخل البرلمان قدم اعتذارًا لأنه تلقى 1150000 شتيمة على صفحته في موقع التواصل فايسبوك! والجديد في هذا أن أكثر من مليون شخص ممن اختلفوا معه بينوا له ذلك.

أنا لست مذعورًا من تصاعد السلفية هنا أو هناك، لأن التغيير هو أعمق من ذلك بكثير. ففي لبنان، يوم 14 آذار/ مارس 2005، نزل ثلث السكان إلى الشارع واجتمعوا في المكان نفسه للمطالبة بالشيء نفسه وإنهاء ثلاثة عقود من الحرب. فعندما ينهض الفرد ويبدأ المشي على قدميه، فلا مجال للعودة عن ذلك. يجب أن تفكر الأحزاب الإسلامية من الآن وصاعدًا في مسار إسلامي نحو الديمقراطية.

- لكن بعد مرور عام من 2005، في أعقاب «حرب الثلاثة وثلاثين يومًا بين إسرائيل وحزب الله، ألم يبدُ أن هذا الأخير أصبح بطلاً للجماهير العربية، بحيث بدا أن تحالف 8 آذار/ مارس قد طغى على تحالف 14 آذار/ مارس؟

- في الواقع، سوف تحل الثورات العربية الصراع الذي استمر منذ عام 2003، عندما حطم الغزو الأميركي القفل السني في العراق، مما مهد الطريق لإيران التي قررت فرض نفسها على العالم العربي، لتقول: «أنا أمثل العالم الإسلامي في هذا النظام العالمي الجديد الذي ينبغي إعادة بناؤه»، ومن هنا تأتي أهمية الطاقة النووية في هذا المنظور.

لم يكن القادة العرب يملكون الوسائل للرد: في عام 2005، تمّ انتخاب أحمددي نجاد. في عام 2006 اندلعت «حرب الثلاثة وثلاثين يومًا في لبنان، وفي عام 2007، استولت حماس على السلطة في غزة [بدعم من دمشق وطهران]. في عام 2008، قام حزب الله بانقلاب في بيروت الغربية... والآن أصبح كل الذين تعرضوا للتهديد من قبل الطموحات الإيرانية يحاولون توظيف ما يحدث في العالم العربي لمواجهتها.

وفي البحرين، بطبيعة الحال فإن مشكلة الأغلبية أي ما يقارب 70% من [الشيعة] تكمن في عدم الحصول على أي تسوية لحقوقهم منذ فترة طويلة. لكن الثورة السورية هي فرصة العرب للرد على إيران! الإيرانيون على علم بأن نظام دمشق على أهبة السقوط، فهتموا بإشراك حزب الله الذي أرسل قواته إلى سورية، وربط مصير الطائفة الشيعية في لبنان بآخر دكتاتورية في العالم العربي.

- هل تعتقد أن عملية «التطهير العرقي» تجري حاليًا في سورية، كما حدثت خلال

حروب يوغوسلافيا السابقة ولبنان؟ وإذا فقد النظام دمشق، هل تعتقد أنها ستقوم مرة أخرى على الجبال الساحلية وبالتالي إعادة إنشاء دولة العلويين، مثلما تمّ رسمه من الانتداب الفرنسي بين عامي 1920 و1936؟

- كانت هناك محاولات لتطهير العرقي، وخاصة حول حمص. السلطة تريد خلق انشقاق حول العلويين لحماية نفسها. لكن نحن لسنا في حرب أهلية كما في لبنان في مجتمع يريد إلغاء الآخر. أما بالنسبة للمنطقة العلوية، فهي فقيرة جدًا، والسلطة لم تحضر شيئًا لقيام دولة. وفي النتيجة، أشك أنها تستطيع فعل ذلك».

* * *

بعد توديع سمير فرنجية، كنت قد توقعت مقابلة علي فياض، وهو نائب شعبي ينتمي إلى حزب الله، أعرفه منذ فترة طويلة منذ كان يقوم بقيادة مركز الأبحاث والنشر لـ «حزب الله». وقد اكتشفنا وجود اهتمامات مشتركة بيننا تجاه العطور والقديس توما الاكوييني.

اتصلت به على هاتفه النقال لتحديد مكان اللقاء، فأخبرني بأن المسؤولين في الحزب لم يسمحوا له بالتواصل، وكنت أخمن من خلال نبرة صوته بأنه يأسف لهذا الأمر. كان يتطلع إلى تحطيم هذا الفتور في العلاقات وذلك من خلال إيماءته لي برغبته في مقابلتني في باريس.

بلاك أوت هو حزب مقاومة الصهيونية والإمبريالية لم يعد مرتاحًا لدعمه المؤيد لدمشق بالقدر الذي كان فيه الحزب الاشتراكي الفرنسي غداة التحالف الألماني الروسي بين كل من هتلر وستالين عام 1939. يشير الخط الذي وضعته وفرضته طهران إلى إطلاق النار، وحسب الإشاعات في بيروت فإن الآلة الستالينية لحزب الله بدأت تنغلق في هذه الحالة على المركزية الديمقراطية التي تذكر بالحقبة الطويلة للاشتراكية الفعلية حيث كان الزعيم يملك الجراة للتعبير عن أغلبية المجموعات.

قام الأمين العام للمنظمة حسن نصر الله بإلقاء خطبة في اليوم التالي وأعلن بموجبها تمكّنهم من تصنيع صاروخ تمّ تسميته «أيوب» وأطلق بتاريخ 6 تشرين الأول/أكتوبر باتجاه إسرائيل. لا شيء بهذا الحجم سوف يعمل على إحياء ذكرى الرعب الذي كان يضرب حيفا والجليل إبان حرب الثلاثة والثلاثين يومًا في عام 2006. إن الآلة الدعائية

للحزب قامت بتسميتها «نصر من الله» وهو تعبير تمت صياغته كي يتردد اللقب والاسم لهذا الرمز حسن نصر الله.

الجمعة 12 تشرين الأول / أكتوبر 2012

أسياد الحرب

غادرت السيارة الواجهة البحرية لرأس بيروت في الساعات الأولى باتجاه الشمال. وقطعنا الأحياء التي يقطنها المسيحيون الواقعة في بيروت الشرقية، عبرنا خلالها طرفاً سريعة مزدحمة بسبب سوء خلق السائقين المحليين وحب الظهور لديهم، ومن ثم غادرنا الطريق السريع الساحلي الذي يمتد من الجبال المسيحية لكسروان.

أصبحت الفخامة الرائعة لمنطقة الريفيرا الشرقية التاريخية عبارة عن تكتلات مخيفة من البنايات الحديثة تضاهي في قبحها كل الكوايس. فخلال الحرب الأهلية كانت تشكل الملجأ الأخير للمسيحيين الذين طردوا من المناطق المختلطة التي عاشوا فيها منذ الأزل، حيث تمّ قتل الرجال، النساء، الأطفال والشيوخ من قبل الميلشيات الإسلامية التقدمية والمحاربين الفلسطينيين الذين يردون بالمثل في كل المناسبات. أسعار المباني في منطقة كسروان ملتهبة جداً، غذتها إراقة الدماء، وتمّ بناء كل هذا بشكل عاجل وبدون تأمل.

لم أعد إلى هذا الطريق منذ خمس سنوات، ولاحظت أن كل شيء، بما في ذلك، العلامات المضيئة واللوحات الإعلانية ذات الأضواء المتحركة، كلها مكتوبة باللغة الإنكليزية، أما اللغة العربية واللغة الفرنسية اللتان كانتا تتقاسمان فيما مضى هذه الضاحية الجميلة من البلد المسيحي فقد اختفتا بشكل كامل.

تجاوزت السيارة الميناء التاريخي الصغير في مدينة جبيل حيث تناولنا طعام الغداء مع ميشيل سورا برفقة زوجتينا وأطفالنا في عام 1983. كان هذا قبل سنتين من اغتياله من قبل الميلشيات الشيعية التابعة للنظام السوري الذين كانوا قد اعتقلوه كرهينة في وقت سابق من عام 1985 عند خروجه من مطار بيروت. كان قادماً بالطائرة من باريس، حيث رافقته شخصياً إلى مطار أورلي ذلك الصباح بسيارتي رينو 5.

في ربيع عام 1983، كنت قد حضرت لرؤيته قادماً من مصر حيث كنت أقيم، بينما كان ميشيل يقيم في بيروت. أحفظ بوشاح قديم، ألوانه باهتة، كنا نضعه على أكتافنا، أنا وميشيل، هو مع ابنته ألكسندرا وأنا مع ابني نيكولا، وكان عمره آنذاك سنتين، أثناء جلوسنا على سطح

المطعم الشهى للميناء، والذي كان يقدم أسماكاً مجمدة بعد إذابتها (إن لم تكن ننته ومنتحلة)، وهي مستوردة من بحر الصين عبر دبي. لقد انقرضت البيئة البحرية والحياة البحرية المحلية بعد استخدام الديناميت أو تسممها بسبب المجاري الملوثة التي تصبّ في المياه المحلية.

وجهتي لهذا اليوم إلى الحي الطرابلسي المسمى باب التبانة أي «باب العلف»، وهو مركز العنف الطائفي في لبنان الذي خصص له ميشيل مقالاً أسبوعياً تحدث فيه عن كل شيء بإسهاب. وقد أعدت نشر كتابه في شهر أيار/ مايو 2012 بعد تحريره للصحافة الجامعية في فرنسا المعنون بـ«سورية، الدولة البربرية».

لدي موعد بمناسبة خطبة الجمعة مع النجم الجديد في الوعظ السلفي في طرابلس وهو سالم الرافي الذي سيلقي خطبة في جامع باب التبانة، في جامع جديد تمّ تمويل بنائه وتجديده حسب الإشاعات المحلية بواسطة أثرياء قطر.

مع الاستمرار في وجهتنا نحو الشمال تركنا على يميننا الطريق الجبلي الذي يؤدي إلى المقر المحصن للقوات اللبنانية في مراب حيث ذهبت للقاء زعيمهم سمير جعجع قبل خمس سنوات.

* * *

في ذلك الصباح، وفي عش نسور وسط الضباب يطفو شيئاً فشيئاً مدنيون مسلحون، كما هو الحال في أفلام جيمس بوند، ظهرت أخيراً بوابة صلبة مدعمة تفتح بشكل جانبي بين جدران عالية. في داخل هذا الحصن المدجج بالآليات الإلكترونية والأجهزة الإضافية الحديثة التي تضاف إلى مكونات حصون القرون الوسطى الصليبية والأيوبيين الذين سكنوا قمم الجبال الساحلية منذ زمن، هناك قابلت واحداً من أكثر قرائي حماسة. في الواقع، لم يكن لدى جعجع الشهرة على أنه فأر المكتبات الذي يلتهم القصص، وما يخطه العلماء والكتاب كان من أهم الأمور لديه ولا يقل أهمية عن دم الشهداء وأعدائه الكثير.

كان من القادة العسكريين الرئيسيين في الميليشيات المسيحية إبان الحرب الأهلية. عندما كان المخيم المسيحي ينقسم بين موالين وأعداء لدمشق، فقد شارك وهو بعمر ستة وعشرين عاماً في موقعة دموية. وقتل في مجزرة وحشية في إهدن في سهول زغرنا بتاريخ 13 حزيران/ يونيو 1978 كلاً من طوني فرنجية (ابن سليمان وعم سمير) وزوجته وابنته بعمر ثلاث سنوات وأيضاً ثلاثين عضواً من ميليشياته.

اتخذ قرار تنفيذ هذه المهمة انتقاماً لمقتل ضابط كتابي تمّ تكليفه من قبل طوني فرنجية، ولتورطه في هذه الجريمة الحربية وفي عدد آخر منها تمّ اعتقال جمع جمع وسجنه في عام 1994 من قبل حكومة تحت السيطرة السورية، وحكم عليه ثلاث مرات بالإعدام تمّ تحويلها إلى أحكام بالسجن المؤبد.

من المعروف أن قادة الميليشيات الملطخة أيديهم بالدماء يتمتعون بكامل الحرية إذا كانوا موالين لجهة المنتصرين آنذاك. وقد قضى جمع جمع إحدى عشرة سنة معزولاً في سجن انفرادي تحت الأرض وهو عبارة عن حفرة ضيقة مظلمة، ثم أطلق سراحه بعد فوز الأغلبية المنتخبة في البرلمان في أيار/ مايو 2005، بعد يوم من انسحاب القوات السورية حين صوّت هؤلاء المنتخبون في البرلمان على العفو عنه.

وعندئذ أخبرني بعض قدامى الطلبة اللبنانيين عن أولى التصريحات التي أدلى بها إلى الصحافة بعد إطلاق سراحه. فقد تمّ سؤاله حول ظروف وأحوال السجن (التي أدت إلى ضعف بصره) وصحته حيث كابد الأمرين وكان يحاول ويطلب بالحاح توفير الكتب لقراءتها وكان هذا فقط هو النشاط المسموح به. هذه الأحداث حولت قائد الحرب هذا إلى رجل سياسي محترم، وفي يومنا هذا أصبح من الزعماء الرئيسيين لتحالف «14 آذار/ مارس» إلى جانب سمير فرنجية.

تعجل في الإشارة إلى الكتاب الذي تحدث عنه بإسهاب ورحب بمبادرة إطلاق سراحه وقد أشاد بكتابي «جهاد» الذي ظهر في عام 2000، وصرّح بأنه كان خليله المفضل في زناتته والذي كان حسب قوله الدليل الذي فتح عينه حول التغيرات في الشرق الأوسط وما وراء لبنان.

وبعد سنتين من إطلاق سراحه، انتهزت الفرصة بعبوري من خلال حقول البلدة المسيحية للذهاب لمقابلة قارئي في الجبال. وقد استقبلني برفقة زوجته الشابة ستريدا، كلاهما أنيقان. هو أصلع ونحيف ووجهه شاحب كما لو كان رسماً لفنان إيطالي من بيرو إبان فترة النهضة الإيطالية. أما هي فتتمتع بجمال أخاذ مع شعرها الأشقر البندقي، كانت السندي الرئيس لزوجها خلال فترة اعتقاله، وقد تمّ انتخابها لتفوز بمقعد نائب في عام 2005 من قبل الموالين لها.

في هذا اليوم الذي نسيت تاريخه، الذي ابتدأ بقرية النور في جبل كسروان المسيحي، وانتهى بمقابلة غير متوقعة مع قارئة أخرى.

حدث ذلك في قصر الجبل الدرزي المسمى الشوف، وقد تنازلت عن شعبيتي المسيحية فلم يمنعه ذلك من استضافتي على العشاء، لقد كان وليد جنبلاط. خلال زيارتي في عام 2007 كان عضواً في «14 آذار» وكانت عودته التالية في عام 2011 هي التي سمحت لأغلبية أعضاء البرلمان بالانقلاب والوصول إلى سدة الحكم في حكومة ميقاتي.

وعلى عكس القصر الفخم والصلد والجديد الذي استقبلني فيه جمعج في معراب في صباح اليوم نفسه فإن قلعة «المختارة» الصغيرة وهي مسقط رأس عائلة جنبلاط قد تم إهمالها بشكل ملحوظ، ولكن تم إعادة تهيئتها وتزينها باللوحات والسجاد الفاخر من القرون الماضية وكذا بالفسيفساء التي تم العثور عليها في المنطقة. وبخلاف جمعج الذي نشأ في وسط بيئة متواضعة في قرية بشري وكانت دراسته متقطعة بسبب الحرب الأهلية، فإن جنبلاط وريث لعائلة من الأمراء الدروز الذين حكموا منطقة الشوف منذ قرون وقد قمت بتدريس ابنه مادة العلوم السياسية. قام الأول بتكوين حلفاء من اليمين كما هو متعارف عليه في السياسة العالمية والثاني من اليسار. تشابههما من ناحية الشكل واضح جداً ومثير، حتى البنية الجسمية متقاربة من ناحية النحافة وكذا تطابق كبير من ناحية نظرات العيون الثابتة كنظرة الطائر إلى فريسته.

وليد بيك كما يلقيه آل جنبلاط، كان يتناول المقبلات في صالون صغير به أثاث منسق بشكل جميل ومجنون، يوجد به دولاب من القطع الأثرية وأريكة منخفضة من عدة قطع مزينة برسومات شرقية. رافقتني اثنان من الطلبة القدامى حول المائدة المستديرة، أحدهما طالبة لبنانية اسمها أميرة والآخر يدعى برنار روجيه وهو زميل شاب قمت مؤخراً بنشر كتابه الأول «الجهاد اليومي» وهي دراسة مهمة حول العشق لدى الجهاديين في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في عين الحلوة، وفي جنوب صيدا التي تقع على بعد عشرات الكيلومترات من مختارة.

كنا نحتسي شراب العرق ونأكل زيتوناً من إنتاج القرية عندما قاطعتنا أجمل فتاة في بلاد الشرق. حاولت أن أبقى نزيهاً ومهذباً، فقد كانت طويلة ونحيفة وتمشي برشاقة ونعومة، اسمها نورة وهي الزوجة الشابا لسيد هذا البيت الذي قدمها إلي قائلًا:

- «حبيبي... هل تعرفين البروفيسور؟

- اممممم، مساء الخير! (قالتها بنبرة وإيماءة ملكة لا تكثرث بمن حولها).

- والسيد روجيه.

- أنت برنار روجيه؟ هذا رائع، فقد انتهيت للتو من قراءة كتابك حول الجهاد، وهو من الكتب الأكثر إثارة، التي قرأتها في حياتي! أنا سعيدة جداً بلقائك هذا شرف كبير لي. أخبرني كيف قمت بهذه التغطية والتحريرات؟ لا بد أن هذا كان صعباً جداً وعلينا القول إننا لا نعرف شيئاً في حين أن كل هذا يجري في المخيم القريب منا!

وأثناء استماعها إلى كلمات برنار، الذي كان قلقاً من أن الغيرة يمكن أن تجعلني أدمر مستقبله الجامعي. انهمكت مع وليد بك وهو يحدثني عن مجموعته الشخصية من التحف الأثرية وعن بعض القطع ذات الجمال الفريد، التي أحضرها من مملكة تدمر في قلب صحراء سورية. زوجته أيضاً سورية وقد كانت متزوجة في السابق من أحد أبناء عمومتهما لا يقل نبلاً عن الدروز. وقد ارتبط بها وليد بك وكله فخر وشرف بذلك.

عندما حان وقت تناول وجبة العشاء الفاخر، تمّ تقديم أفضل أنواع الشراب في لبنان وكان على المائدة والدة وليد بك وهي أرملة كمال جنبلاط، كانت تتحدث بكلمات خفيفة هادئة بصوت جين مورو وهي تجلس في المقعد الرئيس لطاولة الطعام وتدير الحوار بشكل قوي وروحاني. وكان مضيفنا يتحدث حول مساوئ الاحتلال السوري للبنان لمدة ثلاثين عاماً - من الجيد أنه انتهى - . قتل أبوه أثناء ذلك بأمر من حافظ الأسد. وقتئذ أمسكت نورة بيده، وقالت: «لكن حبيبي، لا زلت تحت نير السلطة السورية».

طرابلس، خط الصدع

وصلت السيارة إلى مدينة طرابلس، الأحياء الجنوبية ممتدة على شاطئ البحر، منها سكنية، بعيدة عن البؤس والعنف في المناطق الشعبية الواقعة شمال المدينة، وبالقرب من المخيم الفلسطيني يقع نهر البارد الذي دمره الجيش خلال معركة دامية في أيلول/ سبتمبر لعام 2007، هذه المعركة كتب عنها برنارد روجيه صفحات في كتابه بعنوان «الأمّة المتفرقة».

استقبلنا مرشد محلي بناء على توصية من طالبة أخرى تكمل أطروحتها حول المدينة

الشمالية للبنان، والتي تمّ تكريمها بجائزة ميشيل سورا. تناولنا الشراب معه في أحد المقاهي الساحرة اسمه «أهواز»، يشتمل على قاعة للمطالعة مع كتب عربية وفرنسية وكذلك إنكليزية.

في هذا المقهى، يجلس شاب يربط شعره من الخلف على هيئة ذيل الحصان ويحمل قيثارة، وتجلس أيضًا فتيات شابات بتنانير قصيرة على الشرفة وكذلك بعض رواد المقهى ممن يعملون على حواسيبهم وأجهزتهم النقالة مستغلين شبكة الإنترنت الهوائية المجانية. لم أتذكر أنني رأيت مثل هذا المقهى فيما مضى قبل خمس سنوات، ولم أشتّم رائحة لهذا الجو المريح الذي يطغى على طرابلس. قال لي مرافقي إن المدينة منقسمة:

«قطاع كبير منها يعيش وفقاً للحياة المتبعة في بيروت، وجزء منها يشكل الحي السلفي في باب التبانة، بجوار العدو العلوي في جبل محسن وهم يتبادلون بشكل منتظم الذخائر ومخزون الأسلحة: وهذا هو معيار قياس التوتر المرتفع ودرجة الغليان لما يجري في سورية بين النظام وبين المعارضة الإسلامية. نحن نعيش على فوهة بركان».

اقترح القيام بزيارة استطلاعية لكامل المدينة وقبل موعدنا الأول مع سماحة المفتي. وفي يوم الجمعة تظاهر طرابلس كمدينة هادئة بشكل مدهش حيث يتفرغ الناس لقضاء أعمالهم واهتماماتهم. في وسط المدينة، تجد نساء منقبات وهن أكثر قليلاً من أولئك المنقبات في مترو باريس، وأقل بكثير مما هو عليه الوضع في قلب سين سان دوني، ولكننا نشعر بأن راحة منبثعة من هذا الجو. بعد أسبوع من توجيهي لآ زالت المدينة تتخبط جراء اغتيال جنرال سني على يد أحد عملاء دمشق، بعد ذلك، بدأت باب التبانة وجبل محسن بتبادل القصف مجدداً.

وصلنا إلى النهر الساحلي الذي يحاذي شمال المدينة. كان المسجد الكبير يظهر بشكل ملفت وجديد من بعيد «مسجد التقوى» حيث سوف أتوجه بعد ساعات للاستماع إلى خطبة الشيخ الرافعي، وهو يقع بجوار سوق تباع فيه أسلحة الصيد، الذي يشغل الميدان الأخير على الكورنيش قبل الوصول إلى باب التبانة، الذي وصلنا إليه بعد عبور جسر في وسط سوق كبير للخضار تقف على جانبه صفوف طويلة من الشاحنات التي تحمل لوحات تركية.

هذا الاسم «باب التبانة» أطلق تيمناً بعمليات بيع القش والتبن في السابق والتي كانت

توجه نحو الولايات العثمانية السابقة التي كانت تشغل الأرض والبحر بسبب كثرة الأراضي المبللة إثر المياه التي تفيض على ضفتي النهر وعلى شاطئ البحر، أما في يومنا هذا، فقد تبدلت زخات الماء التي كانت تغمرها إلى أكوام من التراب والنفائات الملقاة على جانبي الطريق.

يمكن بسهولة رؤية بعض الآثار والكتابات باللغة العثمانية على الأقواس وفي الدكاكين والمداخل القديمة التي تعرض زخارف جميلة وصغيرة معظمها دمرته العوامل البيئية أو تغير لونه إلى السواد جراء الحرائق أو بعد تغطيتها بالحديد والقماش حيث لم يسلم أيضاً من استهداف الرصاص الذي أدى إلى إحداث عدة ثقوب به من الرشاشات.

في الخط الأمامي، يقع «شارع سورية وهو - فأل سيء - يفصل باب التبانة من الأسفل عن الحي العلوي لجبل محسن الذي يطل عليه، بعض الواجهات قد تحولت إلى دانتيل من الحجر جراء العديد من الصدمات الموجهة إليها.

هذه المنطقة «التي لا ينتمي إليها أحد» وعلى بعد عشرات الأمتار، محمية بسيارات مدرعة تابعة للجيش اللبناني، أخبرنا مرافقنا أنها:

«في أغلب الأحيان مجرد تماثيل نشاهدها ونعلم أنه لن يحدث أي شيء. فبمجرد البدء بعمليات إطلاق النار يتم سحبها لتفادي إصابة الجنود أثناء فرارهم وحتى لا يتم سرقة تلك المدرعات من قبل أحد عناصر هذا المخيم أو ذلك. الضباط الشيعة أو المسيحيون العونيون لـ «8 آذار» متضامنون مع جبل محسن بينما السنة والمسيحيون الآخرون التابعون لـ «14 آذار/ مارس» يدعمون باب التبانة، ومن ثم يجب على الجيش أن يغطي ذلك وإلا سوف تنفجر الأمور.

منذ بضعة أشهر، قتل أحد شيوخ السنة المنتمين إلى «14 آذار/ مارس» في نقطة تفتيش على مرتفعات عكار، ومن المحتمل أن ذلك تم بواسطة جنود متعاطفين مع «8 آذار». كان الوضع العام خارج السيطرة، لذا لم نستطع الاقتراب من المنطقة التي نحن فيها الآن».

استمرت السيارة في قطع الطريق وصعود المرتفعات بشكل متعرج، قادتنا إلى قمة جبل محسن. الناس منصرفون إلى أعمالهم وهادئون، ونجد أنه من الصعب توقع إجلاء الناس من المنطقة بشكل مفاجئ وأن تلك الأصوات سوف تترك مجالاً لموت محتم. المناطق مكتظة بالقناصين في نقاط المراقبة، كما أنه لا توجد امرأة تضع النقاب. على

الجدران توجد رسومات عملاقة لبشار الأسد، ولأبيه وكذا لأخيه الراحلين، العيون مغطاة بنظارات شمسية سوداء، هذه الثلاثية المقدسة العلوية الغربية لها سلطة مقدسة هنا.

كذلك يوجد على المصابيح المعلقة صوراً لرفعت عيد قائد الحرب في الجبل، وهو رجل سمين حليق الرأس. كنت متوجّهاً إلى منزله للحصول على تصريح بتصوير الحي. لم يكن الفرنسيون من المرحب بهم بشكل قاطع لدى الموالين للنظام في سورية، فقد طلب أن أحضر لرؤيته قبل أن يتخذ قراراً.

* * *

ولجت السيارة إلى المرآب الذي هو عبارة عن قبو شبه مطمور. يشبه عيد صورته بل إن صورته في الواقع أكثر فظاعة وقيحاً. عند مصافحته، تفرقت أصابع يدي. قاذني شعوري بالتحفظ إلى تادية دور المنصاع أثناء كلامي معه باللهجة العامية لأهل دمشق، مقلداً بذلك ما تلقيته أثناء تعلمي اللغة العربية في سورية، قبل 35 عاماً. بدا متحمساً وشرح لي أن التعليم في سورية هو الأفضل في العالم العربي، مجاني ويساوي بين كل الطبقات الاجتماعية في حين أن التعليم الجيد في لبنان مخصص فقط لطبقة الأثرياء وهذا ما منعه من الاستمرار في تعليمه العالي.

لاحظت وجود صورة له - أعلى المكان الذي يجلس فيه مرتدياً بذلة وربطة عنق بلون أسود مع قميص أبيض - برفقة والده الذي كان فيما مضى نائباً علوياً عن طرابلس وأسس الميليشيات التي يقودها ابنه اليوم: فهو في زيارة لبشار الأسد وينحني في وضعية الخجول وترسم على وجهه ابتسامة عاطفية.

على رفوف المكتبة المنتصبة خلف الأريكة توجد صور شخصية للرئيس السوري ولوالده وصوراً لحسن نصر الله الأمين العام لحزب الله وكذا صورة للرئيس اللبناني. كما لفت انتباهي وجود مجموعة من الطلقات الفارغة من عدة أعيرة منها الثقيلة والخفيفة بمقاسات متنوعة:

- «أرأيت؟»، قال لي، هذه الطلقات التي تمّ جمعها في الحي عندما هاجمنا السلفيون من باب التبانة في المرة الأخيرة. وهذا دليل أنهم كانوا يأملون إعدامنا؟ هل تعلم لماذا؟ لأننا نمثل الوحدات المتقدمة للحرية وللعلمانية وللصراع ضد المتعصبين في شمال لبنان.

أولئك الذين يرغبون في قتلنا هم أنفسهم من يضعون القنابل في الضواحي الفرنسية لقتلتكم أنتم كذلك، هنا نحن نستبق المعارك لفائدة الحضارة وضد الإرهاب المتعصب.

- ماذا تفعلون لمقاومتهم؟ عددكم ليس بالكثير. هل يقدم لكم حزب الله المساعدة ولهذا السبب أرى وجود علم الحزب خلفكم؟

- بفضل الله فإن الجبل منيع وغير قابل للاختراق. يوجد هنا حوالي مئة ألف من السكان (النصف، حسب أغلبية المراقبين). وبالنسبة إلى حزب الله فقد أبرمنا اتفاقاً سياسياً معهم ضمن «8 آذار» ومع هذا فباستطاعتنا الدفاع عن أنفسنا بمفردنا.

حصلت على موافقته على التصوير. «ليس لدينا شيئاً نخفيه!». في المقابل، لم يرغب بالإدلاء بأي تصريح. فالتصريحات لم تكن من نقاط القوة لديه، فقد حولني باتجاه قائد سياسي شاب من الحي، يستطيع الرد على أسئلتني، لكل منهم تخصصه.

عند مغادرة جبل محسن لمقابلة سماحة المفتي الشعار في الحي الراقي والحديث للميناء، مررنا بوسط البلدة أمام متجر تعرض لهجوم:

«إنه يخصّ العلويين في الجبل كما شرح لنا مرافقنا، وقد تمّ نهبه بعد الأحداث الأخيرة. فيما مضى كان العنف يقتصر على حدود اثنين من الأحياء المتنازعة فيما بينها لكن في الوقت الحالي نلاحظ وجود أحداث في المدينة، لا تزال، رغم ذلك، محدودة للغاية. هناك تفاهم بين القادة من جميع الطوائف على ألا تتدهور الأمور، وإلا فإن الجميع سوف يعانين».

عند دخولنا لمقابلة سماحة المفتي تعرفت إلى شقته: لقد سبق لي أن حضرت من قبل لكنني نسيت. فهذا الرجل الستيني ذو اللحية القصيرة البيضاء يلبس اللباس التقليدي المتعارف عليه للعلماء في بلاد الشام، وهو قفطان طويل مبطن باللونين الأزرق والرمادي الأنيق، ويضع على رأسه عمامة مخروطية الشكل يمكن رؤيتها من مكان بعيد نسبياً. هل يكون هذا إعادة تشكيل لقبعة الرهبان الكبار في «بعل»، الإله الذي أطلق اسمه بشكل رسمي على الحي العلوي للجبل «بعل محسن»؟

بعد انحناء رأسه الذي يعتمر القبعة الغريبة على أسلوب العلماء، قمت بحساب ذهني على احتمالية أنني قد أكون قابلت سابقه في هذا المنصب وليس هو ذاته قبل خمس سنوات. فقد كان يتكلم بلغة عربية فصيحة تحترم القواعد اللغوية وكانت جيدة بحيث

تشبه اللغة اللاتينية المستخدمة في الكنائس التي لا تحمل أية مشاعر أثناء الكلام بها، كانت تصرفاته هادئة وباردة في مدينة يتقاتل فيها الناس بدم حار:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، نحمد الله على بركته ونصلي ونسلم على نبيه محمد وعلى آله وصحبه، أتقدم لكم بكافة تمنياتي مرحبًا بكم في لبنان وفي طرابلس، اسمي مالك حكيم الشعار.

ولدت في طرابلس في عام 1948، أتممت دراساتي الابتدائية والثانوية في البيت من خلال الدراسات الإسلامية قبل أن أستكمل دراساتي العليا في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة (وهي مقرّ الإخوان المسلمين في تلك الحقبة) وحصلت على شهادتي الإجازة الأولى من كلية الشريعة والثانية من كلية الفقه.

وقد عدت إلى لبنان حيث شغلت منصب إمام ومدرس في أحد مساجد طرابلس. بعد ذلك أنهيت الدراسات العليا في الأزهر، حيث حصلت على درجة الماجستير في الفقه في عام 1974 وشهادة الدكتوراه في بدايات الثمانينيات 1980. وعشت في الإمارات العربية المتحدة لأسباب مهنية.

شغلت منصب المستشار المساعد لوزير العدل ثم الواعظ العام الوطني في وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف وكذا أستاذًا في جامعة الإمارات ما بين عام 1977 إلى 1992. وأخيرًا رجعت إلى طرابلس حيث عملت قاضيًا دينيًا ثم رئيس المحكمة لمدة سبع عشرة سنة. ومنذ أربع سنوات ونصف تمّ تعييني مفتي طرابلس والشمال».

إن سماحة المفتي هذا هو من الأئمة الذين نصبوا أنفسهم كرجال للحركة الإسلامية الأصولية. كما أن أسلوبه في الإلقاء يسمح له بالدخول في اللعبة حسب التقاليد الكبيرة في سباق البحث العلمي الديني، الذي يرجع إلى حقبة القرون الوسطى، حيث يكون الطالب الأصولي من بلد لا توجد فيه مؤسسات تعليمية إسلامية عليا ولهذا ذهب يبحث عن الشهادات في الجامعات الأكثر شهرة ووقارًا في العالم السني في وقته، حتى يستطيع الدخول في مواقع ومناصب مرموقة تسمح له بالوصول إلى السلطة.

إن الإقرار بالهروب من الذات في سبيل التحصيل، والمعرفة المهنية في الخليج بهذه المستويات هو في حدّ ذاته تأكيد على الشرعية. إن التكوين المزدوج في السعودية وفي مصر يبرهن على وجود تقارب لغوي وقنوات سلفية للإخوان المسلمين يكمل التعريف

الحداد والقوي للمؤسسة السنوية في الشرق الأوسط. ثم توجهه إلى أبو ظبي خلال خمس عشرة سنة سمح بوجود مصدر مادي مهم كما هو حال العديد من مواطني المفتي الذين يذهبون إلى الخليج بحثاً عن الثروة التي فقدوها لبنان. استثنى أن يشير لي أنه كان لفترة طويلة عضواً في الجماعة الإسلامية، وهي الفرع اللبناني للإخوان المسلمين.

تحدثت مع هذه الشخصية المهمة على أتباع مذهب الإسلام السني حول إدراكها للبيئة السياسية:

- «برأيكم ما هو تأثير الأحداث في سورية على طرابلس؟

- هناك مثل لبناني شهير يقول: «يمكن لسورية أن تثقل على لبنان ولكن لا يمكن للبنان أن يُثقل على سورية، ولهذا السبب فإن لبنان يتأثر بكل ما يجري هناك. لا يمكن حكم بلد لمدة تزيد عن أربعين سنة من قبل حزب واحد أو نظام واحد يستثني الحريات والممارسات الديمقراطية. أعتبر أن ما حصل في سورية هو أمر طبيعي: فهي ثورة ضد الظلم وغياب الحريات وتعليق القوانين.

إن هذا البلد يعيش لأكثر من أربعين سنة تحت نظام حالة الطوارئ واليوم يخضع لتدمير شرس وبشع. فالنظام لا يحترم حقوق الإنسان ولا القوانين العالمية ولا حتى كرامة الإنسان.

- ما هو التأثير المحتمل للأحداث في سورية على طرابلس؟ فنحن نعرف أن الأغلبية من النازحين واللاجئين السوريين هم من السنة، وأن سكان طرابلس هم أيضاً من أكثرية سنية، مع أقلية من العلويين، وأنه كانت هناك مواجهات بين جبل محسن وباب التبانة؟

- إن النظام السوري يصفع كل العالم على وجهه، فإن ما يحدث تمت إثارته من قبل مجموعة من الإرهابيين المنتمين لتنظيم القاعدة، أو المتطرفين أو السلفيين. وقد أوضح أنه يشعر بالخطر، وكل البلدان المجاورة تعاني بسببه. والبلد الذي يعتبر الأكثر تهديداً هو لبنان وذلك بسبب ضعفه. فليست لديه القدرة على مواجهة سورية التي حكمتها من عام 1975 إلى 2005. وبدون مساعدة سورية فلن يكون لحزب الله هذا الحجم الذي هو عليه في أيامنا هذه، والحال كذلك مع كل المتحالفين مع النظام السوري فقد أراد أن يظهر للعالم أنه بعد مغادرته لبنان فإن هذا الأخير هو من سوف يأوي تنظيم القاعدة، وأن السوريين فقط الوحيدون الذين لديهم القدرة على مواجهته.

يسعى نظام دمشق أيضًا لإشعال الصراع بمساعدة عملائه لكي يبرهن أن السنة لا يستطيعون العيش مع إخوانهم العلويين، والذين هم فقط بضعة آلاف بين سبعة إلى عشرة آلاف. هذا غير صحيح: فنحن المسلمين السنة نعتبر كل من يعيشون في بلدنا هم من المواطنين اللبنانيين الذين يتمتعون بكامل الحقوق، ويتطابق هذا أيضًا مع إخواننا المسيحيين وأيضًا الدرروز وغيرهم. فنحن نتصرف ونتعامل معهم كأخوة ومواطنين لبنانيين، لكننا إخوة وأبناء آدم وحواء، قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(*)، ومن وجهة نظري الشخصية وبصفتي مفتي طرابلس والشمال، فأنا حزين على تراجع عدد المسيحيين في طرابلس. وحزين كذلك على الانكماش المتواصل في عدد المسيحيين في القدس. فلو بقوا بأعدادهم الكبيرة لأصبحنا قرييين من حل المشكلة الفلسطينية».

* * *

إن هذا الواعظ السلفي الشيخ سالم الرفاعي هو اليوم في صعود دائم لكي يصبح الواجهة الإسلامية للأغلبية المسلمة في هذه المدينة الشمالية وفي منافسته التعددية في المبادرات الشعبية المتعلقة بوسائل الإعلام والتلفزيون التي تشكل سيدًا مهممًا يعمل على تعويض الثقافة الجامعية البسيطة مقارنة بالمفتي.

يقدم نفسه كطالب سابق للشريعة في المملكة العربية السعودية وحامل لشهادة الدكتوراه دون مزيد من التوضيح، كان حديث الناس عدة مرات في عام 2012. بعد موت بعض شيوخ السنة: أحمد عبد الواحد ومحمد حسام المرعبي اللذين قُتلا في نقطة حدودية على حاجز الجيش في عكار، طالب بإنشاء ميليشيات سنوية مسلحة للدفاع عن مجتمعه، وذلك تيمناً بحزب الله الذي حافظ على أسلحته باسم «المقاومة ضد إسرائيل» في الجنوب، ولكنه احتفظ بها لنفسه بل واستخدمها ضد السنة في بيروت في عام 2008. ومن ثم فإن اثني عشر شيعيًا لبنانيًا تمّ خطفهم في سورية من قبل الجيش السوري الحر. وقد عمد إلى علاقاته مع هذا الأخير لتحرير اثنين منهم وبالتالي اكتساب دور الوسيط، وقتند ذاع صيته بين الناس.

(*) سورة الحجرات الآية 13.

وفي هذا السياق، وافق على تثبيت آلات التصوير وسط مسجده إبان إلقائه الخطبة، وبالتالي سوف يمنحني حوارًا مطولاً.

يعتبر الشيخ الرافعي جزءاً من هذه الحركة الإسلامية في طرابلس التي فرت من المدينة عندما كانت تحت سيطرة الجيش السوري في عام 1985 ولم يعد إليها إلا في العام 2005 بعدما خرجوا من البلاد. والذين لم يفروا في ذلك الوقت فإن الأغلبية منهم اعتقلوا في سورية في ظروف قاسية جداً ومنهم من اختفوا إلى الأبد أو تحللوا أحياناً في براميل مليئة بحمض الأسيد، وفقاً للإشاعات المحلية. أما أولئك الذين لجؤوا إلى بلدان تتوزع بين أوروبا الشمالية وأستراليا فقد تمكنوا من توظيف أنشطتهم العسكرية ضد السلطات في البلدان التي سمحت لهم بالدخول ومنحتهم الإقامة.

في الدانمارك كان واحداً منهم يدعى رائد حليحل أثار الحراك العالمي ضد الرسوم المسيئة للرسول التي ظهرت في الصحف الدانماركية اليومية في خريف عام 2005. في أستراليا كان ظهورهم هو الذي أدى إلى تمويل الناشطين السلفيين الذين تغلغوا وقاموا بمحاولات تفجير قبلة في شمال لبنان. بالنسبة إلى الشيخ الرافعي شخصياً وبعد عشرين سنة من إقامته في ألمانيا فقد طردته السلطات في برلين بناء على خطبه التي وصفت بأنها تحريضية.

رحب بنا المسؤول عن العلاقات العامة في المسجد واستضافنا في وسط المكان المخصص للصلاة، بجوار آلة تصوير موضوعة على قوائم وتعمل على تصوير كامل الخطبة وذلك لبثها بشكل مباشر على شبكات التواصل الاجتماعي، كي يضمن بذلك -حسب رأي الشيخ وتوجيهاته- أنها سوف تحظى بمشاهدة تمتد إلى خارج الحدود. يستوعب المسجد ألفين من المصلين فقط، ونظرًا لازدحام القاعة فقد تم فرش الساحات الخارجية وأيضاً بجوار الجدران وفي مرآب السيارات بين الدرجات والشاحنات لاستقبال المتأخرين عن الصلاة.

كما هو الحال في المسجد الكبير «التوحيد» في مدينة سيدي بوزيد، الذي سيطر السلفيون التونسيون عليه وهناك استمعت إلى الخطبة الملقاة في الشهر الماضي، وكانت الأغلبية المتجمعة لا تحمل المظهر السلفي. وقد شاهدت هنا أيضاً جنوداً بزيهم الرسمي حضروا من مواقع وجود الجيش الذي وضع في خط المواجهة بين باب التبانة وجبل محسن حيث تمتلئ المواقع المخصصة للأحذية بأحذية هؤلاء الجنود.

إن خطبة الجمعة الاعتيادية تنقسم إلى شطرين، الشطر الأول هو حصّة عن التاريخ الطاهر والمقدس للإسلام وذلك لإعطاء الأمثلة والعظة والعبرة. ويتم اختيار موضوع الخطبة من قبل الخطيب للإشارة إلى المعيار الذي سيتم تفعيله في الشطر الثاني من الخطبة والذي يكون مخصصاً لمناقشة مشكلة معاصرة وإيجاد «حل إسلامي» لها. ويتم صياغة شطري الخطبة بشكل يظهر مدى الترابط بين المسببات.

تحدث حصّة التاريخ المقدس التي تروى على هيئة آيات قرآنية وأحاديث نبوية من قبل الشيخ الرافعي في هذا اليوم 12 تشرين الأول/أكتوبر 2012 عن معركة بدر، وهي من أكثر الرموز قوة وتحفيزاً في المُخَيَّل الإسلامي. وقد حصلت في العام الثاني من الهجرة أي آذار/مارس عام 624م ولقد وصفها المستشرق جاك بيرك بـ«الفرقة الصغيرة من المسلمين»، وهي عصابة تتكون من ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً يقودهم النبي محمد تتحدى جيش كفار مكة الذي يفوقهم عدداً بأكثر من ثلاثة أضعاف. رغم ذلك، كان النصر حليفهم، لذا تعتبر من المحفزات الدينية القوية التي أثرت في المسلمين، وأمدتهم بالشجاعة الضرورية، فالله سبحانه قد أراهم أعداءهم أقل بكثير من العدد الفعلي في حين رأى كفار مكة عكس ذلك. وحيث إن الكفار كانوا يتبعون الشيطان ويدعمهم هذا الأخير فإن الله أرسل ملائكة للمحاربة إلى جانب المسلمين وكان عددهم بالآلاف لكسر شوكة الأعداء. هذه المعركة هي التي أدخلت الإسلام التاريخ محولة بذلك المسلمين من مجموعة صغيرة من التجار والعبيد والمهاجرين في إحدى واحات المدينة إلى قوة عسكرية وسياسية غزت العالم.

كان الشيخ الرافعي يرتدي لباساً طويلاً أبيض على طريقة السلفيين ويعتمر قلنسوة ويتحدث من خلال فتحة علوية بجانب المحراب مواجهاً جموع المصلين الجالسين باتجاه القبلة التي هي في اتجاه مكة المكرمة. في العادة يتم وضع كرسي في أحد الجوانب، وهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها خطيباً يقف في اتجاه المكان الذي هو مخصص بالأساس لأداء الصلاة باتجاه القبلة، ويتكلم بلغة عربية فصحة أقل فصاحة من تلك التي كان يتحدث بها المفتي وبلهجة لبنانية قوية يلجأ إليها أحياناً لتوظيف بعض الكلمات أثناء إلقائها عندما كان يحاول تحريك مشاعر بعض المسلمين وتهييج عاطفتهم:

-«إن الله قد خفض عدد جنود الكفار في أعين المسلمين (عند بداية معركة بدر) في حين زاد عدد المسلمين في أعين جيش الكفار فاستقرت معالم الخوف في قلوبهم وانهمزوا.

لقد استطاع المسلمون أسر سبعين مقاتلاً منهم. إخواني المسلمين، إذا قمنا بنقل تعاليم هذه الرواية إلى الوضع الحالي الذي نعيشه، سنرى كيف أن الله يفعل ما يشاء بإرادته وفيه بوعوده. إن أمة الإسلام لا تسمع ولا تعي، بينما تقوم إيران باتحاد سري مع حلفائها وقد استطاعت تقسيم العالم الإسلامي إلى شطرين. إن إيران يا إخواني المسلمين تدعي أن أعداءها هم الولايات المتحدة الأميركية وحلفاؤها بينما على أرض الواقع، وفي نظرهم إن الأعداء الحقيقيين هم العرب والسُّنة.

لقد احتلت إيران العراق بمساعدة الولايات المتحدة الأميركية ثم هيمنت على سورية: الهيمنة الفكرية وذلك بتشجيع مذهب الشيع وبالتالي الهيمنة الاقتصادية والهيمنة على النظام السوري.

كما سيطرت إيران على لبنان وفلسطين من (خلال تأثيرها على حماس). هذه المؤامرة الكبرى التي تمتد من إيران إلى فلسطين قد قسمت العالم الإسلامي إلى قسمين: تركيا في الشمال والعرب (عرب الخليج) في الجنوب، بطريقة تجعل الشمال والجنوب غير قادرين على مساعدة بعضهم ومد يد العون لهم في حال المواجهة والصراع.

لقد كسبت إيران القوة عندما سلمت لها الولايات المتحدة الأميركية دولة العراق (بعد اجتياحها وقتل صدام حسين). إن إيران والعراق وسورية وفلسطين وهي بلدان تقع في قلب العالم الإسلامي يشكلون تحالفاً ضد الشعوب السنة والعرب لاسيما عرب الخليج. إن الحكام مشغولون بشكل كبير في الحفاظ على السلطة وعلى عروشهم، والحركات الإسلامية يتم امتصاصها وذلك من خلال مواجهة بعضهم البعض.

من سوف يقوم بالجهاد؟ إننا أمام خطر محقق. فالفرس اتحدوا مع البيزنطيين (الروم أو الأرثوذكس وتمثلهم الآن روسيا) وحلفائهم قد أعلنوا أنهم ضد الأمة. من سينصر الأمة؟ من سيحيي تاريخها المجيد؟ لم تكن نتخيل أن الشعب السوري سوف يسهم في هذا النصر للأمة. كان العراق الوحيد القادر على جلب النصر ضد هذا التحالف. لكن العراقيين اليوم يقتلون بعضهم البعض لتحرير بلدهم.

كنا نعتقد أن الشعب الفلسطيني قادر على تحطيم هذا التحالف، بينما الشعب السوري كان بعيداً عن القدرة على القيام بذلك، لقد تعلم في المدارس البعثية لمدة أربعين سنة. لقد كبر السوريون في جو من الترف والملذات وحب الحياة، كما نشاهد ذلك في مسرحياتهم وأفلامهم. كنا نرى حبهام للمال والحياة والانحلال الأخلاقي والفسق. كنا نرى أيضاً

خوفهم الكبير من النظام، هذا الخوف الذي كان يكتسح قلوبهم. لكن شاءت إرادة الله أن يأتي التغيير من الشعب السوري نفسه.

إخواني إن النظام كان ممسكاً بزمام الأمور جيداً حيث تمّ زرعه بشكل جيد ولديه جيش يدافع عنه. مع ذلك، كتب أطفال أبرياء لا ينتمون إلى أي حزب شعارات مناهضة للنظام (في ذرعا في آذار/ مارس 2011) وكان هذا بداية التغيير. فلو تعامل النظام مع الحالة بحكمة في ذلك الوقت لما اندلعت الثورة. لكن الله أعمى بصيرتهم وأخفقوا في التعامل الحكيم مع الأطفال وعائلاتهم، لقد أسأؤوا إليهم ودنسوا شرفهم وأهانوا كرامتهم.

تعلمون جيداً التاريخ، ولا داعي لإعادة تكرار ذلك فقد كانت هذه هي البداية التي أشعلت الثورة. هذه الثورة لم تكن لتندلع أو لتنتشر في الشعب السوري حيث إن الرعب كان يغشى قلوبهم لكن الله يمهّد الأسباب. وبهذا نزع الرعب الذي كان يسيطر عليهم فلم يعودوا خائفين في سورية.

نادى أحد المصلين: كبروا لله.

ليرد عليه باقي المصلين بصوت واحد «الله أكبر».

– لقد أذهب الله هذا الخوف، وانتشرت الثورة في سورية بشكل سلمي. وكان بإمكان الأمة أن تبقى في سُبّاتها ولم تكن لتجد الحقيقة لو أن الولايات المتحدة الأميركية وحلفاءها تدخلوا لمساعدة الثورة السلمية للوصول إلى أهدافها وقلب نظام الحكم في سورية كما حدث في ليبيا وذلك لتعجيل بسقوط بشار الأسد. كان سيقى الشعب السوري منغمساً في لذاته وشهوته في حالة من اللاوعي.

أثناء ذلك، أعمى الله بصيرة الأميركيين وحلفائهم. فقد قالوا لأنفسهم إذا حضروا لمساعدة الشعب السوري سوف يسهلون صعود الحكم الإسلامي. ولهذا تركوهم يقتتلون فيما بينهم مع الأمل في التخلص بشكل نهائي من النظام وذلك بتدمير قوته وكسر شوخته والتخلص أيضاً من الجهاديين السوريين الذين يحاربون على الأرض. وبالتالي كانوا يظنون أن بإمكانهم القضاء على تهديدين بعد ذلك يحكمون البلد بشكل سهل وميسر. إنها مشيئة الله التي جعلتهم يؤمنون بإيجابيات هذا المخطط.

لهذا السبب لم يبادروا لإنقاذ الثورة في سورية، التي انتشرت بين كافة أطراف الشعب السوري. أَلت غطرسة وظلم النظام بظلالها على كافة الشعب مما جعل الناس يؤمنون

من جديد بالجهاد، منذ هذه اللحظة حمل الرجال والشيوخ والنساء والأطفال الأسلحة للدفاع عن أنفسهم.

نادى أحد المصلين: كبروا لله

رد عليه باقي المصلين بصوت واحد: «الله أكبر».

- منذ عام كان الشعب السوري يموت. ومنذ عام أصبح الشعب السوري جهاديًا. أرجو من الله أن يستطيع الشعب الإطاحة بهذا النظام وأيضًا بالنظام الإيراني. فقد أصبح الشعب كله مجاهدًا ويهدد الشرق والغرب. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (*) وقال الله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (**).

إخواني المسلمين لقد جهز الله لهذه الأمة جيشًا من المجاهدين لمحاربة أعدائها إن شاء الله ولتدمير هذا التحالف السري الذي يمتد من إيران إلى حلفائهم في العراق وسورية ولبنان وفلسطين.

نادى أحد المصلين: كبروا لله.

يرد عليه باقي المصلين بصوت واحد: الله أكبر

- أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، آمين
رد المصلون: آمين.

- اللهم اغفر لنا وارحمنا أنت الرحمن، اللهم لا تنزع الإيمان من قلوبنا فأنت قادر على ذلك، اللهم ارزق إخواننا في سورية نصرًا مؤزرًا. يا الله ثبت قلبي على دينك، اللهم أشغل عدونا في نفسه ورد كيده في نحره إنك على كل شيء قدير، اللهم أرنا في بشار الأسد وجنده عجائب قدرتك، اللهم أرنا وعدك بالنصر عليهم، اللهم أذقهم عذابك وعقوبتك التي لا مفر لهم منها، إنك عليم حكيم!.

(*) سورة يوسف، الآية: 21.

(**) سورة الأنعام، الآية: 122.

الفصل الثالث عشر

اسطنبول

السبت 13 تشرين الأول / أكتوبر 2012

أسوار القسطنطينية

كانت نافذتي في فندق البوسفور تطل على حريم ركوكو في دولماباهتشة، حيث كان آخر السلاطين المرفهين يتمتعون في نهاية الحكم العثماني. هذا الحنين للأجواء التاريخية في اسطنبول كانت محوراً للحقبة زمنية كما تم وصفها في كتاب أورهان باموك وهو الكاتب التركي الذي حاز على جائزة نوبل للآداب والذي يجمع الآثار والتحف الأثرية في متحفه «البراءة» كما لو أنه يجمّد الزمن.

من جهتي، فقد اكتشفت هذا عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري، عندما كنت في رحلة قادمة من اليونان بواسطة القطار من محطة «سركيسي»: كان الخط الحديدي يمتد إلى عشرات الكيلومترات الأخيرة المتبقية إلى القسطنطينية وكنا نشاهد شاطئ بحر مرمره. وبعد مرور أربعين عاماً على هذه الرحلة، لازلت أحفظ بذكريات اختراع هذا الكنز الملموس كما يحدث الآن وأنا أمام النافذة التي أطل منها على البوسفور، ويحيط به الشاطئ الممتد من أطراف آسيا والممتلىء بالمراكب التي تشبه رأس الذرة إلى غاية أطراف منطقة غلطة. كدت أصاب بالدوار جراء روائح الأسماك المنعثة من البحر الممزوجة بخلاصة الشاي الذي يتم تقديمه للزبائن في أكواب مزخرفة، كل هذا يحدث على إيقاع دوران عجلات القطار التي تحتك بالقضبان الحديدية في تسارع القاطرة البخارية التي تطلق أصواتاً قبل كل عبور.

تملك اللغة العربية مصطلحاً لتفسير كل هذا وهي كلمة «بديع» وبكل ما تحمله

هذه الكلمة من معنى نجد أن اللغة الإنكليزية لم تجد مثيلاً لهذه الكلمة، بل أخذت مرادفها من اللغة الفرنسية بمعنى «لا مثيل له» فاستقبل هذه التي تعتبر عاصمة لجمهورية علمانية حديثة أسسها أتاتورك وأهملت تحت سيطرة أنقرة التي لم تعد تؤثر فيها بشكل كبير.

الحاضرة الضخمة اليوم هزت فتور سقوطها الذي لا ينتهي من جانبي البحر من جهة آسيا وكذا من جهة أوروبا، تمّ بناء الأحياء السكنية الجديدة الممتدة بينما ظلت الأحياء الفقيرة في قاع الأناضول، اجتاحت مواقع المساكن المهجورة لليونانيين والمشرقيين الذين أعيد إسكانهم في الضواحي البعيدة. هذا المركز الذي أعيد بناؤه، له ضجيج مدوّ في الليل والنهار ويعج بالتجارة الراقية والمطاعم المتشابهة فيما بينها وقاعات الفنون الحديثة.

* * *

إن نهضة طائر الفينيق التركي تعتبر إحدى عجائب الشرق الأوسط. فهي لا تنسب هذا الثراء الجديد إلى الثروات النفطية على عكس ما يحدث مثلاً في إمارات الخليج العربي الساحرة، لكن هناك العديد من الأنشطة الصناعية لطبقة من المقاولين الكبار. هذه الأخيرة أوجدت فرصاً للعمل لمجتمع حيث الهجرة الريفية رسّخت حول أطراف المدن شاباً قوياً يقنع برواتب قليلة جداً مقارنة بنظرائهم في الاتحاد الأوروبي، وبحماية اجتماعية متدنية.

أصبحت تركيا إمبراطورية صناعية تصدر منتجاتها المنخفضة الثمن فهي بمثابة الصين لدول البحر الأبيض المتوسط. وأحد مفاتيح تعلق أولئك العمال بأعمالهم وأهدافهم وأرباب عملهم هي ظاهرة الإسلام المحلي الذي يتجسد في حزب العدالة والتنمية بقيادة رجب طيب أردوغان، رئيس الوزراء منذ عام 2003. هذا الحزب الديمقراطي المحافظ -حسب رأي رئيسه- يطمح إلى المزج بين المعايير الأخلاقية للإسلام مع احترام القيم السياسية والتعددية الديمقراطية. من جهة، يدعو العمال لقبول التراتبية الاجتماعية ومن ناحية ثانية يحدّد الأرباح باسم الله في كلا الحالين.

إن العدو الواضح لحزب العدالة والتنمية هو العلمانية، التي كانت من منظوره تمثل هيئة ديكتاتورية يتناوب على حكمها وتسييرها جنرالات من أيام أتاتورك وذلك بمحاولتها

غمر الطفل العلماني بماء الاستحمام العسكري. الذي قدم للشعب في الوقت نفسه نخبًا فاسدة ومستبدة، حدائة بدون إله يحتمي به الرجال الأشرار من الطبقات الحاكمة بالأمس. صفته الماهرة، تكمن في تغليف الصراعات الاجتماعية بغلاف سميك عرف كيف يمزج الأخلاق الإسلامية والروح الرأسمالية للخروج بتركيًا من الركود الاقتصادي والزج بها في رفاهية ملموسة في أيامنا هذه.

وهذا ما سمح لأردوغان وحزب العدالة والتنمية أن يكسب كافة الجولات الانتخابية ثلاث مرات على التوالي، فهو من استطاع نقل تركيا لتصبح نموذجًا مثاليًا يحتذى به ويطمح إليه الإسلاميون العرب الذين يحلمون بمحاكاته. منذ وقت باكر، وخلال العقد المنصرم، عرفت تركيا ربيعها دون ولادة وأعمال ثورية.

* * *

إذا نظرنا إلى المتخيل الإسلامي الأساسي، فإن القسطنطينية كانت مبهرة، كان غزوها يشكل الهاجس والهدف الوحيد المرغوب والهدف الأسمى للجهاد المطلق، والذي سيتم مكافأة من يقوم به بعهوات تصل إلى طقوس العريضة وهو تشبيه تقريبي لجنة محمد الأرضية. وكانت هذه أيضًا من علامات نهاية الزمان كما قال ذلك محمد:

«عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «سمعتُم بمدينة جانبٍ منها في البر وجانبٍ منها في البحر؟» قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانبيها. وفي رواية أخرى: - لا أعلمه إلا قال: - الذي في البحر ينادون ثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر ثم يقولون لا إله إلا الله والله أكبر، فيفرج لهم، فيدخلوها، فيغنموا ويقسمون الغنائم، إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج فيتركون كل شيء ويرجعون».

على مر التاريخ، حاول العرب دون جدوى فك الحصار وهدم الأسوار الشاهقة والرائعة لهذه المدينة باستخدام سلاسل عملاقة ممدودة إلى عربات ولكن العربات تضررت من دون أن تؤدي إلى نتيجة. فسقوطها لن يكون إلا للأفضل والأنتقى من الخلفاء الذي سيهزم المسيحية في الشرق الأوسط، لكن هذا يحتاج إلى موارد وصبر وأمد طويل.

وأخيرًا، سقطت هذه المدينة على يد التركي محمد الثاني والملقب بالفاتح في عام

1453م حيث استولى على المدينة واعتبر هذا مقدمة للغزو الإسلامي لأوروبا كاملة كما روي عن رسول الله:

«وَيَفْتَحُ الثُّلُثُ لَا يَفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَمْتَحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْسِمُونَ الْعَنَائِمَ قَدْ عَلَقُوا سُيُوفَهُمْ بِالرِّيَاطُونَ» أخرجه ابن ماجه في القرن الرابع.

عَنْ أَبِي قَبِيلٍ؛ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، وَسُئِلَ: أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوْلَى: الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بِصُنْدُوقٍ لَهُ حَلَقٌ؛ قَالَ: فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا، قَالَ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَكْتُبُ إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوْلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَدِينَةُ هِرَقْلٍ تُفْتَحُ أَوْلَى يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةً. أخرجه ابن حنبل في القرن الرابع..

بالنسبة إلى المسلمين في أيامنا هذه سواء كانوا من متابعي الشبكة العنكبوتية «الإنترنت» أو من مشاهدي قناة الجزيرة فإن الشيخ يوسف القرضاوي قد ترجم هذه الإيحاءات إلى لغة عصرية عندما قال:

«غلبت القسطنطينية ولكن الجزء التالي من النبوءة وهو غزو الروم لم يتحقق بعد. وهذا يعني أن الإسلام سوف يعود إلى أوروبا. فقد دخل الإسلام إلى أوروبا مرتين (من الأندلس ومن البلقان) وخرج منها مرتين... من المحتمل أن الغزو المقبل إن شاء الله سوف يكون بالتبشير والأيدولوجيا».

تركيا، الخلافة السنية الجديدة

إن اسطنبول أتاتورك - القسطنطينية سابقًا - تغير اسمها رسميًا عام 1930 - لم يعد لها أية ملامح تجذب العرب. لقد كانت القرون المظلمة للاضطهاد العثماني السبب في سقوطهم وهزيمتهم، ومقدمة لاستعمارها من قبل القوى الأوروبية. فالشوفينية التركية والحركة العلمانية لمصطفى كمال التي كانت موجهة نحو أوروبا وتم التعبير عنها بحروف أبجدية لاتينية تاركة وراءها الخطوط العربية مفقودة داخل الإمبراطورية المشرقية وفي الخليج وذلك إبان الحرب العالمية الأولى حيث اقتسم البريطانيون والفرنسيون بشكل سري الغنائم بالاتفاقات المبرمة في سايكس-بيكو في عام 1916. وعلى خلاف ذلك، أصبحت اسطنبول أردوغان في عيون العرب الملتحين هذه الأيام عاصمة الخليفة الحدائي حيث يأتون بحثًا عن الأمل والحماية.

هذا هو إنجاز الدبلوماسية التركية المعاصرة كما أوضح البروفيسور أحمد داود أوغلو في كتابه. وهذا ما دعاني إلى حضور ندوة عالمية كبيرة تم تنظيمها بمعرفة الوزير الأول وافتتحها شخصياً يوم السبت 13 تشرين الأول/أكتوبر في القاعة الكبرى لقصر المؤتمرات في اسطنبول.

قبل مقابلة مسؤول الشؤون الخارجية في الحكومة الإسلامية، قام هذا الأستاذ الجامعي بإلقاء نظريته عن العلاقات الدولية التي توضح رؤيته تجاه العالم الإسلامي والغرب واضعاً تركيا وسط دائرة أسماها الوزير «منطقتنا» وهي تتكون من الإمبراطورية العثمانية القديمة وبعضاً من بلاد آسيا ذات اللغات الشبيهة بالأصول التركية: الشرق الأوسط، البلقان والقوقاز. والهدف من هذه الدائرة هو التوجه ناحية الغرب والشرق الأوسط والانتشار في دائرة من الحضارات تحت قيادة الإسلام السني القوي.

ومثل هذه الاستراتيجية والمصنفة من قبل منتقديها بـ«العثمانية الجديدة» تصنع قوة سياسية لتركيا حافلة بأعمال مكلفة. فهي تترجم مفهوماً ثقافياً تجاه أوروبا يتعارض مع مبدأ أتاتورك الذي كان يرغب في تجاوز الانهيار العثماني وتحويل البلاد إلى نسخة شبيهة إلى حد كبير بأوروبا المهيمنة.

وهذا ما شرحه الوزير داود أوغلو في افتتاحية الندوة، قائلاً:

«كما أوضح إدوارد سعيد في كتاب «الاستشراق»، فإن الثقافة في منطقة أوروبا الوسطى في القرن التاسع عشر لم تعد مناسبة وملائمة. فنحن بحاجة إلى أخرى جديدة من دون الحكم عليها من الناحية العرقية، ولهذا السبب أنشأت تركيا بالتعاون مع إسبانيا برنامجاً لتحالف الحضارات. ولكن بعض الدوائر تحاول زرع الحقد وتوسيع مفهوم الخوف من الإسلام والخوف من العرق المتنوع، كما هو موضح في فيديو «براءة المسلمين». نحن نريد المساواة، جل ما يتطلع إليه المسلمون هو الشيء نفسه الذي تم منحه للثقافة اليهودية، حيث كلما سب شخص اليهودية التي نحترمها جميعاً: يجب أن يعامل مثل أي آخر سب الإسلام أو المسيحية أو البوذية!».

في كل مكان في لبنان، بالأمس وقبل الأمس، رأيت جدراناً عليها ملصقات ولوحات دعائية عن إنتاج ضخّم للسينما التركية تحت عنوان «الفتاح» الذي يهدف إلى التعريف بالسلطان محمد الثاني. يمجّد الفيلم دور الأتراك في فتح القسطنطينية عبر مواجهة بين الجيش العثماني السابق والحركة التركية التي يقوم أوردغان بتبنيها تحسباً لوصول الإسلام إلى العالمية مقابل الغرب. فالعالم البيزنطي الذي انهار تحت الهجمات العثمانية هو بالنسبة إلى صانعي الفيلم استعارة لأوروبا اليوم تحت الانكماش الاقتصادي والهبوط الديمغرافي الذي وصل إلى ذروته في الانهيار الاقتصادي اليوناني.

وقد قمت في زيارتي السابقة بالدخول إلى متحف الفاتح وهو عبارة عن منتزه شبيه بـ«لونا يارك»، أنشأته البلدية بتوجيهات من أوردوغان في بداية التسعينيات، عند مخرج أسوار القسطنطينية قرب المنطقة التي اندفع منها الانكشاريون^(*) بتاريخ 29 أيار/ مايو 1453م، وهذا الأخير لم يكن مخصصاً للسياح الغربيين، وهناك منشورات توضح ذلك وهي مكتوبة فقط باللغة التركية واللغة العربية.

كانوا يأخذون الأطفال من المدارس والشباب للحركة الإسلامية، وكان الفتيات يميزن بالمعاطف الطويلة مع حزام في منتصف الجسم وشاح ملون على رؤوسهن.

يمجّد المتحف الغزو العثماني وتدمير الحضارة البيزنطية وكان هذا أساس الهوية السياسية لتركيا المعاصرة حسبما يراها حزب العدالة والتنمية. فقد أعيد تمثيل هذه المعارك بصيغة وإصدار إسلامي أصلي، مع إضافة كافة المقاطع والمؤثرات وأصوات المدافع في الخلفية وتكبير بعظمة الله من خلال المكبرات الصوتية وإضافة المؤثرات الموسيقية التي تحفز المشاعر وتهدي النصر للمسلمين.

إن إعادة التأكيد على هذه القيم تحمّس للإسلام السياسي العربي السني، بعد تحذيرهم من خطر المساس بالدولة العثمانية المؤسس الأول لحركة النهضة العربية في القرن التاسع عشر. وعلى خط الفشل مع الشيعة في الشرق الأوسط فإن تركيا تمثل القوة الكبرى للسنّة، القادرة على عكس المعايير والموازن مع إيران وذلك بعد دعم سخي من قطر التي تعتبر عزاباً للإخوان المسلمين الذي يمثلها في الإصدار التركي، حزب العدالة والتنمية.

(*) الانكشاري هو: جندي من المشاة في الجيش المنظم الذي أحدثه العثمانيون في القرن الرابع عشر، كانوا إذا تغلبوا على شعب مسيحي فرضوا عليه جزية وأخذوا الأولاد وحملوهم إلى الإسلام ثم علموهم في مدارس خاصة بهم وجندوهم وتقووا بهم في الفترحات.

إن الندوة التي تضم هذا اليوم أحمد داود أوغلو هي صدى للتي حضرتها في فندق شيراتون في الدوحة الأسبوع الماضي حيث توجه العديد من الإسلاميين القوميين العرب الذين يطمحون إلى الإسلام الديموقراطي المحافظ أخلاقياً والليبرالي اقتصادياً. لكن هذا الخليط من العثمانيين الجدد لديهم من الطموح الكثير، وحضره العديد من المدعوين من العالم أجمع. ومن بين أبرز المفكرين المتمين إلى حزب العدالة والتنمية نجد كثيراً من الملتحقين الذين يحملون هموم الثورات العربية. الأميركيون والأوروبيون ورجال الدين المسيحيون واليهود كلهم مطلوبون للدفاع عن الحرية واستقرار النظام العالمي لإعادة بنائه:

«إذا احتلت إسرائيل الأراضي الفلسطينية وأخضعتها - وكان هذا تساؤلاً لرئيس الدبلوماسية التركية- الفلسطيني العادي الذي لا يستطيع التنقل من مدينة إلى أخرى دون المرور بحاجز أمني فأين هي العدالة؟ العدالة لا توجد في مجلس الأمن العالمي لأن كل المعايير للمشاركة فيه وأن تكون عضواً دائماً العضوية لا ينطبق أبداً على حالة العالم المعاصر».

وجهت تركيا دعوة إلى التونسي راشد الغنوشي لحضور هذه الندوة، حيث إنه كان قد ذهب إلى العاصمة التركية من قبل لحضور مؤتمر حزب العدالة والتنمية، وهو الحزب الشقيق لحزب النهضة في تونس، لذا أثر أن يرسل نائبه الشيخ عبد الفتاح مورو. وعندما سألت هذا الأخير في مقطع مصور هذا الأسبوع حول الأماكن المشتركة التي يقدمها الغنوشي ويعتبرها نقاط تشجيع للسلفيين لكسب الوقت حتى الانتهاء مع العلمانيين، أظهر أنه أقل هدوءاً تجاه هذا الأمر. في الحقيقة إن مورو كان قد تعرض إلى اعتداء جسدي من قبل سلفيين ووصل بهم الحال إلى كسر كأس فوق رأسه.

وبين كل هؤلاء الذين وجدتهم في هذه الندوة كان الفلسطيني وضاح خنفر، أكثر شخص صفق له الحضور. فهو بمثابة نجم حيث كان المدير السابق للجزيرة وشارك في مناظرة افتتاحية إلى جانب أحمد داود أوغلو وأمين عام جامعة الدول العربية نبيل العربي وحماد حاريس سيلاجدريك الرئيس السابق للبوسنة. تجدر الإشارة إلى أن هذا الأخير، في مدينة سراييفو وهي رأس الامبراطورية العثمانية سابقاً في البلقان، التقى الوزير التركي للشؤون الخارجية للاحتفال بعيد الفطر المبارك في شهر آب/ أغسطس 2011. وكان هذا الأمر قد أحدث ضجة كبيرة:

«لقد كنا هنا، ونحن هنا، وسوف نقى هنا! ففي تقاليدنا نحتفل بالعيد في البيت وهذا ما أفعله الآن أحتفل بالعيد مع أسرتي في سراييفو. فالبوسنة هي منزلنا والبوسنيون هم من أفراد أسرتنا.

* * *

بدأ وضاح خنفر حديثه أمام جمهور مكوّن من شريحة كبيرة من الشباب المتعاطفين والمؤيدين للعدالة والتنمية وأيضاً إلى أعضاء كبار في الحزب نفسه والعديد من الفتيات اللاتي يضعن الوشاح الملون حيث يمكن رؤية طيف غير متناهٍ من الألوان المختلفة ووجوههن مزينة بمساحيق التجميل وأغلبهن ذوات بنية رياضية وهذا يشير إلى أنهن يرتدن النوادي الرياضية على عكس أخواتهن العربيات.

فهؤلاء الشابات يتبعن موضة الورع والتقوى الوطنية التي تظهر على غلاف بعض المجلات ذات الورق اللامع وأيضاً على واجهات المحلات التجارية الفخمة في المراكز التجارية المنتشرة في الأحياء الإسلامية للمدينة الكبيرة التي يقطنها ستة عشر مليوناً من السكان. ويرغبين في أن يكن مسلمات على الطراز الحديث وفقاً للعنوان الذي أعطته صديقتي نيلوفر غول لهذه الظاهرة في كتابها. أول عالمة اجتماع تحلل الظاهرة وتحدث عنها، وقد كانت جالسة بجواري في المنصة للاستماع إلى خنفر. إن كاريزما هذا الرجل البالغ من العمر أربعة وأربعين عاماً لن تترك جمهوراً من الشابات دون إثارة انتباههن، واللائي يتشربن أقواله ويستمعن إليه بتركيز على الرغم من أن أذانهن قد غطاها القماش الملون لأوشحتهن.

«اسطنبول هي عاصمتنا! فأنا فلسطيني ولست تركياً، ولكنني على علم أن أسلافي كانوا يعتزون بشكل كبير باسطنبول ويعتبرونها عاصمة لهم. البعض منهم سقطوا شهداء مع الجيش التركي (تصفيق حار). وأود أن أعتنم هذه الفرصة للمصالحة مع المكان والتاريخ. فمنظقتنا ومنذ القرن المنصرم قد مرت بحقب فارغة من تاريخها وبعواصف من النسيان والصعوبة! لم نختر ترتيب الأمور على ذلك المنوال، ولكن تمّ اختيار ذلك لنا من طرف عاملين اثنين هما البريطاني سايكس والفرنسي بيكو، والحدود التي استلمناها اعتبرت أيقونة وطنية لم تتمّ عملية رسمها بناء على مصلحتنا ومنفعتنا»....

ولنعد إلى المواضيع التي ناقشها أمامي في فندق الشيراتون بمدينة الدوحة في الأسبوع

الماضي وذلك حول الوضع في الشرق الأوسط منذ مئة عام، فالسيد خنفر قد أظهر في صياغته أن الربيع العربي هو بمثابة نهضة سوف تسمح لشعوب المنطقة بالعثور على هويتها في قلب الشرق، هذا «الشرق» الذي يتمناه لنفسه.

لست متأكدًا أن الفتيات الشابات اللاتي أجلس بينهن واللاتي يلتهمنه بأعينهن يفهمن المصطلح العربي لكلمة «الشرق» التي أحالها إلى موضوع كبير. ففي العادة في تركيا العثمانية من البديهي باللغة العصرية لم يعد هذا المصطلح موجودًا، فإن إعادة الهيكلة اللغوية لجمهورية أتاتورك قد طردتها من قاموس المصطلحات لديها ابتداءً من عام 1930 واستبدلتها بالمرادف التركي «دوجو» الذي ليست له أي تفسيرات كبيرة تتعدى النقاط الأربع للمنطقة الاقتصادية والثقافية والسياسية.

«إن الأتراك والعرب والإيرانيين كانوا منذ قرون، قلب الحضارة العالمية. وقد حان الوقت في أيامنا هذه لإعادة البحث عن تلك المركزية واستعادتها من الغرب وأن تكون مرة أخرى لنا. من الممكن أن تشكل سورية نقطة جديدة للانطلاق بالنسبة لمنطقتنا وموقع تركيا هو في تواصل مع هذا التجديد. أما من ناحية السلطة ونقاط القوة التي تدعم النظام في دمشق، فما زالت تتشبث بأهداب الماضي!»

إن هذه المادة وكما حدث في لقائنا في الدوحة سوف تجرّم الجمهورية الإسلامية التي لا تمثل في يومنا هذا إيران التي يحلم بها وضاح خنفر في إطار الشرق الثلاثي الأقطاب، والتي لازالت تسعى لتحقيق «أهدافها الأناية». والأدهى من هذا فإنها توشك على إحياء الإخفاقات الداخلية الإسلامية التي تسمى «الفتنة» في حين أن الحضارة في هذه المنطقة ومنذ أكثر من 1400 سنة تشمل الإسلام السني الذي حافظ على حقوق الأقليات.

وإذا نظرنا إلى ما وراء هذه الطموحات من وجهة نظر العدالة والديمقراطية التي تحملها في طياتها حملات الربيع العربي وكذا حزب العدالة والتنمية التركي، فإن الدولة التركية تحرك في هذه الأثناء جيشها عبر الحدود المتوسطة. فبالأمس قامت بقصف مواقع سورية رداً على قصف إحدى القرى التركية، وقد قامت قواتها الجوية بإجبار طائرة سورية قادمة من موسكو على الهبوط في مطار أنقرة. وهي محملة بالأسلحة الثقيلة.

اضطر الوزير أن يتركنا بشكل أسرع مما كان متوقعًا. وذلك من أجل استشارات ومناقشات مع نظرائه في حلف الناتو الذين قدموا بشكل مستعجل إلى اسطنبول. فالتصعيد

الحربي مع دمشق لن يكون من دون عواقب على العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا.

وأمام انقسام كهذا الذي يضعف المسلمين أمام أعدائهم، هل يكون هدف التمازج التركي - العربي الذي يشجعه الخطيب خلق كتلة سنية في مواجهة المخطط الشيعي؟

استنكر هذا الوضع عضو الإخوان المسلمين الشيخ القرضاوي في الأسبوع الماضي في الدوحة كما ندّد به في طرابلس الشيخ السلفي الرافعي. وأطرح أنا هذا السؤال على السيد أحمد داوود أوغلو:

- «سيدي الوزير هل تظنون أو تخشون أن يتحول الربيع العربي في المستقبل القريب إلى مواجهة كبيرة بين الشيعة والسنة؟ وهل تستطيع الصحوّة العربية استعادة المنطقة الجغرافية السياسية العجوز وخوض معركة تشالديران الحديثة؟

- إن معركة تشالديران، التي هزم فيها السلطان العثماني السني سليم الأول الملقب بـ «الرهيب»، الشاه الصفوي الشيعي إسماعيل الأول عام 1514، نقلت هذا الفوز إلى التلاميذ الأتراك كما فعل الفرنسيون أثناء معركة مارينيان في السنة التي تليها. غير أنها تكتسي طابعاً أيديولوجياً ووطنياً أكثر قوة، حيث إنها تكرس الإمبراطورية العثمانية بطلاً سنياً يواجه الهرطقة الشيعية، كما يحدث على الحدود اليوم حيث الأناضوليون المقربون مذهبياً من العلويين في سورية واضطهادهم من قبل السلطات».

وردّاً على سؤالتي، احتج الوزير أن يتمّ تحديد السياسة التركية بالمبادئ الكبرى للعدالة والرغبة في إنهاء النزاعات الحدودية المتوارثة بعد الحرب الباردة، لكن لا شيء من الدافع الطائفي السني:

«إن الأجيال الجديدة تتساءل ما هو المغزى من هذه الحدود التي تقسم الشرق الأوسط وهذه الجدران المرتفعة التي تشبه حائط برلين؟ ولماذا لا يزال الفلسطينيون يعانون إلى الآن؟ ولماذا لم تطبق قرارات الأمم المتحدة التي أصدرت في العام 1948؟ لماذا تمنع دولة الاعتراف بفلسطين وتارة أخرى تدعم وتقدم الدعم للشعب السوري؟

ففي العام الماضي ذهبت إلى طهران وقلت لا نريد في منطقتنا حرباً باردة أساسها التفرقة في المذاهب. فدعمنا للشعب السوري ليس بسبب أنهم سنّة وأن بشار نصيري (وهو مصطلح سني يطلق على العلويين تعبيراً عن احتقارهم). وكنا ضد القذافي الذي

كان سنياً، وضد مبارك أيضاً عندما هاجم ميدان التحرير وضد صدام أيضاً وكان سنياً موقفاً يستند إلى المبادئ.

الأحد 14 تشرين الأول / أكتوبر 2012 اسطنبول، القيادة العامة للمعارضة السورية

استقر المجلس الوطني السوري في اسطنبول كما هو الحال بالنسبة للمرشد الأعلى للإخوان المسلمين في سورية، الذي يهيمن على نطاق واسع على هذا المكون الذي معظمه من المنفيين.

على أرض الواقع فإن الحالة الراهنة بين أيدي «لجنة عسكرية» لكل مدينة أو منطقة متمردة، يقيم فيها ضباط فروا من بلدهم، فلا تزال بصمات أربعة عقود من التعليم البعثي العلماني وانعدام الثقة تجاه الإسلاميين، كما أن هناك محاربين ملتحمين مدعومين بشكل كبير ومجهزين بعتاد من قبل الجماعات الإسلامية في الخليج التي لا تملك الخبرة العسكرية.

كان لدي موعد مع العقيد قاسم سعد الدين في غرفته في الفندق حيث يقيم. وقد حضر إلى اسطنبول من أجل مفاوضات حساسة حول التزود بالأسلحة مع دولة خليجية، يريد ربط مساعداتها بأطراف أيديولوجية، وقد تم الاحتفال به كواحد من الأبطال الكبار من الضباط الذين فروا من النظام السوري وانضموا إلى الجيش السوري الحر، ويقود هذا العقيد منطقة حمص التي يعرف عنها مقاومتها للقوات النظامية منذ بداية عام 2012، التي قلبت موازين القوى ومنحت المعارضة مصداقيتها العسكرية.

وكما هو الحال بالنسبة إلى الضباط الآخرين الذين قابلتهم، حلق شاربه منذ وقت قصير ويوزع شريطه المصور على كل القنوات المرتبطة بشكل مباشر، الذي يعطي نبذة عن مساره العسكري، بدأه بقطع الصلة وإعلانه الفرار من الجيش النظامي بالتلويح ببطاقة هويته العسكرية، قائلاً بالعربية:

- «أنا العقيد قاسم سعد الدين، طيار في الجيش السوري. خدمت لدى النظام السوري وفررت منه بتاريخ 3 شباط / فبراير 2012. ويمكن مشاهدة ذلك على موقع يوتيوب، فقد كنت جالساً أثناء إعلان ذلك وأظهرت بطاقة هويتي العسكرية برفقة عدد كبير من المقاتلين الذين يحملون قذائف وبنادق.

- كيف أصبحتم القائد العسكري لمدينة حمص؟

- إن مدينة حمص بشكل خاص هي محط أنظار النظام، حيث تتواجد أغلبية إخواننا من المجتمع العلوي، وهي أيضاً قلب سورية، ونقطة وصل بين كل المناطق. وبسبب أهميتها للنظام فإن هذا الأخير قد أرسل العديد من المؤن والدعم التي تمّ وضعها داخل حزام أمني مليء بالحواجز العسكرية و«الشيحة» (وهو لقب يطلق على كتائب الموت التابعة لنظام الحكم السوري).

- مرت أكثر من سنة منذ اندلاع الثورة في سورية، في 15 آذار/ مارس 2011، هناك مناطق محررة في الشمال وفي الشمال الغربي، ما هي حال المقاومة العسكرية؟

- لقد بدأت في نهاية العام 2011. شكلنا مجالس عسكرية لتنظيم الجيش الحر. وتمّ تأسيس الأول في حمص بتاريخ 12 شباط/ فبراير 2012. ومن ثم قمنا بوضع قيادة موحدة للاستشارة العسكرية بتاريخ 29 آذار/ مارس. إن تنظيمنا والتركيز بين القادة العسكريين قد سمح لنا بتحرير أراضٍ شاسعة. تمّ تحرير 90% من المناطق المجاورة والمحيطه بـحمص، ثم ضواحي حلب وإدلب في الشمال واللاذقية ومناطق كبيرة من ضواحي دمشق وأخيراً تلك المجاورة لدرعا.

وبفضل التركيز والتنظيم في هذه القيادة الموحدة نجحنا في الاستيلاء على أسلحة من النظام. ومن جهة أخرى فإن هذه الغنيمة التي حصلنا عليها مكنتنا من اقتناء الأسلحة المرغوبة والأسلحة المهربة. وقد واجهنا جيش بشار الأسد الذي لا يسيطر إلا على المناطق التي يوجد فيها والمحاظة بسيارات ومدركات عسكرية.

- كيف ترون دور هذا التنسيق العسكري لمستقبل سورية والمقاومة؟ يوجد مجلس وطني سوري في الخارج. وفي عدة مناسبات قام بتغيير المسؤولين لديه وحالياً يظهر أنه قابع تحت سيطرة الإخوان المسلمين. ما هو الوضع بالتحديد؟

- لقد قمنا بتأسيس المجلس العسكري والقيادة العسكرية للتمكن من مراقبة كل الأراضي السورية بعد سقوط النظام لضمان الحماية للأقليات وإقامة المنشآت العسكرية وحمايتها. إن هذه القيادة هي منشأة مرحلية انتقالية للنظام العسكري. والحمد لله هناك التزام في صفوف القيادة، التي ستضمن الأمن وستعمل على استتبابه بعد انهيار النظام وفي أي مكان يتم فيه تشكيل حكومة انتقالية. ومن ثم سوف تعود إلى الثكنات.

لقد رأيت في شهر آب/ أغسطس تقريرًا مسجلًا في نواحي حمص بواسطة صديقي المصور الصحفي الذي يتحدث اللغة العربية واسمه ماني - والذي رافق الروائي جونانان ليتل في شهر شباط/ فبراير في المدينة المحاصرة حيث كتب «مذكرات من حمص». وفي هذا الفيلم الذي تمّ تصويره مع واحدة من الفرق الرئيسية من الثوار من حمص واسمها «كتيبة الفاروق» (لقب ثاني الخلفاء الراشدين عمر)، تمّ الكشف عن محاربين يشيرون أنهم من السلفيين ويأملون في القضاء على العلويين والاستيلاء على ثرواتهم وعلى الدولارات المتدفقة من دول النفط في الخليج.

تبدو هذه الفرقة أيضًا تحمّل مبادراتها الذاتية من دون أن تهتم فعلاً بأي نظام أو دولة أخرى وأيضًا لا تكثرث بالجيش السوري الحر. وعلى عكس الثوار الليبيين، فالعديد منهم محاربون يحملون علمًا أسود للجهاديين مكتوب عليه عبارة: «لا إله إلا الله».

- كما تعلمون، نحن في الخارج نشعر بالقلق تجاه ما يحدث في سورية وفي المناطق المحررة. وبناء على بعض الإشاعات فإن الثورة استبدلت النظام العلماني الذي صنف على أنه نظام طاغوت مستبد من قبل جمهورية إسلامية وأن الإسلاميين سوف يجبرون النساء على ارتداء الحجاب. ونسمع أيضًا عن وجود القاعدة وإسلاميين متطرفين ومجاهدين. برأيك، هل هذه المخاوف أحد الأسباب التي تمنع وصول المساعدات والأسلحة من الغرب إلى المقاومة؟

- يا صديقي، لا يوجد في سورية من يطبق القانون الإسلامي (الشريعة) ولا الإمارة الإسلامية. لدينا أشكال متنوعة من المجتمعات الدينية في بلدنا. ومن ثم هذه المخاوف ليست مبنية على أساس سليم. نحن نحترم الحرية للجميع. نحترم أيضًا الحريات للأقليات. لقد ثرنا ضد الظلم وضد بشار الأسد كونه ظالمًا. كيف يمكننا أن نكون نحن أيضًا ظالمين؟ إن الصورة التي يكونها الغرب عنا قطعًا هي صورة مغلوطة. لن يحكمنا الإسلاميون، بل سيكون هناك دولة علمانية ومتعددة، وصناديق اقتراع مختلفة.

أما فيما يخص الخوف من القاعدة نحن لا نقبل بوجودها في سورية. لقد قام النظام بهجمات ليقول للغرب: «أنا أو الفوضى، أنا أو القاعدة وأفغانستان أخرى!»، يمكن أن تكون هناك حالات فردية بطبيعة الحال لإسلاميين وجهاديين في سورية. غير أننا لا نزال نقول للغرب إنه مسؤول عما يحدث حيث إنه لم يقدم دعمًا للشعب السوري. وإذا استمر

هذا الوضع فسوف تسود التوجهات المتطرفة ليس في سورية فقط، بل أيضاً في الشرق الأوسط.

- ما هي الضمانات التي يمكنكم إعطاؤها للأقليات مثل العلويين والمسيحيين الذين يفكرون بالانتقال إلى لبنان أو البقاء في منطقة مفضولة؟

- هذا السيناريو لن يحدث. فسورية تنتمي إلى كافة المجتمعات: المسيحية والعلوية والشيعية والدرزية وكلهم لديهم الحق في الحياة. وسوف يحصلون على الأمان. لقد أصدر الجيش الحر قانوناً نظامياً يوضح للعالم أجمع مبادئنا الأخلاقية. مشكلتنا ليست مع المجتمع العلوي لكنها مع النظام. نحن نريد حكومة مدنية ديمقراطية ومتعددة الأحزاب تحترم القوانين وحقوق الجميع.

- كيف تفسرون احتفاظ النظام بالسلطة؟

- لم يكن أبداً هذا النظام قوياً. فقد أخفق في كافة المحاولات لوضع حد للثورة. وبشكل دنيء يلجأ إلى الضرب من بعيد وإلى القصف المدفعي الثقيل والقصف الجوي واستخدام الدبابات في أعمال القصف. لا يواجه الجيش الحر وجهاً لوجه لأنه يعلم أنه سوف يخسر أمامه. إنما يلجأ إلى التدمير وإلى التمثيل بالجنث وتعذيب أهل القرى بقصفهم، وإجبار السكان على المنفى للضغط على الجيش الحر، لكنه لن ينجح في مناوراته.

- هل تستلمون مساعدات من المجتمع العالمي وتحت أي شكل؟

- عندما ثرنا، لم يدعمنا أحد إلا رب العالمين. فقد حاربنا ببنادقنا ومن ثم أخذنا الغنائم. وعلى ما يبدو فإنه من مصلحة البلدان والأنظمة التي بينها حسابات يعملون على حساب حياة السوريين. إن الأهم بالنسبة لسورية والمنطقة هو ما يواجهه هذا العراك فهي حرب مصالح. ولهذا السبب سوف يتأخر النصر. فالعالم كله ينظر بلامبالاة لهذا الدمار وهذا القتل. إلى متى سوف يستمر هذا؟ لا نعلم، الشيء الوحيد الذي نعرفه هو أننا سوف نتنصر، سواء مع أو بدون الدعم الأجنبي».

بعد انتهاء اللقاء مع العقيد، قلت لِنفسي: إنه أول محاور لي منذ فترة في الشرق الأوسط، الذي نطق اللفظ العربي لـ«العلمانية» بشكل إيجابي. لا أعلم كثيراً فيما إذا كانت هذه الاستقلالية الموروثة نتيجة أربعة عقود من البعثية العلمانية التي تشعبت بها مدارس الضباط في الجيش بهدف جذب الآخرين، أو نتاج قناعة صادقة. (بعد عدة أيام وبعد عودته

إلى حمص، علمت في باريس من مصدر رسمي في الجيش الحر السوري أنه تمكن من النجاة بأعجوبة من غارة قام بها جهاديون كانوا يحاولون اغتياله).

* * *

حاولت إجراء حوار مع السيد «ي». وهو أحد المرشدين في جماعة الإخوان المسلمين في سورية، ويمارس تأثيره القوي في اسطنبول على المجلس الوطني السوري. وقد قمت بالتحدث معه عدة مرات من خلال الهاتف هذا الصباح لتحديد المكان والزمان لمقابلته. لكنه كان متغيباً دائماً ولم أستطع رؤيته. وفي مقابل ذلك تمكنت من لقاء علي البيانوني، المرشد العام السابق للإخوان المسلمين.

كان يجب علي إلغاء مواعيد الغد حيث اضطرت إلى الذهاب إلى نقطة العبور الإجبارية في اتجاه سورية، إلى أنطاكية التي تم تحريرها. بدأت بالاتصالات لمقابلة فتاة تقيم هناك، أصلها من حمص وهي نشطة جداً في الثورة، فمن النادر أن تجد في هذا العالم الذكوري امرأة.

فوجئت أنها في اسطنبول - حيث الثوار السوريون يأتون بشكل مستمر - واتفقتنا أن نتقابل حوالى الساعة العاشرة مساءً في أحد مطاعم شارع الاستقلال، حيث يتجول الشباب بأزياء على الموضة في صراع محموم مع الصرعات الغربية، وبنات يرتدين ملابس قصيرة جداً، وكل ما يمكن استغلاله من هذا الازدهار تحت أنظار الحكومة الإسلامية، جلس الجميع إلى طاولات الحانات لاحتساء الجعة ثم خرجوا جماعات وهم يرقصون على أنغام أميركية.

كانت الفتاة برفقة شابين أميركيين عاداً من سورية مؤخراً ويحاولان تدبير متمين إلى اللجان العسكرية، والقادة والمجموعات الإسلامية المحلية. كانت تضع وشاحاً رمادياً فاتحاً وتغطي عينيها بنظارات شمسية من علامة تجارية مشهورة، وعلى غرار هواة متابعة الموضة الخليجيين، كانت ترتدي بنطلون جينز وتنتعل حذاءً رياضياً مقلماً. كنا نتابع على شاشة هاتفها مقاطع فيديو لعملية تحرير قرية، حيث تم قنص جنود النظام قبل أيام وطردهم منها.

بعد بضعة اتصالات بجيش سورية الحر، اتفقتنا على البرنامج الذي سنتبعه. سوف نستقل الطائرة معها غداً صباحاً باتجاه أنطاكية، ومن هناك سوف نعبر سراً إلى سورية للوصول إلى هذه القرية المحاذية للمنطقة الإسلامية الحديثة، لتبدأ المغامرة.

الفصل الرابع عشر

أنطاكيا، سورية

الاثنين 15 تشرين الأول / أكتوبر 2012

باب الريح

كانت الطائرة المتجهة نحو مدينة أنطاكيا مليئة بالمسافرين القادمين من البرازيل. يعتمرون قبعاتهم ذات اللون الأزرق اللامع وبها علامة لمسافر كاثوليكي وبطاقة التعريف المعلقة برباط حول عنقه من اللون نفسه وتحدد بشكل واضح حاملها وتميزهم عن الآخرين، من بين هذه الجماعة من المسافرين المسلمين، توجد رعية من قطع الرب تظهر من العالم الجديد.

قطعوا مسافات في الجو لكي يروا بأعينهم المبنى العتيق لبطربركية مار بطرس (المجمع الأبوي المسيحي) والمشيّد على هيئة كنيسة ذات معالم أصيلة، تمّ تصنيفها كمسيحية كاثوليكية عالمية. وفي أنطاكيا تمّ تسمية تلاميذ المسيح للمرة الأولى «مسيحيون» يتعلمون المناهج والأفعال والرسول. يطعم هؤلاء المسافرون بلمس مختلف الأماكن في هذه الكنيسة، فأبناء الرعية المتحمسون يأتون للارتواء بالدليل الواضح الذي يلامس إيمانهم.

أرى أحدهم الذي يجلس بالقرب مني غارقاً في العمل بمراجع الكتاب المقدس على حاسبه المحمول حيث تتوالى الشاشات من هنا وهناك، محشوة بمراجع الكتاب المقدس. أدار الشاشة لكي أتمكن من القراءة بعد أن أقحمني في الحوار، تمّ تحميل هذا الأدب المسيحي وباللغة الفرنسية من الإنترنت حتى لا يضطر إلى ترجمته والغرق في المتناقضات والاختلافات، وقد استطعت نسخ بعض المقتبسات في دفثري اليدوي:

نداء يسوع الناصري إلى أتباعه

السلام على خِرافي،

خِرافي، ساعة الحقيقة اقتربت، زمن العدالة الربانية سوف يبدأ،
خِرافي، تجمعوا حولي وانتظروا بصمت عودتي عما قريب، ستخبركم بعض العلامات
في السماء أن عودتي قريبة...

خِرافي من القطيع، صلوا من أجل بعضكم بعضًا حيث إن المحن التي تقترب لم تكن
أبدًا موجودة ومرئية على سطح الأرض (30 تموز/ يوليو 2012 في إنوك - كولومبيا، تعال
أيها الرب يسوع).

viens.seigneurjesus.forumactif.com

الرب يسوع، رب الحصاد وراعي القطيع، أفض بروحك في قلوبنا حتى نستطيع إتمام
مشيئة الأب.

(www.vocations.be).

لا تخف أيها القطيع الصغير، فأنا راعيك وسوف أقودك باتجاه المياه المنعشة والمراعي
الخضراء (-682 رسالة من يهوه بفضل قداسة البابا بينديكت بتاريخ 4 حزيران/ يونيو
2011، وتم نشرها بتاريخ 7 حزيران/ يونيو 2011، الساعة 10:03 بواسطة ريمي)

viens.seigneurjesus.forumactif.com

كانت أنطاكية في زمن المسيح ثالث أكبر مدينة في الإمبراطورية الرومانية بعد روما
والإسكندرية. في هذه المدينة، جاء الفيلسوف جوليان من لوتيسيا «باريس الآن»، وتم
تعيينه فيها إمبراطورًا في العام 361 وهناك أعطى أمرًا ببناء القاعات والمرافق الكبيرة
الاستشفائية في الحي اللاتيني، التي أدت دون جدوى إلى المعركة الكبيرة من أجل استعادة
الحكمة وإحياء الرسائل الوثنية القديمة التي كانت هدفًا لتهكم السكان وعداء الرهبان،
وقد أدى هذا إلى مقتله ووضع تذكارات بمسمى يوليانوس الجاحد، كما هو الحال بالنسبة
إلى السلفيين في هذا اليوم الذين يعاملون العلمانيين والعقلانيين في العالم الإسلامي
كمرتدين عن الدين.

في أيامنا هذه لم تعد أنطاكية سوى بلدة ريفية تقع على الحدود التركية السورية حيث

خمس من البطارقة يحملون اللقب الفخري لـ «غِبطة» الذي أصبح لا وارث له في الكنيسة المسيحية في الغرب، يتنازعون حول مقرها البابوي، يحكمون على الطوائف الشرقية الواهية وهي بمثابة شهادات على تشدد المسيحية في المنطقة التي شهدت ولادتها: في الكنائس المسيحية الملكية، والأرثوذكس في أنطاكيا، والسريان الكاثوليك والسريان الأرثوذكس والموارنة.

رغم أنهم يتقاسمون في هذه المنطقة تلك المسميات الكبيرة «بطريرك أنطاكيا وسائر المشرق» لم يعد يعيش أي منهم في أنطاكيا وأصبح الشرق كله يدين بالإسلام. وثلاثة منهم من هؤلاء البطارقة، تم إيوائهم في دمشق خلال الفترة القصيرة التي اعتمدوا فيها كلياً على النظام السوري، واستقر البطريرك السرياني الكاثوليكي والماروني في لبنان.

* * *

نظرت من خلال النافذة إلى الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. بدا المنظر صافياً وواضحاً لا يعرف ذلك سوى بعض السحب الخفيفة كمشهد الغسق في كنيسة سان سوليس في باريس. كان إله المهندسين والعلماء مزوداً بمثلث لتوضيح الحدود القائمة، تحدد الأفقية سهول قيليقية جنوب الأناضول على السواحل الجنوبية لتركيا، والعامودية تلك الواقعة في هاتاي، إحدى محافظات تركيا، عاصمتها أنطاكيا وهي تمتد في اتجاه الجنوب قبل أن تنحني زواياها لتبدأ هضاباً يسكنها العلويون وتربط بين المنطقة القديمة من اللاذقية جهة البحر باللاذقية الحديثة في يومنا هذا على الأراضي السورية.

أثناء تقسيم الإمبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، أقرت عصبة الأمم انتداب فرنسا على سورية ولبنان، شملت أنطاكيا وما جاورها وكانت تسمى سنجق إسكندرون. يذكرنا هذا الاسم المتناقض بألفي عام من صراع الحضارات حيث يمزج بين الصوت العثماني في نطق سنجق وهي تسمية لقبية عسكرية وإدارية تتلاءم مع هذه المقاطعة الشائبة مع اسم الاسكندر الأكبر. أسس هذا الأخير المدينة التي تحمل اسمه في عام 333 قبل الميلاد بالقرب من موقع «معركة إيسوس» حيث هزمت القوات العسكرية المقدونية جيش الفرس العظيم لداريوس بين البحر وجبال الأمانوس التي تقع على الحدود.

* * *

عرفت أنطاكية منذ أربعين عامًا، في آب/ أغسطس 1974، ذهبت إلى هناك مرة واحدة في ربيع عام 1978، من دمشق حيث كنت في منحة دراسية في المعهد الفرنسي للدراسات العربية. بعد أربعة عقود، أشعر بأن ذهني يعيد تأطير المشهد الأول مثلما جمع علماء الآثار في متحف أنطاكية للفيسفساء قطعًا قديمة يتمّ طرحها كتاريخ مفقود.

هذه أنطاكية المفقودة، عدت إليها بالمشاعر نفسها التي كانت تنويًا لرحلة عبر البحر الأبيض المتوسط في عمر التاسعة عشرة مع زميلي في المدرسة الثانوية، كريستيان فونسيكا، قبل أن أتوغل في العالم العربي للمرة الأولى، عن طريق سورية. أتوق إلى المعهد حيث قضيت السنة الدراسية في تأمل خريطة الإمبراطورية الرومانية المعلقة فوق السبورة السوداء. اتخذت قرار اكتشاف المواقع الأثرية في جميع أنحاء الخريطة التي تمثل المحافظات وفقًا للألوان المختلفة اعتمادًا على مرورها تحت الحكم الروماني، اللون الوردي لمستوطنات الجمهورية والأحمر القاتم يشير إلى مستوطنات أغسطس، مؤسس الإمبراطورية الرومانية، في حين يدل اللون الأخضر على ممتلكات الامبراطور تراجان. ذهب رفيقي إلى لبنان في محاولة منه لتقديم تقرير، وأنا تابعت طريقي إلى مصر.

أبحرنا إلى مدينة البندقية ثم إسطنبول على متن سفينة سوفياتية باتجاه مدينة سيباستوبول في السنة التي لبس فيها بريجنيف، رئيس الاتحاد السوفياتي، زي رعاة البقر في رحلته إلى الولايات المتحدة.

كنت وحيدًا عند زيارة المتحف الغني بالفيسفساء اليونانية والرومانية حيث جاءت الأغلبية العظمى من دافني وهي مدينة المياه والرفاهية في ضواحي أنطاكيا حيث وقع أبولون بحب الأسطورة المثيرة دافني، عشق أبولو دافني وكان يطاردها باستمرار، بسبب كيبيد الذي أطلق سهمين تجاه أبولو ودافني انتقامًا من أبولو الذي سخر من قدراته على الرماية بسهم أطلقه كيبيد، فحاول اغتصابها، وبما أن زيوس أراد حمايتها قام بتحويلها إلى شجرة غار في حين كان يمسك بها أبولو في تلك اللحظة كما ورد في الميثولوجيا الإغريقية القديمة. بناء على هذه القصة، قام برنين بنحت تماثيل من الرخام يعبران عن مشهد محاولة الاغتصاب وهروب دافني في معرض بورغس، عبر البابا أوربانوس الثامن عن هذا المثال ومستوى الأخلاق المسيحية، قائلًا:

«أولئك الذين يجرون وراء رغباتهم الجامحة لن يحصلوا إلا على أوراق جافة من شجر التوت».

تكمّن عبقرية المكان في التعبير عن الرغبة التي كانت تغمر تلك المنطقة الطبيعية الراقية، الغنية بأشجار وورق الغار والنباتات الزاهية الألوان التي وهبها الرب: كانت أكثر الأماكن زيارة لمشاهدة تلك الآثار والحكم على روعة الفسيفساء المنحوتة التي تسمى مجازًا «ملذات الحياة».

وتبقى في هذا اليوم زيارة معبد متواضع يعبر عن الرغبة المستحيلة بين الشلالات الخلابة والتي تنهمر دائمًا على سفوح الأرض المنبسطة. وكان هذا المكان يسمى بالتركية «حربي».

في اليوم التالي توجهنا نحو سورية مرورًا بالحدود عند «باب الهواء»، وقتند، وضعت قدمي للمرة الأولى في بلد عربي.

* * *

معرفتي البسيطة لهذا العالم إلى جانب اليسارية باللونين الأسود والأبيض الذي كنت من هواة الدعاية لها، اقتصرت على حلقيتين من مغامرات «تانتان»، «سرطان البحر بملاقط ذهبية»، وفي «بلاد الذهب الأسود».

كان أول عربي التقيته في هذا المكان، بداية في الموقع بعد حارس الحدود البعثي، يتكلم الفرنسية للتأكد من أنني لست من سكان البلد الأصليين أو مقيمًا فيها أو من المدن اليهودية. وكان سائق سيارة الأجرة التي أركبها من البدو بثوبه الطويل ويضع كوفية. ويبدو أنه خرج لتوه من تلك الصور القديمة في المجلات. انتهزت فرصة الصباح الباكر حيث لم تكن هناك وسائل نقل متوفرة تصل إلى هذه المناطق الحدودية والجبال القاحلة وقد وافق على نقلنا بمركبته بعد أن دفعنا له آخر قرش تمّ الاتفاق عليه.

كان يقود سيارة ضخمة من نوع شيفروليه صفراء اللون، غطاء محركها مفتوحًا وكان أيضًا يزيد الجو تلوًا بدخان سجائره التي يشعلها بشكل مستمر دون انقطاع. كانت النقطة التي تخلى عنا فيها هي بجوار ساعة ميدان باب الفرج في حلب، وقد أوصانا بالذهاب إلى فندق في طرف الحي يقطنه الميكانيكيون. لم أكن متأكدًا أنني سأكرس بقية حياتي بدراسة

العالم العربي إذا لم أقابل إلا هذا السائق وهذا الجمركي. خضعت لتحصين من النوع القوي قبل الدخول في هذه اللعبة وكان التحصين الوحيد الذي سينفع في هذه الحالة هو تحصين الخيول وأن يكون مخصصاً ضد المثالية التي كانت تخدع بالأوهام كل رفاقي وزملائي المستقبلين. توالى الصدمات لعشرة أيام لاحقة وكنت وحيداً، فريقي في السفر ذهب إلى لبنان لتحضير شريطه الوثائقي، وانتهى به الأمر مسجوناً لأنه قام بتصوير السفارة الأميركية بواسطة آلة التصوير البدائية واشتبه فيه على أنه جاسوس، ولم ينل حريته إلا بعد قضاء عدة أيام في السجن الانفرادي وعضو الضابط الماروني عنه، بعد أن رأى الثلاثة أسماء الأولى في جواز سفره وهي كريستيان ماري غابرييل واستنتج أنه مسيحي.

في هذه الأثناء كنت أتابع بحثي في علم الآثار، فقد وصلت إلى مدينة أفاميا، العاصمة التي شيدها السلجقة في سنة 300 قبل الميلاد. كانت تطل على ساحة تمتد إلى منطقة نهر العاصي، عند خروج موكب أعطى اسماً لهذه القرية العربية من العصور الوسطى التي بنيت على حطام الجزء الأعلى من المدينة الإغريقية، قلعة المضيق.

لا أحد في ذلك الوقت يمتلك كاميرا أو هاتف في القرى السورية. حصلنا على صورة فريدة من فنين، وسط المدينة، أثناء حفل زفاف، ونادراً ما كنا نتواصل مع العالم الخارجي. كانت الصور تقتتهم. كانوا يكرمون هذا المسافر المجهول والمعفر بالتراب. تعلمت أن تناول الطعام دون سكين أو شوكة، باليد اليمنى، حتى في الطبق الدائري الكبير الذي يأكل منه كل رجال العائلة.

بعد وصولي، غسلت نساء القرية ملابسني المملوطة بالبقع، ولبست جلابية أثناء إقامتي وكنت مثل القرويين لا أرتدي سروالاً. كن يسخن الماء على الحطب في حوض كبير يحملنه إليّ مع الإسفنج والصابون الحلبي إلى الحمام، كان بمثابة صابونة لوكس اليوم، نادر وباهظ الثمن. أجلس القرفصاء في هذا الحوض وأغسل جسدي من الشوائب العالقة به لقد تلقيت العمادة دون أن أدري، وخلقت من جديد عربياً. تنقلنا على ظهر الخيل، في الأروقة والأخاديد الملتوية، المعروفة في العالم القديم مع علماء الآثار البلجيكيين في عهد الانتداب الفرنسي، وسحنا في نهر العاصي. تفاجأت يوماً أن لا أحد يعمل في هذه المنطقة، أخبرنا شاب يتكلم الإنكليزية قليلاً أنهم كانوا عائلة من الملاك وليسوا عمالاً - وكانت هذه حال الذين يشغلون الأماكن الاستراتيجية والعمال الزراعيين من العلويين البؤساء القريبيين منهم.

لا اشتراكية البعث ولا سيطرة الأسرة العلوية «الأسد» على الدولة أثرا على قلعة المضيق حيث بقيت نوعاً من الإقطاعية، وهو قانون خرج من القرون الوسطى.

كانت النساء تضعن وشاحاً بسيطاً على رؤوسهن كما هو حال الفلاحات في قريتي في جنوب فرنسا، أما النساء الصغيرات أو الشابات فقد كن مرحات معي ويغمرن بأعينهن عند رؤيتي بحكم علاقتي الحميمة معهن منذ بدء إعدادهن حمامي الخاص، لم تكن متشدات دينياً أو منعزلات خلف حجاب كما في كل الأوساط السنية اليوم. تابعت تجربتي في مدن سورية أخرى مثل طرطوس، وهناك، تعلمت لعبة الطاولة وتدخين الشيشة في ساحة الكاتدرائية الصليبية الرومانية، ثم ذهبت إلى لبنان ومصر، وبدافع الفضول، التحقت بدورات لتعليم اللغة العربية بعد عودتي إلى باريس. وبعد ذلك، عملت بجدية جاهداً لكي أحصل على منحة دراسية لدورة لغوية مكثفة في المعهد الفرنسي في دمشق خلال العامين 1977-1978.

أمرت الدولة الفرنسية العلمانية المتخرجين لديها بالتزود بـ «شهادة معمدان» التي يصدرها الباشوات السوريون العلمانيون، وكانت لديهم أحياناً مطالب بتسليمهم تأشيرات - وهي وسيلة لمنع عبور اليهود. بناء على ذلك، لكي أصبح مستعرباً يجب علي التخلص من التروتسكية والإلحاد والضد - اكليروس ونسيان أنه جرى تعميدي من قبل راهب كنيسة نورترام في ميناء نيس حيث كانت جدتي الأولى فلاحه ومؤمنة بشكل كبير وترغب في هذا التعميد على الرغم من التفكير الحر الذي كان يؤمن به أبواي الشيوعيان.

عندما كنت في معهد دمشق، لم أكن طالباً متميزاً بل كانت لدي الكثير من الأخطاء اللغوية والنحوية، أمضيت السنة في الاستكشاف والبحث في المناطق على الرغم من تحذيرات المدير. أصابتي اعتراضات هذا البروتستانت الصارم بأزمة صدرية، عندما كنت أحاول تبرير غيابي في أيام الجمعة والسبت والأحد، متحسباً للاحترام والمساواة في يوم العبادة المقدس للديانات التوحيدية الإبراهيمية الثلاث المتنازع عليها في المنطقة.

ألقي علي الرجل المتدين لعنته بسبب إخفاقي وغيابي المتواصل عن المعهد وأني سأخفق في مساري الجامعي، وهي لعنة تلاحقني آثارها إلى يومنا هذا. فقد كان يتواجد فقط لمراقبة الكل مراقبة بوليسية خانقة تابعة للنظام البعثي. كنت أرغب دوماً في التنفيس عن نفسي منها بالسفر إلى البلدان المجاورة.

«دافني» المسلمة

في ربيع عام 1978، كان لدي صديقة سورية جميلة تنحدر من عائلة مسلمة وتدرس المناهج باللغة الفرنسية، كانت كاملة الأوصاف. اقترحت عليها أن أعلمها اللغة الإنكليزية مقابل أن تعلمني اللغة العربية، وتطور هذا التعليم فيما بعد ليشتمل على تبادل القبلات.

في هذه الفترة لم تكن الطالبات محجبات، وبالنسبة إلى أولئك اللواتي يقابلن الشباب الفرنسيين كنّ أحياناً يفعلن ذلك انطلاقاً من رغبتهن في الحصول على التأشيرة والهجرة إلى الخارج، فالعادات والتقاليد كانت متحررة أيضاً كما هو الحال في باريس. عندما كان المسيحيون والعلويون العاديون يرفعون الحرج والعيب حول العذرية، كانوا يعرفون دائماً كيف يتصرفون تحت وطأة احتمالية الزواج القسري عند فض البكارة ومن ثم يصبح هذا الأمر عادياً لديهم في حين تبقى ممارسة الجنس ممنوعة بشكل قاطع لدى المسلمين، حتى لدى المتحررين منهم.

يصعب مجارة حماسة الشباب، كما أن من يوجهونهم - لتجنب الوقوع في الخطأ-، كانوا يرفعون الأمر إلى الراهب ويصفون هذا الفعل بالفساد. لكن عملية الملامسة بين الذكر والأنثى كانت موجودة باستثناء حالات الخوف من الابتعاد عن تعاليم النبي محمد التي سوف تغير بدورها هؤلاء «أشباه دافني» من المسلمين إلى غابة من شجر الغار.

كنا قد انطلقنا نحن الاثنين لقضاء يومين في أنطاكية بصحبة صديق فرنسي كان يملك سيارة رينو 4. وكانت الجميلة تمرد عندما أذهب بها إلى متحف الفسيفساء ولا تحلم إلا بالنظر المتواصل إلى الواجهات الزجاجية للمحلات الفخمة في هذه المدينة التي هي أصلاً مدينة صغيرة فقد كانت في نظرها بمثابة جادة الشانزليزيه الفرنسية مقارنة مع دمشق الاشتراكية ومحلاتها. وفي هذه المحلات تعرض الأحذية ذات الكعب العالي وسراويل الجينز الضيقة وملابس داخلية مثيرة ومواد تجميل.

غضبت منها فتركتني، كنت ساذجاً وندمت على ذلك، كان عمري آنذاك أربعة وعشرين عاماً، وقد سامحتني. كان قائدا الذي يبدو عليه أنه كانت لديه مشاريع شخصية قد صاحبها في تحضير شؤونها وبموافقة الجميلة، أصبحت فجأة بطله لرواية «نقطة الغد» التي قرأتها للكاتب فيفان دينون، وكانت توزع بالخفاء بين الصديقات خوفاً من أن تراها الأستاذة المسؤولة عن تدريس الآداب الفرنسية في جامعة دمشق.

بالنسبة إلى آباء الكنيسة، تجسد دريفيا التدنيس الأخلاقي ولقد لعنت بالاسم في «إنجيل لوقا» وفي رسالة بولس الثانية. لا شك أن مسيحي أنطاكية لم يستطيعوا من القرون الأولى التهرب من فتنتها القاتلة. فقد وضعوا الأسباب والمبررات تجاه النساك والمعتكفين أو نساك الأعمدة الذين كانوا يظلمون أبناء جلدتهم في أرياف سورية وجبالها لكي يطلبون من الرب في صلواتهم تلك الأمور. كانوا يتعاطون تلك الملذات والعريضة في حفلات دافني الماجنة.

استفدت من الحرية التي حصلت عليها في تلك الفترة بين حياتي العاطفية والحالية لزيارة الموقع الكبير لمعركة إسوس وقمت بجولة على الأبواب السورية التي تذكرنا بمجزرة الجنود في داريوس، وهو النصر الأول للغرب على الشرق حسبما كان مدوناً في كتبنا المدرسية القديمة. فلم تكن سوى حركات من رقاص الساعة التاريخية، ترنح النصر والهزيمة في هذه الأراضي الشرقية بين روما والساسانيين وبين البيزنطيين والعرب، ومن الصليبيين إلى المسلمين، ومن العثمانيين إلى الأوروبيين وصولاً إلى قوات الانتداب الغربي. انتصرت بدون فرح وبهجة لمدة قصيرة قدرها ربع قرن في بدايات القرن العشرين قبل أن تختفي مع فرنسا عند بدايات الحرب العالمية الثانية تاركة سورية في مواجهة الشياطين التي أيقظت وجودهم.

وفي هذه الأثناء كانت أنطاكيا كما هو الحال بالنسبة للفيوم من قبلها قد رأت بزوغ الحضارة العالمية التي تدمج ثقافات الغرب والشرق وحيث لمعت بشعاع أخير من العصور البشرية القديمة قبل أن يتعرض الرهبان ثم البديون منهم إلى التجريد.

في روايته الجميلة بعنوان «أنطاكيا الوثنية والمسيحية»، أحيا الكاتب التاريخي «أندريه جون فيستوجير» أحد أكثر السادة حكمة وهو أستاذ البيان والبلاغة لبيانوس، الذي كان أستاذاً في الحضارات القديمة المتأخرة. كانت محاضراته الأكثر حضوراً حيث يصل عدد الطلبة فيها إلى المئات ويحضر من كافة أنحاء العالم - لتكوين «البايدية» - وهي تعريف إغريقي للدراسات الأثرية، هذا المؤلف الذي غذى بمحاضراته كبار الكتاب من خلال أسفاره المتكررة حول منطقة البحر الأبيض المتوسط. وكان يقدم كتب التوصية ويعتني بمنهجهم التعليمي ومساهم المستقبلي، واستمرت أسماء الطلبة وبيئتهم الأسرية خلال سبعة عشر قرناً. وهو نموذج فريد في الاستباق في الحرفة حيث يجب أن يكون كذلك كل أساتذة هذا اليوم وأنا كذلك.

يفصلني عن هذه الزيارة الأخيرة لأنطاكيا قرابة خمس وثلاثين سنة. كانت الفتاة السورية التي ترافقتي والتي بمساعدتها سوف أعبّر الحدود بشكل سرّي صباح الغد بعمر صديقتي في الفترة السابقة. أطلقت عليها اسمًا مستعارًا مماثلًا لما سبق للحفاظ على الهوية «شامية»، ولأن هذا الاسم يربط هذه الفترة بفترة شامية سابقة عشتها فيما مضى.

«شامية» اليوم هي سليلة أسرة غنية، فولدها يملك ثروة في المملكة العربية السعودية كما هو حال العديد من الشرقيين السنة، حافظ بعض أفراد هذه العائلة على علاقته بالنظام، لكي لا تتزعزع منهم أملاكهم العقارية في دمشق، لكن لم يكن أمامهم خيار سوى دعم الثورة.

إن هذا الترنح في الموازين بين الطبقة البورجوازية المسلمة في دمشق وحلب وحمص تشكل محورًا هامًا في الثورة. فهو يزيد من صعوبة الحفاظ على السلطة لعائلة الأسد، التي قطعت مع الطبقات الاجتماعية ومن المجموعات الطائفية التي قبلت التوافق مع العسكرياتيا المنبثقة من الأقلية العلوية والتي تمول في الحاضر الانقلاب عليها.

هذه الشامية محجبة بشكل أكثر صرامة، في حين كانت صديقتي السورية فيما مضى تحب النباهي بشعرها البني المموج المتدلي مصحوبًا بابتسامة كبيرة، والتي كانت تنتمي إلى أسرة تقليدية غنية من الأرياف، في الغوطة، إحدى الواحات التي تحيط بدمشق والتي وصفها النبي بأنها: «شامة الجمال على خد العالم». لكن جنة الأمس مدينة مدمرة، لم يبق منها إلا المباني العتيقة والمتوارثة وتلك التي شيدت ولم يعد يظهر منها سوى قضبان الحديد المنتصبة من الخرسانة، أقام فيها النظام قواعده العسكرية وثكناته، وأنشأ الجيش السوري الحر مراكز القتال المتقدمة لحصار العاصمة.

اشتريت من السوق خلال إقامتي في معهد دمشق، بفضل النقود التي كنت أجنبيها من تحرير رسائل وأطروحات من جامعة السوربون لصالح المدير البعثي للتحف في سورية، مطحنة للقهوة التركية وأسطوانة من النحاس المصقول التي ركبت عليها قبضة يدوية من المعدن المذهب. وقد كان هذا أول الأغراض التي اقتنيتها في مجموعتي الفنية ومنتجات الصناعة التقليدية الشرقية على طريقة بيار لوتي.

وكنت أشتاق إلى أن أعرض كنتزي الصغير أمام صديقتي عندما تأتي لزيارتي في منزلي وحضور «دروس اللغة»:

- «انظري كم هو جميل، لقد ساومت على سعره في سوق الحميدية وقال لي البائع إنها قطعة عثمانية.

- ترد غاضبة: ارم حلاً هذا الهراء من أمامي، فهو يرعيني وإلا سوف أغادر!

- ماذا بك يا جميلتي؟

- اغرب عن وجهي الآن أو سوف أغادر ولن أعود أبداً!

- ترمين ثقافتك، هل تكرهين كل ما هو شرقي؟

- (بصوت أنثوي) لهذا السبب أجيء لرؤيتك يا حبيبي... اسمعني: عندما كنت طفلة محبوسة في دارنا في الغوطة، ولم أكن أستطيع الخروج من المنزل إلا بعد ارتداء النقاب والحجاب على رأسي، كان والدي يدخلني المطبخ وكان لديه كيس كبير من حبوب القهوة ومطحنة ماثلة للتي معك وكان يقول لي: «اطحنى»، كان يضربني بحزامه إذا لم أنجز عملي سريعاً. أمضيت طفولتي في ذرف الدموع بسبب هذه المطحنة اللعينة التي تدعي أنها تحفة عثمانية! بالإضافة إلى ذلك، لقد تمّ خداعك: إن هذه من الخردة التي تمّ صناعتها وبيعها لك على أنها تحفة!».

لم يكن لدي الخصوصية نفسها مع الشامية في القرن الواحد والعشرين، ولكنني فهمت، فأنا الآن في عمر والدها وهي تعتبرني شخصاً مقدساً مثل أبيها الذي وفر لها وسائل الحياة الكريمة، قالت لي يوماً:

- «أبي غني جداً، كنا نعيش في أحد أفضل الأحياء، وكان لدينا العديد من سيارات المرسيدس... لكن هذا النظام لا يحترم شيئاً. ففي شهر شباط/ فبراير، ذهب صديقي بسيارته البي إم دبليو لإحضار بعض الأدوية وإسعاف جريح ونقله إلى المستشفى، بعد ذلك تعرض لإطلاق نار من الشيحة «وهي ميليشيات العلويين»، وقتلوه، وفي اليوم نفسه غادرت حمص للذهاب إلى أنطاكيا، وانضمت إلى المقاومة. فقد تركت وراثي حياة رغيدة ورائعة للمجيء إلى هنا. فقد درست في أحسن المدارس الخاصة لدى الراهبات، وهناك تعلمت اللغة الإنكليزية. أحب المسيحيين كثيراً، في المدرسة كان لدي صديقات مسيحيات، لم أكن يوماً متشددة دينياً. أضع الحجاب لأنني مسلمة ولكنني ألبس سراويل الجينز، أخرج وقتما أشاء، وألبس آخر صحبحة الموضة...

سألتها:

- هل أنت متزوجة؟

- كنت مخطوبة لطالب في كلية الطب، لكنه كان معقدًا، كان يريد مني فعل الكثير من الأمور التي لا تعجبني، لذا فسخت خطوبتنا».

كنت قد حسبت أن هذه التعقيدات مشابهة لتلك التي حصلت في عام 1970 عندما كنا «نخدع» الشابات المسلمات، وكانت هذه الحالات تزداد خطورة من الناحية الدينية مع الأوامر الأخلاقية السعودية التي حملت السنة وزرها الحديدي مغلفًا بالذهب.

وعلى عكس الشامية المتحررة في القرن المنصرم والتي انتهى بها الأمر بالهرب نحو العالم المتحضر، من مجتمع لم تعد تستطيع العيش فيه، لدرجة أنها تخلت حتى عن لغتها الأم، فإن شامية اليوم، فتاة ناثرة انضمت إلى الثورة لكي تحارب الظلم، فهي المرأة الوحيدة التي رأيتها في هذا العالم المليء بالرجال باستثناء الممرضات والطبيبات.

لم يكن جسمها رياضيًا بشكل كبير، رغم ذلك كانت تثيرني شجاعته وانطلاقها دون خوف عندما تتحكم بصعوبة بالأسلاك الشائكة من الناحيتين عند الحدود..

كانت تخاف شتائم الجنود الأتراك والسجن والإبعاد وإلقاء القبض والاعتصاب أو الإعدام من السوريين الموالين وكذا المقابلات السيئة مع الميليشيات غير المنضبطة أو قطاع الطرق الذين يستغلون انعدام الأمن والدولة في سورية من دون نسيان القنابل والألغام الأرضية والقذائف الجوية. كان الحجاب يمنحها شيئًا من الأمان ويساعدها في الدفاع عن نفسها في هذا العالم اللامستقر على جميع الأصعدة.

* * *

أخذتنا شامية إلى مخيم ألتينوزو للاجئين، وهو مقام فوق مستودع قديم للتبغ بالقرب من قرية تبعد بضعة كيلومترات عن الحدود. أغلبية سكان هذا المخيم قد جاؤوا مشيًا على الأقدام، واستغرقت مسيرتهم يومين لقطع هذه المسافة، هربًا من المعارك التي أدت إلى احتلال قراهم أو أحيائهم.

وقد منعت الشرطة التركية الدخول على الأجانب، لتفادي أية مصادمات بين اللاجئين والذين كان معظمهم من السنة والأقلية العلوية من هاتاي، ونحو ربع السكان في هذه

المنطقة كان قد تركهم الاستعمار الفرنسي في تركيا قبل إجراء اقتراح على الحكم الذاتي التركي في آب/ أغسطس 1938، حيث إن الحكومة السورية المستقلة لم تعترف به على الإطلاق.

إن هذه الحركة الحكومية للجهة الشعبية التي ظهرت في رسالة ليون بلوم إلى السفير التركي في باريس في شهر كانون الثاني/ يناير عام 1937 كان هدفها التسوية مع أنقرة، خوفاً من أن يقوم النظام التابع لكمال أتاتورك من الاقتراب بشكل كبير من محور موسوليني - هتلر.

منطقة هاتاي كانت بالنسبة لتركيا، كما السويد في ألمانيا، وعندما تخلت الجمهورية الفرنسية عن الدفاع عن حدود المنطقة التي كلفتها بها عصبة الأمم المتحدة، كما تصور رئيس الوزراء الفرنسي إدوار دلادييه ونظيره البريطاني نيفيل تشامبرلين في مؤتمر ميونيخ في الشهر التالي، في 29 و30 أيلول/ سبتمبر 1938، فر الأرمن والمسيحيون على هيئة مجموعات باتجاه سورية ولبنان خوفاً من مجزرة أو طرد تعسفي جرى تحذيرهم منه كما كان مصير جيرانهم والمتحالفين معهم تحت الهجوم الأتاتوركي، في حين بقي العلويون المتعلقون ببلدتهم ولم يكن لديهم أي مكان آخر للذهاب إليه في موقعهم، باستثناء ملحوظ لبروفيسور الفلسفة في المدرسة الثانوية الفرنسية في أنطاكيا والمتخرج من جامعة السوربون زكي الأرسوزي الذي التحق بسورية وساهم في خلق حزب البعث البؤرة القومية العربية ثأراً من تهمة دحض العدالة من قبل.

وفي هذه الأثناء، وفي باريس بعد مؤتمر ميونيخ، فقد جدي - الذي كان يعمل في الملحق الثقافي لسفارة تشيكوسلوفاكيا في فرنسا - وظيفته بسبب اختفاء الدولة التي كان يخدمها. وقد عاش في قلق إلى أن حدث الاجتياح الألماني في صيف عام 1940، وقتئذ فر خوفاً من أن تعقله كتائب جيستابو «الشرطة العسكرية في زمن هتلر» وخط رحاله في إنجلترا. فقد صعّد على ظهر قارب توجه به برفقة أطفاله من بولياك إلى الدار البيضاء حيث منعه من النزول هو وأولئك التشيكوسلوفاكيين لأنهم من الآن فصاعداً في نظر موظفي الأمن عديمي الجنسية وسابقاً من الفاشيين. ومن ثم توجهوا نحو جبل طارق وأخيراً مع إرسالية بحرية تحميها السفن الحربية الملكية «نافي» إلى ليفربول ومن ثم تجاوز حدود إيرلندا.

لا تزال الخرائط السورية ترسم حدود «سنجق اسكندرون» الواقع على الحدود التركية بخطوط منقطة وتصنفها على أنها «حدود سياسية» وتعطي ساكنيها من ضواحي أنطاكيا أسماء عربية قديمة، رغم أنها تركية، مثل تلك التي يسمون بها فلسطين بالأراضي الإسرائيلية ويعيدون تعريب المناطق ومسمياتها العبرية.

يفضل النظام السوري العلويين الذين يتكلمون اللغة العربية كلغة أم، ويتخذون منهم مواليين وحلفاء من الناحية الأخرى على الحدود ويرتبطون بهم بعلاقات قرابة وزواج بينما ينظرون بارتياح إلى اللاجئيين السنة المتظاهرين ضد النظام أمام المحافظات. ولهذا السبب فإن هؤلاء حتى الأغنياء منهم - منعوا من الإقامة في أنطاكيا لذا توجهوا إلى المخيمات.

وحسب الإشاعات المحلية فإن الجنود الأتراك يقدمون سرًا مساعدات للجيش الحر السوري وذلك لطرد قوات الأسد من الشريط الحدودي إلى بضعة كيلو مترات في أعماق الناحية السورية. وبهذا يتمكنون من التمرکز في منطقة مؤمنة ومحمية بمخيمات لن يقوم ساكنوها بالدخول عبر الحدود، حتى لا يتسبب ذلك في زعزعة موازين القوى الطائفية - السياسية من الناحية التركية.

خرج بعض اللاجئيين في مخيم ألتينوزو للتحديث إليّ عن همومهم وعن الأغذية البسيطة التي يحصلون عليها والتعليم الذي يقدم فقط باللغة التركية وداخل مخيمات مسبقة التجهيز للأطفال. ويتطلعون للعودة إلى قراهم أو إلى الأحياء التي تركوها مع ما كانوا يحملونه على ظهورهم فقد تركوا كل ممتلكاتهم في يد الجيش النظامي أو ميليشيات الشبيحة.

إن هذا الاسم الذي يعني باللغة العربية «الشبح» تم إطلاقه على طراز سيارات المرسيدس سوداء اللون من حقبة 1980 وكانت تقتصر على جماعات الجريمة المنظمة. من الممكن أن نضع في صندوقها الخلفي عددًا من المواد المهربة القادمة من ميناءي طرطوس واللاذقية أو حتى من الحدود التركية واللبنانية. وككناية عن ذلك فقد تم استخدام «عصابات المرسيدس» لإطلاقها على طبقة اللصوص الذين يستخدمون السيارات نفسها.

ينتمي العديد من الشبيحة إلى العلويين، ويستفيدون من روابطهم العائلية مع العملاء لدى النظام ويتمون بشكل أو بآخر لطائفة الرئيس، ويتمتعون بحماية النظام والسلطة

ولكنهم يضمنون أيضاً في صفوفهم سنة ومسيحيين ودروراً... منذ بداية الثورة في ربيع عام 2011، تم استخدامهم كبلطجية لدى النظام، فتضاعفت معاملتهم القاسية وعنفهم وتعذيبهم وعمليات الاغتصاب والقتل التي يقومون بها ضد المتظاهرين والثوار لإرهابهم.

في حين أن القوات العسكرية تحمي الشبيحة، كان الثوار يتجهزون عسكرياً حتى أصبح هؤلاء الرجال أقوياء وقادرين على التعامل معهم كمقاتلين في صفوف الجيش السوري الحر والجهاديين.

وفي يومنا هذا يصف الثوار الشبيحة «مفردها شبيح» في مقاطع الفيديو المتداولة في مواقع التواصل الاجتماعي «مثل فايس بوك وتويتر» على أنهم ميليشيات تابعة للنظام سواء كان مخبراً أو مسلحاً. ولكن مع الطائفية في الحرب الأهلية وتجريم الخصم فقد أصبحت مرادفاً للعلويين، والنظام يتهم بدوره المعارضين ويدعوهم إرهابيين أو جهاديين.

قلصت هذه الصورة نمط العلويين بشكل عام وتصويرهم على أنهم وحوش دمويون، يشربون الخمر ولا يصومون رمضان ونساؤهم متبرجات.

* * *

في الجبال القريبة من تركيا تتواجد قرى سنية تترنج ضد النظام، وهي من القرى المسيحية والإسماعيلية التي تحاول البقاء على الحياد، وهناك قرى علوية تنتشر فيها صور ضخمة تعظم أفراد الأسد الثلاثة - الأب حافظ والابن الأكبر باسل والابن الثاني ميتان إضافة إلى بشار. ويتم تصميم هذه اللوحات والصور الضخمة على أنهم ثلاثي عقائدي للنظام العلوي وهو تشبيه مسيحي مكتنف بمصطلح إسلامي.

إن جماعة المؤمنين المتتمين ليست لديهم صلاحية الدخول مثل الدرور، إلى المعرفة الباطنية المقصورة على فئة معينة محدودة في المؤسسين الأوائل. فهم يعظمون علياً وهو ابن عم الرسول ويمجدونه لدرجة القدسية حيث يجعلونه الإله الأعلى. ويجلون أيضاً النبي محمد بوضعه في هذا الثلاث (وهو تدنيس للمقدسات حسب رأي السنة المتشددة) وسلمان الفارسي، هذا الزرادشتي الذي جاء في بداية القرن السابع من الفرس إلى سورية حيث قابل النساك المسيحيين قبل أن يدين بدين الإسلام في جزيرة العرب عندما قابل فيها الرسول محمد.

يعتبر هذا التماثل الروحي في المعتقدات والتشبث بالقبور والتماثيل والأشجار المقدسة أمراً مقدساً لدى العلويين ورجساً عند أهل السنة الذين يعتبرونهم طائفة من الزنادقة مصيرها الإبادة، ولا يستحقون إلا حياة الجبال كما هو الحال لدى الأقليات الأخرى في المنطقة من موارد ودروز أو شيعة.

أنقذهم الانتداب الفرنسي بتجنيد أعداد كبيرة منهم في كتائب بلاد الشرق، التي مثلت ثلث الناشطين في عام 1945، وبمساعدة هؤلاء الجنود والضباط الجدد الذين كان أغلبهم من الفلاحين تم احتواء الثورة المناهضة للاحتلال من البورجوازية (الطبقة الراقية) المدنية ذات الأغلبية السنية. وكانوا يتقمون بذلك لأنفسهم متخفين بالزي الفرنسي. هذه الكتيبة العسكرية توبعت فيما بعد من قبل حافظ الأسد والمجندين المساعدين في الاستقلال. هجم الجيش الداخلي وهيمن على النظام من خلال توالي الانقلابات في عام 1970 شهدت بداية فترة دامت أربعين سنة من الديكتاتورية التي قادتها أسرة الأسد. وكان حينها العلويون يمثلون عُشر تعداد السكان، بينما يمثل السنة اليوم ثلاثة أرباع الشعب، بفضل التنازل ونزوح الأقليات. وفي نطاق مماثل فإن الأسد لا يضع علناً في المقدمة هوية العلويين (وهذه التعاليم الباطنية هي من ضمن مذهبهم الذي يمنع إعلانها بأي شكل).

اتجه الأسد نحو القومية العربية البعثية التي كانت تطمح إلى المساواة وليس إلى الطائفية. وبعد بداية التوجه العلماني تم تقديمه على كافة المبادئ الأخرى، وبالتالي تضاعف أعداد المعارضين عبر طائفة الإسلام الحلال، تم إنشاء مساجد وإقامة الصلوات برفقة العلماء، وهذه الممارسة استمر عليها الابن وضاعف من تكرارها من خلال إعادة أسلمة المجتمع والجهات المحيطة بالدائرة كما هو الحال في مجتمعات الشرق الأوسط.

ولكن الروحانية الشعبية للعلويين بقيت متعلقة بالصنمية، كما هو الحال في كل البلدان العربية، ومالت الكفة في السنوات الأخيرة لحكم الأب في اتجاه رغبة متنامية تفاقمت بشكل كبير لمصلحة تمجيد الثالث العائلي التي انفجرت بعد موت الوريث المتوقع، باسل في عام 1994 عندما كان عمره أربع وثلاثين سنة. فهذا الفارس المتمكن فقد تحكمه وقوته في السيطرة على سيارته المرسيديس في مساء يوم كان كثيف الضباب، في شهر كانون الثاني/يناير، وهو في طريقه إلى مطار دمشق الدولي حيث كان ينطلق بحيوية لقضاء نهاية الأسبوع في التزلج بالخارج، وتم تأبينه كشهيد، وإقامة ضريح له في مقر الدفن الخاص بالأسرة في قرية القرداحة بالقرب من اللاذقية، قبر فخم مزخرف بحياد

منحوتة عليه، وعلقت صورته في اللافتات الضخمة وعلى جدران المباني الملمعة في كل أنحاء سورية ولبنان إبان فترة الاحتلال. يمكن اعتباره الروح المقدسة بين الأب حافظ والابن بشار الأخ الأصغر، جراح العيون منطوي الأخلاق والطباع وهو من حمل المشعل فيما بعد وتولى رئاسة سورية.

التقيت هذا الأخير خلال زيارته الأخيرة إلى باريس في تشرين الثاني/نوفمبر عام 2010. سفيرته في فرنسا ابنة عقيد مسيحي كان يشغل منصب رئيس أركان الجيش أثناء حقبة حكم حافظ، وقد جمعت بعض المثقفين المهممين بشؤون الشرق الأوسط، في الشهر الذي سبق تقديم محمد بو عزيزي نفسه كقربان في سبيل تحرير العالم العربي.

* * *

وجرى اللقاء في الجناح الخاص بشار في فندق بريستول. أثناء رحلته إلى باريس كان عددنا عشرة أشخاص، تباين الحضور ما بين معجبين لا يشترطون على سورية في مقاومتها ضد الاحتلال الصهيوني، إلى أشخاص لديهم ارتياب كما هو الحال بالنسبة لي، فقد نشرت مجموعة مقالات بعد وفاة ميشيل سورات، تنتقد دون تحيز لنظام الأب ما حصل لذلك الكاتب وهو موته كرهينة في لبنان في عام 1985 على أيدي الشيعة المتطرفين والذين يتلقون أوامرهم دون شك من دمشق.

الناطق الرسمي باسم الرئيس الشاب كان يرغب في إحياء الوجه المتحرر لهذا الأخير الذي تبدل بعد اختناق ربيع دمشق ما بين العام 2000 إلى 2001 واغتيال رفيق الحريري في شباط/فبراير 2005، في حقبة نيكولا ساركوزي الذي أعاد العلاقات على أعلى المستويات بدعوة من نظيره في تاريخ 14 تموز/يوليو 2008. لم يسبق لي أن واجهت أوتوقراطيًا عربيًا محبوبًا أكثر منه، منتبهًا لبقًا يستمع بحكمة إلى الآراء من هنا وهناك ينقلها له مترجمه الخاص، يسعى إلى النقاش، يهتم بالأفكار بحماس ساذج تقريبًا.

كاتب فرنسي مشهور كان من بين المدعويين اعتبرت أنه من غير المرجح أن أقابله بعد عامين من هذا التاريخ، عندما تنقلب الأمور بشكل كبير في سورية، وتصف الصحافة بشارًا على أنه وحش مغطى بالدماء، قال لي باستغراب:

- «من كان يتوقع أن هذا سوف يصبح قائدًا مجدًا وهو يشبه نبتة الهليون، أليس هذا من الجنون...»؟

تحدثت إليه باللغة العربية وذلك بسؤاله حول العلاقات مع تركيا التي كانت في أوجها، فقال:

«لقد أقمنا سوقاً مشتركة في الشرق الأوسط مع تركيا والأردن ولبنان، بحيث يضمن حرية تنقل البضائع والأشخاص والأموال ويمكن تشبيه الأمر بالاتحاد الأوروبي. وبعد مدة من الزمن سوف تصبح هذه المنطقة إحدى أكثر المناطق ازدهاراً في العالم».

أحد المشاركين من أصول مغاربية، لا يتحدث العربية، طرح عليه سؤالاً تمت ترجمته بحيث تمّ تغيير السؤال وسياقه:

- «سيدي الرئيس، ما هو رأيكم حول وضعية العرب في فرنسا؟

- بطبيعة الحال هم يعانون من التهميش والتمييز العنصري، لكن الأمور سوف تتحسن. فرنسا يمكنها أن تأخذ مثلاً يحتذى حول هذا الأمر من الأكراد في سورية الذين يتمتعون بكامل الحقوق. ولكن لا يجب المبالغة، فهناك أيضاً بعض العرب الذين نجحوا في فرنسا على سبيل المثال هذا السيد (مشيراً إليّ اعتقاداً منه أنني عربي)».

من المحتمل أنه تعرض لارتباك في بطاقات الأسئلة التي تمّ تحضيرها من قبل مساعديه والتبس عليه الأمر باعتبار المغاربي الذي لا يتكلم العربية غير عربي. في المقابل، لم ينتبه للهجتي الأجنبية، مع كل محاولاتي جاهداً في تقويمها لكي تظهر على أفضل صورة بحيث تميل إلى اللهجة الدمشقية على أن تكون ذات مصدر ينتمي إلى شمال أفريقيا.

ذهبت بالسيارة برفقة شامية إلى مرتفعات يمكن من خلالها رؤية سورية، من جهة الشرق حيث تواجه الغابات، حيث تمر الحدود التي تخترق قاع الوادي. خلال الأسبوع الماضي تمّ تبادل إطلاق النار الكثيف في هذه المنطقة. وقد أشار السائق إلى مناطق سقوط تلك القذائف. ومنذ ذلك الحين لم تعد قوات بشار مرثية.

بدأ شعاع الشمس بالاتجاه نحو المغيب، كنا داخل بستان زيتون، التقطت قبلة يدوية، أعطاني إياها ظهر ذلك اليوم أحد اللاجئين في مخيم ألتينوزو، الذي عاد من الجهاد، وقد أراني في هاتفه المحمول مقاطع فيديو للشبيحة العلويين الذين تمّ اعتقالهم وهم مضرجون بالدماء، وتمّ إلقاءهم أرضاً وإطلاق الرصاص عليهم وهم يصرخون الله أكبر.

يمتد على الحدود من الجهة التركية طريق متعرج، تمّ إنشاؤه بتمويل من حلف الناتو، وكانت تلك هي الحدود الشرقية، وانتشرت الأسلاك الشائكة التي تمّ وضعها أو ربطها في

الجهة المقابلة. وتبعد عنا مرة تلو الأخرى كلما توجهنا أكثر، وابتعادها يشبه ستارة معدنية من الماضي. تمّ وضع أبراج للمراقبة في المرتفعات والهضاب وهي مربعة مطلية باللون الكاكي المموه.

شكلها يذكرني بالأبراج التي كان يستخدمها البيزنطيون في المراقبة والتي كانت تنتشر بين الأشجار قبل ثلاثين سنة، كانت تحمي فيما مضى «مدن الأموات» في سورية، التي تبدو عليها آثار الدمار الهائل وبقيت على حالها كما تركتها الغارات العربية، فكانت الجدران تلقى عناية خاصة. ونشرت مقالي الأول حول حياتي في هذه المدن الميتة في مجلة التاريخ في عام 1978 وأرقت صوراً حول الموضوع.

عدت إلى المنطقة قبل خمس سنوات وكنت أعتقد أن هناك انفجاراً ديموغرافياً للسكان من أهل السّنة على وجه الخصوص. فكانت القرى مشيدة من الخرسانة ونمت تقريباً في كل مكان مغطية بذلك المواقع الأثرية التي تمّ بناؤها من الصخور. وكلما اتجهنا نحو الأمام، كنا نرى أعمدة تعود إلى القرون الأولى للمسيحيين للقديس سمعان محمية بالأسلاك الشائكة في موقع يعود لهيئة الآثار.

كان سمعان يتمتع بمكانة كبيرة لدرجة أنه أصبح أسطورة. كلف التجار من بلاد الغال ومن روما والقادمين من فرنسا القديمة (لوتيسيا) بنقل سلامه إلى القديسة جنيفاف التي أنقذت المدينة من همجية أتباع اثيلا بإقناعهم بفصاحتها المسيحية. ويمكننا في هذا اليوم أن نرى كنيسة سانت جنيفاف وهي كنيسة صغيرة سريانية مخصصة للقديسة إفرام، حيث الاعتدال في العبادة عبر تنظيم حفلات موسيقية تقليدية، وفي مقابل ذلك فإنني لا أعرف أن القديسة جنيفاف قادرة هذا اليوم على وضع حد لهذه الهمجية التي تتخط وتغرق فيها سورية.

في هذا المساء وفي الهضاب الزراعية، بقيت الطبيعة على هيئتها وجمالها الذي لا مثيل له في هذا الريف المتوسطي الخصب. استعدت عالمي السحري، تلك القرية الصغيرة في فترة الظهيرة التي كنت أرى فيها أمي، وكأن حياتي ودراستي وكل ما مارسه هنا اختفى فجأة ولم يعد موجوداً، انتابني حالة من الشوق، في نهاية هذه الرحلة استدرت حول هذه النقطة العمياء الأولية.

وقفت مع شامية لالتقاط صور تذكارية ألتقطها في بستان زيتون. وفي خلفية الصورة

كانت الزهور المشبعة بشعاع الشمس وقت الغروب، فإلى سورية ستوجه بشكل سري فجر اليوم التالي، أحمل في يدي رمانة وفي الأخرى غصناً من الزيتون الأسود الذي اقتلعتة من شجرة مثوية ذات جذع ضخم. ومن ثم استعرت خنجر السائق وشققت الرمانة إلى أربعة أجزاء فقد كانت ناضجة بشكل كبير وكنا نعص عليها فيتدفق عصيرها الحلو الأحمر بمثابة تضحية مستبقة وغير مقصودة للآلهة التي تركتنا فوق هذا الجبل المليء بأشجار الزيتون.

الثلاثاء 16 تشرين الأول / أكتوبر 2012

«قف! لا تذهب»

نهضنا قبل بزوغ الفجر وفي جيبي جواز السفر الذي أعتقد أن لا فائدة منه، وحقنة صغيرة من الدولارات لتذليل العقبات والمواقف الحرجة، وأيضاً هاتف محمول تركي، أداة مهمة وضرورية في الحروب الحديثة والثورات العربية في حال استطعنا تشغيله في سورية.

كنت أنتعل حذاءً خاصاً بالمشي وأرتدي سروال جينز يشبه إلى حد كبير ذلك الذي كنت أرتديه في عام 1974 في قلعة المضيق وقميصاً من الكتان الأزرق البحري طويل الكمين للاحتماء من أشعة الشمس.

في الليلة السابقة قدمت لنا شامية شاباً قروياً سوف يرافقنا وحذرتنا من شبكته من المهربين. وبناء على طلبها توجهنا إلى السوق المركزية لشراء كل مخزون اللحوم المجمدة التي نستطيع وهبها للقرويين السوريين، لم يعد هناك كهرباء ولا مازوت في المناطق المحررة حديثاً، حيث يتم توزيع البنزين للمقاتلين فقط.

إن العمليات التجارية في أنطاكية أصبحت نمط حياة يومي منذ عام 1978، حيث كانت شامية فيما مضى «صديقتي السابقة» تفضل السير بجوار واجهات المحلات عند زيارة متحف الفسيفساء التي تعكس ازدهار تركيا. وكنا نجد محلات الأجهزة الإلكترونية ووكالات الهواتف النقالة ومحلات الملابس سواء المهربة أو تلك التي تقلد العلامات والماركات العالمية من الموضة والتي تصدر منها أصوات صاحبة من الموسيقى الأمريكية وأغاني البوب المحلية.

أخذت مجموعة من قطع الدجاج والأجنحة المحمرة من الحانة الصغيرة في غرفة

الفندق (ميني بار)، يبدو لي أن هذه هي الأغذية التي يفضلها القرويون المحررون، كما شاهدنا في ميدان التحرير، كانت مطاعم دجاج كنتاكي خلال الثمانية عشر يوماً التي سبقت الإطاحة بمبارك هي الراعي الرسمي ووكيل التموين لهذه الأحداث الثورية.

صعدنا بصمت في الممر الضيق مع شامية والمهرب خالد، وكان المخرج مع آلة التصوير ومهندس الصوت ينحنيان إلى الأمام. وكان السائق الذي يتكلم اللغة العربية وهي لغته الأم يعرف تمامًا هذه المنطقة، وتخصص في تهريب فرق الصحافيين القادمين من أنحاء العالم إلى أنطاكيا لتغطية الأحداث السورية قبل عام، تاركًا الشاحنات الكبيرة التي كان يقودها في السابق من دبي إلى روسيا البيضاء، وهو نشاط لم يعد يغريه وفيه الكثير من الجهد والتعب.

* * *

اجتازنا «حربية» وسرنا باتجاه الجنوب في طريق ضيق حيث كنا نزحف بينما نستطيع رؤية المرتفعات السورية والغابات المرتفعة يغشوها ضوء الصباح الباهت إلى أن ظهرت لنا نقطة يغطيها اللون الأحمر وتكبر بشكل سريع لتضيء الأرض والسماء في إبداع يجبرني على الالتفات والنظر إليه.

وضعنا أقدامنا على الأرض التي يكسوها حجر صدفي ومحاط بأعشاب ظهرت عليها آثار الجفاف، توجهنا في طريق مخصص للبالغ والحمير تعبر سهولاً مزروعة بالتفاح وتحيط بها أشجار التوت حيث تغطي أوراقها دود القز. ذكرني هذا الموقف بشجرة توت ضخمة كانت موجودة في المعهد الفرنسي في دمشق في عام 1978، كانت أغصانها تدخل إلى النوافذ، وكان الطلبة يتمتعون بفاكهتها لتحسين المزاج وقتل الملل اليومي.

كنا نسير بصف شبيه بصفوف الهنود الحمر حيث كنت في المقدمة مع المهرب، والذي كان يهمس لنا بالتزام الصمت لتمييز نقاط المراقبة للجيش التركي، وأيضاً عندما ندخل إلى حقول فيها نباتات شوكية.

فجأة سمعنا صوت عصفور، ردّ المهرب خالد بصوت صفيّر مماثل بعدما أدخل أصبعيه في فمه، خرج حينها اثنان من شباب القرية من الأحراج لمساعدتنا في اختراق الأسلاك الشائكة، بدأ أولاً بتفريغ الأكياس البلاستيكية المليئة بمواد التموين. توقف عندئذ خالد عن السير مع المخرج ومهندس الصوت والآلات التي يحملونها.

ترددت أصوات نباح كلاب غاضبة في اللحظة التي اكتشفت أننا نقرب فيها من الطريق العسكري للجهة الأخرى التي يوجد بها أسلاك شائكة. اختبأ خالد مع مجموعته بين النباتات الشائكة: سيتمكن الجنود الأتراك من مصادرة المواد وتوقيف من كانوا يحملونها إن شاهدوهم.

وجدت نفسي وحيداً مع شامية ومع الشابين المهرين، اللذين اصطحبانا بعدما أمسكنا من أيادنا لمساعدتنا على الجري. هناك دورية من حرس الحدود الأتراك تعترضنا حاملين رشاشات على أكتافهم ومصحوبين بكلاب ربطوها في الحدود على بعد خمسين مترًا.

كانوا يسمحون للسوريين بالعبور في هذا الاتجاه ويمنعون الأجانب من ذلك، توجهوا إليّ وإلى شامية بالسؤال حيث كان مظهرنا يلفت الانتباه أكثر من المهرين اللذين كانا ذوي بنية هزيلة وغير حليقي اللحى، وجوههم لسعتها أشعة الشمس وشعرهم غير مصفف ويرتديان قميصان من النايلون على هيئة ملابس السباحة وأحذية ذات أشرطة عريضة. نواجه صعوبة كبيرة في إدماجنا وتشبهنا بالقرويين فمظهرنا لا يوحي بذلك. في هذه الأثناء نادى أحد الحراس بالدعم باستخدام جهازه اللاسلكي، وسألني الآخر:

- «هل أنت صحافي؟ ممنوع على الأجانب العبور!».

بوفاء معتاد في مواجهة سلطة الآخرين في الشرق تظاهرت بأنني لا أفهم ما يقول وكنت أردد «عربي عربي» لكي أُوحي إليه بأنني لا أتكلم سوى اللغة العربية. بدا هذا الأمر وكأنما أفقدهم توازنهم للحظة إلى درجة أن المهرين بدأ يستغلان الوضع لإرباكهم باستخدام لغة مبسطة تحتوي على كلمات عربية وأخرى تركية. من المتوقع أن حارس الحدود قد بدأ يظن بالفعل أننا سوريون من المدينة، وتوجه إلينا بصراخ بلغة قريبة من اللغة الإنكليزية:

- «لا تعودوا، لا يجب عليكم الدخول، ألا تفهمون؟ ممنوع الدخول!».

أسرع المهربان باتجاه الحدود وأجبرانا أنا وشامية على عبور الطريق من خلال فجوة اتضح أنها تعرضت في السابق للمرور الكثير فوقها مما أفقدها حدتها.

بمجرد وصولنا إلى الجهة الأخرى وصلت سيارة جيب مليئة بالجنود وتوقفت على الإسفلت. ترجل منها ضابط شاب فهم بسرعة أن عساكره الأغبياء تعرضوا للخداع. وتحدث إليّ مباشرة باللغة الإنكليزية:

« أنت، عد إلى هنا! توقف، لا تذهب أبعد من ذلك! ».

لقد تأخرنا، فقد أقحمنا المهربان في الأحراج الشائكة. لكنني في نهاية الأمر عدت إلى سورية، مديرًا ظهري لباب الريح.

دمار مزدوج

جريننا بسرعة حتى تقطعت أنفاسنا في السهول بين الأعشاب. علق وشاح شامية بغصن من شجر العليق وقطعه جزئيًا. تمكنت من رؤية بضع خصلات من شعرها، كانت مرعوبة، ووجهها تعلوه قطرات العرق، وتساءل المهرين إن كان بالإمكان التوقف للحظة. جلسنا في ظل صخرة، وفي أثناء قيامها بترتيب وشاحها بوضع إبرة مذهبة عليه أخرجتها من حقيبتها الفاخرة «شانيل»، قالت لي:

« هذا الضابط الذي أراد إيقافنا هو من العلويين الأتراك، فهو يوالي نظام الأسد، ويكره الثوار السوريين، لكن الله معنا: لقد عبرنا الحدود ».

ولست متأكدًا جدًّا من الحالة التي نحن عليها بفضل الله خصوصًا تجاه ملحد.

ليست لدي أية فكرة عما حدث للمخرج ولمهندس الصوت: فالمهربان اللذان كانا معهما يكثران الثرثرة ويبدو أنهما مراقبان. لا أعتقد أن الأتراك سوف يتبعوننا فوق الأراضي السورية لكن لا شيء يمنعهم إن رغبوا بذلك.

كنت أراقب السماء وتردد السكان إلى المناطق التي انسحب منها جيش الأسد ولا زالت أعمال القصف بالبراميل المليئة بالبارود والمتفجرات تقذف سواء باستخدام طائرة أو مروحية لمعاينة السكان المدنيين على دعمهم ومساندتهم للثوار. وتبقى في المنطقة بعض القواعد في يد الجيش، التي تظهر منها المدافع ذات المدى البعيد والتي تقصف في بعض الأحيان بشكل عشوائي في كل الاتجاهات لزرع الرعب، ناهيك عن الألغام.

ما الذي جئت أفعله في هذه الحياة القاسية؟ والأتراك يمنعوننا صراحة من العودة إليهم مرة أخرى بعد المواجهة المذكورة! وها أنا الآن علقت في سورية...

رفعت عيني وأدركت أننا قد توقفنا بعيدًا عن الغابة وعند أطراف بستان يوجد بسخاء بفاكهة السفرجل. الفاكهة ضخمة للغاية، وقشرها الخارجي يكسوه صفار يشبه أنماط

ملابس القديسين. هناك سفرجل في كل الاتجاهات محتفلاً ومزهواً بعدوتي إلى سورية. أعشق تناول هذه الفاكهة، عملية طبخها تعتبر في حد ذاتها فنًا، يجب التحلي بالكثير من الصبر، يجب أن يكون طهيها بطيئاً لكي تتمتع بالنكهة واللذة الكاملة.

في ظل تسابق الأحداث والصور التي تترنح على نبضات قلبي الذي يخفق بشدة وعنف، كنت أرى وميضاً وهلوسة حولي، والفواكه التي تحيط بي وبريقها الذهبي، تتدلى من الأشجار كشمعدان من الماضي. وفي حين آخر كنت أرى فاكهة السفرجل كأشخاص معتقلين ومشوقين بعد إعدامهم كما تم وصفها في مقدمة كتاب لارابويوز «برفقة أندريه شينيه». وطغت مباشرة بعدها صورة ريتشارد ديكون الذي كان يشغل منصب مدير معهد العلوم السياسية في باريس في عام 2010 والذي مات في وقت سابق، وكان ذلك في الشهر نفسه الذي أشعل فيه بوعزيزي النار في جسده في منطقة سيدي بوزيد، فقد انتهى من الدراسات العربية التي كنت قد بدأتها قبل ربع قرن. إن حرمان بروفيسور من محاضراته ودروسه وانتزاع تلامذته من بين يديه هو بمثابة حكم بالموت عليه.

لكنني عدت إلى سورية حيث إن كل شيء قد بدأ بالنسبة لي ولأعيش قيامتي، قطفت ثمرة من شجرة كبيرة عند طرف الطريق ورميتها بعيداً في حفرة ومن ثم عاودت الصعود في اتجاه القرية بخطى بطيئة.

وبعد عدة كيلومترات قطعت فيها مزارع وأرياف للذهاب إلى جنة محمد، شامية حوريتي ذات الوشاح والعينين السوداوين مجهدة. مددت يدي إليها لمساعدتها في الصعود واجتياز الحافة، أستطيع الشعور بضربات قلبها السريعة.

وصلنا في النهاية إلى طريق غير معبد. وكانت في انتظارنا عربة، كان ذلك بمثابة دخول منتصر إلى أول قرية سورية محررة:

كانت العربة قديمة وصدئة، اتصلنا بالمهربين هاتفياً. أخذنا موقعنا أنا وشامية وجلسنا القرفصاء في حوض العربة. بينما وقف المهربان على الحواف المخصصة بشكل يشبه خدماً من طاقم كبير.

سرنا بوسيلة النقل هذه لمدة ربع ساعة ثم توقفنا. طلبوا منا الترحل لأخذنا إلى بستان يرتقال حيث لاتزال الفاكهة خضراء. تساءلت عما إذا كنا سوف نذهب إلى مكان آمن تحسباً لهجوم بالقذائف، ولكن ذلك كان إنذاراً خاطئاً. على الأرض توجد كروم تم

تشذيبها لتصبح قصيرة غير أنها محملة بعناقيد ثقيلة من العنب الذهبي الذي يطل من تحت أوراق الكروم التي بدأت بالنضوج والتحول إلى ألوان الخريف.

جنى المهربان وسائق العربة بعضاً منها ووهبونا إياها متمنين لنا حسن الإقامة مع الترحيب في قريتهم. تذكرت في هذه اللحظة مقولة يونانية مكتوبة في مدينة مية في سورية في ممر، قمت بنسخها في أحد مقالاتي التي كتبتها في مرحلة الشباب في مجلة التاريخ: عنقود العنب، هذا عطاء من باخوس - (إنها فاكهة الدوالي، التي تغذت بشمس حارة).

«يا مرحبا يا ميت أهلين وسهلين في خربة الجوز (أهلاً وسهلاً بكم في قرية خربة الجوز)».

مد الشبان الثلاثة أيديهم إلينا لمساعدتنا في النزول، وقدموا لنا بعضاً من العنب الذي قاموا بغسله في نافورة صخرية صغيرة. إن مسمى خربة الجوز (الدمار المزدوج) يستحضر بشكل كبير بقايا البيزنطيين، وكانت هذه التسمية تطلق هكذا بين السكان الذين لم يعودوا يفهمون استخدام المباني كما هو الحال في الأقصر في أقصى مصر التي تمت ترجمتها إلى العربية بالقصور التي تعني معابد ضخمة فرعونية مهجورة. فهذه البقايا الأثرية لم يتبق منها شيء في القرية فقد تم تدميرها مرة أخرى بزوال المباني الجديدة التي دمرت في الحرب الحالية والتي لم تنته إلا قبل عشرة أيام.

تبدو خربة الجوز حرة، يديرها مجلس مكوّن من شيوخ كبار يستشيرون بعضهم بعضاً، والبعض منهم أعضاء في جمعيات أخوية متعددة، من المحتمل أن تكون عائلة من كبار المزارعين. أحدهم يعتمر قبعة عسكرية زرقاء وقاد هجوم التحرير.

تم استئبقنا في منشأة كبيرة واسعة، استولي عليها مؤخراً وكانت فيما مضى ملكاً للرجل الأكثر تعلماً في القرية، والذي كون ثروة في المملكة العربية السعودية، لكنه كان موالياً وعميلاً لنظام الأسد، وفقاً لما وصلني من معلومات فقد كان الرجل ينتمي إلى حزب البعث وفرّ قبل أسبوع مع الجنود والميليشيات التي كان يخبرها حول مواقع المعارضين ويوشي بهم «إن المسلمين الحقيقيين هم من يتوجهون بانتظام نحو المسجد».

في حديقة واسعة، بدأت تنمو بعض الأعشاب الطفيلية. دعيت إلى تناول المرطبات في قاعة الاستحمام، كانت الصنابير مذهبة، وبلاط الخزف يكسو المكان مع أن الذوق

العام كان سيئًا وغير متناسق. استخدمت المناشف مع شعوري بالتطفل: لايزال معجون الأسنان وفراشي الشعر وأمواس الحلاقة في مكانها. سحقًا للمنهزمين.

بعد ساعة من وصولي وعندما كنت أشرب الشاي وأستمع إلى حكايات عن الاحتلال والتحرير، التحقت بنا فرقة التصوير مع المهرب خالد وكنت قد أجريت اتصالاً هاتفيًا معهم. كان خالد لا يتكلم سوى العربية وتابع عن بعد مسافة تنقلهم أثناء عبورهم الحدود بشكل سري من نقطة إلى أخرى إلى أن وجدوا شاحنة.

تبدو على القرية آثار القتال في ميدانها الرئيسي الذي يحتوي على مبنى كان مقرًا للقوات الخاصة. يوجد هناك نقطة تفتيش حيث تم وضع الحواجز الإسمتية وطلبت بالألوان الرسمية للعلم السوري وهي الأحمر والأسود والأبيض، وتم تفكيك هذا الحاجز كي تتمكن السيارات النادرة العدد من العبور بحرية. على مبنى القيادة العامة وفي النوافذ ذات الجدران المخرمة من آثار الطلقات النارية، علم يرفرف وهو علم الأحرار وتم استبدال الشريط الأحمر بأخر أخضر. يغطي الميدان شعارات كتبها التابعون للقوات الخاصة لإرهاب السكان وزرع الذعر بينهم، عل سبيل المثال: «كتائب الموت» مرفقة برأس لقتيل متهور ذي ملامح تعيسة، «سورية، بشار، وبس!»، «لا حاكم إلا بشار»، «سورية الأسد».

دخلت القوات الخاصة إلى قرية خربة الجوز بتاريخ 23 حزيران/ يونيو 2011 وقد تمّ ترحيلهم في 6 تشرين الأول/ أكتوبر 2012 قبل عشرة أيام تحديدًا. إن احتلال هذه المنطقة الاستراتيجية التي تقع على ارتفاع صخري قريب من الحدود التركية حيث تمتد الرؤية بعيدًا والتي كان الغرض منها هو التبليغ عن توغل القوات والذخيرة والأموال قبل اندلاع الثورة في سورية في 15 آذار/ مارس 2011.

* * *

إن هذه القرية التي يسكنها أهل السنة، مزدهرة زراعيًا وتعتمد على زيت الزيتون كمورد أساس، ويتمّ عصره من ثمار الزيتون المنتشرة على مد البصر، وكانت تستغل في عمليات التهريب. وهذا بالنسبة إلى النظام مصدر خطر حيث يمكن من خلالها إمداد المعارضة. وكان قد حكم على عدد من أفراد واحدة من أهم العائلات بالسجن مددًا طويلة بدءًا من عام 1980، والمشتبه في انتمائهم إلى جماعة الإخوان المسلمين.

وفي أعلى مناطق المراقبة الحدودية، كان استثمار الجيش في خربة الجوز نوعاً من الاستبداد، فالجنود في هذه الوحدات من النخبة المتخصصين بالإبادة ومعظمهم من العلويين المدعومين بميليشيات الشبيحة، مهمتهم تطهير القرية من المعارضين المحتملين أو الفعلين بدءاً بكل من تم تزويدهم بمعلومات عنهم من المخابرات.

كانت أخبار إلقاء القبض عليهم وتعذيبهم أو إعدامهم تصل إلى كل العائلات وتنتشر فيما بينهم أسماء المواطنين الذين من المحتمل أن يتم استهدافهم. لذا فرّ أغلبية السكان إلى تركيا إلى مخيم كيليس على بعد حوالي مئة كيلو متر إلى الشمال. وكانت السلطات التركية تريد تفادي خلق بؤرة مثبتة في المكان.

أطلق سلاح الجو السوري وأبلاً من القنابل على الغابات حيث يختبئ الهاربون ويتخذون منها ملجأ مؤقتاً عند الحدود تاركين هذه المساحات مدمرة بحرائق جراء القصف وأخرى بإشعال النار التي كانت ترى من مسافات بعيدة. وكان المخيم أرض تدريب يتم فيه تنظيم تدريبات عسكرية متدرجة حول استخدام الأسلحة على يد القرويين واللاجئين في حين كانت بيوت المعارضين في خربة الجوز تتعرض للإزالة والدمار المنظم بحيث يتم هدمها أو تفجيرها أو حرقها ومن ثم تغطيتها بعبارات النصر لبشار الأسد.

إحدى أكثر العبارات المستخدمة في الشتائم باللغة العربية هي: «يخرب بيتك» وهي تستخدم في الحوار اليومي لشتّم شخص آخر دون أن تمنى له بالتحديد دمار بيته وخرابه، والكلمة من الفعل خرب الذي نجده في مسمى القرية خربة الجوز (الدمار المزدوج) التي من الممكن إعادة صياغتها بـ «الدمار المتعدد» بعد الاستبداد الذي نفذه أفراد القوات الخاصة.

قائد الفرقة الذي حرر القرية ذو لحية وشعر أبيض، في الخمسين من عمره، رافقني في جولة لرؤية ما تبقى من منزله المحترق. كانت الجدران مليئة بالدهانات السوداء التي كتب بها «بشار وبس»، وكذلك عبارة «سورية للأسد».

دار بيننا الحوار التالي:

- «اسمي صالح عبد الحق، أنا قائد فرقة الجيش الحر في خربة الجوز. هذا منزلي ومنزل إخوتي. قمنا بتقديم الدعم والمساندة للثوار منذ الأيام الأولى، وقد أقدم النظام على إحراقه انتقاماً منا، وإذا رغبت في أن ترى ذلك بنفسك فيمكنك الذهاب إلى هناك،

نحن ستة أخوة والحمد لله رب العالمين سوف نبقي واقفين في وجه هذا النظام إلى أن يتحقق النصر وتحرر سورية والسوريين بإذن الله.

- كيف يدمرون المنازل؟

- يحطمون الأبواب ويقصفون الأراضي، ينهبون المتاع ولعب الأطفال والمفروشات ويجمعونها في وسط الدار ثم يصبون عليها المواد القابلة للاشتعال لإحراقها مع الجدران. لقد تمّ تدمير المنزل بالكامل، بشار جزار، بالمعنى الحقيقي للكلمة..

نحن نريد أفعالاً وليس أقوالاً! فمنذ عامين لم نعد نسمع إلا أقوالاً تدين بشار الأسد. ماذا سوف تفعلون به؟ انظروا ماذا فعل بنا بشار الأسد انظروا! في قلبي غصة، بيتي وبيت إخواني الذي كان يأوي حوالي سبعين فرداً من نساء وأطفال وشباب، أين سأذهب بهم؟».

* * *

يفخر سكان خربة الجوز بأنهم استطاعوا تحرير قريتهم بأنفسهم، وتظهر مقاطع الفيديو التي يتم تداولها ومشاركتها أنهم استعدوا لذلك في معسكر كيليس قبل عشرة أيام من الهجوم.

قاد الهجوم العسكري كتائب أنصار الشام، هذه الحركة السلفية الجهادية المسلحة بأسلحة ثقيلة تعتبر جزءاً من الجبهة الإسلامية السورية وتلقى مساعدات كبيرة من المسؤولين والنواب السلفيين الكويتيين. فلو لم ينتهج كل المقاتلين المنهج السلفي فإن الزعماء سوف يقومون بذلك ويوالونهم.

رافقت الفلاحين إلى بستان الزيتون المحاذي للقرية والمطل على الوادي الذي صعدا منه حيث توجد مواقع المقاتلين. حفر الجنود المحاصرون ثقباً في الأرض التي تستخدم كمواقع لإطلاق النار غير أن الأمطار القوية التي هطلت في الأسبوع الماضي غمرتھا جزئياً بالمياه والوحول.

تقع قطعة واحدة من المدفعية الثقيلة في قرية مجاورة ويمكن رؤيتها على بعد كيلومترات، لا تزال إلى اليوم تحت سيطرة قوات النظام وقد أطلقت قذائف لإصابة المهاجمين في الاتجاه الآخر. ولأنها لم توجه بشكل سليم فقد أصابت بعض المنازل ودمرتها.

تجمع المقاتلون للرد على الهجوم الأخير خلف هضبة وسط أشجار الزيتون، وفي مواجهة آلة التصوير، لديهم سواعد وأيد قوية، والجميع أطلق لحيته فمن عادات وتقاليد المسلمين أنهم يذهبون للجهاد ملتحين لإرهاب العدو أكثر، بل يجوز صبغها باللون الأسود أو بالحناء وفقًا لتعاليم النبي محمد.

لقد كان إطلاق اللحي ممنوعًا أو ينظر إليه بشكل سيئ في فترة النظام القديم، حيث إنها تشبه مظهر الإخوان المسلمين، وهو ما قد يؤدي إلى عقوبة الموت إن ثبت ذلك. إن التباهي بها أيضًا يعتبر معاديًا للمظهر البعثي الذي من خصائصه الاحتفاظ بالشارب مع حلق اللحي. وفي كل مرة أ طرح هذا السؤال كان يتم الرد علي بأنه لا وقت لديه لحلقلها لا يجب أن يفهم الغربي أن لها علاقة بالإسلاميين حتى لا يتحالف معه ويدعمه.

توعد القرويون بتنوع أسلحتهم بشكل كبير بحيث تشمل على رشاشات كلاشينكوف وبنادق ومسدسات وقاذفات الصواريخ والبنادق الآلية. سألت:

- «كيف دارت عملية تحرير خربة الجوز؟»

- بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ورحم الله أرواح شهدائنا. ندعو الله أن يشفي جرحانا وأن يحرر أسراننا. أنا عبده عبدالحق أخو صالح عبد الحق، نائب القائد.

لقد قمنا بمحاصرة القرية من الجهات الثلاث، الشمال والشرق والجنوب، واشتبكتنا مع الجنود في وضعية صعبة جدًا. استطعنا بفضل إصرارنا وعزيمتنا مواجهة جيش مهما كانت قوته لتحرير قريتنا ولوضع حد لهذا الظلم الذي كنا نعانيه. والحمد لله بفضل عزيمتنا وقوة شبابنا، استطعنا تحرير القرية من جنود بشار الأسد. وإن شاء الله سوف نحارب حتى آخر نقطة من دمنا وإلى أن يسقط النظام.

لقد تسلقنا الهضاب والمرفعات التي قدمتم منها إلى القرية. وخططنا للهجوم انطلاقًا من ثلاثة محاور: المجموعة الأولى جاءت من الجهة الشمالية وكان قائدها هو صالح عبد الحق أبو عبد الله. وجاءت المجموعة الثانية من جهة الجنوب وكنت أنا قائدها عبده عبد الحق القائد. والمجموعة الثالثة جاءت من جهة الشرق وكان يقودها ضابط منشق من النظام، (كان ينشر بيانات في مقاطع فيديو يتم تداولها في مواقع التواصل الاجتماعي وقد قتل لاحقًا).

عندما اقتربنا منهم فوجئنا بوجود جنود تمّ تمركزهم حول الأراضي الزراعية وكنا

نخطط فقط لمهاجمتهم في المبنى الذي يتواجدون به وقد تمكنا من شل حركتهم في أقل من ساعة، ومن ثم دخلنا القرية وخضنا حرب شوارع حقيقية لمواجهتهم.

تقدمت المجموعات الثلاث في الوقت نفسه وقمنا بمحاصرتهم في المبنى الذي كانوا يتخذونه مقرًا عامًا لهم ويحتمون فيه. سقط ثلاثة من شبابنا شهداء، اثنان منهم قتلوا برصاص القناصة، والثالث قتل على بعد خمسة عشر مترًا من المبنى الذي قمنا بمحاصرته، والحمد لله وبفضل عزيمتنا وعلى الرغم من ذخيرتنا المحدودة فقد حاصرنا أولئك الجنود، وتركنا منفذًا لهم لكي يهربوا. وهذا ما فعلوه بالضبط فقد ذهبوا باتجاه الشمال ومن ثم لحقنا بهم وأسرننا بعضهم وقتلنا البعض الآخر».

تظهر مقاطع الفيديو المنتشرة في مواقع التواصل الاجتماعي والمنسوبة إلى أنصار الشام جثامين جنود الأسد، وشبابًا حليقي الرأس حفاة لأن أحذيتهم العسكرية انتزعت منهم. في حين كانت الكاميرا تصور الوجوه المليئة بالدماء، كانت هناك أصوات في الخلفية تردد «كلاب الأسد».

استفسرت ما إذا كان بين هؤلاء القتلى جنود قد فروا من أرض المعركة. أجبني أحد المقاتلين:

«بسم الله الرحمن الرحيم أنا الرقيب المنشق محمد ثروت فايدو، من قرية خربة الجوز، عضو في الكتبية الحرة. بحمد الله تمكنا من تحرير القرية من ميليشيات بشار الأسد المجرمة.

خدمت أولاً في الكتبية المسؤولة عن طريق السويداء (أصل جبال الدروز). وذهبنا في مهمة إلى مدينة درعا (قرب الحدود الأردنية حيث اندلعت أولى الأحداث بتاريخ 18 آذار/ مارس 2011) فقد كانت هناك مظاهرات سلمية. أمرني الضابط حينها بإطلاق النار على المتظاهرين، لكنني رفضت فقد كنت رقيباً مسؤولاً عن عشرة جنود.

هددني الضابط، وقال لي إذا عصيت ورفضت تنفيذ أمره فسوف يقتلني. فسألته: «من سوف أقتل؟ هؤلاء الناس هم إختوتي، أنا مسلم وهم أيضاً مسلمون، هل تريدني أن أقتلهم؟» سحبنى بشدة وقال: «أعطيتك أمراً عسكرياً» أجبت: «أنا أخدم هذا البلد لكن ليس لقتل الناس» وتحت شدة التعذيب والتهديد الذي تعرضت له قررت الانشقاق عن الجيش».

خرج شاب من بين الصفوف ليربط الحديث بتجربة أخرى:

- «بسم الله الرحمن الرحيم ورحم الله أرواح الشهداء. بسبب التهميش والإذلال الذي كنا نتعرض له من قبل ميليشيات بشار الأسد، تركت الكلية وانضمت إلى كتيبة الجيش الحر في قريتي خربة الجوز. كنت أقاتل لكي أسقط شهيداً أو أتتصر. وسوف نستمر في القتال في سبيل الله إلى آخر قطرة من دمنا.

- لقد كنت طالباً ولم تخضع لتدريب عسكري، كيف تعلمت القتال؟

- انضمت إلى كتيبة الجيش الحر في قرية خربة الجوز وبقينا على الحدود التركية السورية لمدة عام ونصف. وبفضل الله ثم بفضل القادة الشباب في كتيبة صالح عبدالحق تعلمت كيفية التعامل مع الأسلحة. اليوم، أتعامل مع الأسلحة باحتراف كما تعلمت صيانتها.

- كيف استطعت الحصول على التسليح المتنوع الذي تتقن التعامل معه؟

- بسم الله الرحمن الرحيم، نسأل الله أن يبارك لنا، أنا المجاهد محمد عبد الحق شقيق صالح وعبد.

لقد تمكنا من جمع هذه الأسلحة واقتنائها من خلال النقود التي جمعناها من بيع مجوهرات وحلي زوجاتنا وأيضاً بمساهمات من العاملين بيننا. 90% من هذه الأسلحة حصلنا عليها من أموالنا الخاصة و10% غنائم من الجيش السوري.

نحن نعتمد ونتوكل على الله، وإن شاء الله النصر قريب، فإن كان هناك من يملك سواراً ذهبياً أو مبلغاً من المال يساوي 100 ألف أو 50 ألف ليرة سورية (10 آلاف إلى 5 آلاف يورو)، يستطيع شراء بندقية وينضم إلى الكتيبة.

بدأ الجنود بإطلاق النار في الهواء وهم يهتفون:

«عاشت سورية الحرة الأبية! عاشت سورية الحرة الأبية! حيا الله الجيش الحر! حيا الله الجيش الحر! قائدنا محمد رسول الله إلى الأبد! قائدنا محمد رسول الله إلى الأبد!».

قمت بزيارة إلى المنزل الكبير الذي سلبه الجيش النظامي لتحويله إلى مقر القيادة العامة في قلب القرية وكان مالكة يرافقتنا. لا يزال صالحاً للسكن بعد تنظيفه، لكنه يرغب بهدمه ومن ثم إعادة بنائه، يعتقد مالكة أنه مدنس ولا يمكن تطهيره.

احتوى القبو والسراديب على مخابئ صغيرة مقفلة لأسر جنود تعرضوا للضرب. فرّ الجنود خلال الهجوم، وتركوا كل شيء في مكانه، من دون مسح آثار ما قاموا به خلال فرارهم. لم يلمس السكان أي شيء من ذلك. وجدنا اثنين من السباط الجلدية، مثل تلك المصنوعة من جلد البقر وبأسها قطع من معدن الرصاص وشريط لاصق وعليها بعض الزخارف، تسمى باللغة العربية «الكرباج»، بقيت مرمية على الأرض. أخذ أحد القرويين واحدًا منها محاولاً تجربته بيده ومن ثم مده إلي، فعلت مثلما فعل. استشعرت أنه حتى بضربة خفيفة منه فإن الآلام الناجمة عنه شديدة وتشبه آلام العضة القوية.

تعرضت السطوح والنوافذ لثقوب وخراب كبير لأجل القتل. وتمّ عمل حفر صغيرة في الأرض لكي يختبئ المقاتلون فيها لكن المقاومة لم تدم طويلاً. سمعت قصصاً متضاربة، وحسب ما روى أحد الجنود فإن الضباط العلويين والشبيحة هم أول من هرب قبل الهجوم تاركين الجنود وصغار الضباط لكي يحموهم أثناء فرارهم، بعد أن استفادوا من الفجوة التي تركها المقاتلون. كانت من بين همومهم الحفاظ على الطلقات والذخائر التي يمتلكونها والتي تعتبر نادرة، ومن ثم هربوا بدورهم. تذكرني كل تلك الطلقات الفارغة المرمية على الأرض بضواحي سرت حيث كان موكب القذافي يفر ويختبئ من القذائف ومن ثم تمّ إيقافه بالمدفعية.

استخدمت الصالة في الطبقة الأرضية كغرفة نوم للجنود. هناك أكوام من البطانيات والملابس العسكرية الملقاة على الأرض، وبعض المجلات المصورة بصفحاتها المحترقة والمتسخة، وملابس داخلية لم تجف بعد على حبال الغسيل، وقوارير ماء بلاستيكية مكومة في إحدى الزوايا. كانت هذه الحجرة الخائفة، تشبه سجن أبو سليم في مدينة طرابلس الليبية. كانت جدرانها مليئة بالرسوم اليدوية التي لا تمت إلى الجمال بصلة، ولا يمكن مقارنتها بلوحات الفنان محمد بلامين. فقد كانت مغطاة بشعارات الهوس المقلقة والشاهدة على غسيل العقول الذي خضع له جنود القوات الخاصة، منها على سبيل المثال:

«سوف نغتصب أم كل من يراهن على انهيار النظام في سورية - القوات الخاصة - أشبال الأسد - إن أمة قائدها بشار الأسد لن ترقع أبداً - جنود الأسد - بشار الأسد - أذرعة الأسد هم أبطال المعارك - وحوش الأرض - كتية الموت وكتية الجحيم - بشار الأسد هو ملك غابة سورية...».

كانت هناك صورة مرسومة بشكل مشوه مع عينين منتفختين وشارب كبير، سألت الرقيب المنشق الذي كان يرافقي:

«هل لديك أي فكرة عما تمثله هذه الصورة؟»

— إنه علوي، فقد كتبوا هنا «علي العلوي» وهو الجندي الذي كان هنا: أبو أحمد رامي المصنف. رسموا رجلاً مظهره يشبه العلويين مع شارب كبير كما الشبيحة، وكتبوا أعلى الرسم: أبو عرب الشبيح. هنا يكون الأمر مسألة خيانة: «إنها خيانة تحيط بك يا أبانا الأسود، فلم تعرف سوى الخيانة.»

هنا يوجد شعار القوات الخاصة، الذي يخطونه على الذراع اليسرى للزي الرسمي، وهي أول القوى التي تذهب إلى الميدان. كنت جزءاً منها برتبة رقيب قبل أن أنشق، وكانوا يعطوننا الأوامر مثل حرق المنازل، ذبح الأشخاص أو إطلاق النار بالرشاش.»

* * *

صعدت وفتحت باباً لحجرة أخرى حيث يوجد عدد أقل من الملابس والأغطية. توجد أيضاً ملابس داخلية يكسوها الغبار معلقة في مسمار على الحائط. وهنا لاحظت وجود عبارات باللغة الإنكليزية، كانت قصة من الرسوم، ومن دون شك كانت تعود إلى ضابط له مستوى تعليمي أكبر من الضابط الشاب. هل مات هو أيضاً؟ هل تم تعذيبه؟ ما هو عدد المنازل التي أمر بإحراقها؟

توجد أدوات استحمام مغطاة بالتراب وملقاة على الأرض: فرشاة أسنان، معجون أسنان، مشط، موسى حلاقة مع رغوة حلاقة، كما توجد علب أدوية مفتوحة: مصنعة في حمص بترخيص من الشركة الأم، كانت عبارة عن دهانات ومراهم جلدية مخصصة للالتهابات وهناك أيضاً بعض الأدوية المنومة. وفي زاوية من هذه الحجرة يوجد جزء من سرير اسفنجي رسم عليه بإتقان وبشكل فني باللون الأسود وجه فتاة جميلة ذات شعر أسود من المحتمل أنها مستوحاة من قصة الرسوم التي كانت ملقاة على الأرض. وفي أعلى هذا الرسم كتب باللغة الإنكليزية:

«I LOVE YOU»

وكتب في أدناه العبارة نفسها لكن بأحرف عربية «أحبك»، وتثذ تذكرت حبيبي شامية في الأيام الخالية.

يوجد في أرض الغرفة ورق لعب ملقى بشكل متناثر، أخذت اللعبة التي كانت تحوي ورق اللعب، كانت من علامة تجارية معروفة لدي ومكتوبة باللغة الفرنسية، وضعتها في جيبى ثم ذهبت وأنا خائف.

جبل الألام

ذهبتا بالسيارة إلى جبل يسمى «ديموس»، يقع بجوار القرية، كانت السيارة عبارة عن مركبة نقل صغيرة ليس بها أي لوحات، ومكتوب عليها «الرجال الأحرار لخربة الجوز»، وعلى الطريق كنا نرى الدبابات المهجورة لجيش الأسد بعد فراره.

وعلى قمة الهضبة نصبت علامة حديثة في موقع مراقبة يعود إلى البيزنطيين. وعند اقترابنا فهمنا أن الأمر يتعلق ببرج المراقبة للحرائق: فقد كانت الغابات تمتد باتجاه الحدود التركية، التي تم إحراق الكثير منها منذ بدء الحرب، استخدمت كقنطرة تمرکز عسكرية وتم تحريرها قبل عشرة أيام في الوقت نفسه الذي تم فيه تحرير القرية.

صعدنا من خلال طريق متشعب مليء بالأخاديد، مضاء ببطاريات لازالت تتحكم فيها قوات النظام، وكنا نسرع عندما نصل إلى جوارها حتى لا نكون هدفًا للقناصة. وعلى جانب الطريق، تم دفن الجنود القتلى خلال الهجوم وهي قبور ارتجالية ملأت الجبل بالجماجم والألم.

كانت مشاهد الهجوم من البرج عبارة عن فيضان من الرصاص والقنابل والصواريخ المطلقة من كتائب أنصار الشام. وكنا نرى أيضًا الطبقات التي تم استخدامها واحدة تلو الأخرى من قبل المتمردين الذين يلوحون بأسلحتهم رافعين علمهم ويهتفون: «عاشت سورية حرة! الله أكبر!» وعلى أحد الجدران كان الجنود التابعون للنظام قد كتبوا بالطلاء: «القوات الخاصة - جنود بشار الأسد».

ركزت الكاميرا على الجثث الملقاة على الأرض، كان عددهم بالعشرات، وكانت الأصوات في الخلفية تقرأ ما كتب على أحد الجدران بطريقة ساخرة ومن ثم توجه الخطاب إلى بشار الأسد:

انظر يا بشار هذه قواتك الخاصة! انظر إلى جنودك: كلاب الأسود! جردان الأسود!
يكسو الأرض بقع كبيرة من الدم تلمع تحت أشعة الشمس.

لم يذكر أحد ولو لمرة واحدة أن اللانسانية أصبح لها مكاناً وفقاً للشريعة الإسلامية. ربما يكون الذين قتلوا علويين وضعوا في قبور جماعية دون أن يُصلى عليهم كما لو أنهم كفار، أو نزلت كرامتهم إلى مرتبة الحيوان، وكان الشيء الوحيد الذي يخشاه المقاتلون في هذه الأثناء هو الخوف من العدوى والأمراض التي قد تنتج من تراكم وتحلل الجثث. في نهاية عام 1980 قابلت في قاعة الصلاة في ضاحية سارتروفيل الفرنسية شخصاً أسلم منذ فترة وعاد من الجهاد في أفغانستان، كان يلقي أولاده المهاجرين من أصول مغربية التعاليم الدينية حتى يتمكنوا من ممارسة الشعائر الدينية، فقد كان يحكي لهم الأحداث في أرض المعركة، قائلاً: «إن جثث القتلى الروس كانت تنتفخ وتحلل بسرعة في حين أن جثث المجاهدين المسلمين لا تحلل بل كانت تبعث منها رائحة المسك».

عند تسلقنا المرتفعات الحادة لهذا الجبل تذكرت فجأة عودتي الأخيرة إلى قلعة المضيق، حيث كان الطريق المتجه نحو أعلى المنطقة شبيهاً بالوصول إلى القرية التي تشبه قلعة إغريقية محصنة في مدينة أفاميا السورية، التي يمتد تاريخها لعشرات السنين، لكن سحر المكان اختفى، ونمت بعض الحشائش في الطريق الصحيرية التي كانت مليئة بأكياس القمامة البلاستيكية الفارغة التي علقها هبوب الرياح من هنا وهناك، وبدأت الروائح تنتشر وكنا نشم رائحة البلاستيك المحترق. في القرية لن تقابلنا سوى النظرات التي كانت تلاحقنا ولكنني لم أتجرأ على السؤال حول الأخبار الجديدة وأحوال الأسر التي كانت قد استضافتني في عام 1974. فلم أعد أرى آثار المدن اليونانية المزدانة التي كانت بمثابة مناطق سياحة واستجمام.

ربما سلبت وهربت لبعض تجار الآثار لبيعها في صالات العرض في بيروت. كل ذلك تمّ تشييده من جديد بالخرسانة والنساء اليوم يرتدين النقاب، ثم يهرين من الغريب.

من بين العجائز اللاتي كن يتسللن كالظل وسط الحارات الضيقة، قد تكون إحداهن عملت على تسخين المياه لي أثناء فترة شبابي وربما تبادلت غمزات العين مع أحد المسافرين أو بعض المصورين. لم أستطع طرح أي سؤال أو التأخر عن المسير فقد انطلقت متوجهاً في جولة إلى المدينة العتيقة.

كان أصدقائي القدامى قد اختفوا هم وخيولهم. وقد اقترح علي شيخ ذو لحية أن أقوم بالجولة ممطيًا دراجته على أن يقودها هو في أزقة المدينة وكان عرضه سياحيًا، فمن المؤكد أنه لا يوجد سياح في الأفق. لا أزال أتذكر إلحاح مثل هؤلاء وتصميمهم على متابعتك في كل الأزقة بينما كانت ملابسهم ملطخة ببقع زيوت التشحيم وآثار العجلات التي تلطخ جوانب الشارع وجدرانها من الرخام العتيق على الطريق الملكي للسائقين.

غير أن عبقرية المكان احتجت بخجل: فقد كان هاتفي النقال - هذا الاختراع الشيطاني الذي لم يكن موجودًا خلال حقبة البراءة في عام 1970 - قد رن من دون استئذان لكي يخبرني أنه تمّ انتخابي في باريس لمنصب بروفييسور في كرسي دراسات الشرق الأوسط.

* * *

في الشهور الأولى من عام 2012، كانت قلعة المضيق الواقعة في الحدود المتاخمة لجبال العلويين تزود المنطقة بالآلات الزراعية، وشهدت معركة حامية بل مجزرة بين السنة من الجيش الحر من القرويين وبين قوات النظام التي يدعمها الشيعة، الميليشيات العلوية، القادمون من القرى المجاورة والراغبون بالانتقام.

تظهر مقاطع الفيديو الغامضة المتداولة في المواقع الاجتماعية، العناد العسكري في المناطق العتيقة، لكن سورية في هذه الفيديوهات تغوص في الحرب الأهلية، هي في البداية مجموعة من الجثث المغطاة بالدماء، إلى الجثث التي تمّ التمثيل بها وتجريدها من ملابسها لإظهار بطن مفتوح أو جرح أصابته طلقة أدت إلى إحداث ثقب أو تطاير للدم، وكانت أيضًا لعرض جثة أحد الشيعة الذي تمّ قتله وإظهار نوع من الوشم المكتوب بطريقة عشوائية «سورية الأسد» وهناك أيضًا الشهداء الذين يرتدون ثيابًا خضراء موضوعين جنبًا إلى جنب فيما يشبه صحفًا من أسماك السردين ومن ثم نقلهم على متن سيارة نقل صغيرة التي تمّ فرش أرضيتها بأوراق من شجر الكروم قبل دفنهم. وهناك المقاتلون الذين وقفوا في فخ وتمّ قذفهم بالقتال اليدوية ليردوا عليهم بالمثل، وقد يدفن أحدهم حيًا وسط الصرخات طالبًا الرحمة في حين ترمى تلال من التراب فوق رأسه. هناك المقاتلون السلفيون الذين يتوجهون للقتال يبدوون رحلتهم بتقبييل المصحف، وكلهم ملتحنون، ويضعون رباطًا أخضر على جباههم كتب عليه بالخط العربي «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفي مكان آخر توجد شابة غير محجبة من العلويين ذات شعر أسود مشدود إلى الخلف برباط صغير

يعتقد أنها مخبرة للنظام، فهنا الطائرات تقذف وتطلق القنابل وطائرات مروحية تحوم في الأجواء وهي ترمي الصواريخ أو براميل من البارود، التي يرفعها الشباب أمام الكاميرا بعد تفرغها ومن ثم جرها نحو أحد الحقول حيث يستخدمها أحد سكان القرية المخضرمين للاستفادة من الحديد. يمكن رؤية الدمار الذي لحق بالقرى والمدن حيث تحولت إلى كتل إسمنتية يظهر منها قضبان من الخرسانة ومثقوبة بالرصاص والمدافع أو أنها غرقت في دخان خانق أو حرائق، فهي مدن أشباح، يتقاتل فيها الأشباح وهم يرتدون الزي الحربي بشكل يدعو للسخرية..

التقطت من الأرض قبعة من القماش المموه العسكري، كانت تفوح منها رائحة عرق شديد نابع من شعر كثيف وبها ثقب لرصاصة أو اثنتين، فمن كان يعتمر هذه القبعة؟ حتمًا لم ينج ولم يهرب، وجثته مدفونة -بلا أدنى شك- في حفرة جماعية في الأسفل. أيهم كان من بين أولئك الجنود الذين شاهدنا جثتهم ملقاة على الأرض وتصورها كاميراتنا أمام أنصار الشام؟ لم يتبق منه إلا هذه الرائحة التي تأتي إلا أن تنتشر في نسيج القبعة كرسيد لحياة تم التضحية بها من أجل النظام. نظرت إلى قطعة القماش التي توضّح بلد المنشأ ومكونات القماش، لقد صنعت في دمشق من شركة الوسيم، (هاتف: 2321240) في سوق الحاجة، حيث يوجد خياطو الزي العسكري، ومقاسها ستون مثل مقاس قبعتي.

كنت أجهل ما حلّ بمن استضافوني في صيف عام 1974 في قلعة المضيق. هل هم أموات أم أحياء، جرحى أم أسرى، منتصرون أم منهزمون، شهداء أو خرجوا رابحين من هذه المصيبة التي حلّت بهم، عدد القتلى المعلن عنهم وصل إلى مئة ألف قتيل.. إنه درب الآلام سورية، هذا الشغف العربي هل نستطيع أن نكبح جماحه؟

في كتاب «الشغف العربي»، يطوف بنا جيل كييل أستاذ ورئيس برنامج الدراسات الشرق أوسطية في المعهد السياسي في باريس، في الدول العربية التي شهدت أحداثاً واندلعت فيها «ثورات» في عام 2011، بدءاً من تونس وانتهاءً بسوريا. وقد حال كييل في كل من هذه الدول مسجلاً وراويًا ليوميته وانطباعاته وما دار مع الأشخاص الذين قابلهم خلال الفترة 2011 - 2013.

تبدأ رحلة المؤلف من سيدي بو زيد، وهي بلدة تقع وسط تونس، عندما أشعل بائع متجول النار في نفسه يوم 17 ديسمبر 2011، واشتعلت معه المظاهرات مطالبة بالعدل والحرية والديمقراطية. وانتقلت هذه التحركات إلى أكثر من بلد، وسقطت أنظمة الحكم في تونس ومصر واليمن وليبيا، فيما تحول الحراك الشعبي في كل من سوريا واليمن وليبيا إلى منعطف آخر، لتغرق في حروب ومعاناة أدت إلى عدد كبير جداً من الضحايا، والدمار عمّ أرجاء هذه الدول، كما تناول ظاهرة صعود «الأحزاب الإسلامية». فيما عدا البحرين التي كان لمجريات الأحداث فيها منحنى آخر.

